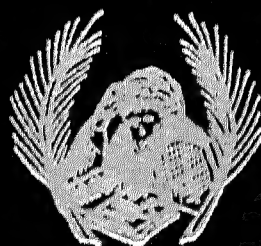


إعلام الناس

بمواقع البرامكة مع بني العباس

تأليف
محمد دياب الأتليدي



دار طاهر
بيروت



إعلامُ النَّاسِ

إِغْلَامُ النَّاسِ

رُشْدِيَّة

بِمَا وَقَعَ لِلْبَرَامِكَةِ مَعَ بَنِي الْعَبَّاسِ

تَأَلَّفَ
مُحَمَّدُ دِيَابُ الْأَتْلِيدِي

دار صادر
بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

تأسست سنة ١٨٦٣



دار الحديث

للطباعة والنشر

بجدة - لبنان ص.ب ١٠ تليكس ٤٢٥٥٥ Le

هاتف : ٤٤٨٨٢٧ - ٠١ - ٤١٣٢٥٦ - ٠١ - ٩٢٨٢٧١ - ٠٤

مقدمة

لم نعر على ترجمة وافية لصاحب هذا الكتاب ، ولم نعرف ممّا كتبه عن نفسه في مقدمة كتابه الموجزة ، وممّا كتب عنه في « دائرة معارف القرن العشرين » ، والقسم التاريخي من « المنجد » ، إلا أنّه محمد أو محمود دياب الأتليدي مؤلف كتاب « إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس » . ولد في المنية في مصر ، وسكن القاهرة ، وتوفي فيها سنة ١٦٨٨ م . ويدلّنا هذا على أنّه كان من كتّاب عصر الانحطاط ، ونرى أثر هذا العصر واضحاً في ما وضعه في كتابه من تعابير انحطاطية وألفاظ عامية .

وقد سمّاه هذا الاسم من باب تسمية الكل باسم الجزء ، لأن أخبار البرامكة لا تستغرق إلاّ قسمًا يسيرًا منه ، في حين أن الأفاصيص والحكايات التي تناول ما كان في صدر الإسلام وأيام الأمويين ، وغيرها من الأفاصيص العباسية وغير العباسية تستغرق معظمه .

والأتليدي كان أمينًا في نقله عن غيره ، ينسب كل حكاية أو أقصوصة إلى الكتاب الذي أخذت عنه ، أو إلى من رويت عنه ، وأكثر ما أخذه عن الأصمعي وعن كتاب « حلبة الكُميت » لشمس الدين التّواجي ، وكتاب « حياة الحيوان » للدميري ، و « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني ، وفي كل القصص التي جمعها نرى من جمال السرد وترامي الخيال وحسن الاختراع ما يدلّ على تمكّن الروح القصصية عند العرب .

ولا غرّدَ فالقصة قديمة عندهم ، نجد عناصرها في الشعر الجاهلي والشعر والنثر الأمويين ، على أنها لم تصبح فنًّا أدبيًّا ، وإن لم يبلغ حدًّا

لكمال ، إلّا في العصر العبّاسي ، بعد أن ترجمت أقاصيص الهند والفرس كقصص : كليلّة ودمنة ، وحكايات ألف ليلة وليلة ، ووضعت القصص الدينيّة ، وقصص البطولة : كسيرة عنترة وغيرها ، والقصص الغرامية الغنائيّة .

وقصص الأتليدي في كتابه هذا ، منها ما هو ديني ، ومنها ما هو بطولي ، وجلّها غرامي ، وغرامي غنائي ، أو خمري . وكثيراً ما يشعر القارئ بما في بعضها من مخالفة للمعقول ، كالثي تروي مثلاً : اجتماع إبراهيم الموصلي ، وابنه اسحق ، وأبي نواس ، بإبليس ، وما دار بينهم من غناء وأحاديث ؛ وعلى ذلك فإنّه يُسرّ بقراءتها ويلتذّها لما فيها من حوادث شائعة تبث فيه الفضول وتروقه وتسليه .

وقد جعلنا لكل أقصوصة عنواناً مستمداً من موضوعها تسهيلاً لمن أراد البحث عن إحداها بغية قراءتها وحدها .

ورأينا من فروض الأمانة أن نترك كل ما في الكتاب على ما هو عليه ، حتى أبيات الشعر المنسوبة إلى غير أصحابها ، والقصص التي لا ثبت تاريخيّاً كقصة ميمونة ، أو العباسة أخت الرشيد وزواجها جعفر البرمكي ، وقصة المأمون وزنبيل بوران بنت الحسن بن سهل ، وقد فتّدهما ابن خلدون ، فيما فتّد ، في باب « مغالط المؤرخين وأوهامهم » من مقدّمته .

بيد أننا لم نتنكب عمّا اقتضاه التحقيق من إصلاح خطّ ، أو أبيات شعر مختلفة أوزانها ، ومن تصحيح ما أمكن تصحيحه من تحريف شوّه المعنى ، أو جعله غامضاً يصعب إدراكه .

الحمد لله الذي أنزل الكتاب المبين

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أنزل الكتاب المبين ، على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وقصّ عليه أخبار المتقدمين والمتأخرين ، وعلمه ما كان وما يكون إلى يوم الدين ، نحمده إذ جعلنا من أمته ، ونشكره على عطائه وميثته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إذ منّ علينا بمعرفة أحوال من مضى من الأمم ، ولم يكشف عنا ستره إذا زلّ بنا القدم ، وجعلنا أمة عدولاً وسطاً ، وشهد لنا بذلك في الكتاب المعظم المكرّم ، فقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾^١ ، فظهر الفضل بما جاد به وتكرّم ، ونشهد أن سيّدنا ونبيّنا محمّداً عبده ورسوله الذي قال : « أدبني ربّي فأحسن تأديبي » ، فساد على جميع الأنبياء وعليهم نقدّم ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم .

وبعد ، فيقول العبد الفقير الضعيف ذو العجز والتفريط في أيامه ، وكثير التخليط وزيادة آثامه ، محمد يعرف بدياب الأتليدي من إقليم المنية الخصبيّة^٢ ، سألتني بعض الإخوان الموقفين ممن لا يسعني مخالفته ، أن أجمع له شيئاً ممّا وقع في زمن الخلفاء المتقدمين من بني أميّة ، والخلفاء العباسيين . فأجبتة لذلك مع علمي أنني لست أهلاً لذلك ، فقد قالوا : الإمتثال خير من الأدب ، وسمّيته : « إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس » . وابتدأت في ذلك بأمر المؤمنين عمر بن الخطّاب ، رضي الله عنه ، تبرّكاً به وبذكره .

١ سورة آل عمران ١١٠

٢ المنية الخصبيّة : بلد في مصر بناها الخصب وكان أميراً على مصر من قبل العباسيين .

عمر والعجوز المدينية

قيل : لما رجع عمر ، رضي الله عنه ، من الشام إلى المدينة ، انفرَدَ عن الناس ليتعرّف أخبار رعيّته ، فمرَّ بعجوز في خباء لها فقصدها .

فقلت : ما فعل عمر رضي الله عنه ؟

قال : قد أقبل من الشام سالماً .

فقلت : يا هذا ! لا جزاه الله خيراً عني !

وقال : ولم ؟

قالت : لأنه ما أنالني من عطائه منذ ولي أمر المسلمين ديناراً ولا درهماً .

فقال : وما يدري عمر بحالك وأنت في هذا الموضع ؟

فقلت : سبحان الله ! والله ما ظننت أن أحداً يلي على الناس . ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها .

فبكى عمر رضي الله عنه ، وقال : واعمره ، كل أحد أفقه منك حتى العجائز يا عمر .

ثم قال لها : يا أمة الله ! بكم تبيعيني ظلامتك من عمر ، فإني أرحمه من النار ؟

فقلت : لا تهزأ بنا ، يرحمك الله .

فقال عمر : لست أهزأ بك .

ولم يزل حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً .
 فبينما هو كذلك إذ أقبل علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ،
 وعبد الله بن مسعود . رضي الله عنه ، فقالا : السلام عليك يا أمير
 المؤمنين ! فوضعت العجوز يدها على رأسها وقالت : واسوأناه ! شتمت
 أمير المؤمنين في وجهه ؟

فقال لها عمر رضي الله عنه : لا بأس عليك . يرحمك الله . ثم
 طلب قطعة جلد يكتب فيها فلم يجد . فقطع قطعة من مرقعته^١ وكتب فيها :
 «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ
 ولي الخلافة إلى يوم كذا . بخمسة وعشرين ديناراً . فما تدّعي عليه عند وقوفه
 في المحشر بين يدي الله تعالى فعمر بريء منه . شهد على ذلك علي وابن
 مسعود» .

ثم دفعها إلى ولده وقال له : إذا أنا متُّ . فاجعلها في كفّني ألقى بها
 ربّي .

١ المرقعة : الثوب المرقع ، وكان عمر يلبسه نقشفاً .

عمر والشاب القاتل وأبو ذرّ

قال شرف الدين حسين بن ريان : أغرب ما سمعته من الأخبار ، وأعجب ما نقلته عن الأخبار ، ممن كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب ، أمير المؤمنين ، ويسمع كلامه قال : بينما الإمام جالس في بعض الأيام ، وعنده أكابر الصحابة ، وأهل الرأي والإصابة ، وهو يقول في القضايا ، ويحكم بين الرعايا ، إذ أقبل شاب نظيف الأثواب ، يكتفه شابان من أحسن الشبان ، نظيفا الثياب ، قد جذباه وسحياه وأوقفاه بين يدي أمير المؤمنين ، ولّباه^١ . فلما وقفوا بين يديه ، نظر إليهما وإليه ، فأمرهما بالكف عنه . فأدنيه منه وقال : يا أمير المؤمنين ، نحن أخوان شقيقان ، جديران باتباع الحظّ حقيقان . كان لنا أب شيخ كبير ، حسن التدبير ، معظّم في قبائله ، متّزه عن الرذائل . معروف بفضائله ، ربّانا صغارا ، وأعزّنا كبارا ، وأولانا نعمّا غزارا ، كما قيل :

لنا والدٌ لو كان للناس مثله أبٌ آخرُ أغناهمُ بالمناقبِ

خرج اليوم إلى حديقة له يتنزّه في أشجارها ، ويقطف يانع ثمارها ، فقتله هذا الشاب ، وعدل عن طريق الصواب . ونسألك القصاص بما جناه ، والحكم فيه بما أراك الله .

قال الراوي : فنظر عمر إلى الشاب وقال له : قد سمعت ، فما

الجواب ؟

١ لّبه : أخذ بتليبه ، أي طوق ثوبه وجّره .

والغلام مع ذلك ثابت الجأش ، خالٍ من الاستيحاءش . قد خلع ثياب الهلع ، ونزع جلباب الجزع . فتبسّم عن مثل الجمان . وتكلّم بأفصح لسان ، وحيّاه بكلمات حسان ثم قال : يا أمير المؤمنين ، والله لقد وعياً ما ادّعيا ، وصدقا فيما نطقا وخبراً بما جرى ، وعبراً بما ترى ، وسأُنهي قصّتي بين يديك والأمر فيها إليك :

اعلم ، يا أمير المؤمنين ، أُنِي من العرب العرباء ، أبيت في منازل البادية ، وأصبح على أسود السنين العادية ، فأقبلت إلى ظاهر هذا البلد بالأهل والمال والولد ، فأفصّت بي بعض طرائقها ، إلى المسير بين حدائقها ، بنياق حبيبات إليّ ، عزيزات عليّ ، بينهنّ فحل كريم الأصل ، كثير النسل ، مليح الشكل ، حسن التاج ، يمشي بينهنّ كأنه ملك عليه تاج . فدنت بعض النوق إلى حديقة قد ظهر من الحائط شجرها ، فتناولته بمشفرها ، فطردها من تلك الحديقة . فإذا شيخ قد زجر ، وزفر ، وتسوّر الحائط ، وظهر وفي يده اليمنى حجر ، يتهدى كالليث إذا خطر ، فضرب الفحل بذلك الحجر ، فقتله وأصاب مقتله . فلما رأيت الفحل قد سقط لجنبه وانقلب ، توقّدت فيّ جمرات الغضب ، فتناولت ذلك الحجر بعينه ، فضربته به ، فكان سبب حينه ، ولقي سوء منقلبه ، والمرء مقتول بما قتل به بعد أن صاح صيحة عظيمة ، وصرخ صرخة أليمة . فأسرعت من مكاني ، فلم يكن بأسرع من هذين الشابين ، فأمسكاني ، وأحضراني كما تراني .

فقال عمر : قد اعترفت بما اقترفت ، وتعذّر الخلاص ، ووجّب القصاص ، ولات حين مناص .

فقال الشاب : سمعاً لما حكم به الإمام ، ورضيتُ بما اقتضته شريعة الإسلام ، لكن لي أخ صغير ، كان له أب كبير ، خصّه قبل وفاته بمالٍ جزيل ، وذَهَبٍ جليل ، وأحضره بين يدي ، وأسلم أمره إليّ ، وأشهد

الله عليّ . وقال : هذا لأخيك عندك . فاحفظه جهديك ، فانخذت لذلك مدفنًا ، ووضعته فيه ، ولا يعلم به إلا أنا . فإن حكمت الآن تقتلي . ذَهَبَ الذهبُ ، وكنتَ أنتَ السببُ ، وطالبك الصغير بحقه ، يوم يقضي الله بين خلقه ، وإن أنظرتي ثلاثة أيام ، أقمت من يتولى أمر الغلام . وعدتُ وافيًا بالذِّمام ، ولي من يضممني على هذا الكلام .

فأطرق عمر ، ثم نظر إلى من حضر ، وقال : من يقوم على ضمانه والعود إلى مكانه ؟

قال : فنظر الغلام إلى وجوه أهل المجلس الناظرين ، وأشار إلى أبي ذرٍّ دون الحاضرين ، وقال : هذا يكفلني ويضممني .
قال عمر : يا أبا ذرٍّ ، تضمنه على هذا الكلام ؟
قال : نعم ، أضمنه إلى ثلاثة أيام .

فرضي الشابان بضمانة أبي ذرٍّ وأنظراه ذلك القدر . فلما انقضت مدة الإمهال وكاد وقتها يزول أو قد زال ، حضر الشابان إلى مجلس عمر والصحابة حوله كالنجوم حول القمر ، وأبو ذرٍّ قد حضر والخصم يُنتظر . فقالا : أين الغريم يا أبا ذرٍّ ؟ كيف يرجع من فرٍّ ، لا تبرح من مكاننا حتى تقي بضماننا . فقال أبو ذرٍّ : وحق الملك العَلَّام ، إن انقضى تمام الأيام ، ولم يحضر الغلام ، وفيت بالضمان وأسلمت نفسي ، وبالله المستعان .

فقال عمر : والله ، إن تأخر الغلام ، لأمضين في أبي ذرٍّ ، ما اقتضته شريعة الإسلام .

فَهَمَّتْ عَبْرَاتُ الناظرين إليه ، وعَلَّتْ زفارات الحاضرين عليه ، وعظم الضجيج وتزايد النشيج . فعرض كبار الصحابة على الشابين أخذ

١ هو أبو ذرٍّ القِفاري ، وهو محابي .

الدية واغتنام الأثنية ، فأصرّا على عدم القبول ، وأيا إلا الأخذ بثأر المقتول .

فبينما الناس يموجون تلهفاً لما مرّ ، ويضجّون تأسفاً على أبي ذرّ إذ أقبل الغلام ووقف بين يدي الإمام وسلّم عليه أتمّ السلام ووجهه يتهلّل مشرقاً ويتكلّل عرقاً وقال : قد أسلمت الصبي إلى أخواله ، وعرفتهم بخفيّ أمواله وأطلعتهم على مكان ماله . ثم اقتحمت هاجرات الحرّ ، ووفيت وفاء الحرّ .

فعجب الناس من صدقه ووفائه ، وإقدامه على الموت واجترائه . فقال : من عَدَرَ لم يعفُ عنه من قدر ، ومن وفى ، رحمه الطالب وعفا ، وتحقّقت أنّ الموتَ إذا حضر ، لم ينبجُ منه احتراس ، كيلا يقال : ذهب الوفاء من الناس .

فقال أبو ذرّ : والله ، يا أمير المؤمنين . لقد ضمنت هذا الغلام . ولم أعرفه من أي قوم ، ولا رأيته قبل ذلك اليوم . ولكن نظر إليّ دون من حضر فقصدني وقال : هذا يضمّني ، فلم أستحسن ردّه ، وأبت المروءة أن تحيّب قصده ، إذ ليس في إجابة القاصد من بأس ، كيلا يقال : ذهب الفضل من الناس .

فقال الشابان عند ذلك : يا أمير المؤمنين ، قد وهبنا هذا الغلام دم أبينا . فبدّل وحشته بإيناس . كيلا يقال : ذهب المعروف من الناس . فاستبشر الإمام بالعفو عن الغلام وصدقه ووفائه . واستفزر مروءة أبي ذرّ دون جلسائه ، واستحسن اعتماد الشابين في اصطناع المعروف . وأثنى عليهما أحسن ثنائيه . وتمثّل بهذا البيت :

من يصنع الخير لم يعدم جوائزه لا يذهبُ العرفُ بين الله والناسِ

ثم عرض عليهما أن يصرف من بيت المال دية أيهما . فقالا : إنما عفوا
ابتغاء وجه ربنا الكريم . ومن نيته هكذا لا يتبع إحسانه متاً ولا أذى .
قال الراوي : فأثبتها في ديوان الغرائب ، وسطرّها في عنود
العجائب .

عمر والهَرْمُزَان^١

وأحضر الهرمزان بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، رضي الله
عنه ، مأسوراً ، فدعاه إلى الإسلام ، فأبى ، فأمر بضرب عنقه ،
فقال . يا أمير المؤمنين ، قبل أن تقتلني اسقني شربة من الماء ، ولا تقتلني
ظمآن .

فأمر له عمر بقدر مملوء ماءً ، فلما صار القدر في يد الهرمزان ،
قال : أنا آمن حتى أشربه ؟

قال : نعم لك الأمان .

فألقي الهرمزان الإناء من يده فأراقه ، ثم قال : الوفاء يا أمير
لمؤمنين .

فقال عمر رضي الله عنه : دعوه حتى أنظر في أمره .

فلما رفع السيف عنه ، قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً
رسول الله .

قال عمر ، رضي الله عنه : لقد أسلمتُ خير الإسلام فما أخرك ؟

١ الهرمزان : الكبير من ملوك العجم .

قال : خشيتُ أن يقال إني أسلمتُ خوفاً من السيف .
فقال عمر : إنك لفارس حكيم ، استحققتَ ما كنت فيه من الملك .
ثم إن عمر ، رضي الله عنه ، بعد ذلك كان يشاوره في إخراج
الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه .
وسياتي نظير ذلك في أخذ الأمان بالحيلة .

خبر جبلة بن الأيهم لما هرب من عمر إلى هرقل وتنصّر

جبلة بن الأيهم وتنصّره

وممّا ذكره عبد الملك بن بدرون ، شارح قصيدة عبد المجيد بن عبدون ، عمّا وقع لجبلة بن الأيهم حين لطم الفزاري على وجهه لمّا داس على رداثه ، وقال له عمر ، رضي الله عنه : دعه يقتصّ منك ، أو ما هذا معناه . فقال لعمر : وهل استوي أنا وهو في ذلك ؟ فقال له : نعم ، الإسلام ساوى بينكما . فقال : أجّلني إلى غد . فلمّا أصبح مضى إلى قيصر ملك الروم ، وارتدّ ، ثم ندم وقال أبياتاً ، وهي هذه :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة	وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكفني منها لجاج ونخوة	فبعت بها العين الصحيحة بالعود
فيا ليت أُمّي لم تلدني وليتني	رجعت إلى الأمر الذي قاله عمر
ويا ليتني أرعى المخاض بقفرة	وكنت أسيراً في ربيعة أو مضراً
ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة	أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

ولمّا تنصّر جبلة بن الأيهم ولحق بهرقل ، صاحب القسطنطينية ، أقطعه هرقل الأموال والضياع ، وبقي ما شاء الله .

١ المخاض : النوق الحوامل .

ثم أن عمر ، رضي الله عنه ، بعث إلى قيصر رسولا يدعو إلى الإسلام أو إلى الجزية . فلما أراد الانصراف ، قال هِرَقْلُ للرسول : أَلْقَيْتَ ابن عمك هذا الذي عندنا ؟ يعني جبلة الذي أتانا راعباً في ديننا .

قال : لا !

قال : فآلقه ثم آتني أعطك جواب كتابك .

قال الرسول : فذهبتُ إلى دار جبلة فإذا عليه من القهارمة^١ والحُجَاب والبَهجة وكثرة الجمع مثل ما على باب هِرَقْل . فلم أزل أتلطّف بالإذن حتى أذن لي . فدخلتُ عليه ، فرأيتُه أصهب اللحية ، ذا سِبَال ، وكان عهدي به أسود اللحية والرأس ، فأنكرته ، فإذا هو قدّ دعا بسحالة^٢ الذهب ، فذرّها على لحيته حتى أصهبتُ ، وهو قاعد على سرير من قوارير^٣ على قوائمه أربعة أسود من ذهب . فلما عرفني رفعتني معه على السرير ، فجعل يسألني عن المسلمين ، فذكرت له خيراً وقلتُ له : قد أضعفوا أضعافاً على ما تعرف . فقال : وكيف عمر بن الخطّاب ؟ قلت : بخير . قال : فرأيت الغمّ في وجهه لِمَا ذكرتُ له منه سلامة عمر . ثم انحدرتُ عن السرير فقال : لِمَ تأبى الكرامة التي أكرمناك بها ؟ فقلتُ : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا . فقال : نعم ! نهى ﷺ ولكن نقّ قلبك ولا تبال على ما قعدت .

فلما سمعته يقول ما قاله ﷺ ، طمعت فيه فقلت له : ويحك يا جبلة ، ألا تُسَلِّم ، وقد عرفت الإسلام وفضله ؟ فقال : أبعد ما كان مني ؟ قلت : نعم ، قد فعل رجل من فزارة أكثر ممّا فعلت ، ارتدّ عن الإسلام

١ القهارمة ، الواحد قهرمان : الوكيل أو أمين الدخل والخرج .

٢ السحالة : برادة الذهب .

٣ القوارير ، الواحدة قارورة : إناء يوضع فيه الشراب .

وضرب وجوه المسلمين بالسيف ثم رجع إلى الإسلام وقبل منه وخلفته بالمدينة مسلماً .

وإنما ذكرت له أن الذي فعل هذه الفعلة من فزارة ، وأنه ضرب وجوه المسلمين بالسيف وارتدّ ورجع إلى الإسلام لأن الرجل الذي كان تنصّر جبلة من أجله لمّا لطمه وأراد عمر أن يقتصّ منه كان فزارياً أيضاً . فقلت له : أملك أخفّ من أمره إن رجعت إلى الإسلام ، فإنك لم تضرب وجوه المسلمين بالسيف كما فعل . فقال : ذرني من هذا إن كنت تضمن لي أن يزوّجني عمر ابنته ويوليني الأمر من بعده ، رجعت إلى الإسلام . فضمنت له التزويج ولم أضمن له تولية الأمر .

قال : ثم أوماً إلى خادم كان على رأسه واقفاً فذهب مسرعاً ، فإذا خدم قد جاؤوا يحملون الصناديق فيها طعام . فوضعت ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة ، وقال لي : كُلْ ؛ فقبضتُ يدي ، وقلت : رسول الله ﷺ نهى عن الأكل في آنية الذهب والفضة .

قال : نعم ! نهى ﷺ ولكن نقّ قلبك وكلّ فيما أحببت .

قال : فأكل في الذهب ، وأكلتُ أنا في الخُلُج ، ثم دعا بطسوت الذهب وأباريق الفضة ، فغسل يديه في الذهب ، وغسلتُ في الصُّفْر . ثم أوماً إلى خادم بين يديه فمرّ مسرعاً . فسمعتُ حساً ، فإذا خدم معهم كراسي مرصعة بالجواهر ، فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن شماله ، ثم جاءت الجواري وعليهن تيجان الذهب ، فقعدن عن يمينه وعن يساره على تلك الكراسي . ثم جاءت جارية أيضاً كأنها الشمس حسناً على رأسها تاج ، وعلى ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه ، وفي يدها جامة فيها مسك فتيت ، وفي يدها الأخرى جامة فيها ماء ورد . فأومأت تلك الجارية

وصفرت بالطائر الذي على تاجها فوق في جامة المسك ، فاضطرب فيها ،
ثم صفرت به ثانياً فوق في جامة ماء الورد فاضطرب فيها ، ثم أومأت إليه
فطار ، ثم نزل على صليب في تاج على جبلة ، فلم يزل يرفرف حتى نفص
ما في ريشه عليه . فضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه ، ثم
التفت إلى الجواري اللواتي عن يمينه . فقال لهن : أصبحكننا ، فاندفعن
يغنين فجعلن يخفقن عيدانهن ويقلن :

لله درّ عصابة نادمتهم يوماً يجلقّ في الزمان الأول^١
إلى قوله :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل^٢
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل^٣

قال : فضحك جبلة حتى بدت أنيابه . ثم قال : أتدري من يقول
هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ ، ثم أشار إلى
الجواري اللواتي عن يساره ، وقال : أبكيننا . فاندفعنا يغنين وتخفق عيدانهن
ويقلن :

لِمَن الدار أوحشت بمعانٍ بين أعلى اليرموك فالجنان^٤
إلى قوله :

ذاك مغنى من آل جفنة في الدهر برّ وحقّ تعاقب الأزمان^٥

-
- ١ جلق : مدينة قرب دمشق كانت إحدى عواصم الغساسنة . وهذه الأبيات لحسان بن ثابت .
 - ٢ جفنة : أبو ملوك غسان .
 - ٣ البريص : نهر في دمشق . بردى : أي ماء بردى وهو نهر آخر في دمشق .
 - ٤ معان واليرموك والجنان : مواضع بأكناف دمشق كانت مقر الغساسنة .
 - ٥ المغنى : المنزل .

قال : فبكى جبلة حتى سالت دموعه على لحيته ، ثم قال : أتدري من يقول هذا ؟ قلت : لا ، قال : حسّان . ثم أنشد الأبيات التي أولها : تنصّرت الأشراف إلى آخرها . ثم سألتني عن حسّان : أحيّ هو ؟ قلت : نعم ! فأمر له بكسوة ولي أيضاً كذلك . ثم أمر لحسان بمالٍ ونوق موقرة^١ رأ^٢ ، ثم قال لي : إن وجدته حيّاً فادفع إليه الهدية واقربه مني السلام ؛ إن وجدته ميتاً فادفعها إلى أهله وانحر النوق على قبره .

قال : فلمّا أخبرت عمر ، رضي الله عنه ، بخبره وما اشترطه عليّ وما ضمنت له . قال : فهلاًّ ضمنت له الأمر ؟ فإذا أفاء^٢ الله بحكمه وقضى علينا بحكمته ما كان إلّا ما أراد .

ثم جهزني عمر ثانياً إلى هِرَقْل وأمرني أن أضمن له ، أي بجلبة ، ما اشترط . فلمّا دخلت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته فعلمت أن الشقاء غلب عليه في أمّ الكتاب .

القويّ الفاجر

وقيل : إنه قدم أهل الكوفة على عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يشكون سعد بن أبي وقاص ، فقال : من يعذرني من أهل الكوفة ؟ إن وليّهم التقى^١ ضعفوه ، وإن وليّهم القوي فجّروه . فقال له المغيرة بن شعبة : يا أمير المؤمنين ، إن التقى الضعيف له تقاه ولك ضعفه ، وإن القوي الفاجر لك قوته وعليه فجوره . قال : صدقت أنت القوي الفاجر فاخرج إليهم .

فلم يزل عليهم أيام عمر وعثمان رضي الله عنهما ، وأيام معاوية حتى مات المغيرة ، انتهى .

١ موقرة برا : حملة قنحاً .

٢ أفاء : أرجع .

أجبن وأحيل وأشجع من لقي

وقيل : دخل عمرو بن معد يكرب الزبيديّ على عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال عمر : أخبرني عن أجبن من لقيت وأحيل من لقيت وأشجع من لقيت . قال : نعم يا أمير المؤمنين .

خرجتُ مرّةً أريد الغارة ، فبينما أنا سائر إذا بفرسٍ مشدودٍ ورمحٍ مركوزٍ ، وإذا رجل جالس كأعظمٍ ما يكون من الرجال خُلُقاً ، وهو محتبٌ^١ بجائل سيفه ، فقلت له : خذ حذرَكَ فإنّي قاتلك . فقال : ومن أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، فشهِق شهقةً فمات . فهذا يا أمير المؤمنين أجبنُ من رأيت .

وخرجتُ مرّةً حتى انتهيت إلى حيٍّ فإذا أنا بفرسٍ مشدودٍ ورمحٍ مركوزٍ ، وإذا صاحبه في وَهْدَةٍ يقبضي حاجته ، فقلت : خذ حذرَكَ فإنّي قاتلك . فقال : ومن أنت ؟ فأعلمته بي ، فقال : يا أبا ثور ما أنصفتني أنت على ظهر فرسك وأنا على الأرض ، فأعطني عهداً أنك لا تقتلني حتى أركبَ فرسي . فأعطيته عهداً فخرج من الموضع الذي كان فيه واحتبى بجائل سيفه ، وجلس . فقلت : ما هذا ؟ فقال : ما أنا براكب فرسي ولا بمقاتلك فإن نكثت^٢ عهدك فأنت أعلم بناكث العهد . فتركته ومضيت . فهذا يا أمير المؤمنين أحيلُ من رأيت .

وخرجتُ مرّةً حتى انتهيت إلى موضع كنت أقطع فيه الطريق فلم أرَ أحداً ، فأجريت فرسي يميناً وشمالاً وإذا أنا بفارس ، فلما دنا مني ، فإذا

١ محتب : جامع بين ظهره وساقيه بجائل سيفه ، والجائل واحدة الجمالة : علاقة السيف .

٢ نكثت : خنت .

هو غلام حسن^١ . نبت عذاره^١ من أجمل من رأيت من الفتيان .
أحسبهم . وإذا هو قد أقبل من نحو اليمامة . فلما قرب مني سلم علي .
رددت عليه السلام وقلت : من الفتى ؟

قال : الحرث بن سعد فارس الشهباء ؟

فقلت له : خذ حذرَكَ - فإني قاتلك !

فقال : الويل لك . فمن أنت ؟

قلت : عمرو بن معد يكرب الزبيدي .

قال : الذليل الحَقِير ، والله ما يمنعني من قتلك إلا استصغاركَ .

فتصاغرت نفسي ، يا أمير المؤمنين ، وعظم عندي ما استقبلني به .
قلت له : دع هذا وخذ حذرَكَ فإني قاتلك ، والله لا ينصرف إلا أحدنا .

فقال : اذهب . ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ ، فأنا من أهل بيت ما أَثْكََلْنَا فارس^٢

نط .

قلت : هو الذي تسمعه .

قال : اختر لنفسك فإمّا أن تطردَ لي ، وإمّا أن أطرِدَ لك .

فاغتنمْتُها منه فقلتُ له : أَطْرِدُ لي^٢ .

فأطردَ وحملت عليه فظننت أني وضعت الرمح بين كتفيه فإذا هو صار
حزاماً لفرسه ثم عطفَ عليّ فقَنَعَ بالقناة رأسي وقال : يا عمرو خُذْها إليك
واحدة . ولولا أني أكره قتلَ مثلك لقتلتك .

قال : فتصاغرت نفسي عندي ، وكان الموتُ . يا أمير المؤمنين .

١ عذاره : جانب لحيته .

٢ أطرِد لي : من المطاردة في القتال . وهي أن يطرد الفرسان بعضهم بعضاً .

والفارس يستطرد ليحمل عليه قرنه ثم يكرّ عليه .

أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا رَأَيْتَ ، فَقُلْتُ لَهُ : وَاللَّهِ لَا يَنْصَرِفُ إِلَّا أَحَدُنَا . فَعَرَضَ عَلَيَّ مَقَالَتَهُ الْأُولَى فَقُلْتُ لَهُ : أَطْرُدْ لِي . فَأَطْرَدَ . فَظَنَنْتُ أَنِّي تَمَكَّنْتُ مِنْهُ فَتَّبَعْتُهُ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنِّي وَضَعْتُ الرَّمْحَ بَيْنَ كَتِفَيْهِ . فَإِذَا هُوَ صَارَ لَبِيًّا لِفَرَسِهِ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيَّ فَقَنَعَ بِالقَنَاةِ رَأْسِي وَقَالَ : خُذْهَا إِلَيْكَ يَا عَمْرُو ثَانِيَةً .

فَتَصَاغَرْتُ عَلَيَّ نَفْسِي جَدًّا . وَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَا يَنْصَرِفُ إِلَّا أَحَدُنَا فَأَطْرَدَ لِي ، فَأَطْرَدَ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنِّي وَضَعْتُ الرَّمْحَ بَيْنَ كَتِفَيْهِ فَوَثَبَ عَنْ فَرَسِهِ . فَإِذَا هُوَ عَلَى الْأَرْضِ فَأَخْطَأَتْهُ فَاسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ وَاتَّبَعَنِي حَتَّى قَنَعَ بِالقَنَاةِ رَأْسِي ! وَقَالَ : خُذْهَا إِلَيْكَ يَا عَمْرُو ثَالِثَةً . وَلَوْلَا كِرَاهَتِي لَقَتَلْتُ مِثْلَكَ لَقَتَلْتُكَ .

فَقُلْتُ : اقْتُلْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ وَلَا تَسْمَعْ فَرَسَانُ الْعَرَبِ بِهَذَا .
فَقَالَ : يَا عَمْرُو . إِنَّمَا الْعَفْوُ عَنْ ثَلَاثٍ . وَإِذَا اسْتَمَكَنْتَ مِنْكَ فِي الرَّابِعَةِ قَتَلْتُكَ وَأَنْشُدْ يَقُولُ :

وَكِدْتُ إِغْلَظًّا مِنَ الْإِيمَانِ إِنَّ عُدْتَ يَا عَمْرُو إِلَى الطَّعَانِ
لَتَجِدَنَّ لَهَبَ السِّينَانِ أَوْ لَا . فَلَسْتُ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ

فَهَبْتُهُ هَيْبَةً شَدِيدَةً . وَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً .

قَالَ : وَمَا هِيَ ؟

قُلْتُ : أَكُونُ صَاحِبًا لَكَ .

قَالَ : لَسْتُ مِنْ أَصْحَابِي .

فَكَانَ ذَلِكَ أَشَدَّ عَلَيَّ وَأَعْظَمَ مِمَّا صَنَعَ . فَلَمْ أَزَلْ أَطْلُبُ صَحْبَتَهُ حَتَّى قَالَ : وَيَحْكُ أَنْدَرِي أَيْنَ أُرِيدُ ؟

١ كَدْتُ إِغْلَظًّا مِنَ الْإِيمَانِ : تَعْبِيرٌ عَزَلِيٌّ مَعْنَاهُ أَنِّي أَشَدُّدُ فِي إِيمَانِي أَيَّ قِسْمِي .

قلت : لا والله .

قال : أريد الموت الأحمر عياناً .

قلت : أريد الموت معك .

قال : امض بنا .

فهرنا يومنا أجمع حتى أتانا الليل ومضى شطره . فوردنا على حيٍّ من أحياء العرب . فقال لي : يا عمرو في هذا الحي الموت الأحمر فيما أن تُمسك عليّ فرسي فأنزل وآتي بحاجتي . وإما أن تنزل وأمسك فرسك فتأتي بحاجتي .

فقلت : بل انزل أنت . فأنت أخبر بحاجتك مني .

فرمى إليّ بعنان فرسه ورضيت والله . يا أمير المؤمنين . بأن أكون له سائساً . ثم مضى إلى قبة . فأخرج منها جارية لم تر عيناى أحسن منها حسناً وجالاً . فحملها على ناقة ثم قال : يا عمرو . فقلت : ليك ! قال : إما أن تحميني وأقود الناقة أو أحملك وتقودها أنت ؟

قلت : لا . بل أقودها وتحميني أنت .

فرمى إليّ بزمام الناقة ثم سرننا حتى أصبحنا . قال : يا عمرو . قلت : ما تشاء ؟ قال : التفت فانظر هل ترى أحداً ؟

فالتفت فرأيت رجالاً فقلت : اغذ السير . ثم قال : يا عمرو انظر إن كانوا قليلاً فالجلد والقوة وهو الموت الأحمر . وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيء .

فالتفت وقلت : هم أربعة أو خمسة .

قال : اغذ السير .

ففعلت . ووقف وسمع وقع حوافر الخيل عن قرب فقال : يا عمرو .

كن عن يمين الطريق وقِفْ وحَوِّل وجهَ دوابِّنا إلى الطريق .

ففعلت ووقفت عن يمين الراحلة ووقف عن يسارها ودنا القوم منا وإذا هم ثلاثة أنفار : شابان وشيخ كبير ، وهو أبو الجارية والشابان أخوها . فسلموا فرددنا السلام . فقال الشيخ : خلَّ عن الجارية يا ابن أخي .

فقال : ما كنت لأخْلِيا ولا لهذا أخذتها .

فقال لأحد ابنيه : اخرج إليه ، فخرج وهو يجزُّ راحته فحمل عليه الحرث وهو يقول :

من دون ما ترجوه خَضْبُ الدَّابِلِ ، من فارسٍ ملثَّمٍ مُقاتِلٍ
يُنمي إلى شيانٍ خيرٍ واثِلٍ ما كان يسري نحوها بباطِلٍ

ثم شدَّ على ابن الشيخ بطعنةٍ قدَّ منها صُلْبَهُ ، فسقط ميتاً . فقال الشيخ لابنه الآخر : اخرج إليه فلا خير في الحياة على الذلِّ ، فأقبل الحرث وهو يقول :

لقد رأيت كيف كانت طعنتي . والطعنُ للقرمِ الشديدِ الهمةِ
والموتُ خيرٌ من فراقِ خلتي . فقتلتي اليومَ ولا مدَّتْني

ثم شدَّ على ابن الشيخ بطعنة سقطَ منها ميتاً ، فقال له الشيخ : خلَّ عن الضعينة يا ابن أخي . فأني لست كمن رأيت ، فقال : ما كنت لأخْلِيا ، ولا لهذا قصدتُ .

فقال الشيخ : يا ابن أخي ، اختر لنفسك فإن شئت نازلْتُك . وإن شئت طاردْتُك .

فاغتنمها الفتى ونزل فتزل الشيخ وهو يقول :

١ الدابِل : من صفات الرمح - وخَضْبُهُ : تلويته بالدم

ما أرتجي عند فناء عمري سأجعل التسعين مثل شهر
تخافني الشجعان طول دهري إن استباح البيض قصم الظاهر

فأقبل الحرث وهو ينشد ويقول :

بعد ارتحالي ومطال سقري وقد ظفرت وشفيت صدري
فالموت خير من لباس الغدر والعار أهديه لحي بكر

ثم دنا فقال له الشيخ : يا ابن أخي إن شئت ضربتك ، فإن أقيت
فيك بقية فاضربي . وإن شئت فاضربي . فإن أقيت في بقية ضربتك .
فاغتنمها الفتى وقال : أنا أبدأ .

فقال الشيخ : هات .

فرفع الحرث يده بالسيف فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه
ضرب بطنه بطعنة قد منها أمعاه ووقعت ضربة الفتى على رأس الشيخ
فسقطا ميتين . فأخذت يا أمير المؤمنين أربعة أفراس وأربعة أسياف ثم أقبلت
إلى الناقة فقالت الجارية : يا عمرو : إلى أين ولست بصاحبك ولست لي
بصاحب ولست كمن رأيت . فقلت : اسكتي .

قالت : إن كنت لي صاحباً فاعطني سيفاً أو رمحاً فإن غلبتني فأنا لك
وإن غلبتك قتلتك .

فقلت : ما أنا بمعطٍ ذلك . وقد عرفت أهلك وجراءة قومك
وشجاعتهم .

فرمت نفسها عن البعير ثم أقبلت تقول :

أبعد شيخخي ثم بعد أخوتي يطيب عيشي بعدهم ولذتي

١ قوله : سقري : سكن الفاء من سقر مراعاة للقافية .

وأصحين من لم يكن ذا همّةٍ هلاً تكون قبل ذا منيتي

ثم أهوت إلى الرمح وكادت تنزعه من يدي . فلما رأيت ذلك منها خفت إن ظفرت بي قتلتي . فقتلتها . فهذا يا أمير المؤمنين أشجع من رأي .

يقتلع ذنب البعير

قيل : أتى رجل إلى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . يستحمله . فقال له : خذ لك بعيراً من إبل الصدقة . فتناول ذنب بعير فجذبه فاقتلعه . فتعجب عمر رضي الله عنه . من شدته وقوته . فقال له : هل رأيت أقوى منك من أحد ؟

قال : نعم . خرجت بامرأة من أهلي أريد بها زوجها فترلت على حوض . فأقبل رجل معه ذوداً . فضرب ذوده إلى الحوض فساورها . يعني المرأة . فنادتني فما انتهيت إليها حتى خالطها . فجئت لأدفعه عنها . فأخذ رأسي بين عضديه وجنبه . فما استطعت التحرك حتى قضى وطره منها . فقالت : أيّ فحل هذا لو كنت منيحة^١ . فأمهله حتى امتلأ نوماً ، فقممت له بالسيف فضربت ساقه ، فانتبه . فتناول رجله فرماني بها فأخطأني ، أي فاتني . وأصاب رأس بعير فقتله .

فقال عمر رضي الله عنه : ما فعلت بالمرأة ؟

فقلت : هذا حديث الرجل .

فكرّر عليه السؤال فلم يزد على هذا ففطن أنه قتلها . انتهى .

١ الذود : النياق .

٢ المنيحة : الناقة .

عبد الله بن رواحة وجاريته

وَنَحْكِي أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ . رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ . كَانَ عِنْدَهُ جَارِيَةٌ جَمِيلَةٌ . وَكَانَ يُحِبُّهَا حُبًّا شَدِيدًا . وَلَمْ يَتِمَكَّنْ مِنْهَا خَوْفًا مِنْ زَوْجَتِهِ . فَمَضَتْ يَوْمًا زَوْجَتُهُ لِحَاجَةٍ . ثُمَّ عَادَتْ فَوَجَدَتْهُ هُوَ وَالْجَارِيَةُ مَعْتَنِقَيْنِ نَائِمَيْنِ ، فَقَالَتْ : أَفَعَلْتَهَا ؟ قَالَ : لَمْ أَكُنْ فَاعِلَهَا . قَالَتْ : فَاقْرَأْ ! فَقَالَ : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . ثُمَّ قَالَ :

عَلِمْتُ بِأَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ مَثْوًى الْكَافِرِينَ
وَأَنَّ الْعَرْشَ فَوْقَ الْمَاءِ طَافَ وَفَوْقَ الْعَرْشِ رَبُّ الْعَالَمِينَ
وَتَحْمِلُهُ مَلَائِكَةٌ كَرَامٌ مَلَائِكَةُ الْإِلَهِ مَسْؤُمِينَ

قَالَتْ : صَدَقْتَ وَكَذَبْتَ عَيْنَايَ . قَالَ : فَذَهَبَتْ وَأَخْبَرَتْ النَّبِيَّ ﷺ . فَضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ . وَصَارَ يَكْرَرُهَا وَيَقُولُ : كَيْفَ قُلْتَ . انْتَهَى .

أول دولة بني أمية

معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

جلس يوماً في مجلس كان له بدمشق ، وكان الموضع مفتّح الجوانب الأربعة يدخل فيه النسيم من كل جانب . قال : فينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات وكان يوماً شديداً الحرّ لا نسيم فيه . قال : وكان وسط النهار ، وقد لفحت الهواجر ، إذ نظر إلى رجل يمشي نحوه ، وهو يتلظى من حرّ التراب ، ويحجل في مشيته حافياً ، فتأمّله ، وقال لجلسائه : هل خلق الله سبحانه وتعالى أشقى ممن يحتاج إلى الحركة في هذا الوقت ، وفي مثل هذه الساعة ؟

فقال بعضهم : لعله يقصد أمير المؤمنين .

فقال : والله لئن كان قاصدي لأجل شيء لأعطيته وأستجلب الأجر به أو مظلوماً لأنصرته . يا غلام ! قفْ بالباب ، فإن طلبني هذا الأعرابي ، فلا تمنعه من الدخول عليّ .

فخرج فوافاه ، فقال : ما تريد ؟

قال : أمير المؤمنين .

قال : ادخل ..

فدخل ، فسلم فقال له معاوية : ممن الرجل ؟

قال : من تميم .

قال : فما الذي جاء بك في هذا الوقت ؟

قال : جئتك مشتكياً وبك مستجيراً .

قال : ممن ؟

قال : من مروان بن الحكم عاملك ، وأنشد يقول :

ويا ذا الندى والعلم والرشد والبذل	معاوي ! يا ذا الجود والحلم والبذل
فيا عوث ! لا تقطع رجائي من العدل	أنتك لما ضاق في الأرض مذهبي
بلائي بشيء كان أيسره قتلي	وجئت لي بإنصاف من الجائر الذي
وجار ولم يعدل وأغصني أهلي ^١	سباني سعاداً وأنبرى لخصومي
تأنت ، ولم أستكمل الرزق من أجلي ^٢	وهمم بقتلي غير أن منيتي

قال : فلما سمع معاوية كلامه ، والنار تتوقد من فيه ، قال له .
مهلاً يا أخا العرب ! اذكر قصتك وأبني لي عن أمرك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، كانت لي زوجة وكنت لها محبباً وبها كلفاً ، وكنت بها قرير العين طبيب النفس ، وكانت لي جذعة^٣ من الإبل كنت أستعين بها على قوام حالي وكفاية أودي ، فأصابتنا سكة أذهبت الخيف والحافر ، فبقيت لا أملك شيئاً ، فلما قل ما بيدي وذهب ما لي وفسد حالي بقيت مهانئ ثقيلاً على الذي يألؤني ، وأبعدني من كان يشتهي قربى وأزور من لا يرغب في

١ قوله : أغصني هكذا في الأصل ويريد غصني ؛ ولا يوجد فعل أغصني في المعاجم .

٢ قوله : من أجلي : هكذا في الأصل والمعنى غامض ، ولعله يريد من أجلي بفتح الجيم ، وسكبتها لضرورة القافية فيكون المعنى لم أستكمل رزقي أي حظي من مدة حياتي .

٣ الجذعة : الناقة الصغيرة السن .

زيارتي ، فلما علم أبوها ما بي من سوء الحال وشرّ المال أخذها مني
وجعلني وطردني وأغلظ عليّ ، فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم راجياً
لنصرتي ، فلما أحضر أباهما وسأله عن حالي قال : ما أعرفه قط . فقلت :
أصلح الله الأمير أن رأي أن يُحضِرَها ويسألها عن قول أبيها ففعل ، وبعث
خلفها . فلما حضرت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب ، فصار لي
خصماً وعليّ مُكراً ، وأظهر لي الغضب وبعث بي إلى السجن ، فبقيت
كأنما خرت من السماء ، أو استهوت بي الريح في مكان سحيق . ثم قال
لأبيها : هل لك أن تزوجنيها على ألف دينار وعشرة آلاف درهم ، وأنا
ضامنٌ خلاصها من هذا الأعرابي ؟ فرغب أبوها في البذل وأجابه إلى
ذلك . فلما كان من الغد بعث إليّ وأحضرني ونظر إليّ كالأسد الغضبان ،
وقال : طلق سعاد ! فقلت : لا ، فسلب عليّ جماعة من غلمانِه فأخذوا
يعذبوني بأنواع العذاب فلم أجد لي بدءاً من طلاقها ففعلت . فأعادني إلى
السجن ، فكثت فيه إلى أن انقضت عدتها فتزوجها وأطلقني ، وقد أتيتك
راجياً وبك مستجيراً وإليك ملتجئاً ، وأنشد يقول :

في القلب مني غرامٌ للنارِ فيه استعار والجسمُ مرميٌ بسهمٍ
فيه الطيب يحارُ وفي فؤادي جمرٌ والجمرُ فيه شرارُ
والعينُ تهطلُ دمعاً فدمعُها مِدرارُ
وليس إلّا برّبي وبالأمرِ انتصارُ

قال : ثم اضطرب واصطكت لهاثة وصار مغشياً عليه . وأخذ يتلوى
كالخية . قال : فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده ، قال : تعدّى ابن الحكم
في حدود الدين وظلم واجترأ على حرّم المسلمين . ثم قال : لقد أتيتني يا
أعرابي بحديث لم أسمع بمثله قط . ثم دعا بدواة وقرطاس وكتب إلى مروان
ابن الحكم كتاباً يقول فيه : أنه قد بلغني أنك تعدّيت على رعيتك في حدود
الدين ، وينبغي لمن كان والياً أن يكفّ بصره عن شهواته ويزجر نفسه عن

لذاته ، ثم كتب بعده كلاماً طويلاً اختصرته ، وأنشد يقول :

وَلَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا لَسْتُ تُدْرِكُهُ	فَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِنْ فَعْلٍ أَمْرِي زَانِي
وَقَدْ أَتَانَا الْفَتَى الْمُسْكِينُ مَتَّعِبًا	يَشْكُو إِلَيْنَا بَيْثٌ ثُمَّ أَحْزَانِ
أَعْطَى الْإِلَهَ يَمِينًا لَا يَكْفُرُهَا	شَيْءٌ ، وَأَبْرَأُ مِنْ دِينِي وَإِيمَانِي
إِنْ أَنْتَ خَالَفْتَنِي فِيمَا كَتَبْتَ بِهِ	لَأَجْعَلَنَّكَ لَحْمًا بَيْنَ عِقْبَانِ
طَلَّقْ سَعَادَ وَعَجَّلْهَا مُجَهَّزَةً	مَعَ الْكُمَيْتِ وَمَعَ نَصْرِ بْنِ ذِيانِ

ثم طوى الكتاب وطبعه واستدعى بالكُميت ونصر بن ذيان ، وكان يستنصها في المهمات لأمانتها ، فأخذ الكتاب وسارا حتى قدما المدينة ، فدخلوا على مروان بن الحكم ، وسلموا عليه ، وسلموا إليه الكتاب ، وأعلماه بصورة الحال ، فصار مروان يقرأ ويبكي ، ثم قام إلى سعاد وأعلمها ، ولم يسعه مخالفة معاوية ، فطلقها بمحضير الكُميت ونصر بن ذيان ، وجهزهما وصحبتهما سعاد . ثم كتب مروان كتاباً يقول فيه هذه الأبيات :

لَا تَعْجَلَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ	أَوْفَى بِنَذْرِكَ فِي سِرٍّ وَإِعْلَانِ
وَمَا أَتَيْتُ حَرَامًا حِينَ أَعْجَبَنِي	فَكَيْفَ أَدْعَى بِاسْمِ الْخَائِنِ الزَّانِي ؟
أَعْذِرْ ، فَإِنَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَهَا لَجَرَّتْ	فِيكَ الْأُمَانِي عَلَى تَمَثُّلِ إِنْسَانِ
فَسَوْفَ يَأْتِيكَ شَمْسٌ لَيْسَ يَدْرِكُهَا	عِنْدَ الْخَلِيفَةِ مِنْ إِنْسٍ وَمِنْ جَانِ

ثم ختم الكتاب ودفعه إلى الرسولين ، وسارا حتى وصلا إلى معاوية وسلموا إليه الكتاب فقرأه وقال : لقد أحسن في الطاعة وأظن في ذكر الجارية . ثم أمر بإحضارها فلما رآها رأى صورة حسنة لم ير أحسن منها ولا مثلها في الحسن والجمال والقدر والاعتدال ، فخطبها فوجدتها فصيحة اللسان حسنة البيان ، فقال : علي بالأعرابي . فأتي به وهو في غاية من تعير الحال ، فقال : يا أعرابي ! هل لك عنها من سلوة وأعوّضك عنها ثلاث جوارٍ نُهْدٍ أبكار ، كأنهنّ الأثمار ، مع كل جارية ألف دينار ، وأقسم

لك في بيت المال كلّ سنةٍ ما يكفيك وما يغنيك .

قال : فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شهق شهقةً ظنّ معاويةً أنّه مات بها فقال له معاوية : ما بالّك بشرّ بالٍ ، وسوء حال ؟

فقال الأعرابي : استجرت بعدلك من جور ابن الحكم ، فبمن أستجير من جورك وأنشد يقول :

لا تجعلّني ، فداك الله من ملك كالمستجير من الرمضاء بالنار
اردد سعاد على حيران مكتئب يُمسي ويُصبحُ في همٍّ وتذكار
أطلقْ وثاقي ، ولا تبخل عليّ بها فإن فعلتْ فإني غير كفّار

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، لو أعطيتني الخلافةَ ما أخذتها دون سعاد ، وأنشد يقول :

أبى القلبُ إلا حبَّ سُعدى ، وبغضتْ إليّ نساءً ، ما / لهنّ ذُنُوبُ

فقال له معاوية : إنّك مُقِرٌّ بأنّك طَلَّقْتَهَا ، ومروانُ مُقِرٌّ بأنّه طَلَّقَهَا ، ونحنُ نُحَيِّرُهَا ، فإن اختارت سواك تزوّجناها ، وإن اختارتك حوّلناها إليك . قال : افعل .

فقال : ما تقولين يا سُعدى ، أيّما أحبُّ إليك ، أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وقصوره وسلطانه وأمواله وما أبصرته عنده ، أو مروانُ بنُ الحكمِ في تَعَسُّفه وجوره ، أو هذا الأعرابي في جُوعِهِ وفَقْرِهِ ، فأُنشِدت تقول :

هذا ، وإن كان في جوعٍ وأضرارٍ أعزُّ عندي من قومي ومن جاري
وصاحبِ التاجِ ، أو مروانَ عامِلَه وكلُّ ذي درهمٍ عندي ودينارٍ

ثم قالت : والله يا أمير المؤمنين ، ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ، ولا لَعَدَرَاتِ الأيام ، وإنّ له صحبةً قديمةً لا تُنسى ، ومحبةً لا تبلى ، وأنا

أحقُّ من يصبر معه في الضراء كما تنعمتُ معه في السراء .
فتعجَّب معاوية من عقلها ومودَّتها له ، وموافاتها ، فدفع لها عشرة آلاف درهم ، ودفع مثلها للأعرابي وأخذها وانصرف .

الأجوبة الهاشمية

ومن ثمرات الأوراق عن الأجوبة الهاشمية وبلاغتها في المحلِّ الرفيع ؛
فمن أجل ذلك أنه اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، رضي الله عنه ،
والوليد بن عتبة ، وعُتْبَةُ بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شُعْبَةَ ، فقالوا : يا
أمير المؤمنين ، ابعث إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، يحضر لدينا ،
قال لهم : ولمَ ؟ قالوا : كي نوبِّحَهُ ونُعرِّفَهُ أن أباه قتل عثمان . فقال لهم
معاوية : إنكم لن تطيقوه ولن تنتصفوا منه ، ولا تقولوا له شيئاً إلا
كذبكم ، ولا يقول لكم ببلاغته شيئاً إلا صدَّقه الناس . فقالوا : أرسل
إليه فلنا نكفيه .

فأرسل له معاوية ، فلمَّا حضر قال : يا حسن ! إني لم أرسل
إليك ، ولكن هؤلاء أرسلوا إليك ، فاسمع مقالتهم .
فقال الحسن رضي الله عنه : فليتكلموا ونحن نسمع .

فقام عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه ، فحمد الله وأثنى عليه .
ثم قال : يا حسن ، هل تعلم أن أباك أوَّلُ من أثار الفتنة وطلب المُلْك .
فكيف رأيتَ صنعَ الله تعالى به ؟

ثم قام الوليد بن عتبة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : يا بني
هاشم ! كنتم أصهارَ عثمان بن عفَّان ، فنعمَ الصهرُ كان لكم لقربه من

١ . انتصف منه : انتقم منه .

رسول الله ﷺ ، يقرّبكم ويُفصّلكم ، ثم بغيتم عليه وقتلتموه ، وقد أردنا قتلَ أبيك فأنقذنا الله منه ، ولو قتلناه ما كان علينا ذنب .

ثم قام عُتبة بن أبي سفيان فقال : يا حسن ، إن أباك قد تعدّى على عثمانَ فقتله حسداً على المُلْك والدينا ، فسلبها اللهُ منه ، ولقد أردنا قتلَ أبيك ، حتى قتله اللهُ تعالى .

ثم قام المغيرة بنُ شُعبة ، وقال كلاماً سبياً لعليٍّ وتعظيمًا لعثمان .

فقام الحسن ، رضي الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : بك أبدأ يا معاوية ! لم يشتمني هؤلاء ولكن أنت تشتمني بغضاً وعداوةً وخلافاً لجَدِّي رسول الله ﷺ . ثم التفتَ إلى الناس ، وقال : أنشدكم الله إنَّ الذي شتمه هؤلاء أما كان أبي ، وهو أوَّل من آمن بالله وصلى إلى القِبْلَتَيْن ، وأنت يا معاويةُ كافرٌ تُشرك بالله ؟ وكان مع أبي لواءُ النبي ﷺ يومَ بدرٍ ، ولواءُ المُشركين مع معاوية ؛ ثم قال : أنشدكم الله تعالى ، أما كان معاوية يكتب لجَدِّي ﷺ ، فأرسل إليه يوماً فرجع الرسولُ ، وقال : هو يأكل . فردَّ إليه الرسولَ ثلاثَ مراتٍ ، كل ذلك يقولُ هو يأكلُ فقال النبي ﷺ : لا أشبع الله بطنه ، يا معاوية ! أما تعرفُ ذلك من بطنك ؟ ثم قال : وأنشدكم الله أما تعلمون أنَّ معاويةَ كانَ يقودُ بأبيه ، وهو على جمل ، وأخوه هذا يسوقه ؟ فقال رسول الله ﷺ ما قال ، وأنت تعلم ذلك . هذا كلُّه لك يا معاوية .

وأما أنت يا عمرو . فقد تنازعَكَ خمسةٌ من قريش . فغلب عليك شَبَه الأَبهَم . وهو أَقلُّهم حَسَباً وأَسوأهم مَنَصَباً . ثم تَمَّت وسط قريش فقلت : إني شانيء محمدًا بثلاثين بيتاً من الشعر . فقال النبي ﷺ : اللَّهُمَّ اني لا أحسن الشعر . اللَّهُمَّ العن عمرو بن العاص بكل بيتٍ لعنةٌ ، ثم انطلقت إلى النجاشي بما عملت وعِلِمَت . فكذبتَ وردَّكَ خائباً ، فأنت تعدو بني هاشم في الجاهليَّة والإسلام . فلا نلومُكَ على بُغضِكَ الآن .

وأما أنت يا ابن أبي مُعَيْط فكيف نلومك على سبِّك لابي ، وقد جلدك أبي في الحمر ثمانين جلدةً ، وقتل أباك صبراً بأمر جدِّي ، وقتله جدِّي بأمر ربي ، ولَمَّا قَدَّمَهُ لِلْقَتْلِ قال : مَنْ لِلصَّيِّةِ بعدي يا محمد ؟ فقال جدِّي : لهم النار ، فلم يكن لهم عند جدِّي غيرُ النار ، ولم يكن لهم عند أبي غيرُ السوطِ والسيف .

وأما أنت يا عُبَّة فكيف تُعيب أحداً بالقتل ولا تُعيب نفسك ، فلم لا قتلتَ الذي وجدته على فراشِك مضاجعاً لزوجتك ؟ ثم أمسكتها بعد أن بغت .

وأما أنت يا أعورُ ثقيف ، ففي أي شيء تسبُّ عليّاً ؟ أفي بعده من رسول الله ﷺ ، أم لحكمٍ جائرٍ في رعيته في الدنيا ؟ فإن قلتَ في شيءٍ من ذلك كذبتَ وكذبتُكَ الناس ، وإن زعمتَ أن عليّاً قتلَ عثمانَ فقد كذبتَ وكذبتُكَ الناس ، وإنمَّا مَثَلُكَ كَمَثَلِ بعوضةٍ وقعت على نخلة فقالت لها : استمسكي فإني أريد أن أطير . فقالت لها النخلة : ما علمتُ بوقوعك فكيف يشقُّ عليّ طيرائِك ؟ فكيف يا أعور ثقيف يشقُّ علينا سبُّك ؟ .

ثم نَفَضَ ثيابه وقام . فقال لهم معاوية : ألم أقل لكم : لا تنتصفوا منه ، فوالله لقد أظلم عليّ البيت حتى قام .

معاوية والحسن

وروي أن معاوية رضي الله عنه ، خرج عاماً حاجّاً ، فمرَّ بالمدينة ففرَّق على أهلها أموالاً جزيلةً ، ولم يحضر الحسن بن عليّ رضي الله تعالى عنها ، فلمَّا حَضَرَ قال له معاوية : مرحباً ، مرحباً برجلٍ تركنا حتى نَفَدَ ما عندنا وتعرَّضَ لنا لبيخائنا ؟

فقال الحسن رضي الله عنه : كيف ينفد ما عندك ، وخراج الدنيا يجيء إليك ؟

فقال له معاوية : قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة ، وأنا ابنُ هند .

فقال الحسن : قد ردّدته عليك ، وأنا ابن فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

قيل : إن معاوية رضي الله عنه ، جلس يوماً بين أصحابه ، إذ أقبلت قافلتان من البرية ، فقال لبعض من كان بين يديه : انظروا هؤلاء القوم واتنوني بأخبارهم . فضوا وعادوا وقالوا : يا أمير المؤمنين ، إحداهما من اليمن والأخرى من قريش . فقال : ارجعوا إليهم وادعوا قريشاً يأتونا ، وأما أهل اليمن فينزلون في أماكنهم إلى أن نأذن لهم في الدخول .

معاوية والطّرمّاح بن الحكم

فلما دخلت قريش سلّم عليهم وقربهم وقال : أتدرون يا أهل قريش لِمَ أخّرت أهل اليمن وقربتكم ؟ قالوا : لا والله يا أمير المؤمنين . قال : لأنهم لم يزلوا يتطاولون علينا بالفخار ويقولون ما ليس فيهم ، وإنّي أريد إذا دخلوا غداً وأخذوا أماكنهم من الجلوس أن أقوم فيهم نذيراً وألتي عليهم من المسائل ما أقلُّ به إكرامهم وأرخص به مقامهم ، فإذا دخلوا وأخذوا أماكنهم من الجلوس وسألوا عن شيء فلا يُجيبهم أحدٌ غيري .

قال الراوي : وكان المقدّم عليهم رجلاً يقال له الطّرمّاح بن الحكم الباهلي ، فأقبل على أصحابه ، وقال : أتدرون يا أهل اليمن لِمَ أخّركم ابنُ هندٍ وقدم قريشاً ؟ قالوا : لا . قال : لأنه في غداة غدٍ يقوم فيكم نذيراً ويلقي عليكم من المسائل ما يقلُّ به إكرامكم ويُرخص به مقامكم ،

فلذا دخلتم عليه وأخذتم أماكنكم من الجلوس وسألكم عن شيء فلا يُجِبُّه أحدٌ غيري .

فلما كان من الغدِ دخلوا عليه وأخذوا أماكنهم فنهض معاوية قائماً على قدميه ، وقال : أيها الناسُ من تكلم قبل العرب ، وعلى من أنزلت العربية ؟

فقام الطرمّاح وقال : نحن يا معاوية ، ولم يقل يا أمير المؤمنين .
فقال : لماذا ؟

فقال : لأنه لما نزلت العربُ بيا بِلَ وكانت العبرانيةُ لسانَ الناسِ كافةً أرسل الله تعالى العربيةَ على لسانِ يَعْرَبَ بْنِ قَحْطَانَ الباهلي ، وهو جدُّنا نقرأ العربية وتداولها قومُه من بعده إلى يومنا هذا ، فنحن يا معاويةُ عربٌ بالجنسِ وأنتم عربٌ بالتعليم .

فسكت معاوية زماناً ثم رفع رأسه وقال : أيُّها الناسُ ، من أقوى العرب إيماناً ومن شُهد له بذلك ؟

فقال الطرمّاح : نحن يا معاوية .
قال : ولم ؟

قال : لأن الله بعث محمداً ﷺ فكذبتموه وسفّهتموه وجعلتموه مجنوناً ، فأويناه ونصرناه فأنزل الله : ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۝ ١ ۝ ﴾ . وكان النبي ﷺ ، محسناً لنا متجاوزاً عن سيئاتنا فلم لم تفعل أنت كذلك ؟ كأنك خالفت رسول الله ﷺ .

قال : فسكت زماناً ثم رفع رأسه وقال : أيها الناس ، من أفصح العرب لساناً ومن شُهد له بذلك ؟ .

قال الطَّرمَّاح : نحن يا معاوية .

قال : ولمَ ذلك ؟

قال : لأن امرأ القيس بن حُجر الكنديّ منّا قال في بعض قصائده :

يُطعمون الناس غيًّا في السنين المُمحلاتِ
في جفانٍ كالخَوابي وقُدورِ راسياتِ

وقد تكلم بالفاظٍ جاء مثلها في القرآن ، وشهد له رسول الله ﷺ بذلك .

قال : فسكت معاوية زماناً وقال : أيها الناس ، من أقوى العرب شجاعةً وذكرًا ومن شهد له بذلك ؟

قال الطَّرمَّاح : نحن يا معاوية .

قال : ولمَ ذلك ؟

قال : لأن منّا عمرو بن معديكرب الزبيدي ، كان فارساً في الجاهلية وفارساً في الإسلام وشهد له بذلك النبي ﷺ .

فقال له معاوية : وأين أنت وقد أُتيَ به مصفّداً بالحديد ؟

فقال له الطَّرمَّاح : ومن أتى به ؟

قال معاوية : أتى به عليّ .

قال الطَّرمَّاح : والله لو عرفت مقداره لسلمت إليه الخلافة ولا طمعت فيها أبداً .

فقال له معاوية : أتحبني يا عجزَ اليمَنِ ؟

قال : نعم أحبك يا عجزَ مُضَرَ لأن عجزَ اليمَنِ بلقيسُ آمنتُ بالله ، وتزوَّجت بنبيّه سليمان بن داود ، عليهما السلام ، وعجزَ مُضَرَ

جَدَّثَكَ التِّي قَالَ اللّٰهُ فِي حَقِّهَا : ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جَيْدِهَا حِجْلٌ
مِّن مَّسَدٍ﴾^١ .

قال : فسكت معاوية زماناً ثم رفع رأسه وقال : جزاك الله خيراً من
صاحبٍ ووفرَّ عقلكَ وَرَجِمَ سَلَفَكَ وأعطاه وأحسن إليه ، انتهى .

معاوية والأحنف بن قيس

قال الراوي : وخطب معاوية يوماً فقال : أيها الناس إن الله تعالى
قال : ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^٢ ،
فعلام تلوموني إذا قصرت عنكم في عطاياكم ؟

فقال له الأحنف بن قيس : إنا والله ما نلومك فيما في خزائن الله ،
ولكن وضعت يدك على ما أنزل الله من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلّت
بيننا وبينه .

معاوية وسودة الأسدية

ومما يروى عن الشعبي قال : استأذنت سودة بنت عُمارة بن الأسد
على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها ، فلمّا دخلت عليه قال لها : يا بنت
الأسد ألسن القائلة :

شمرّ كفعل أبيك يا ابن عُمارة . يومَ الطعانِ وملتقى الأقرانِ
وانصرّ عليّاً والحُسَيْن ورهطه . واقعدْ لِهِنْدِ وابنها بهوانِ
إنَّ الإمامَ أخا النبيِّ محمدٍ . علمَ الهُدَى ومنارةَ الإيمانِ

١ سورة الذهب ٤ .

٢ سورة الحجر ٢١ .

وقدِرَ الجيوشَ وسِرَّ أَمَامَ لَوَائِهِ وارِمِ بِأَبْيَضٍ صَارِمٍ وَسِنَانٍ
 قالت : بلى يا معاوية ، وما مثلي مَنْ رَغِبَ عَنِ الْحَقِّ واعتذر .
 قال : فما حملك على ذلك ؟
 قالت : حبُّ عليٍّ واتباعُ الحقِّ .
 قال : والله ما أرى عليك من أثر عليٍّ شيئاً .
 قالت : أنشدك الله يا معاوية ! لا تذكر ما مضى .
 قال : هيهات ! وما مثلك ، ومقامُ أخيك يُسيثني . وما لقيت من
 أخيك .
 قالت : صدقت يا معاوية ، لم يكن أخِي دَمِيمَ المَقَامِ . ولا خَبِيئاً .
 وهو والله كقول الخنساء :
 وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ
 وأنا أسألك يا معاوية إعفائك مما استعفيت به .
 قال : قد فعلتُ ، فما حاجتك ؟
 قالت : يا معاوية ، إنك أصبحتَ للناسِ سَيِّدًا ولأُمُورِهِمُ وَالِيًّا .
 واللهُ سَأَلْتُكَ عَنْ أَمْرِنَا ، وما افترضَ عليك من حَقِّنَا ، ولا تَزَالُ تُقَدِّمُ عَلَيْنَا
 مِنْ يَغْرُوكَ وَيَبْطِشُ بِسُلْطَانِكَ ، وَيَحْصِدُنَا حَصْدَ السُّبُلِ . ويدْرُسُنَا دَرَسَ
 الْعُصْفُرِ ، ويسومُنَا الْحَسْفُ ، وَيُسْلِبُنَا الْحَيْلَ . هذا ابنُ أَرْطَاةٍ قَدِمَ عَلَيْنَا
 فقتلَ رَجَالِي وَأَخَذَ مَالِي ، ولولا الطَّاعَةُ لَكَانَ فِيْنَا عِزٌّ وَمَنْعَةٌ ، فإِذَا عَزَلْتَهُ .
 فَشَكَرْنَاكَ ، وَإِذَا أَقْرَرْتَهُ فَعَرَفْنَاكَ .
 فقال لها : أبقولكِ تهديني ؟ همت أن أحملكِ على قَتَبِ جَمَلٍ

١ ولا خبيثاً : أي أنه غير معروف .

أشرسَ وأسيرك إليه لِيُنْفِذَ فيكَ أمره .

فأطرقت وبكت وأنشدت تقول :

صَلَّى .الِإِلَهُ عَلَى رُوحِ تَضَمَّنَتْهَا قَبْرُ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْحَقُّ مَدْفُونَا
قَدْ حَالَفَ الْحَقُّ لَا يَبْغِي بِهِ بَدَلًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونَا

قال : ومن ذاك ؟

قالت : أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه .

قال : ولم ؟

قالت : أتيتُهُ في رجلٍ ولَّاهُ علينا ، ولم يكن بيننا وبينه إلَّا كما بين الغثِّ والسمين ، فوجدته قائمًا يصَلِّي ، فلمَّا نظر إليَّ انفتل من صلاته . ثم قال برأفةٍ ورحمةٍ : أَلَكِ حَاجَةٌ ؟ فأخبرته فبكى . ثم قال : اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ أَنِّي لَمْ أُؤْلِهِمْ وَأَمْرَهُمْ بظلمٍ خَلَقْتُ وَلَا بتركٍ حَقُّكَ . ثم أخرج من جيبه قطعةً من جلدٍ كهَيْثَةٍ طَرَفَ الْجَوَابِ فَكَتَبَ فِيهَا :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . قد جاءَ تَكْمُ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ . فأوفوا الكَيْلَ والمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ . وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وما أنا عليكم بخفيظ . إذا قرأت كتابي هذا فاحفظ بما في يدك حتى يقدم عليك من يقبضُه منك . والسلام .

فأخذته منه وأوصلته إليه فامثل ورجع عمّا كان فيه .

فقال معاوية : أكتبوا لها بردًا ماله والعدل في حالها .

فقالت : ألي خاصة أم لي ولقومي ؟

قال : بل لك .

قالت : اذا الفحشاء واللؤم . هي والله إمّا عدلاً شاملاً . وإلا فأنا كسائر قومي . قال : اكتبوا لها بخاجتها هي وقومها .

معاوية وميسون الكلبية

ولمّا اتصلت ميسون بنت بحدل بمعاوية رضي الله عنه ، ونقلها من البدو إلى الشام كانت تُكثّر الحنين على ناسيها والتذكر لمسقط رأسها ، فاستمع عليها ذات يوم فسمعها تُنشد وتقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه	أحب إلي من قصر مُنيف
وأكل كُسيرة في كسر بيتي	أحب إلي من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فج	أحب إلي من نقر الدفوف
وئس عباءة وتقر عيني	أحب إلي من لبس الشفوف
وكلب ينبج الطراق حولي	أحب إلي من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب	أحب إلي من بغل زفوف
وخرق من بني عمي نحيف	أحب إلي من عالج عنيف

قال الراوي : فلما سمع معاوية الأبيات قال : ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتني عرجاً عنيفاً .

ملك فارس واليوم الواعظ له

حكاية أجنبية عن المقام . يُحكى أن بهراماً لما ولي الملك بعد أبيه ،

-
- ١ أرادت باليت : خيمة البدو . الأرواح : جمع ريح ، الرياح . المنيف : العالي .
 - ٢ الشفوف : الثياب الرقيقة الواحد شف .
 - ٣ البكر : الفتي من الإبل . الأظعان ، الواحدة ظعينة : المرأة ما دامت في الهودج . الزفوف : المسرع .
 - ٤ الحرق : الكزيم . العالج : الصلب الشديد من حُمُر الوحش . العنيف : الذي يُعامل بشدة .

أقبلَ على اللهو واللذات والتزّه والصيد . لا يفكر في ملكه ولا في رعيته حتى خرجت البلاد عن يده وخربت في أيامه وقلت العمارة وخلت بيوت الأموال . فلما كان في بعض الأيام ركب إلى بعض منازلِهِ وصيدِهِ ، وهو يسير نحو المدائن ، وكانت ليلةً مقمرةً ، فدعا بالمُوبدان ، وهو عند المجوس كحاخام عند اليهود والقسيس عند النصارى ، لأمر خطر بياله فجعل يحادثه فتوسطا في سيرهما بين خراباتٍ كانت من أمّهاتِ الضياع قد خربت في مدّة ملكه لا أنيسَ فيها إلا البومُ ، وإذا بيوم يصيح وصاحبته تجاوبه من تلك الخراباتِ ، فقال بهرام : أترى أن أحداً من الناس أُعطيَ فهم لغةٍ هذا الطائرِ المصوّت في الليلِ البهيم ؟

فقال المُوبدان : أيها الملك ، أنا ممن خصّه الله بذلك .

قال : فما يقول هذا الطائر وما يقول الطائر الآخر ؟

فقال المُوبدان : هذا بوم ذكر يخطب بومةً ويقول لها : متّعيني بنفسك حتى يخرجَ من بيننا أولاد يسبحون الله ويبقى لنا في هذا العالم عَقِبٌ يُكثرون الترحّم علينا . فأجابت : أن الذي تدعوني إليه لي فيه الحظُّ الأكبر والنصيبُ الأوفر في العاجل والآجل إلا أني أشرتُ عليك خِصَلاً إن أعطيتها اجبتك إلى ذلك .

فقال لها الذكر : وما تطليبه مني ؟

قالت : أن تعطيني من خراباتِ أمّهاتِ الضياع عشرين قريةً ممّا خربت في أيام هذا الملك السعيد .

فقال له الملك : فما الذي قال لها الذكر ؟

قال المُوبدان : كان من قوله لها إن دامت أيام هذا الملك السعيد قطعك منها ألف قرية خرابٍ ، فما تصنعين بها ؟

قالت : في اجتماعنا يحصلُ ظهورُ النسل وكثرةُ الذكر ، فنقطع لكل

ولدي من أولادنا ضيعةً من هذه الخرابات .

فقال لها الذكر : هذا أسهل أمر سألتنيهِ ، وأنا مليء بذلك ما حيي هذا الملك .

فلما سمع الكلام من الموبدان تأثر في نفسه واستيقظ من نومه وفكر فيما خُوطب به فنزل من ساعته ونزل بنزوله الناس وخلا بالموبدان ، فقال : أيها القائم بأمر الدين الناصح للملك والمنبّه له عما أغفله من أمور ملكه وإضاعة بلاده ورعيته ، ما هذا الكلام الذي خاطبني به فقد حركت مني ما كان ساكناً .

فقال الموبدان : صادفتُ من الملك السعيد وقتَ سعدِ العبادِ والبلادِ فجعلتُ الكلامَ مثلاً وموعظةً على لسان الطائر عندَ سؤال الملكِ إياي عما سأل .

فقال له الملك : أيها الناصحُ ، اكشف لي عن هذا الغرض ، ما المراد منه ؟

فقال : أيها الملك ، إن الأمر لا يتمّ إلا بالشرعية والقيامِ لله بطاعته ولا قوامَ للشرعية إلا بالملك ولا عزٌّ للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمال ، ولا سبيل للمال إلا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة إلا بالعدل ، وهو الميزان المنصوب بين الخليقة ، نصبه الرب ، جلّ وعلا ، وجعل له قِيَمًا ، وهو الملك .

فقال الملك : أمّا ما وصفت فحقّ فأين لي عما إليه تقصد وأوضح لي في البيان .

قال : نعم أيها الملك ، إنك عمدت إلى الضياع فأقطعتها الخدم وأهل البطالة فعمدوا إلى ما تعجّل من غلاتها فاستعجلوا المنفعة وتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يُصلح الضياع ، وسوّحوا في الخراج لقرّبهم من

الملك . ووقع الحيف على الرعية وعمار الضياع . فانجلوا عن ضياعهم .
وقلت الأموال وهلك الجنود والرعية وطمع في ملك فارس من أطاف بها
من الملوك والأمم لعلمهم بانقطاع المواد التي بسببها تستقيم دعائم الملك .
فلما سمع الملك ذلك أقام في موضعه ثلاثة أيام وأحضر الوزراء
والكتاب وأرباب الدواوين فانترعت الضياع من أيدي الخاصة والحاشية
وردت إلى أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمار وقوي
من ضعف منهم فعمرت البلاد بذلك وأخصبت وكثرت الأموال عند الجباة
وقويت الجنود وانقطعت مواد الأعداء وأقبل الملك يباشر الأمور بنفسه
فحسنت سيرته وانتظم مثلكه حتى كانت أيامه بعده تدعى بالأعياد مما عم
الناس من الخصب وشملهم من العدل .

العاشق ذو المروعة

حكاية أخرى أجنبية . حكى عن الأصمعي أنه قال : دخلت البصرة
أريد بادية بني سعد ، وكان على البصرة يومئذ خالد بن عبد الله القسري ،
فدخلت عليه يوماً فوجدت قوماً متعلقين بشاب ذي جمال وكمال وأدب
ظاهر ، بوجه زاهر حسن الصورة طيب الرائحة جميل البزة ، عليه سكينه
ووقار ، فقدّموه إلى خالد فسألهم عن قصته فقالوا : هذا لصّ أظنناه
البارحة في منازلنا . فنظر إليه فأعجبه حسن هيئته ونظافته ، فقال : خلوا
عنه . ثم أدناه منه وسأله عن قصته ، فقال : إن القول ما قالوه والأمر
على ما ذكروه .

فقال له : ما حملك على ذلك وأنت في هيئة جميلة وصورة حسنة ؟
قال : حملني الشر في الدنيا . وبذا قضى الله سبحانه وتعالى .
فقال له خالد : ثكلتك أمك . أما كان لك في جمال وجهك وكمال

عقلك وحسن أدبك زاجرٌ لك عن السرقة .

قال : دع عنك هذا أيها الأمير . وانفذ ما أمرك الله تعالى به .
فذلك بما كسبت يداي . وما الله بظلامٍ للعبيد .

فسكت خالد ساعة يفكر في أمر الفتى ثم أدناه منه وقال له : إن
اعترافك على رؤوس الأشهاد قد رآني وأنا ما أظنك سارقاً . وإن لك
قصةً غير السرقة فاخبرني بها .

فقال : أيها الأمير ، لا يقع في نفسك سوى ما اعترفت به عندك ،
وليس لي قصة أشرحها لك إلا أني دخلت دار هؤلاء فسرقت منها مالاً
فأدركوني وأخذوه مني وحملوني إليك .

فأمر خالد بحبسه وأمر منادياً ينادي في البصرة : ألا من أحب أن ينظر
إلى عقوبة فلان اللص وقطع يده فليحضر من الغد .

فلما استقرّ الفتى في الحبس ووضِعَ في رجليه الحديدُ نفّس
الصُّعداء ، ثم أنشأ يقول :

هدّني خالدٌ بقطع يدي إن لم أُبْحَ عنده بقصّتها
فقلتُ : هيات أن أبوحَ بما تضمّن القلبُ من محبتها
قطعُ يدي بالذي اعترفتُ به أهونُ للقلب من فضيحتها

فسمعه الموكلون به فأتوا خالداً وأخبروه بذلك . فلما جنّ الليلُ أمر
بإحضاره عنده . فلما حضر استنطقه فرآه أديباً عاقلاً ليلاً ظريفاً فأعجب به
فأمر له بطعام فأكلا وتحادثا ساعة . ثم قال له خالد : قد علمتُ أن لك
قصةً غير السرقة . فإذا كان غداً وحضر الناس والقضاة وسألتك عن
السرقة فانكرها واذكر فيها شُبهاتٍ تدرأُ عنك القطع . فقد قال رسول الله
ﷺ : « ادعوا الحدود بالشبهات » .

ثم أمر به إلى السجن ، فلما أصبح الناس لم يبقَ بالبصرة رجلٌ ولا امرأةٌ إلا حضرَ ليرى عقوبةَ ذلك الفتى ، وركب خالدٌ ومعه وجوهُ أهلِ البصرة وغيرهم ، ثم دعا بالقضاةِ وأمر بإحضار الفتى . فأقبل يحجل^١ في قيوده . ولم يبقَ أحدٌ من النساء إلا بكى عليه وارتفعت أصواتُ النساء بالبكاء والنحيب . فأمر بتسكيت الناس . ثم قال له خالد : إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت ما لهم فما تقول ؟

قال : صدقوا أيها الأمير ، دخلت دارهم وسرقت ما لهم .

قال خالد : لعلك سرقت دون النصاب .

قال : بل سرقت نصاباً كاملاً .

قال : فلعلك سرقته من غير حرز^٢ مثله ؟

قال : بل من حرز مثله .

قال : فلعلك شريكُ القوم في شيء منه ؟

قال : بل هو جميعه لهم لا حقَّ لي فيه .

فغضب خالد وقام إليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط ، وقال متمثلاً بهذا البيت :

يريدُ المرءُ أن يُعطى مَناهُ وَيَأْبَى اللهَ إِلَّا ما أَرادَا

ثم دعا بالجلادِ ليقطعَ يده . فحضر وأخرج السكين ، ومدَّ يده ووضع عليها السكين . فبرزت جارية من صفِّ النساء عليها آثار وسخ ، فصرخت ورمت بنفسها عليه . ثم أسفرت عن وجهٍ كأنه البدر وارتفع للناس ضجةٌ عظيمةٌ كاد أن تقع منها فتنة . ثم نادى بأعلى صوتها :

١ يحجل : يقفز على الرجلين معاً .

٢ الحرز : كل ما يحرز أي يُحفظ ويجمع .

إليه رقعةً فنصَّها خالدٌ فإذا هي مكتوب فيها :

أخالدُ هذا مستهَامٌ متيِّمٌ رمتَه لحاظي من قُسيِّ الحَمَالِقِ^١
 فأصماه سَهْمُ اللحْظِ مني فقلْبُه حليفُ الجَوَى من دائِه غير فائقِ^٢
 أقرَّ بما لم يقترِفُه لآئِه رأى ذاك خيراً من هتيكَةِ عاشقِ
 فهلاً على الصَّبِّ الكَثيبِ لآئِه كريمُ السجايَا في الهوى غير سارقِ

فلَمَّا قرأ الأبيات تنحَّى وانعزل عن الناس وأحضر المرأة ، ثم سأها عن القصة ، فأخبرته أن هذا الفتى عاشق لها وهي له كذلك ، وأنه أراد زيارتها وأن يعلمها بمكانه ، فرمى بحجر إلى الدار ، فسمع أبوها واخوتها صوتُ الحجر ، فصعدوا إليه ، فلَمَّا أَحَسَّ بهم جمع قِماشَ البيت كله وجعله صرَّةً ، فأخذوه وقالوا : هذا سارق وأتوا به إليك فاعترف بالسرقة وأصرَّ على ذلك حتى لا يفضخني بين اخوتي ، وهان عليه قطعُ يده لكي يستر عليّ ولا يفضخني . كل ذلك لغزارة مروءته وكرم نفسه .

فقال خالد : إنه خليق بذلك .

ثم استدعى الفتى إليه وقَبَّل ما بين عينيه وأمرَ بإحضار أبي الجارية وقال له : يا شيخ إنا كنَّا عزمنا على إنفاذ الحكم في هذا الفتى بالقطع ، وإن الله عصمه من ذلك ، وقد أمرت له بعشرة آلاف درهمٍ لبذلِه يده وحفظه لعرضك وعرض ابنتك وصيانتَه لكما من العار ، وقد أمرتُ لابنتك بعشرة آلاف درهم ، وأنا أسألك أن تأذن لي في تزويجها منه .

فقال الشيخ : قد أذنت أيها الأمير بذلك .

قال : فحمد الله وأثنى عليه وخطب خطبة حسنة وقال للفتى : قد

١ الحمالق ، الواحد حملاق : باطن جفن العين .

٢ أحماه : رماه فقتله . غير فائق : أرادت غير مُقَيِّق ، ولا تؤدِّي فائق هذا المعنى .

وقدره عشرة آلاف درهم .

فقال الفتى : قبلت منك هذا التزويج .

وأمر بحمل المال إلى دار الفتى مزفوفاً في الصواني ، وانصرف الناس مسرورين ولم يبقَ أحد في سوق البصرة إلا نثر عليها اللوز والسكر حتى دخلا منزلها مسرورين مزفوفين .

قال الأصمعيّ : فما رأيت يوماً أعجب منه أوله بكاء وترح وآخره سرور وفرح .

جعفر بن سليمان والعاشقان

وهذه حكاية تشابه ما تقدّم . قال حمّاد الراوية : كنت عند جعفر بن سليمان بالبصرة إذ أتني بشاب حسن الوجه ، ومعه جارية كأنها قضيب بان ، فقال صاحب الشرطة : أصلح الله الأمير ، إني وجدت هذا وهذه مجتمعين في خلوة وليس لها بمحرم .

فقال جعفر للفتى : ما تقول ؟

فقال : صدق ولقد طال والله غرامي بها منذ ثلاث سنين والله ما أمكنني الخلوة بها إلا في هذا الوقت ، وأنشد يقول :

تَمَنَيْتُ مِنْ رَبِّي أَفْوَزَ بِقَرِيبِهَا فَلَمَّا تَهَيَّأَ لِي الْمُنَى عَاقَهُ الْعُسْرُ
فَوَاللَّهِ بَلْ وَاللَّهِ مَا كَانَ رِيْبَةً وَمَا كَانَ إِلَّا اللَّفْظُ وَالْصِّحْكُ وَالْبِشْرُ
فَدُونَكُمْ جَلْدِي وَلَا تَجْلِدُونَهَا فَكَمْ مِنْ حَرَامٍ كَانَ مِنْ دُونِهِ سِتْرُ

قال : فجعلت الجارية تبكي بكاءً شديداً فقال لها : وأنتِ لِمَ

تَبْكِينَ ؟

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ شَفَقَةٌ مِمَّا حَلَّ بِنَا وَكَيْفَ احْتَلَتْ حَتَّى خَرَجْتُ وَكَيْفَ
بُلَيْنَا بِهِذِهِ الْبَلِيَّةِ ؟

قَالَ : أَتَحْيِيَنَّهُ ؟

قَالَتْ : فَلِمَ عَرَّرْتُ بِنَفْسِي ؟

قَالَ لَهَا : أَنْتِ حُرَّةٌ أَمْ مَمْلُوكَةٌ ؟

قَالَتْ : بِلَ مَمْلُوكَةٌ .

فَأَمَرَهَا فَدَخَلَتْ الدَّارَ وَأَحْضَرَ مَوْلَاهَا فَاشْتَرَاهَا مِنْهُ بِمِائَتِي دِينَارٍ وَأَعْتَقَهَا
وَزَوَّجَهَا الْفَتَى وَوَهَبَ لَهُ مِائَةَ دِينَارٍ وَكَسَاهَا ، فَأَنْشَدَ الْفَتَى يَقُولُ :

لَقَدْ جُدْتَ يَا ابْنَ الْأَكْرَمِينَ بِنِعْمَةٍ جَمَعْتَ بَيْنَ الْمُحِبِّينِ فِي سِتْرِ
فَلَا زِلْتَ بِالْإِحْسَانِ كَهَفًا وَمُلْجَأً وَقَدْ جَلَّ مَا قَدْ كَانَ مِنْكَ عَنِ الشُّكْرِ

قَالَ : فَضَحِكَ وَأَمَرَ لَهَا بِجَائِزَةٍ وَانْصَرَفَا مَسْرُورِينَ .

في أيام دولة عبد الملك بن مروان

وهو أول من تسمّى عبد الملك في الإسلام ، وكان يُلقَّب برشح الحجر . ذكره في حياة الحيوان .

وذكر محمد بن واسع الهيثي أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى الحجاج بن يوسف ، إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسيّر لي ثلاث جوار مولّدات نُهدّ أبكار يكون إليهنّ المُنتهى في الجمال ، واكتب لي بصفة كل واحدة منهنّ ومبلغ ثمنها في المال .

فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنّخّاسين^١ ، ثم أمرهم بما أمر به أمير المؤمنين ، وأمرهم أن يغوصوا في البلاد حتى يقعوا على الغرض ، فلم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا على الغرض ، ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوارٍ نهد أبكار مولّدات ليس لهنّ مثيل .

وكان الحجاج فصيحاً ، فجعل ينظر إلى كل واحدة منهنّ وثمنها من المال ، فوجدهنّ لا يُقوِّمن بقيمة ، وأنّ ثمنهنّ ثمنٌ واحدةٍ منهنّ . ثم كتب كتاباً

١ لقّب عبد الملك برشح الحجر لبخله (ابن الأثير) .

٢ النهد : الواحدة ناهد : وهي المرأة التي اتبرئتها . المولّدات : المولودات بين العرب .

٣ النخاسون ، الواحدة نخاس : تاجر الرقيق .

إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه : بعد الثناء الجميل وصلني كتاب أمير المؤمنين ، متعني الله تعالى ببقائه ، يأمر فيه أن أشتري له ثلاث جوار مولدات نهد أبكار ، وأن أكتب له بصفة كل واحدة منهن وثمنها . أما الجارية الأولى ، أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، فإنها لطيفة السوالف ، عظيمة الروادف^١ ، كحلاء العينين ، حمراء الوجنتين ، قد نهد نهداها والتف فخذها ، كأنها ذهب شيب^٢ بفضة^٣ ، وهي كما قيل :

بيضاء في طرفها دَعَجٌ يَزِينُهَا كأنها فضة قد شابها ذهب^٤

وثمنها يا أمير المؤمنين ، ثلاثون ألف درهم .

وأما الجارية الثانية فإنها فائقة في الجمال معتدلة القد والكمال يشفي السقيم كلامها الرخيم ، وثمنها يا أمير المؤمنين ، ثلاثون ألف درهم .

وأما الجارية الثالثة ، فإنها فاترة الطرف لطيفة الكاف عظيمة الردف شاكرة للقليل مساعدة للخليل ، بديعة الجمال ، كأنها خشف غزال ، وثمنها يا أمير المؤمنين ، ثمانون ألف درهم .

ثم أطنب في الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا بالخناسين وقال : تجهزوا للسفر بهؤلاء الجواري لأمر المؤمنين ا هـ . فقال أحد النخاسين : أيّد الله الأمير : إني رجل كبير وضعيف عن السفر ولي ولد ينوب عني فتأذن لي أن أجهزه ؟

قال : نعم .

فتجهّزوا وخرجوا فني بعض مسيرهم نزلوا كيستريحوا في بعض الأماكن

١ السوالف ، الواحدة سالفة : صفحة العنق . الروادف : الاعجاز .

٢ شيب ، مجهول شاب : خلط .

٣ الدّعج ، بفتح العين ، وسكن مراعاة لوزن الشعر : شدة سواد العين مع سعتها .

٤ الخشف : ولد الغزال أول ما يولد .

فنامت الجواري فهبت ريح فانكشفت إحداهن . وهي الكوفية فظهر نور
ساطع وكان اسمها مكتوم ، فنظر إليها ابن النخاس . وكان شاباً جميلاً
ففتن بها لساعته . فأتاها على غفلة من أصحابه وجعل يقول :

أمكتوم عيني لا تملّ من البكا وقلبي بأسهام الأسى يترشق
أمكتوم ! كم من عاشق قتل الهوى وقلبي رهين كيف لا أتعشق ؟

فأجابته تقول :

لو كان حقاً ما تقول لزررتنا ليلاً ، إذا هجعت عيون الحسد

فلما جنّ الليل . انقضّ ابن النخاس بسيفه وأتى نحو الجارية فوجدها
قائمة تنتظر قدمه ، فأخذها وأراد الهرب بها ففطن به أصحابه فأخذوه
وكتفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد
الملك .

فلما قدموا بالجواري بين يديه ، أخذ الكتاب وفتح وقرأه فوجد الصفة
موافقة في اثنتين ولم توافق في الثالثة ، ورأى بوجهها صفرة ، وهي الجارية
الكوفية ، فقال للنخاسين : ما بال هذه الجارية لم توافق الصفة التي ذكرها
الحجاج في كتابه ، وما هذا الإصفرار الذي بها ، وهذا النحول ؟
فقالوا : يا أمير المؤمنين . نقول وعلينا الأمان .

قال : إن صدقتم أمتم ؛ وإن كذبتهم هلكتم .

فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى ، وهو مصفّد بالحديد ، فلما قدموه
بين يدي أمير المؤمنين وأخبروه بما فعل بكى بكاءً شديداً وأيقن بالعذاب ثم
أنشأ يقول :

أمير المؤمنين أتيتُ رغماً وقد سُدتْ إلى عُنِّي يدَيَّ
مُقيراً بالقيحِ وسوءِ فعلي ولست بما رُميتُ به برياً

فإن تقتلُ فوقَ القتلِ ذنبي وإن تَعَفُّ فمن جُودٍ عليًّا

فقال له عبد الملك : يا فتى ما حملك على ما فعلت ؟ أستخفاً بنا أم هوَى للجارية ؟

فقال : وحقك يا أمير المؤمنين ، وعظيم قدرك ، ما هو إلا هوَى للجارية .

فقال : هي لك بما أُعِدَّ لها .

فأخذ الغلام الجارية بكل ما أُعِدَّ لها أمير المؤمنين من الحلى والجُبان وسار بها فرحاً مسروراً حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا منزلاً ليلاً فتعانقا . فلما أصبح الصباح وأراد الناس الرحيل ، نهوهما فوجداً ميتين . فبكو عليهما ودفنوهما في الطريق . ومضى خبرهما إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فبكى عليهما وتعجب من ذلك .

شجرة العروسين

وهذه حكاية تشابهها في العشق . حكى عن عبد الله بن معمر القيسي أنه قال : حججتُ سنةً إلى بيت الله الحرام ، فلما قضيتُ حجِّي عدتُ لزيارة قبر النبي ﷺ ، فبينما أنا ذات ليلة جالس بين القبر والروضة إذ سمعتُ أنيناً عالياً وحنيناً بادياً ، فأنصتُ إليه ، فإذا هو يقول هذه الأبيات :

أَشْجَاكِ نَوْحُ حَائِمِ السُّدْرِ فَأَهْجَنَ مِنْكَ بِلَابِلَ الصَّدْرِ
أُمَ عَزَّ نَوْمُكَ ذَكَرُ غَانِيَةٍ أَهْدَتْ إِلَيْكَ وَسَاوَسَ الْفِكْرُ^٣

١ الجان ، الواحدة جانة : اللؤلؤ .

٢ شجاك : أحزنك . السدر : شجر النبق . البلابل : شدة الهموم ، الواحد بلبال .

٣ عز نومك : غلبه .

يا ليلةً طالت على دَنَفٍ يشكو العَرَامَ وَقَلَّةَ الصَّبْرِ
أَسَلَمْتُ من يهوى لحرِّ جَوَى متوقِّدٍ كَتَوَقَّدِ الجَمْرِ
فالبدر يشهدُ أنني كَلِفْتُ مغرى بحب شبيهة البدرِ
ما كنتُ أحسبُني بها شَجِنًا حتى بُلِّيتُ وكنْتُ لا أدري

قال : ثم انقطع الصوت ولم أدرِ من أين جاءني فبقيت حائرة ، وإذا به قد أعاد البكاء والحنين وأنشأ يقول هذه الأبيات :

أَشْجَاكَ من رِيَا خيالٍ زائرٍ والليلُ مسودُّ الذوائبِ عاكِرُ
واقْتَادَ مقلَّتْكَ الهوى برسيسه واحتاجَ مقلَّتْكَ الخيالُ الزاهرُ
ناديتُ ليلي ، والظلام كَأَنَّهُ يَمُّ تَلَاطَمَ فيه موجُ زَاخِرُ
والبدرُ يسري في السماء كَأَنَّهُ ملكُ ترحل ، والنجومُ عساكِرُ
يا ليلُ ! طُلْتُ على محبٍّ مَا لَهُ إِلَّا الصباحُ مساعدُ وموازِرُ
فأجابني : مت حتفَ أنْفِكَ واعْلَمَنَّ أن الهوى هو الهوانُ الحاضرُ

قال : فنهضت عند ابتدائه الأبيات أوْمُ الصوت فما انتهى لآخر الأبيات إلا وأنا عنده ، فرأيتُ غلاماً ما سال عذاره . وقد خَرَقَ الدمعُ وجنتيه خرقين . فقلت : نَعِمْتَ غلاماً !

فقال : وأنت . فمن الرجل ؟

قلت : عبد الله بن مَعَمَرِ القيسي .

قال : أفلك حاجة ؟

قلت له : كنت جالساً في الروضة ، فما راعني في هذه الليلة إلا صوتُك فبنفسي أفديك ، ما الذي تجده ؟

١ العاكر : ضد الصافي .

٢ رسيس الحب : أوله .

قال : اجلس ! فجلست . قال : أنا عتبة بن الحُبَّاب بن المنذر بن
الجموح الأنصاري . غدوت إلى مسجد الأخراب فبقيت راكعاً وساجداً
ثم اعتزلت غير بعيد ، فإذا بنسوة يتهادين كالأقمار ، وفي وسطهنَّ جارية
بديعة الجمال كاملة الملاحاة فوقفت عليّ . وقالت : يا عتبة ، ما تقولُ في
وصلٍ من يطلبُ وصلك ؟ ثم تركتني وذهبت . فلم أسمع لها خبراً ولا وقفت
لها على أثر . فأنا حيران أتنتقل من مكان إلى مكان .

ثم صرخ وانكبَّ على الأرض مغشياً عليه ، ثم أفاق كأنما صُبغت
دياجتاً خدي به بؤرساً ثم أنشد يقول هذه الأبيات :

أراكم بقلبي من بلاد بعيدة تُراكم تروني بالقلوب على بُعد
فؤادي وطرفي بأسفانٍ عليكم وعندكم روعي وذكركم عندي
ولستُ ألدُّ العيشَ حتى أراكم ولو كنت في الفردوس أوجتَ الخلد

قال ، فقلت له : يا ابن أخي تُبُّ إلى ربِّك واستقلَّ من ذنبك ،
فإن بين يديك هولَ المُطَّلَع^٢ .

فقال : هيهات ما أنا بسالٍ حتى يثوبَ القارطان^٣ .

ولم أزل به حتى طلع الفجر ، فقلت : قم بنا إلى مسجد الأخراب ،
فقمنا إليه فجلسنا حتى صلبنا الظهر ، وإذا بنسوة قد أقبلن وأماً الجارية
فليست فيهنَّ . فقلن : يا عتبة ما ظنك بطالبة وصلك وكاشفة ما بك ؟
قال : وما بالها قلن : أخذها أبوها وارتحل إلى السماوة . فسألتهنَّ على
الجارية فقلن : هي ريا بنت الغطريف السلمي ، فرفع رأسه وأنشأ يقول :

١ الورس : نبات كالسمسم يصبغ به صباغاً أصفر .

٢ هولَّ المُطَّلَع : خوف الموقف يوم القيامة .

٣ من أمثال العرب في الغائب لا يُرجى إيا به . والقارطان رجلان من غرة ذهابا يجنيان
القرظ ، وهو شجر يديغ ويصبغ بورقه وثمره ؛ ففقدا ؛ يقول هنا إنه لا يسلو حتى
يعود القارطان ، أي أنه لن يسلو أبداً .

خليلي ! رَيَّا قد أَجَدَّ بِكُورُهَا وسار إلى أرض السِماوة عيرُها
خليلي ! إني قد عَيَّيت عن البكا فهل عند غيري عبرةٌ أَسْتَعِيرُها ؟

فقلت له : يا عتبة إني وردت بمال جزيل أريد به أهل السَتر ،
ووالله لأبذلُّهُ أمامَكَ حتى تبلغ رضاكَ وفوق الرضا . قم بنا إلى مسجد
الأنصار ، فقمنا حتى أشرفنا على مائهم فسلمت فأحسنوا الردَّ ثم قلت :
أيها الملأُ ، ما تقولون في عتبة وأبيه ؟ قالوا : من سادات العرب . قلت :
فإنه رُمي بداهية من الهوى فأريد منكم المساعدة إلى السِماوة . قالوا : سماعاً
وطاعة .

وركبنا وركب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بني سُليم فأعلم
الغطريف بمكاننا فخرج مبادراً واستقبلنا وقال : حُيِّئْمْ يا كرام ! قلنا :
وأنت حيث ، إنا لك أضيافُ ، فقال : نزلتم بأكرم منزل .

ثم نادى : يا معشرَ العبيد انزلوا . فترلتِ العبيدُ ففرشتُ الأنطاع
والتمارق^١ وذُبحَت النعم والغنم . فقلنا : لسنا بذائقين طعامك حتى تقضي
حاجتنا . قال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب ابنتك الكريمة لعتبة بن
الحَبَّاب بن المنذر العالي الفخر الطيب العنصر . فقال : يا أخي إن التي
تخطبونها أمرُها إلى نفسها ، وأنا أدخلُ وأخبرُها .

ثم نهض مغضباً ودخل إلى رَيَّا فقالت : يا أبتى ! ما لي أرى الغضب
بين عينيك ؟ فقال : ورد عليَّ قوم من الأنصار يخطبونك مني . فقالت :
سادات كرام استغفر لهم النبي ﷺ فلمن الخطبة فيهم ؟ قال : لفتى يُعرف
بعتبة بن الحَبَّاب . قالت : سمعت عن عتبة هذا أنه يني بما وعد ويدرك ما
طلب . قال : أقسمت لا أزوجك به أبداً فقد نَمَى إليَّ بعضُ حديثك

١ الأنطاع . الواحد نطع : بساط من جلد . التمارق ، الواحدة نمرقة : الوسادة
الصغيرة يتكأ عليها .

معه . قالت : ما كان ذلك ؟ قال : ولكن أقسمت أني ما أزوّجك به .
 قالت : أحسن إليهم فإن الأنصار لا يردّون ردّاً قبيحاً ، فأحسن الردّ .
 قال : بأي شيء ؟ قالت : أغلظ عليهم المهر فإنهم يرجعون . قال : ما
 أحسن ما قلت .

ثم خرج مبادراً . فقال : إن فتاة الحيّ قد أجابت ولكن أريد لها مهر
 مثلها . فمن القائم به ؟

قال عبد الله فقلت : أنا !

فقال : أريد لها ألف سوار من ذهب أحمر ، وخمسة آلاف درهم
 من ضرب هجر ، ومائة ثوب من الأبراد والجبر ، وخمسة أكرشة^١ من
 لعنبر .

قال قلت : لك ذلك ، فهل أجبت ؟

قال : أجل .

فأنفذ عبد الله نفراً من الأنصار إلى المدينة المنورة فأتوا بجميع ما ضمنه
 وذبحت النعم والغنم ، واجتمع الناس لأكل الطعام . قال : فأقننا على هذا
 الحال أربعين يوماً . ثم قال : خذوا فتاتكم فحملناها على هودج وجهّزها
 بثلاثين راحلة من التحف ثم ودّعنا وانصرف ، وسرنا حتى إذا بقي بيننا وبين
 المدينة المنورة مرحلة خرجت علينا خيل تريد الغارة ، وأحسب أنها من بني
 سُلَيم ، فحمل عليها عتبة بن الحُبّاب فقتل عدة رجال وانحرف راجعاً وبه
 طعنة ، ثم سقط إلى الأرض . وأتتنا النُصرة من سكّان تلك الأرض
 فطردوا عنّا الخيل ، وقد قضى عتبة نحبه . فقلنا : واعْتَبَاه ! فسمعنا
 الجارية نقول واعتباه ، فألقت نفسها من فوق البعير وانكبّت عليه وجعلت
 تصيح وتقول بحرقة :

١ الأكرشة . الواحد كرش : الوعاء من الطيب .

تصَبَّرْتُ لا أَنِّي صَبَرْتُ ، وإنما أُعَلِّلُ نفسي أنها بك لاحقة
ولوأُنصَفَتْ رُوحِي لكانت ، إلى الردى أَمَامَكَ من دون البرية ، سابقة
فما أَحَدٌ بعدي وبعذك منصف خليلاً ، ولا نفسٌ لنفس موافقة

ثم شهقت شهقة قضت نحبا . واحتفنا لهما قبرا واحداً وواريناها في
التراب ، ورجعتُ إلى ديار قومي وأُقيت سبع سنين ، ثم عدت إلى الحجاز
ووردت المدينة المنورة للزيارة فقلت : لأعودنَّ إلى قبر عتبة ، فأُتيت إلى
القبر ، فإذا شجرة عليها عصائبُ حمر وصفر وخضر ، فقلت لأرباب
المنزل : ما يقال لهذه الشجرة ؟ فقالوا : شجرة العروسين ، فأُقيت عند
القبر يوماً وليلة وانصرفت وكان آخر العهد به .

العاشق الكتوم

ومثل ما تقدّم من العشق وما ورد في كتابان الهوى مع تحقّق النظر عند
إعلانه . ما حُكي عن بعض المعمرين من ذوي النعم قال : بينما أنا في
متزلي إذ دخل عليّ خادم لي ومعه كتاب ، فقال : رجل بالباب دفع إليّ هذا
الكتاب ففتحتّه فإذا فيه :

تَجَبَّبَكَ البلاء . ونلتَ خيراً ونجاكَ المليكُ من الغُومِ
فعندكَ . لومنت . شفاءً نفسي وأعضاءُ ضنينَ من الكُلومِ

فقلت : عاشق والله . وقلت للخادم : اخرج وائتني به . فخرج فلم
يرَ أحداً فعجبت من أمره وأحضرت الجوّاري كلّهن من يخرج منهنّ ومن لم
يخرج منهنّ وسألتهن عن ذلك فحلفن أنهن لا يعرفن من حديث هذا
الكتاب شيئاً ، فقلت : إني لم أفعل ذلك بخلاً بمن يهوى منكن . فهن
عرّفت بحال هذا الفتى ، فهي هبةٌ مِنِّي له بما لها ومائة دينار .

وكتبت جوابه أشكره على ذلك وأسأله قبولها ووضعت الكتاب في جنب البيت ومائة دينار ، وقلت : من عرف شيئاً فليأخذه . فمكث الكتاب والذهب أياماً لا يأخذه أحد ، فغمّني ذلك ، وقلت : هذا قَنِعَ ممن يحبه بالنظر ، فنتعت من يخرج من جوارِي من الخروج . فما كان إلا يوماً أو بعض يوم إذ دخل عليّ الخادم ومعه كتاب . وقال هذا من بعض أصدقائك بعث به إليك . فقلت : اخرج واثنني به . فخرج فلم يجده ففتحت الكتاب فإذا فيه :

ماذا أتيتَ إلى روحٍ معلقةٍ	عند التراقي . وحادي الموت حادياً
حسّيتَ حاديها ظلماً ، فجَدَّ بها	في السير حتى تخلت عن تراقبها
والله لو قيل لي : تأتي بفاحشةٍ	وإن عُقبك دُنيانا وما فيها
لقلتُ : لا والذي أخشى عُقوبته	ولا بأضعافها ما كنتُ آتياً
لولا الحياءُ لبخنا بالذي سكنت	بيت الفؤاد وأبدينا أمانها

قال : فغمّني أمره فقلت للخادم : لا يأتيتك أحدٌ بكتابٍ إلا قبضت عليه . قال : وقرب موسم الحجّ . قال : فبينما أنا قد أفضت من عرفة ، وإذا فتى إلى جانبي على ناقة لم يبقَ منه إلا الخيال ، فسلم عليّ فرددت عليه السلام ورحبت به ، فقال : أتعرفني ؟ فقلت : وما أنكرُك بسوء . فقال : أنا صاحب الكتاين . فانكبت عليه فقلت له : يا أخي لقد غمّني أمرُك وأقلقني كتمانك لنفسك ووهبت لك طلبك ومائة دينار . فقال : بارك الله لك إنما أتيتك مستحلاً من نظرٍ كنتُ أنظره على غير حكم الكتاب والسنة . فقلت : غفر الله لك وللجارية فسر معي إلى منزلي لأسلمها إليك ومائة دينار مثلها في كل سنة . فقال : لا حاجة لي بذلك . فألححتُ عليه فلم يفعل . فقلت له : أما إذا أبيت فعرّفتني من هي من جوارِي لأكرمها من أجلك ما حييت . فقال : ما كنت لأسميها لأحد . وودّعني وانصرف وكان آخر العهد به ، انتهى .

تولية الحجاج للعراق

ونعود إلى الكلام على ما وقع في زمان عبد الملك بن مروان . روي أنه لما ولي الحجاج الحرمين الشريفين حظي عنده إبراهيم بن محمد بن طلحة فلما أراد الحجاج الرجوع إلى الشام إلى عبد الملك بن مروان ، وفد معه إبراهيم بن محمد بن طلحة وقال : أتيتك برجل الحجاز في الشرف والأبوة والفضل والمروءة يا أمير المؤمنين ، مع ما هو عليه من حسن الطاعة وجميل المناصحة . والله لم يكن في الحجاز له نظير . فبالله عليك يا أمير المؤمنين ، إلا فعلت معه من الخير ما هو مستحقه ؟

فقال عبد الملك : من هو يا أبا محمد ؟

قال له : إبراهيم بن محمد بن طلحة .

قال : يا أبا محمد لقد ذكرتنا بحق واجب ائذن له في الدخول .

فلما دخل على عبد الملك أمر بجلوسه في صدر المجلس ثم قال : إن أبا محمد الحجاج ذكر لنا ما نعرفه من كمال مروءتك وحسن نصيحتك ، فلا تدع في صدرك حاجة إلا أعلمتنا بها حتى نقضيها لك ولا نضيع شكر أبي محمد الحجاج فيك .

قال إبراهيم : إن الحاجة التي نبغي بها وجه الله تعالى والتقرب إلى النبي ﷺ في القيامة نصيحة أمير المؤمنين . قال : قل !

قال : لا أقولها وبينك ثالث .

قال : ولا صديقك الحجاج ؟

قال : لا .

قال : قم .

فقام خجلاً وهو لا يعرف أين تطأ رجله ، فلما مضى قال له : هات نصيحتك .

فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين ، وليت الحجاج الحرمين الشريفين وفيهما من تعرف من أولاد المهاجرين والأنصار وصحابة رسول الله ﷺ مع ما تعلمه من ظلمه وفسقه وجوره وبُعده من الحق وقربه إلى الباطل ، يسوئهم الخسف ويطوهم بالعسف ، فليت شعري أي جواب أعدته لرسول الله ﷺ . إذا سألك الله في عرصات القيامة عن ذلك ؟ فبالله عليك يا أمير المؤمنين ، إلا عزلته وادّخرتها قربةً إلى الله تعالى .

فقال عبد الملك : لقد ظنّ الحجاج الخير بغير أهله . ثم قال : يا إبراهيم ! قم .

فقمّت على أنحس حال وخرجت من المجلس ، وقد اسودّت الدنيا في وجهي فتبعني حاجبه وقبض على زندي وجلس بي في الدهليز ، ثم دعا عبد الملك بالحجاج . فدخل فكث طويلاً فما شككت إلا أنها يتشاوران في قتلي . ثم دعاني فقمّت ودخلت فوافاني الحجاج خارجاً فعانقني ، وقال : جزاك الله عني خيراً في هذه النصيحة ، أما والله لئن عشت لأرفعنّ قدرك .

وتركني وخرج ودخلت وأنا أقول : يهزأ بي ، وهو معذور ، فدخلت على عبد الملك فأجلسني مجلسي الأوّل ثم قال لي : قد علمت صدقك وقد عزلته عن الحرمين ووليته العراق وأعلمته أنك استقلت له الحجاز

واستدعيتُ له العراقَ ، وأنتَ تطلبُ له الزيادةَ في الأعمالِ وهو يظنُ أنك السببُ في توليته العراقَ ، وقد تهلَّلَ وجهه فرحاً لذلك ، فسُرَّ معه أينما توجهَ يُؤلِّكُ خيراً ، ولا تقطعْ نصيحتك عَنَّا والله أعلم .

كيف ولد الحجاج

وفي مروج الذهب للمسعودي وشرح السيرة وغيرهما . أن أم الحجاج ابن يوسف وهي الفارعة بنت همَّام ، ولدته مشوَّهاً لا دِبرَ له فثُقِّبَ دِبرُهُ ، وأبى أن يقبل ثدي أمه وغيرها فأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصوّر لهم في صورة الحرث بن كلدة ، فقال : ما خبركم ؟ فقالوا : ولد ليوسف الثقفي من الفارعة ولد وقد أبى أن يقبل ثدي أمه فقال : اذبحوا له تيساً أسود والعقوه دمه ثم اذبحوا له أسود سالخاً ، وأولغوه من دمه واطلوا به وجهه ثلاثة أيام ففعلوا فقبل الثدي في اليوم الرابع فكان لا يصبر عن سفك الدم وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره ، انتهى .

١ أسود سالخاً : حيّة ذكراً سلخت جلدها .

الحجاج والأعرابي

وحكي أن الحجاج انفرد يوماً من عسكره فلقى أعرابياً فقال له : يا وجه العرب ، كيف الحجاج ؟ فقال : ظالم غاشم . قال : هلاً شكوتّه إلى عبد الملك بن مروان ؟ قال : أظلم وأغشم عليها لعنة الله .

فبينما هو كذلك إذ تلاحقت به عساكره فعلم الأعرابي أنه الحجاج فقال الأعرابي : أيها الأمير السرّ الذي بيني وبينك لا يطلع عليه أحد إلا الله .

فتبسّم الحجاج وأحسن إليه وانصرف .

الحجاج والفتى المحدث

وذكر أهل التواريخ أن الحجاج بن يوسف الثقفي سهر ليلة وعنده جماعة منهم خالد بن عرفة فقال : يا خالد اتّني بمُحدّث من المسجد . والناس إذ ذاك يطلبون المقام في المسجد . فأتتهى إلى شاب قائم يصليّ فجلس حتى سلّم ثم قال : أجب الأمير . قال : أبعثك الأمير إليّ قاصداً .

قال : نعم ففضى معه حتى انتهى إلى الباب فقال له خالد : كيف أنت ومحادثة الأمير .

قال : سيجدني كما يحب إن شاء الله تعالى .

فلما دخل عليه قال له الحجاج : هل قرأت القرآن ؟ .

قال : نعم وقد حفظته .

قال : فهل تروي شيئاً من الشعر .

قال : وما من شاعر إلا وأروي عنه ؟

قال : فهل تعرف من أنساب العرب ووقائعها ؟

قال : لا يذهب عني شيء من ذلك .

فلما يزل يحده بكل ما أحب حتى إذا همّ بالانصراف ، قال : يا خالد ، مرّ للفتى ببرذون و غلام ووصيفة وأربعة آلاف درهم .

فقال الفتى : أصلح الله الأمير بي من حديثي أظرفه وأعجبه فأعاده الحجاج إلى مجلسه وقال : حدثني .

فقال : أصلح الله الأمير هلك والدي وأنا طفل صغير فنشأت في حجر عمي وله ابنة بسّتي ، وكان في التصابي من الصّبا وما كنّا فيه أعجوبة ، حتى إذا بلغت وبلغت تنافس الخطاب فيها وبذلوا فيها أموالاً لجمالها وكمالها ، فلما رأيت ذلك خامرني السقم ، وضّيت ورُميت على الفراش ثم عمدت إلى خابية عظيمة فلأتها رملاً وصخراً وقبرت رأسها ودفنتها تحت فراشي ، فلما تمّ على ذلك أيام بعثت إلى عمّي فقلت : يا عمي ، إني كنت أريد السفر ف وقعت على مال عظيم ونخفت أن أموتَ ولا يعلمه أحد فإن حدث بي أمر فأخرجه وأعتق عني عشرَ نسَماتٍ واحجج عني عشرَ حجج ، وجهّر عني عشرَ رجال بجنوهم وأسلحتهم ، وتصدّق عني بألف دينار ، ولا تبالِ يا عم ! فإن المال كثيرٌ .

فلما سمع عمّي مقالتي أتى امرأته فأخبرها بقولي فما كان بأسرع من أن أقبلت بجواربها حتى دخلت عليّ فوضعت يدها على رأسي ثم قالت : والله

يا ابن أخي ما علمت بسقمك وما حلّ بك حتى أخبرني أبو فلان الساعة . وأقبلت تلاطفني وتعالجني بالأدوية وحملت لي لطائف ، وردّت الخطاب عن ابنتها ، فلما رأيت ذلك تحاملت ثم بعثت إلى عمي أن الله عزّ وجلّ قد أحسن إليّ وعافاني فابتغ لي جارية من خصالها وكما لها كبت وكبت ، ولا يسألونك شيئاً إلا أعطيتّه . فقال : يا ابن أخي ما يمنعك من ابنة عمك ؟ فقلت : هي من أعزّ خلق الله تعالى عليّ غير أبي قد خطبتها قبل ذلك فامتنعت .

قال : كلا ، إن الامتناع كان من قبل أمها ، وهي الآن قد سمحت ورضيت بذلك . فقلت : شأنك .

فرجع إلى امرأته فأخبرها بقولي ، فجمعت عشيرتها فزوجوني إياها فقلت : عجل عليّ بابنة عمي كيف شئت ثم أريك الخابية . فأهديت إليّ ، ولم تدع شيئاً يُصنع بأشراف النساء إلا فعلته . ثم زفّت ابنتها عليّ وأحضرتها بكل ما وجدت إليه سبيلاً ، وأخذ عمّي متاعاً من التجار بعشرة آلاف درهم ، وكان يأتينا في كل صباح من قبل أبوابها لطائفٌ وتحفٌ مدةً . فلما كان بعد ذلك بأيام أتاني عمّي وقال : يا ابن أخي ، إنّنا قد أخذنا من التجار متاعاً بعشرة آلاف درهم ، وليسوا صابرين على حبس الثمن .

قلت : شأنك والخابية .

فرّ مسرعاً حتى جاء بالرجال والحبال فاستخرجها وحملها ، ومرّ مسرعاً بها إلى منزله ، فلمّا فتحها كان فيها ما علمت ، فما كان بأسرع من أن جاءت أمّها بجواريتها فلم تدع في منزلي كثيراً ولا قليلاً إلا حملته ، فبقيت مهاناً على الأرض وجفّتنا كلّ الجفاء ، فهذا حالي ، أصلح الله الأمير . فأنا

من خجلي وضيق صدري آوي إلى المساجد .

فقال الحجاج : يا خالد ، مرّ للفتى بثياب ديباج و فرسٍ أرمنية وجارية وبرذون و غلام وعشرة آلاف درهم . وقال : يا فتى اغدُ إلى خالد غداً حتى تستوفي منه المال .

فخرج الفتى من عند الحجاج ، قال : فلما انتهيت إلى باب دارى سمعت ابنة عمى تقول : ليت شعري ما أبطأ بآبن عمى ، أقتل أم مات أم عرض له سبع ؟

قال ، فدخلت عليها وقلت : يا ابنة عمى أبشري وقرى عيناً فلانى أدخلت على الحجاج فكان من القصة كيت وكيت . وحكى لها ما كان من أمرى ، فلما سمعت الفتاة مقالتي لطمت وجهها وصاحت ، فسمع أبوها وأمها وأخواتها صراخها فدخلوا عليها وقالوا لها : ما شأنك ؟ فقالت لأبيها : لا وصل الله رحمك ولا جزاك عني وعن ابن أخيك خيراً جفوته وضيعته حتى أصابته الخفة وذهب عقله اسمع مقالته .

فقال العم : يا ابن أخي ما حالك ؟

فقلت : والله ما بي من بأس إلا أنى دخلت على الحجاج وذكر له من أمره ما كان وأنه أمر له بمال جزيل .

فقال العم لمّا سمع مقالته : هذه مرة صفراء نائرة فباتوا يحرسونه تلك الليلة فلما أصبحوا بعثوا إلى المعالج فجعل يعالجه ويُسعّطه مرة ويسهّله أخرى ، فيقول الفتى : والله ما بي من بأس وإنما أدخلت على الحجاج فكان كيت وكيت . فلما رأى الفتى أن ذكر الحجاج لا يزيده إلا بلاء كفّ عنه وعن ذكره ثم قال له : ما تقول في الحجاج ؟ قال : ما رأيته . ثم خرج المعالج فقال لهم قد ذهب عنه الأذى ولكن لا تعجلوا بحلّ قيده فبقي الفتى مقيداً مغلولاً .

فلما كان بعد أيام ذكره الحجاج فقال : يا خالد ما فعل الفتى ؟
 فقال : أصلح الله الأمير ما رأيته منذ خرج من حضيرة الأمير .
 قال : فابعث إليه أحداً .
 قال ، فبعث إليه خالد حرسياً . فمرّ الحرسى على عم الفتى فقال له :
 ما فعل ابن أخيك ؟ فإن الحجاج يطلبه .
 قال : إن ابن أخى لنى شغل عن الحجاج قد ابتلى ببلاء في عقله .
 قال : لا أدري ما تقول ، لا بدّ من الذهاب به الساعة .
 فدخل عليه العم فقال : يا ابن أخى . إن الحجاج قد بعث في طلبك
 أفأحلك ؟ قال : لا ، إلا بين يديه .
 فحمل في قيوده وغلّه على ظهور الرجال حتى أدخل على الحجاج .
 فلما نظره من بعد جعل يرحّب به حتى انتهى إليه فكشف قيده وغلّه
 وقال : أصلح الله الأمير ، إن آخر أمري أعجب من أوّله . وحدثه بحديثه
 فعجب الحجاج وقال : يا خالد . أضعف للفتى ما كنّا قد أمرنا له .
 فقبض المال أجمع وحسن حاله ولم يزل مسامراً للحجاج حتى مات .

الأعرابي وحلوى الحجاج

وحضر أعرابيّ عند الحجاج فقدّم الطعام فأكل الناس منه ثم قدّمت
 الحلوى فترك الحجاج الأعرابي حتى أكل منها لقمة ثم قال : من أكل من
 الحلوى ضربت عنقه ، فامتنع الناس من أكلها وبقي الأعرابي ينظر إلى
 الحجاج مرة وإلى الحلوى مرة ثم قال : أيها الأمير أوصيك بأولادي خيراً .
 ثم اندفع يأكل فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه وأمر له بصلة .

عَلِّمُوا أَوْلَادَكُمْ الْأَدَبَ

وحكي أن الحجاج أمر صاحب حراسته أن يطوفَ بالليل فن وجدته بعد العشاء ضرب عنقه . فطاف ليلة فوجد ثلاثة صبيان يتميلون وعليهم أثرُ الشراب . فأحاط بهم وقال لهم : من أنتم حتى خالفتم الأمير؟ فقال الأول :

أنا ابنُ من دانت الرقابُ له ما بين مخزومها وهاشمِها
تأتي إليه الرقابُ صاغرةً يأخذ من مالِها ومن دمِها

فأمسك عن قتله . وقال : لعله من أقارب أمير المؤمنين . وقال الثاني :

أنا ابن الذي لا يَنْزِلُ الدهرُ قدرُهُ وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيامٌ حولها وقعودُ

فأمسك عن قتله وقال : لعله من أشرف العرب ، وقال الثالث :

أنا ابن الذي خاض الصفوفَ بعزمه وقومها بالسيف حتى استقامتِ
ركاباه لا تنفك رِجلاه منها إذا الخيلُ في يوم الكريمة ولَّتِ

فأمسك عن قتله وقال : لعله من شجعان العرب . فلما أصبح رفع أمرهم إلى الحجاج فأحضرهم وكشف عن حالهم . فإذا الأول ابنُ حِجَّامٍ ، والثاني ابنُ قُوَالٍ ، والثالث ابنُ حائِك . فتعجب الحجاج من فصاحتهم وقال لجلسائه : علِّموا أولادكم الأدب ، فوالله لولا الفصاحة

لضربت أعناقهم . ثم أطلقهم وأنشد :
 كن ابن من شئت واكتسب أدباً يُغنيك محمودُه عن النسبِ
 إن الفتى من يقول : ها أنا ذا ! ليس الفتى من يقول : كان أبي

الحجاج والأسرى

وقيل : أمر الحجاج بقتل أسرى . فقتل منهم جماعة ، فقال رجل منهم
 وقد عرض للقتل : يا حجاج . إن كنا أسأنا في الذنب فما أحسنت في
 العفو . والله تعالى يقول : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى
 إِذَا أَثْخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾^١ . فهذا قول الله
 تعالى في الكفار فكيف بالمسلمين . وقد قال الشاعر :

وما نقتلُ الأسرى ولكن نفكُّهم إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارم^٢

فقال الحجاج : أف هؤلأ الجيف والله لو قال هؤلأ مثل ما قال هذا
 الرجل ما قتلت منهم أحداً ولكن أطلقوا بقيتهم .

الحجاج والمرأة الحرة

قال الراوي : ولما ولي الحجاج العراق قال : علي بالمرأة الحرة .
 فلما حضرت قال لها : كنت بالأمس في وقعة ابن الزبير تحرضين الناس على
 قتل رجالي ونهب أموالهم ؟

١ سورة محمد ٤ .

٢ المغارم ، الواحد مغرم : ما يلزم إداؤه من المال - والبيت للفرزدق .

قالت : نعم . قد كان ذلك يا حجاج .
 فالتفت الحجاج إلى وزرائه وقال : ما ترون في أمرها ؟
 فقالوا : عجل بقتلها .
 فضحكت المرأة . فاغتاز الحجاج وقال : ما أضحكك ؟
 قالت : وزراء أخيك فرعون خير من وزراءك هؤلاء .
 قال : وكيف ذلك ؟
 قالت : لأنه استشارهم في موسى فقالوا : « أرجه وأخاه » ، أي
 أنظره إلى وقت آخر . وهؤلاء يسألونك تعجيل قتلي . فضحك الحجاج
 وأمرها بعتاء وأطلقها .

الحجاج وهند بنت النعمان

وحكي أن هند بنت النعمان كانت أحسن نساء زمانها ، فوصف
 للحجاج حسنها فخطبها وبذل لها مالا جزيلاً وتزوج بها وشرط لها عليه بعد
 الصداق مائتي ألف درهم ودخل بها .
 ثم أنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة . وكانت هند فصيحةً أديبة ،
 فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة . ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق
 فأقامت معه ما شاء الله . ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في
 المرأة ، وتقول :

وما هند إلا مَهْرَةٌ عربيةٌ سلالَةُ أفراس تحلُّها بغلٌ
 فإن ولدت فحلًّا فللهِ درُّها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

فلما سمع الحجاج كلامها انصرف راجعاً ولم يدخل عليها . ولم تكن

علمت به ، فأراد الحجاج طلاقها ، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم ، وهي التي كانت لها عليه ، وقال : يا ابن طاهر ، طلقها بكلمتين ، ولا تزد عليها . فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها : يقول لك أبو محمد الحجاج كُنتِ فِينَتِ . وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبّله .

فقالت : اعلم يا ابن طاهر ، إنّنا والله كُنتما فما حمدنا ، ثمّ بنا فما ندمنا وهذه المائتا ألف هي لك ببشارتك بخلاصي من كلب ثقيف .

ثمّ بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ، ووصف له جلالها ، فأرسل إليها يخطبها لنفسه ، فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه : اعلم يا أمير المؤمنين ، أن الكلب ولغ في الإناء . فلما قرأ عبد الملك بن مروان الكتاب ضحك من قولها ، وكتب إليها يقول : إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً ، إحداهنّ بالتراب ، فغسل الإناء يُجِلُّ الاستعمال .

فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين . لم يمكنها المخالفة فكتبت إليه تقول : بعد الثناء عليه ، اعلم يا أمير المؤمنين أنّي لا أجري العقد إلا بشرط ، فإن قلت : ما الشرط ؟ أقول : أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدتك التي أنت فيها ويكون ماشياً حافياً بحليته التي كان فيها أولاً .

فلما قرأ ذلك الكتاب عبد الملك ضحك ضحكاً شديداً ، وأرسل إلى الحجاج يأمره بذلك . فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب ولم يخالف وامتلأ الأمر .

وأرسل الحجاج إلى هند يأمرها بالتجهز فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل إلى المعرة بلد هند . فركبت في محمل وركب حولها جوارها وخدمها فترجل الحجاج . وهو حاف . وأخذ بزمام البعير يقوده

ويسير بها ، فأخذت تهزأ منه وتضحك مع الهيفاء دأيتها ، ثم إنها قالت
لدأيتها : يا دأيتي اكشفي لي ستارة المحمل لنشم رائحة النسيم ! فكشفته
فوقع وجهها في وجهه فضحكت عليه ، فأنشد يقول :

فإن تضحكي يا هند يا رب ليلة تركتك فيها كالقباة المفرج

فأجابته تقول :

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مالٍ ومن نسبٍ
فالمالُ مكتسبٌ والعزُّ مرتجعٌ إذا النفوسُ وقاها الله من عطب

ولم تزل تلعب وتضحك إلى أن قربت من بلد الخليفة فلما قربت من
البلد رمت من يدها ديناراً على الأرض . وقالت : يا جمال ! إنه سقط
مئتا درهم فادفعه إلينا . فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يرَ إلا ديناراً فقال :
إنما هو دينار . فقالت : بل درهم . قال : بل دينار . فقالت : الحمد
لله سقط مئتا درهم فعوّضنا الله ديناراً . فخجل الحجاج وسكت ولم يرّد
جواباً . ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فترّوج بها وكان من أمرها ما
كان .

الحجاج وقتله لسعيد بن جبير

قال عون بن أبي شدّاد العبدي ، بلغني أن الحجاج بن يوسف لما ذكر
له سعيد بن جبير أرسل قائداً من الشام يُسمّى المُتَكَمِّس بن الأحوص ومعه
عشرون رجلاً ، فبينما هم يطلبونه إذا هم براهب في صومعةٍ له فسألوه عنه
فقال الراهب : صفوه ؟ فوصفوه ، فدَلَّهم عليه ، فانطلقوا فوجدوه
ساجداً يناجي ربّه بأعلى صوته ، فدنوا منه وسلّموا عليه ، ورفع رأسه فأنتم

بقية صلاته ثم ردّ عليهم السلام ، فقالوا له : أرسل الحجاج إليك فأجبه .

فقال : لا بدّ من الإجابة ؟

قالوا : لا بدّ .

فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه ﷺ ثم قام فمشى معهم حتى انتهى إلى دير الراهب ، فقال الراهب : يا معشر الفرسان أصبتم صاحبكم ؟

قالوا : نعم ! قال : اصعدوا إلى الدير فإن الأسد واللّبة يأويان إلى الدير ، فعجّلوا الدخول قبل المساء .

ففعّلوا ذلك وأبى سعيد أن يدخل الدير ، فقالوا : ما نراك ألا تريد الهرب ؟

قال : لا ، ولكن لا أدخل منزل مُشركٍ أبداً .

قالوا : فإنّا لا ندعك فإن السباع تقتلك ؟

قال سعيد : إن معي ربي يصرفها عني ويجعلها حرساً لي من كل سوء إن شاء الله تعالى .

قالوا : أفأنت نبي من الأنبياء ؟

قال : ما أنا من الأنبياء ولكن عبد من عبيد الله خاطئ مذنب .

قالوا : احلف لنا أنك لا تهرح ؟

فحلف لهم ، فقال لهم الراهب : اصعدوا الدير وأوتروا القسيّ لتنفروا السباع عن هذا العبد الصالح فإنه كره الدخول عليّ في الصومعة . فدخلوا وأوتروا القسيّ فإذا هم بلبوة أقبلت ودنت من سعيد وتحكّكت وتمسّحت به ، ثم ربضت قريباً منه ، ثم أقبل الأسد فصنع مثل ذلك . فلما رأى الراهب ذلك ، وأصبحوا ، نزل إليه وسأله عن شرائع الإسلام وسنن

رسول الله ﷺ ففسّر سعيد ذلك كله ، فأسلم الراهب وحسن إسلامه .
وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه يأخذون التراب
الذي وطئه بالليل وصلى عليه وقالوا : يا سعيد ، حلفنا للحجاج بالطلاق
إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نُشخصك إليه فمُرنا بما شئت ؟

قال : امضوا لشأنكم ، فإنه لا بدّ من الرجوع لخالتي ولا رادّ
لقضائه .

فساروا حتى وصلوا واسط فلما انتهوا قال لهم سعيد : يا معشر القوم قد
تحرّمت بكم وصحبكم ولست أشك أن أجلي قد حضر وأن المدّة قد
انقضت ، فدعوني الليلة آخذاً أهبة الموت وأستعدّ لمنكر ونكير وأذكر عذاب
القبر وما يُحثي عليّ من التراب ، فإذا أصبحت فالميعادُ بيني وبينكم المكان
الذي تريدون .

فقالوا لبعضهم : لا نريد أثراً بعد عين . وقال بعضهم : قد بلغت
أمنيتكم واستوجبتم جوائزكم من الأمير فلا تعجزوا عنه . فقال بعضهم :
هو عليّ أدفعه إليكم إن شاء الله .

فنظروا إلى سعيد فدمعت عيناه واغبرّ لونه ولم يأكل ولم يشرب ولم
يضحك مذلقوه . فقالوا بأجمعهم : يا خير أهل الأرض ، ليتنا لم نعرفك
ولم نُرسَل إليك . الويل لنا كيف ابتلينا ، ما عذرنا عند خالقنا يوم المحشر
الأكبر والمجاوبة له ؟ وقال كفيّله : أسألك يا سعيد بالله ألا ما زودتنا من
دعائك وكلامك ، فأنا لا ألقى مثلك أبداً ؟

فدعا لهم سعيد ثم خلّوا سبيله ، فغسل رأسه ومِدْرَعته وكساءه وهم
مختفون في الليل كله ، فلما انكشف عمود الصبح جاءهم سعيد ابن جبير
فقرع الباب فقالوا : صاحبكم وربّ الكعبة ، فترّلوا إليه وبكوا معه
طويلاً ، ثم ذهبوا به إلى الحجّاج فدخل عليه المتلمّس فسلم عليه وبشّره

بقدم سعيد بن جبير . فلما مثل بين يديه قال : ما اسمك ؟

قال : سعيد بن جبير .

قال : أنت شقيّ بن كسير ؟

قال : بل أُمي كانت أعلم باسمي منك ؟

قال : شقيت أنتَ وشقيت أُمك .

قال : الغيب يعلمه غيرُك .

قال : لأبدلنك بالدنيا ناراً .

قال : لو علمتُ أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً .

قال : فما قولك في محمد ؟

قال : نبيّ الرحمة ؟

قال : فما قولك في عليّ ، أفي الجنة أم في النار ؟

قال : لو دخلتها وعرفت أهلها عرفت من فيها .

قال : فما قولك في الخلفاء ؟

قال : لست عليهم بوكيل .

قال : فأئيهم أحبُّ إليك ؟

قال : أرضاهم لخالقي .

قال : فأئيهم أرضى للخالق ؟

قال : علمُ ذلك عند الذي يعلم سرّهم ونجواهم .

قال : فما بالكَ لا تضحك ؟

قال : أضحك مخلوقٌ خُلِقَ من الطين ، والطين تأكله النار .

قال : فما بالنّا نضحك ؟

قال : لم تستوِ القلوب .

قال : ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فوضعه بين يديه .
فقال سعيد : إن كنت جمعت هذا لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح
وإلا ففزعاً واحدةً تُذهِلُ كلَّ مُرضِعةٍ عما أرضعت . ولا خيرَ في شيء
جُمعَ للدنيا إلا ما طاب وزكا .

ثم دعا الحجاج بآلات اللهو . فبكى سعيد . فقال الحجاج : وبلك
يا سعيد اختر أي قتلة تريد ؟

قال : اختر لنفسيك يا حجاج فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها
في الآخرة .

قال : أفتريد أن أعفو عنك ؟

قال : إن كان العفو من الله بلى ، وأما أنت فلا .

قال : اذهبوا به فاقتلوه .

فلما خرج من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده وقال : ما
أضحكتك ؟

قال : عجبت من جرائتك على الله وحليم الله عليك .

فأمر بالنطع فبسط بين يديه وقال : اقتلوه !

قال : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا
من المشركين » .

قال : وجهوه لغير القبلة .

قال سعيد : « فأينما تولوا فثم وجه الله » .

قال : كُتِبَ لوجهه ، فقال سعيد : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم
ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

فقال الحجاج : اذبحوه .

فقال سعيد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله : اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدي .

فذُبح على النطع ، رحمه الله تعالى ، فكان رأسه بعد قطعه يقول لا
إله إلا الله . وعاش الحجاج بعدها خمسة عشر يوماً . وذلك في سنة
خمس وتسعين وكان عمر سعيد رضي الله عنه ، تسعاً وأربعين سنة ، والله
سبحانه وتعالى أعلم .

خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان

كان يختم القرآن في ثلاث وكان يختم في رمضان سبع عشرة ختمة .
قال إبراهيم بن عُلَيَّة : كان يعطيني أكياس الدنانير أقسمها في الصالحين ،
وكان يقول : لولا أن الله عزَّ وجلَّ ذكر اللُّواط في كتابه العزيز ، ما ظننت
أن أحداً يفعله .

قال الحافظ ابن عساكر : كان الوليد عند أهل الشام من أفضل
خلفائهم ، بنى المسجد بدمشق وفرض للمجذومين ما يكفيهم وقال : لا
تسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادماً وكل أعمى قائداً .

وذكر أن جملة ما أنفق على المسجد الأموي أربعائة صندوق ، في
كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار . وكان فيه ستائة سلسلة ذهب
للقناديل ، وما كمل بناءه إلا أخوه سليمان لما ولي الخلافة وفعل خيرات
كثيرة وآثاراً حسنة ، وبعد هذا كله فقد رُوي أن عمر بن عبد العزيز رضي
الله عنه ، قال : لما أُدرِجَ في أكفانه وعُثِّلَ يداه إلى عنقه ، نسأله الله
العفو والعافية في الدنيا والآخرة ، ونسأله حسن الخاتمة .

خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان

فما يذكر من محاسنه : أن رجلاً دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين أنشدك الله والأذان ، فقال سليمان : أما أنشدك الله فقد عرفناه ، فما الأذان ؟ قال : قوله تعالى : ﴿ فَأَذِّنْ مُؤَدِّنُ بَيْنَهُمْ : أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾^١ .

فقال سليمان : ما ظلامتك ؟

قال : ضيعتي الفلانية غلبي عليها عاملك فلان .

فنزّل سليمان عن سريرته ورفع البساط ووضع خدّه على الأرض وقال : والله لا رفعتُ خدّي من الأرض حتى يكتب له بردٌ ضيعته . فكتب الكتاب وهو واضع خدّه على الأرض ولما سمع كلام ربّه الذي خلقه وخوّله في نعمه خشي من لعن الله وطرده ، رحمه الله .

صفات سليمان بن عبد الملك

قيل : أنه أطلق من سجن الحجاج ثلاثمائة ألف نفس ما بين رجل وامرأة ، وصادر آل الحجاج واتخذ ابن عمّه عمر بن عبد العزيز وزيراً ومشيراً ، وكان شهماً في الأكل ، نكاحاً .

١ سورة الأعراف ٤٤

قال ابن خلكان في ترجمته : أنه كان يأكل كل يوم نحو مائة رطل شامي .

قال محمد بن سيرين رحمه الله : سليمان افتتح خلافته بخير وختمها بخير ، افتتحها بإقامة الصلاة لمواقيتها الأولى وختمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

سليمان والدلفاء

وقال أبو سويد : حدثني أبو زيد الأسدي قال : دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبلط بالرخام الأحمر مفروش بالديباج الأخضر في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع ، على رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبها ، وقد غابت الشمس وغنت الأطيّار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت فقلت : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته .

وكان مطرقاً فرفع رأسه وقال : يا أبا زيد ! في مثل هذا الحين تصالحنا .

فقلت : أصلح الله الأمير أو قامت القيامة ؟

قال : نعم على أهل المحبة .

ثم أطرق ملياً ورفع رأسه وقال : يا أبا زيد : ما يطيب في يومنا هذا ؟

قلت : أعزّ الله الأمير قهوة حمراء في زجاجة بيضاء تناولها عادة هيفاء ملفوفة لفاء أشربها من كفّها وأمسخ في بخدّها .

فأطرق سليمان ملياً لا يردّ جواباً تتحدّر من عينيه عبرات بلا شهيق .

افلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه ، ثم رفع رأسه فقال : يا أبا زيد حضرت في يوم انقضاء أجلك ومنتهى مدّتك وتصرم عمرك والله لأضربن عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك ؟

قلت : نعم أيها الأمير ، كنت جالساً على باب أخيك سعد بن عبد الملك ، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلتت من شبكة صياد عليها قيصر سكب اشكندرائي يبين منها بياض ثديها وتدوير سرّتها ونقش تكّتها ، وفي رجلها نعلان صرّاران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعلها بذؤابتين تضربان حقويها ، ولها صدغان كأنهما نونان وحاجبان قد قوّسا على محاجر عينيها ، وعينان مملّوتان سحراً ، وأنف كأنه قصبة بلّور ، وفم كأنه جرح يقطر دماً ، وهي تقول : عباد الله من لي بدواء من لا يسلو وعلاج من لا يسمو؟ طال الحجاب ، وأبطأ الجواب ، فالقلب طائر ، والعقل عازب ، والنفس والهة ، والفؤاد مختلس ، والنوم محبّس ، رحمة الله على قوم عاشوا تجلّداً وماتوا كمدّاً . ولو كان إلى الصبر حيلة ، وإلى الغزاء سبيل . لكان أمراً جميلاً .

ثم أطرقت ملياً ورفعت رأسها فقلت : أيتها الجارية إنسيّة أم جنيّة سماوية أم أرضيّة ؟ فقد أعجبني ذكاء عقلك وأذهلني حسن منطقك . فسترت وجهها بكفّها كأنها لم ترني ثم قالت : اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد والمقاساة لصبّ معاند .

ثم انصرفت فوالله أصلح الله الأمير ما أكلت طيباً إلّا غصصت به لذكرها وما رأيت حسناً إلّا سمّج في عيني لحسنها .

فقال سليمان : يا أبا زيد ، كاد الجهل يستفزني ، والصّبا يعاودني ، والحلم يعزب عني لشجوّ ما سمعت . اعلم يا أبا زيد أن تلك الجارية التي رأيته هي الدلفاء التي قيل فيها :

كأنّما الدلفاء يا قوّة قد أُخرجت من كيس دُهقان

شراؤها على أخي بألف ألف درهم ، وهي عاشقة لمن باعها والله إن مات إنما يموت بجبها ، ولا يدخل القبر إلا بغصتها ، وفي الصبر سلوة وفي توقع الموت هيبة . قم يا أبا زيد في دعة الله . يا غلام ! ثقله ببذرة . فأخذتها وانصرفت . قال : فلما أفضت الخلافة له صارت إليه الذلفاء فأمر بفسطاطٍ فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء موقفة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر من أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع ، وكان لسليمان مغنٌ يقال له سنان ، كان به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه . فكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه فلم يزل في أكل وشرب وسرور وأتم حبور إلى أن انصرف شيء من الليل فذهب إلى فسطاطه ، وذهب سنان أيضاً فترل به جماعة من إخوانه فقالوا له : تزيد قري أصلحك الله ؟

قال : وما قراكم ؟

قالوا : أكل وشرب وسماع .

قال : أمّا الأكل والشرب فمباحان لكم ، وأمّا السماع فقد عرفتم ، غيرة أمير المؤمنين ونبيه إلا ما كان في مجلسه .

قالوا : لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا .

قال : فاختراروا صوتاً واحداً أغنيكموه .

قالوا : غننا بصوت كذا وكذا .

قال . فشرع يتغنى بهذه الأبيات :

محجوبة سمعت صوتي فأرقها	من آخر الليل لما نبت السحر
في ليلة البدر ما يدري مضاجعها	أوجها عنده أم عنده القمر
لم يحجب الصوت حراس ولا غلق	فدمعها لطروق الصوت ينحدر

١ الفسطاط : البيت من الشعر . الدهناء : الفلاة ، ولعله مكان في غوطة الشام .

لو مُكِّنْتَ لمشت نحوي على قدم تكاد من لينها في المَشْيِ تنفطر

قال : فسمعت الذلفاء صوت سنان . فخرجت إلى صحن
الفسطاط ، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق ولطافة إلا رأت ذلك
كله في نفسها وهيئتها فحرك ذلك ساكناً من قلبها ، فهملت عيناها وعلا
نحيبها ، فانتبه سليمان . فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها
على تلك الحالة ، فقال : ما هذا يا ذلفاء ؟ فقالت :

ألا ربّ شخصٍ رائعٍ ومشوّهٍ قبيح المَحْيَا واضع الأب والجدِّ
يروعك منه صوته ولعلّه إلى أمةٍ يُعزى معاً وإلى عبدٍ

فقال سليمان : دعيني من هذا المحال ، فوالله لقد خامر قلبك منه . يا
غلام : عليّ بسنان .

فدعت الذلفاء خادماً لها وقالت له : إن سبقت رسولَ أمير المؤمنين
إلى سنان فحذّرتَه ، فلك عشرة آلاف درهم ، وأنت حرّ لوجه الله تعالى .
فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين فلماً أتى به قال : يا
سنان ، ألم أنهك عن مثل هذا ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، حملني الشمول^١ ، وأنا عبد أمير المؤمنين
وغرس نعمته ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عني فليفعل .

قال : قد عفوت عنك ، ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل
ودقت له الحجرة^٢ ، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة^٣ ، وأن الرجل
إذا تغنى صبغت إليه المرأة ، وإياك والعودة إلى ما كان منك فيطول غمك ،
انتهى .

١ الشمول : الحمرة أو الباردة منها .

٢ ودقت له : اشتبهته . الحجرة : الفرس الأنثى .

٣ ضبعت له : لشتته .

جابر عثرات الكرام

قيل : كان في أيام سليمان رجل يقال له خُزَيْمة بن بشر من بني أسد ، كان له مروءة ظاهرة ونعمة حسنة وفضل وبرّ بالإخوان ، فلم يزل على تلك الحالة حتى قَعَدَ به الدهر فاحتاج إلى إخوانه الذين كان يتفَضَّل عليهم وكان يُؤاسيهم ، فواسوه حيناً ثم ملّوه ، فلما لاح له تغييرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه ، فقال لها : يا ابنة عمي ، قد رأيتُ من إخواني تغييراً ، وقد عزمت على أن ألزم بيتي إلى أن يأتيني الموت ، فأغلق بابَه وأقام يتقوّت بما عنده حتى نفَدَ وبقي حائراً وكان يعرفه عِكْرِمَةُ الْفَيَّاضُ الرَّبْعِيّ متولي الجزيرة ، وإنما سمّي بذلك لأجل كرمه . فبينما هو في مجلسه إذ ذكر خُزَيْمة بن بشر فقال عِكْرِمَةُ الْفَيَّاضُ : ما حاله ؟

فقالوا : قد صار إلى أمر لا يوصف وإنه أغلق بابَه ولزم بيته .

قال : أفما وجد خُزَيْمة بن بشر مواسياً ولا مكافئاً ؟

فقالوا : لا .

فأمسك عن الكلام ثم لما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها في كيس واحد ثم أمر بإسراج دابته وخرج سرّاً من أهله . فركب ومعه غلامٌ من غلمانِه يحمل المال . ثم سار حتى وقف بباب خزيمة فأخذ الكيس من الغلام ، ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فدفعه بنفسه فخرج إليه خزيمة فناوله الكيس ، وقال : أصلح بهذا شأنك . فتناولوه فرآه ثقيلاً فوضعه عن يده ثم أمسك بلجام الدابة . وقال له : من أنت ؟ جعلت فداك .

فقال له عكرمة : يا هذا ما جئتك في هذا الوقت والساعة أريد أن

تعرفني ؟

قال : فما أقبله إلا أن عرّفتني من أنت ؟

فقال : أنا جابر عثرات الكرام .

قال : زدني .

قال : لا . ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس إلى ابنة عمّه ، فقال لها : أبشري فقد أتى الله بالفرج والخير ولو كانت فلوساً فهي كثيرة . قومي فاسرجي .

قالت : لا سبيل إلى السراج .

فبات يلمسها بيده فيجد خشونة الدنانير ولا يصدّق ، وأما عكرمة فإنه رجع إلى منزله فوجد امرأته قد فقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه فأنكرت ذلك وارتابت . وقالت له : والي الجزيرة يخرج بعد هدوء من الليل منفرداً من غلمانته في سرّ من أهله إلّا إلى زوجة أو سرية .

فقال : اعلمي أنني ما خرجت في واحدة منها .

قالت : فخبّرني فيما خرجت ؟

قال : يا هذه ما خرجت في هذا الوقت وأنا أريد أن يعلم بي أحد .

قالت : لا بدّ أن تخبرني ؟

قال : تكتمينه إذّاً .

قالت : فإنّي أفعل .

فأخبرها بالقصة على وجهها وما كان من قوله وردّه عليه . ثم قال أنخبّين أن أحلف لك أيضاً ؟

قالت : لا فإن قلبي قد سكن وركن إلى ما ذكرت .

وأما خزيمة فلمّا أصبح صالح الغراء وأصلح ما كان من حاله ثم إنه تجهّز يريد سليمان بن عبد الملك ، وكان نازلاً يومئذ بفلسطين ، فلما وقف ببابه واستأذن دخل الحاجب فأخبره بمكانه ، وكان مشهوراً بمروءته وكرمه . وكان سليمان عارفاً به فأذن له ، فلمّا دخل سلّم عليه بالخلافة فقال له سليمان بن عبد الملك : يا خزيمة ، ما أبطأك عنا ؟

قال : سوء الحال .

قال : فما منعك من النهضة إلينا ؟

قال : ضعفي يا أمير المؤمنين .

قال : فبمّ نهضت إلينا الآن ؟

قال : لم أعلم يا أمير المؤمنين إلا أنني بعد هدوء من الليل لم أشعر إلا ورجل يطرق الباب وكان من أمره كيت وكيت ، وأخبره بقصّته من أولها إلى آخرها .

فقال سليمان : هل تعرف هذا الرجل ؟

فقال خزيمة : ما عرفته يا أمير المؤمنين لأنه كان متنكراً وما سمعت من لفظه إلا إني جابر عثرات الكرام .

قال : فتلهّب وتلهّف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال : لو عرفناه لكافأناه على مروءته ، ثم قال : عليّ بقناة .

فأتى بها فعقد خزيمة بن بشر المذكور على الجزيرة عاملاً عوضاً عن عكرمة الفياض . فخرج خزيمة طالباً الجزيرة ، فلمّا قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه ، فسلبوا على بعضهما ثم سارا جميعاً إلى أن دخلا البلد . فنزل خزيمة في دار الإمارة وأمر أن يؤخذ لعكرمة كفيل وأن يحاسب ،

فحُوسِب فُوجد عليه فضولُ أموالٍ كثيرةٍ فطالبه بأدائها قال : ما لي إلى شيء من ذلك سبيل .

قال : لا بدّ منها .

قال : ليست عندي فاصنع ما أنت صانع .

فأمر به إلى الحبس ثم أنفذ إليه من يطالبه فأرسل يقول : إني لست ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ما شئت .

فأمر أن يكبل بالحديد فأقام شهراً كذلك أو أكثر فأضناه ذلك وأضرّ به ، وبلغ ابنة عمّه خبره فجذعت واغتمت لذلك ثم دعت مولاةً لها ، وكانت ذات عقلٍ ومعرفةٍ ، وقالت لها : امضي الساعة إلى باب هذا الأمير خزيمة بن بشر وقولي : عندي نصيحة ، فإذا طلبت منك فقولي : لا أقولها إلا للأمير خزيمة بن بشر ، فإذا دخلت عليه فسلية أن يخلّيك ، فإذا فعل ذلك فقولي : ما كان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك . كافأته بالحبس والضيق والحديد .

ففعلت الجارية ذلك . فلمّا سمع خزيمة كلامها نادى برفيع صوته واسوأته ، وإنه هو؟ قالت : نعم ، فأمر لوقته بدابته فأسرجت وبعث إلى وجوه أهل البلد فجمعهم إليه وأتى بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل خزيمة ومن معه فرآه قاعداً في قاعة الحبس متغيّراً أضناه الضر والألم وثقل القيود فلمّا نظر إليه عكرمة وإلى الناس أحشّمه ذلك فنكّس رأسه فأقبل خزيمة حتى أكبّ على رأسه فقبّله فرفع عكرمة إليه رأسه وقال : ما أعقب هذا منك ؟

قال : كريم فعالك وسوء مكافأتي .

قال : يغفر الله لنا ولك .

ثم أتى بالحداد ففك القيود عنه وأمر خزيمة أن توضع القيود في رجل نفسه .

فقال عكرمة : ماذا تريد ؟

فقال : أريد أن ينالني من الضّرّ مثل ما نالك .

فقال : أقسم عليك بالله لا تفعل .

فخرجوا جميعاً حتى وصلا إلى دار خزيمة فودّعه عكرمة وأراد الانصراف عنه . فقال : ما أنت ببارح .

قال : وما تريد ؟

قال : أغير حالك وإن حيائي من بنت عمّك أشدّ من حيائي منك .

ثم أمر بالحمّام فأخلى ودخله معاً فقام خزيمة وتولى أمره وخدمه بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمله وحمل معه مالا كثيراً ثم سار معه إلى داره واستأذنه في الاعتذار إلى ابنة عمّه ، فاعتذر إليها وتذمّم من ذلك .

قال : ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلى سليمان بن عبد الملك ، وهو يومئذ مقيم بالرملة ، فأنعم له بذلك وسارا جميعاً حتى قدما على سليمان بن عبد الملك فدخل الحاجب فأعلمه بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك وقال : والي الجزيرة يقدم بغير أمرنا ؟ ما هذا إلّا لحادث عظيم ! . فلما دخل قال له قبل أن يسلم : ما وراءك يا خزيمة ؟

قال : الخير يا أمير المؤمنين .

قال : فما الذي أقدمك ؟

قال : ظفرت بجابر عثرات الكرام ، فأحببت أن أسرك به لما رأيت من تلهّفك وتشوّقك إلى رؤيته .

قال : ومن هو ؟

قال : عكرمة الفياض ؟

قال : فأذن له بالدخول .

فدخل وسلّم عليه بالخلافة فرحّب به وأدناه من مجلسه وقال : يا عكرمة ما كان خيرُك له إلّا وبالأّ عليك . ثم قال سليمان : اكتب حوائجك كلّها وما تحتاج إليه في رقعة . ففعل ذلك ، فأمر بقضائها من ساعته ، وأمر له بعشرة آلاف دينار وسفّطيناً ثياباً ، ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وقال له : أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته .

قال : بل ارده إلى عمله يا أمير المؤمنين . ثم انصرفا من عنده جميعاً ولم يزالا عاملين لسليمان مدة خلافته ، والله أعلم .

١ السفط : وعاء كالقفة .

خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

عمر والشعراء

أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو تابعي جليل . قال الإمام أحمد بن حنبل : ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز . كان ، رضي الله عنه ، عفيفاً زاهداً ناسكاً عابداً مؤمناً تقياً صادقاً ، أزال ما كانت بنو أمية تذكُر به عليّاً رضي الله عنه ، على المنابر ، وجعل مكان ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾^١ الآية ، ولما ولي الخلافة رضي الله عنه ، وفد الشعراء إليه وأقاموا ببابه أياماً لا يُؤذن لهم فبينما هم كذلك إذ مرّ بهم رجاء بن حيوة وكان جليساَ عمر فلما رآه جريراً داخلاً قام إليه وأنشد يقول أبياتاً منها :

يا أيها الرجلُ المرخي عيامتَه هذا زمانُك فاستأذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر شيئاً من أمرهم ثم مرّ بهم عديُّ بن أرطاة فقال جرير أبياتاً آخرها قوله :

لا تنسَ حاجتنا لُقَيْتَ مَغْفِرَةً قد طال مَكِّي عن أهلي وعن وطني

قال : فدخل عدي على عمر ، وقال : يا أمير المؤمنين ، الشعراء

١ سورة النحل ٩٠ .

ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة .

فقال : وسحك يا عدي ما لي وللشعراء ؟

قال : أعز الله أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ قد امتدح وأعطى
ولك في رسول الله ﷺ أسوة .

قال : كيف ؟

قال : امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها
لسانه .

قال : أو تروي من قوله .

قال : نعم ، وأنشد :

رأيتك يا خير البرية كلها	نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً
شرعت لنا دين الهدى بعد جورنا	عن الحق لما أصبح الحق مظلماً
ونورت بالبرهان أمراً مدنساً	وأطفأت بالإسلام ناراً تضرماً
فمن مبلغ عني النبي محمداً	وكل أمرى يجزى بما كان قدماً
أفنت سبيل الحق بعد اعوجاجه	وقد كان قدماً ركنه قد تهدماً

فقال : ويلك يا عدي ، من بالباب منهم ؟

قال : عمر بن أبي ربيعة .

قال : أوليس هو الذي يقول :

ثم نبهتها فمدت كعاباً	طفلة ما تبين رجوع الكلام ^١
ساعة ، ثم إنها لي قالت :	ويلتي قد عجلت يا ابن الكرام

١ مدت كعاباً : أي بسطت من نفسها كعاباً ، والكعاب : التي تُهد ثدياها .
الطفلة : الناعمة .

فلو كان عدو الله إذ فَجَرَ كَتَمَ على نفسه لكان أَسْتَرَ له : لا يدخل عليّ والله أبداً . فمن بالباب سواء ؟

قال : الفرزدق .

قال : أوليس هو الذي يقول :

هما دَلَّتَا في من ثمانين قامَةً كما انقَضَ بازُ أَقْتَمُ الريش كاسرُهُ
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا : أحيي فِيرْجِي أم قَتِيلُ نخاذره ؟

لا يدخل عليّ والله أبداً . فمن سواء منهم .

قال : الأخطل .

قال : يا عدي . أوليس هو الذي قال :

ولستُ بصائمٍ رمضانَ يوماً ولستُ بآكلٍ لحمِ الأضاحي^١
ولستُ بزاجرٍ عَنَساً بُكُوراً إلى بطحاءِ مَكَّةَ للنجاحِ^٢
ولستُ بقائمٍ كالعَيرِ أدعو قُبيلَ الصبحِ حيٍّ على الفَلاحِ
ولكنِّي سأشربها شَمولاً وأسجدُ عندَ منبَلَجِ الصباحِ

والله لا يدخل عليّ أبداً وهو كافر ، فمن بالباب سوى من ذكرت ؟

قال : الأحوص .

قال : أوليس هو الذي يقول :

اللهُ بيني وبين سيديها يفرُّ مَتي بها وأتبعه

١ لحم الأضاحي : ما يذبح الحجاج من الشاة في عيد الأضحي .

٢ العنس : الناقة الصلبة . بكوراً : غدوة .

فمن بالبَابِ دون من ذكرت أيضاً ؟

قال : جميل بن معمر .

قال : أوليس هو الذي يقول :

فيا ليتنا نحيا جميعاً . وإن أمت يوافقُ موتي موتها ، وضريحها

فلو كان عدو الله تَمَّتْ لقاءها في الدنيا ليعمل بعدُ صالحاً لكان
أصلح . والله لا يدخل عليّ أبداً ، فهل أحد سوى من ذكرت ؟
قال : جرير .

قال : أوليس هو الذي يقول :

طَرَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَقْتَ الزِّيَارَةِ ، فَارْجِعْ بِسَلَامٍ

فإن كان ولا بدّ فهو الذي يدخل . فلما مثل بين يديه قال : يا جرير ،
اتَّقِ الله ولا تقل إلا حقاً .

فأنشد قصيدته الرائية المشهورة التي منها :

إِنَّا لَنَرْجُو إِذَا مَا الْغَيْثُ أَخْلَفْنَا من الخليفة ما ترجو من المطرِ
جَاءَ الْخِلَافَةَ . أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا كما أتى ربُّهُ موسى على قدرِ
هَٰذَا الْأَرَامِلُ قَدْ قَضَيْتَ حَاجَتَهَا فمن حاجةِ هذا الأرمِلِ الذكرِ
الْخَيْرُ مَا دُمْتَ حَيًّا لَا يَفَارِقُنَا بوركْتَ يا عمرَ الخيراتِ من عُمرِ

فقال : يا جرير لا أرى لك فيما ههنا حقاً .

قال : بلى يا أمير المؤمنين ! أنا ابنُ سبيلٍ منقطعٌ .

فأعطاه من طيّبِ ماله مائة درهم وقال : ويحك ، يا جرير ، لقد
وُلِّينَا هَٰذَا الْأَمْرَ وَلَمْ نَمْلِكْ إِلَّا ثَلَاثِمِائَةَ دَرَاهِمَ ، فَهَاتِئُ أَخَذَهَا عَبْدُ اللَّهِ ، وَمِائَةُ

أخذتها أمُّ عبد الله . يا غلامُ : أعطه المائة الأخرى .
فأخذها جرير وقال : والله هُي أحبُّ مال اكتسبته في عمري . ثم
خرج فقال له الشعراء : ما وراءك يا جرير ؟
فقال : ما يسوءكم . خرجت من عند خليفةٍ يُعطي الفقراء ويمنع
الشعراء . وإني عنه لراضٍ وأنشد يقول :
رأيتُ رُقي الشيطانِ لا تستفزُّهُ وقد كان شيطاني من الجنِّ راقيا

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

الوليد بن هشام ويونس الكاتب والجارية

قال أبو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني : قال يونس الكاتب :
 خرجت إلى الشام في خلافة هشام بن عبد الملك ومعى جارية غانية وكنت
 علّمْتُها جميعَ ما تحتاجُ إليه ، وأنا أُقدّرُ فيها أنها تساوي مائة ألف درهم .
 قال : فلما قربنا من الشام نزلتِ القافلة على غدير من الماء ونزلتُ ناحيةً
 منه ، وأصبْتُ من طعامٍ كان معى وأخرجت رَكوةً كان فيها نبيذ . فبينما
 أنا كذلك ، وإذا بفتى حسن الوجه والهيئة على فرس أشقرٍ ومعه خادمانِ
 فسَلَّم عليّ وقال : أتقبلُ ضيفاً ؟
 قلتُ : نَعَمْ .

فأخذت بركابه ونزل وقال : اسقنا من شرّابك فسقيته ، فقال : إن
 شئت أن تغنيَ صوتاً فغنيتُه :

حازتُ من الحسنِ ما لا حازه البشرُ فلذَّ لي في هواها الدمعُ والسهرُ

فطرب طرباً شديداً واستعاده مراراً ثم قال : قل لجاريتك فلتغنّ ،
 فأمرتها فغنّت :

حُوريّة حار قلبي في محاسنها فلا قضيب ولا شمس ولا قر

فطرب طرباً شديداً واستعاده مراراً . ولم يزل مقيماً إلى أن صلّينا

العشاء ، ثم قال : ما أقدمك علينا في هذا البلد ؟

قلت : أردت بيعَ جاريتي هذه .

قال : فكم أُمِلَّتَ فيها من الثَّمَنِ ؟

قلتُ : ما أقضي به ديني وأُصلح به حالي .

قال : ثلاثون ألفاً .

قلت : ما أحوجني إلى فضل الله والمزيد فيه .

قال : أيقنعك أربعون ألفاً ؟

قلت : فيها قضاء ديني وأبقى صِفر اليد .

قال : قد أخذناها بخمسين ألفاً من الدراهم ولك بعد ذلك كُسوةً
ونفقةً طريقك وأُشركك في حالي أبداً ما بقيت .

فقلت : قد بعْتُكها .

قال : أفتثقُ بي أن أُوصلَ ذلك غداً وأحملها معي ، أو تكونَ عندك
إلى أن أحملَ ذلك إليك غداً ؟

فحملني السكر والحياء مع الخَشْيَةِ منه على أن قلت : نعم قد وثقت
بك ، فخذها بارك الله لكَ فيها .

فقال لأحد غلاميه : احملها على دابتك وارْتَدِف وراءها وامضِ بها .

ثم ركب فرسه وودَّعني وانصرف ، فما هو إلا أن غاب عني ساعة
فعرفت موضع خطايي وغلطي وقلت : ماذا صنعت بنفسي ؟ أسلَّمَ جاريتي
إلى رجل لا أعرفه ولا أدري من هو ، وهبُ أني عرفتُه فن أين الصلّة
إليه . فجلست متفكراً إلى أن صُلِّيَتُ الصبحُ . ودخل أصحابي دمشق
وجلست حائراً لا أدري ما أصنع وقرعتني الشمس . وكرهت المقامَ ،
فهمت بالدخول إلى دمشق ثم قلت : لم آمن أن الرسول يأتي فلا يجدني

فأكون قد جنيت على نفسي جناية ثانية . فجلست في ظل جدار هناك فلمّا أضحى النهار ، وإذا أحدُ العُلامين اللذين كانا معه قد أقبل عليّ فما أذكر أني سرّرت بشيء أعظم من سروري ذلك الوقت بالنظر إليه فقال لي : يا سيدي ، أبطأنا عليك .

فلم أذكر له شيئاً مما كان بي ثم قال لي : أتعرف الرجل ؟
قلت : لا .

قال : هو الوليد بن هشام وليّ العهد .
فسكتّ عند ذلك ثم قال : قم فاركب .
وإذا معه دابة فركبتها وسرنا إلى أن وصلنا إلى داره فدخلتُ إليه ،
وإذا بالجارية قد وثبت وسلّمت عليّ فقلت : ما كان من أمرك ؟
قالت : أنزلني هذه الحجرة وأمر لي بما أحتاج إليه .

فجلست عندها ساعة وإذا أنا قد أتاني خادم له فقال لي : قم .
فقممت فأدخلني على سيّده ، فإذا هو صاحبي بالأمس ، وهو جالس على سريره فقال : من تكون ؟
فقلت : يونس الكاتب .

قال : مرحباً بك قد كنت والله إليك بضنين وكنت أسمع بخبرك فكيف كان مبيتك في ليلتك ؟
قلت : بخير أعزّك الله .

قال : فلعلّك ندمت على ما كان منك البارحة وقلت : دفعت جاريّتي إلى رجل لا أعرفه ولا أعرف اسمه ولا من أيّ البلاد هو ؟
فقلت : معاذ الله أيها الأمير أن أندم ولو أهديتها إلى الأمير كانت أقلّ وأخسّ ، وما قدر هذه الجارية ؟

فقال : والله لكُنِّي ندمت على أخذها منك ، وقلت : رجل غريب لا يعرفني وقد دهمته وسَفِهت عليه في استعجالي لأخذ الجارية . أفتذكر ما كان بيننا ؟ قلت : نعم .

قال : بعثني هذه الجارية بخمسين ألف درهم . قلت : نعم .

قال : هات يا غلامُ المال . فوضعه بين يديه فقال : هات يا غلام ألف دينار ، فأُتي بها ثم قال : يا غلامُ هاتِ خمسمائة دينار أخرى ، فجاء بها ثم قال : هذا ثمن جاريتك فضَّمه إليك ، وهذه ألف دينار لحسن ظنك بنا ، وهذه الخمسمائة دينار لنفقة طريقك ، وما تبتاعه لأهلك ، رضيت ؟

قلت : رضيت ، وقبلت يديه وقلت : والله قد ملأت عيني ويدي . ثم قال : والله إني لم أدخل بها ولا شبت من غنائها ، عليَّ بها فجاءت فأمرها بالجلوس فجلست فقال لها غُني ، فأنشدت تقول :

أيا من حازَ كلَّ الحسن طراً	ويا حلَّو الشمائل والدلال
جميعُ الحسن في عجمٍ وعربٍ	وما في الكل مثلك يا غزالي
تَعَطَّفُ يا مليح على محبٍ	بوعذك أو بطيف من خيال
حلا لي فيك ذلِّي وافتضاحي	وطاب لمقلتي سهرُ الليالي
وما أنا فيك أوَّلُ مستهامٍ	فكم قبلي قتلتَ من الرجال
رضيتُك لي من الدنيا نصيباً	وأنت أعزُّ من روجي ومالي

فطرب طرباً شديداً وشكر حُسنَ تأديبي لها وتعليمي إياها ثم قال : يا غلام قدِمَ له دابةٌ بسرَّجها وآلتها لركوبه وبغلاً لحملِ حوائجِه وثقله . ثم قال : يا يونس . إذا بلغك أن هذا الأمر أفضى إليَّ فألحق بي ، فوالله لأملأنَّ لك يدك ولأعلينَّ قدرَك ولأغنيَنَّك ما بقيت .

قال : فأنخذت المال وانصرفت . فلما أفضت الخلافة إليه سرت إليه

فوفى والله بوعده وزاد في إكرامي وكنت معه على أسرّ حال وأسنى منزلة
وقد اتسعت أحوالي وكثرت أموالى وصار لي من الضياع والأملأ ما يكفيني
إلى مماتي ويكفي منّ بعدي ولم أزل معه حتى قُتِل ، عفا الله عنه .

هشام وزين العابدين والفرزدق

وقيل : إنه لما حجّ هشام في أيام أبيه طاف بالبيت وجهد أن يصل
إلى الحجر الأسود ليستلمه ، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فثُصِب له منبر
وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أهل الشام . فبينما هو كذلك
إذ أقبل زين العابدين عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم
أجمعين ، وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أريجاً فطاف بالبيت ،
فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحّى له الناس حتى استلمه ، فقال رجل من
أهل الشام : من هذا الذي قد هابه الناس هذه الهبة ؟

فقال هشام : لا أعرفه ! مخافة أن يرغب فيه أهل الشام . وكان أبو
فراس الفرزدق حاضراً فقال : أنا والله أعرفه ، فقال الشامي : من هذا يا
أبا فراس ، فقال :

هذا الذي تعرف البطحاء وطائه	والبيت يعرفه والحلّ والحرم ^١
هذا ابن خير عباد الله كلّهم	هذا النقيّ النقيّ الطاهر العلم
إذا رآته قريش قال قائلها :	إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يُنمى إلى ذروة العزّ التي قصرت	عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يُمسِكُه عرفان راحته	رُكن الخطيم إذا ما جاء يستلم ^٢
في كفه خيزران ربحه عبق	من كف أروع في عرينه شم ^٣

١ البطحاء : الأرض المنبطحّة في وسطها مكة . وطائه : موضع قدمه .

٢ الخطيم : حجر الكعبة أو جداره .

٣ عرينه : الأنف . الشم : الارتفاع .

يُنْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ
يَنْشَقُّ نُورَ الْهُدَى مِنْ نُورِ غُرَّتِهِ
مَشْتَقَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَبْعَتُهُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةَ إِنْ كُنْتَ جَاهِلُهُ
اللَّهُ شَرَّفَهُ قَدَمًا وَعَظَمَهُ
وَلَيْسَ قَوْلِكَ مِنْ هَذَا بِضَائِرِهِ
كَلْنَا يَدِيهِ غِيَاثُ عَمِّ نَفْعُهَا
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ
حَمَّالُ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ إِذَا فُدِحُوا
مَا قَالَ لَا قَطَّ إِلَّا فِي تَشْهِيدِهِ
عَمَّ الْبَرِيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَانْقَشَعَتْ
مِنْ مَعَشَرِ حُبِّهِمْ دِينَ وَبَغْضِهِمْ
إِنْ عُدَّ أَهْلُ التَّقَى كَانُوا أُثْمَتِهِمْ
لَا يَسْتَطِيعُ جَوَادُ بُعْدَ غَايَتِهِمْ
هُمُ الْغِيُوثُ إِذَا مَا أَزْمَةُ أَزَمَتْ
لَا يُنْقِصُ الْعُسْرُ بَسْطًا مِنْ أَكْفِهِمْ
مَقْدَمٌ بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ذَكَرَهُمْ

فَمَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ
كَالشَّمْسِ يَنْجَابُ عَنْ إِشْرَاقِهَا الْقَتْمُ^١
طَابَتْ مَفَارِزُهُ وَالْخَيْمُ وَالشِّيمُ^٢
بَجَدَّهُ أَنْبِيَاءُ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا
جَرَى بِذَاكَ لَهُ فِي لَوْحِهِ الْقَلَمُ^٣
الْعَرَبُ تَعْرِفُ مِنْ أَنْكَرَتِ وَالْعَجَمُ
يُسْتَوَكْفَانُ وَلَا يَعْرُوهُمَا عَدَمُ^٤
يَزِينُهُ اثْنَانُ : حَسَنُ الْخُلُقِ وَالشِّيمُ^٥
حَلُّو الشَّامِلِ تَحْلُو عِنْدَهُ نَعَمُ^٦
لَوْلَا التَّشْهِيدُ كَانَتْ لَاءَهُ نَعَمُ
عَنْهَا الْغِيَاهِبُ وَالْإِمْلَاقُ وَالْعَدَمُ^٧
كُفْرُ وَقَرْبُهُمْ مَنْجَى وَمَعْتَصَمُ
أَوْ قِلَ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْأَرْضِ قِلَ هُمْ
وَلَا يَدَانِيهِمْ قَوْمٌ وَإِنْ كُرِمُوا
وَالْأَسَدُ أَسَدُ الشَّرِّ وَالْبَاسُ مُحْتَدَمُ
سَيِّانَ ذَلِكَ إِنْ أَثَرُوا وَإِنْ عُدِمُوا
فِي كُلِّ بَدْيٍ وَمَخْتَوْمٌ بِهِ الْكَلِمُ

- ١ : ينجاب : ينكشف . القتم : الغبار الأسود .
- ٢ : الخيم : الطبيعة والسجية .
- ٣ : اللوح : الكتاب الذي يسطره القضاء والقدر لكل إنسان ويؤجله إلى حدٍّ معلوم .
القلم : أي قلم القضاء والقدر .
- ٤ : يستوكفان : يستقبران . العدم : الفقر وفقدان الشيء .
- ٥ : بوادره ، الواحدة بادرة : ما يبدو من الإنسان عند الغضب .
- ٦ : فدحوا : نزلت بهم فادحة أي مصيبة . تحلو عنده نعم : أي يلذ له أن يجيب
بالإيجاب من يسأله المعونة .
- ٧ : الغياهب : الظلمات : الإملاق : الفقر .

يأبى لهم أن يحلّ الدّم ساحتهم خَلَقَ كريمٌ وأيدٍ بالندى هُضمٌ
أيّ الخلائق ليست في رقابهم لأوليّةٍ هذا أوله نِعَمٌ
من يعرف الله يعرف أوليّة ذا فالدينُ من بيتِ هذا ناله الأممُ

فلما سمع هشام ذلك غضب وحبس الفرزدق ، فأنفذ له زينُ العابدين رضي الله عنه ، اثني عشر ألف درهم ، فردّها وقال : مدحّته الله لا للطاء والصلات . فقال زين العابدين : إنّنا أهلُ بيتٍ إذا وهبنا شيئاً لا نعود فيه . فقبلها الفرزدق ، انتهى .

هشام والغلام الفصيح

مما يحكى أن هشام بن عبد الملك كان ذات يوم في صيده وقنصه إذ نظر إلى ظبيٍ تتبعه الكلاب فتبعته وأحالته إلى خباء أعرابي يرمى غنماً ، فقال هشام : يا صبي دونك هذا الظبي فأنتي به .
فرفع الصبيّ رأسه إليه وقال له : يا جاهل بقدر الأخيار لقد نظرت إليّ باستصغار وكلمتني باحتقار فكلامك كلام جبار وفعلك فعل حمار .
فقال هشام : يا صبي ، ويلك ما تعرفني ؟
فقال : قد عرفني بك سوء أدبك إذ بدأتني بكلامك قبل سلامك .
فقال : ويلك أنا هشام بن عبد الملك .
فقال له الأعرابي : لا قُربَ دارك ولا حَيّ مزارك ، ما أكثر كلامك وأقلّ إكرامك .

فما استتمَّ حتى أهدت به الجيوش من كل جانب، كل منهم يقول :
السلامُ عليك يا أمير المؤمنين . فقال هشام : أقصروا الكلام واحفظوا
الغلام .

فقبضوا عليه ورجع هشام إلى قصره وجلس في مجلسه وقال : عليّ
بالغلام البدوي ، فأُتي به .

فلما رأى الغلام كثرةَ الغلمان والحجّاب والوزراء والكتّاب وأبناء الدولة
وأرباب الصولة لم يكثرث بهم ولم يسأل عنهم بل جعل ذقنه على صدره
وجعل ينظر حيث تقعُ قدماه إلى أن وصل إلى هشام فوقف بين يديه ،
ونكسَ رأسه إلى الأرض ، وسكت وامتنع من الكلام .

فقال بعض الخدّام : يا كلب العرب ! ما منعك أن تسلّم على أمير
المؤمنين ؟

فالتفت إليه مغضباً وقال : يا برّذعة الحمار ، منعني من ذلك طول
الطريق ونَهزُ الدرجة والتعويق .

فقال هشام وقد ترايد به الغضب : يا صبي قد حضرت في يومٍ حضر
فيه أجلك وخاب فيه أملك وانصرم فيه عمرك .

فقال له الصبي : والله يا هشام لئن كان في المدة تأخير ما ضرّني من
كلامك لا قليل ولا كثير .

فقال له الحاجب : بلغ من أمرك ومحلك يا أحسنَّ العرب أن تخاطبَ
أمير المؤمنين كلمة بكلمة .

فقال له مسرعاً : لقيك الحَذَلُ ولأملك الويل والهَبَلُ : أما سمعتَ ما
قال الله تعالى : « يوم تأتي كلُّ نفس تجادل عن نفسها » ، فإذا كان الله
يُجادل جدالاً فمن هشام حتى لا يُخاطبَ خطاباً ؟

فعند ذلك قام هشام واعتاض غيظاً شديداً . وقال : يا سيّاف عليّ

برأس هذا الغلام فقد أكثر الكلام فيما لا يحظر على الأوهام .
 فقام السيّاف وأخذ الغلام وأبركه في نطع الدم . وسلّ سيف النعمة
 على رأسه . وقال : يا أمير المؤمنين . عبدك المذلّ بنفسه المتقلب في
 رمسه . أأضرب عنقه . وأنا بريء من دمه ؟
 قال : نعم .

فاستأذنه ثانية فأذن له ثم استأذنه ثالثة فهمّ أن يأذن له فضحك الصبي
 حتى بدت نواجذه . فازداد منه تعجباً وقال : يا صبيّ أظنك معتوهاً .
 ترى أنك مفارق الدنيا ومزابلُ الحياة وأنت تضحك هزاً بنفسك ؟
 فقال : يا أمير المؤمنين لئن كان في المدة تأخير ولم يكن في الأجل
 تقصير ما ضرني منك قليل ولا كثير . ولكن أبيات حضرت الساعة
 فاسمعهما . فقتلي لا يفوت فأكثر الصُمت .
 فقال هشام : هاتِ وأوجزِ ، فهذا أوّل أوقاتك من الآخرة وآخر
 أوقاتك من الدنيا .

فأنشد يقول :
 نُبِّئْتُ أن البازَ علّقَ مرّةً عصفورَ برّ ساقه المفلورُ
 فتعلّقَ العصفورُ في إظفاره والبازُ منهك عليه يطيرُ
 فأتى لسان الحال يُخبر قائلاً : ها قد ظفرتُ وإنني مأسرُ
 مثلي فما يغني لمثلك جوعاً ولئن أكلتُ فإنني محقورُ
 فتبسّمَ البازُ المذلّ بنفسه طرباً وأطلقَ ذلك العصفورُ

قال : فتبسّم هشام وقال : وقرأتي من رسول الله ﷺ لو تُلْفَظَ
 بهذا من أوّل وقت من أوقاته وطلب . ما دون الخلافة . لأعطيت . يا
 خدام : احشُ فاهه ذرّاً وجوهرّاً وأحسن جائزته ودعه يَمْضِي إلى حال
 سبيله .

عروة بن أذينة وهشام بن عبد الملك

قيل : وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه فقره
فقال : أأست القائل :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خلَّتني أنَّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعِينني تطلبُهُ وإن قعدتُ أنا في ليس يُعِينني

وخرجت الآن من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، وعظمت فأبلغت .

وخرج وركب ناقته وكرَّ إلى الحجاز راجعاً . فلما كان الليل نام هشام
على فراشه فذكر عروة وقال : رجل من قريشٍ قال حكمة ووفد عليّ
فرددته خائباً . فلما أصبح وجَّهَ إليه بألف دينار فقرَّع عليه الرسول بابَ
داره بالمدينة فأعطاه المالَ فقال : أبلغ عني أمير المؤمنين السلام ، وقل
له : كيف رأيت قولي ، سعت فأكدتُ ، فرجعتُ خائباً ، فجلست في
داري فأنا في رزقي في منزلي ، انتهى .

ابتداء الدولة العباسية

كان القائم بهذه الدولة أبو مسلم الخراساني ، وكان اسمه عبد الرحمن ابن مسلم ، فمن قوله :

أدركت بالحزم والكيمان ما عجزتُ عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلتُ أسعى بجهدٍ في دمارهم والقوم في غفلةٍ والناس قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا من نومةٍ لم ينمها قبلهم أحدٌ
ومن رعى غنماً في أرض مَسْبِعةٍ ونامَ عنها تولَّى رعيها الأسدُ

أولهم أبو عبد الله السفّاح . ذكر ابن الجوزي في كتاب الأذكياء عن خالد بن صفوان أنه دخل يوماً على أبي العباس السفّاح وليس عنده أحد ، فقال : يا أمير المؤمنين إني والله ما زلت منذ قلّدتك الله خلافتَه أطلب أن أصيرَ معك بمثل هذا الموقف في الخلوة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمرَ بإمساك الباب فعل حتى نفرغ .

فأمر الحاجبَ بذلك ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إني فكّرت في أمرِك واستجلبتُ الفكرَ فيك ، فلم أرَ أحداً له قدرةً واتساعٌ في الاستمتاع بالنساء ولا أضيّقُ فيهنّ عيشاً منك . إنك ملّكتَ نفسك امرأةً من نساء العالمين فاقتصرتَ عليها ، فإن مرّضتَ مرضتَ وإن غابتَ غبتَ ، وإن عُرّلتَ عُرّلتَ وحرّمتَ ، يا أمير المؤمنين ، على نفسك التلذّذُ بما يُشتهي منهنّ ، فإنّ منهنّ الطويلةُ التي تُشتهي لحسنها ، والبيضاء التي تُحبُّ لرؤيتها ، والسمراء اللعساء ، والصفراء الذهبية ، ومولّدات المدينة والطائف

واليمامة ذواتِ الألسنة العذبة والجواب الحاضر ، وبناتِ سائر الملوكِ وما يُشتهي من نصارتهنّ ونظافتهنّ .

وتخلّل خالدُ لسانه فأطنب في صفاتِ ضروبِ الجوّاري وشوّقه إليهن . فلما فرغ من كلامه قال له السفّاح : ويحكِ ملأتِ مسامعي . ما شغلَ خاطري والله ما سلكِ مسامعي كلامٌ أحسنَ من هذا فأعِدْ عليّ كلامك فقد وقع مني موقعاً .

فأعاد عليه خالدُ كلامه بأحسن مما ابتدأ به . ثم قال له : انصرفْ ! فانصرفَ وبقي أبو العباس مفكراً . فدخلتْ عليه أمُّ سلمةَ زوجته . وكان قد حلفَ لها أنه لا يتزوَّج عليها ولا يتخذُ عليها سريرةً ووفى لها . فلما رآته على تلك الحالة قالت له : إني لأنكركِ يا أمير المؤمنين . فهل حدث شيء تكرهه أو أتاك خبر ارتعت له ؟

قال : لا .

فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد فقالت له : وما قلت لابن الفاعلة ؟

فقال لها : أينصخني وتشتميه ؟

فخرجت إلى موالها وأمرتهم بضرب خالد .

قال خالد : فخرجت من الدار مسروراً بما أُلقيت إلى أمير المؤمنين . ولم أشك في الصلة . فبينما أنا واقف إذ أقبل موالي أم سلمة يسألون عني فحققت الجائزة فقلت لهم : ها أنا واقف . فاستبق إليّ أحدهم بنخشة فغمزت برذوني فلحقني وضرب كفّل البرذون ، وركضت ففررت منهم واستخفيت في منزلي أياماً ووقع في قلبي أيّ أمنت من أم سلمة . فبينما أنا ذات يوم جالس في المنزل فلم أشعر إلّا بقوم قد هجموا عليّ فقالوا : أجب أمير المؤمنين . فسبق إلى قلبي أنه الموت فقلت : إنّ الله وإنّا إليه

راجعون ، لم أرَ دَمَ شيخٍ أضيع من دمي . فركبت إلى دار أمير المؤمنين .
نأصبته جالساً ولحظت في المجلس بيتاً عليه ستورٌ رقاقٌ وسمعت حساً خفيفاً
خلف الستر فأجلستني . ثم قال : يا خالد أنت وصفت لأمر المؤمنين صفة
نأعدها .

فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، أعلمتك أن العرب ما اشتقت اسم
الضَّرتين إلا من الضَّر وإن أحداً لم يكثر من النساء أكثر من واحدة إلا كان
في ضرٍّ وتغيص .

فقال السفاح : لم يكن هذا من كلامك أولاً ؟
قلت : بلى يا أمير المؤمنين ، وأخبرتكَ أن الثلاث من النساء يُدخلنَ
على الرجل البؤسَ وتشيبُ الرأس .
فقال : برئت من رسولِ الله ﷺ إن كنتُ سمعتُ هذا منك أولاً أو
مرّ في حديثك .

قلت : بلى يا أمير المؤمنين ، وأخبرتكَ أن الأربع من النساء شرٌّ مجتمع
لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه .

قال : والله ما سمعت منك هذا أولاً ؟

قلت : بلى يا أمير المؤمنين ، وأخبرتكَ أن أبكارَ الإماء رجالٌ إلا أنه
يست لهم خصاء .

قال أمير المؤمنين : أفتكذبني ؟

قلت : أفتقتلني ؟

قال خالد ، فسمعت ضحكاً خلف الستر ، ثم قلتُ وأخبرتكَ أن
عندك ريحانةً قريش وأنت تطعمُ بعينيك إلى النساء والجواري .

فقبل لي من وراء الستر : صدقت يا عمّاه هذا حديثك ولكته غير
حديثك ونطق بما في خاطره عن لسانك .

فقال السفّاح : ما بكَ قاتلكَ اللهُ ؟
قال خالد ، فانسيلتُ وخرجتُ فبعثتُ إليّ أم سلمة بعشرة آلاف
درهم وبرزوناً وتحت ثياب ، انتهى .

أبو دلامة والسفّاح

وروي أن أبو دلامة الشاعر كان واقفاً بين يدي السفّاح في بعض
الأيام فقال : سلني حاجتك ؟
فقال له أبو دلامة : أريد كلبَ صيدٍ .
فقال : اعطوه إياه .
فقال : ودابةً أتصيّد عليها .
فقال : اعطوه دابة .
فقال : وغلاماً يقودُ الكلبَ والصيدَ .
فقال : أعطوه غلاماً .
فقال : وجارية تُصلح لنا الصيد وتُطعمنا منه .
فقال : أعطوه جارية .
فقال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عيالٌ ولا بدّ لهم من دار يسكنونها .
فقال : أعطوه داراً تجمعهم .
ثم قال : وإن تكن لهم الدار فمن أين يعيشون ؟
قال : قد أقطعتك عشرة ضياعٍ عامرةٍ وعشرة غامرةٍ من فيافي بني
إسرائيل .

قال : وما معنى الغامرة يا أمير المؤمنين ؟

قال : ما لا نبات فيها .

قال : قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضبعة غامرة من فياني بني سعد .

فضحك منه وقال : أعطوه كلها عامرة .

قال الحافظ : فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها كيف ابتدأ بكلمة عبيد فسهل القضية وجعل يأتي بمسألة مسألة على ترتيب وفكاهة حتى نال ما سأل . ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليها ، بارك الله فيه ، انتهى .

راعي الدّم

وروي عن الحسن بن الحصين . قال : لما أفضت الخلافة إلى بني العباس كان من جملة من اختفى إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك فلم يزل مختفياً إلى أن أضناه وأضجره الاختفاء ، فأخذ له أمان من السفّاح ، وكان إبراهيم رجلاً أديباً بليغاً حسن المحاضرة ، فحظي عند السفّاح ، فقال له : لقد مكثت زمناً طويلاً مختفياً فحدثني بأعجب ما رأيت في اختفائك ، فإنها كانت أيام تكدير .

فقال : يا أمير المؤمنين ، وهل سُمِعَ بأعجب من حديثي ؟ لقد كنت مختفياً في منزل أنظر منه إلى البطحاء فبينما أنا على مثل ذلك ، وإذا بأعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فوقع في ذهني أنها خرجت تطلبني ، فخرجت متنكراً حتى أتيت الكوفة من غير الطريق ، وأنا والله متحير ، ولا أعرف بها أحداً ، وإذا أنا بباب كبير في رَحْبة منيعة . فدخلت في تلك الرحبة فوقفت قريباً من الدار ، وإذا برجل حسن الهيئة ، وهو راكب فرساً ومعه جماعة من أصحابه وغلّمانه ، فدخل الرحبة فرآني واقفاً مرتاباً فقال لي : ألك حاجة ؟

قلت : غريب خائف من القتل .

قال : ادخل فدخلت إلى حُجرة في داره ، فقال : هذه لك ، وهباً لي ما أحتاج إليه من فرش وآنية ولباس وطعام وشراب ، وأهت عندك ووالله ما سألتني قطّ من أنا ، ولا ممن أخاف ؟ وهو في أثناء ذلك يركب في كل يوم ويعود تَعِباً متأسفاً كأنه يطلب شيئاً فاتّه ولم يجده ، فقلت له يوماً : أراك تركبُ في كل يوم وتعود تَعِباً متأسفاً كأنك تطلب شيئاً فاتك ؟

فقال لي : إن إبراهيم بنَ سليمان بن عبد الملك قتل أبي وقد بلغني أنه محتف من السفّاح ، وأنا أطلبه لعلّي أجده وأخذ بثأري منه .

فتعجبت والله يا أمير المؤمنين من هربي وشؤم بختي الذي ساقني إلى منزل رجل يريد قتلي ويطلب ثأره مِنّي . فكرهت الحياة واستعجلت الموت لما نالني من الشدة ، فسألت الرجل عن اسم أبيه وعن سبب قتله ، فعرفني الخبر فوجدته صحيحاً ، فقلت : يا هذا قد وجب عليّ حقّك ، وأنّ من حقّك أن أدلك على قاتل أبيك وأقربَ إليك الخطوة وأسهلَ عليك ما بَعُدَ .

فقال : أتعلم أين هو ؟

قلت : نعم .

فقال : أين هو ؟

فقلت : والله هو أنا فخذ بثأرك مِنّي .

فقال لي : أظن أن الاختفاء أضناك فكرهتَ الحياة .

قلت : نعم والله أنا قتلته يوم كذا وكذا .

فلما علم صدقي تغيّر لونه واحمّرت عيناه وأطرق رأسه ساعة ثم رفع رأسه إليّ وقال لي : أما أبي فسيلقاك غداً يوم القيامة فيحاكمك عند من لا تخفى عليه خافية ، وأما أنا فلستُ مُخفراً ذمّتي ولا مُضيعاً نزيلي . اخرج

عَتِي فَإِنِّي لَا آمَنُ مِنْ نَفْسِي عَلَيْكَ بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ .
 ثُمَّ وَثَبَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى صَنْدُوقٍ فَأَخْرَجَ مِنْهُ صَرَّةً فِيهَا خَمْسَمِائَةُ
 دِينَارٍ وَقَالَ : خُذْ هَذِهِ وَاسْتَعِنْ بِهَا عَلَى اخْتِفَائِكَ .
 فَكَرِهَتْ أَخْذَهَا وَخَرَجَتْ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ أَكْرَمَ رَجُلٍ رَأَيْتُ . فَبَقِيَ
 السَّفَاحُ يَهْتَزُّ طَرَباً وَيَتَعَجَّبُ .

مَفَاخِرَةُ الْيَمَنِ وَمُضَرِّ

وَعَنْ الْهَيْثَمِ بْنِ عَدِي . قَالَ كَانَ أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَاحُ تَعَجَّبَهُ الْمَسَامَرَةُ
 وَمَنَازَعَةُ الرِّجَالِ فَحَضَرَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَسَامَرَةِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ مَخْرَمَةَ الْكَنْدِيِّ
 وَنَاسٍ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ وَهُمْ أَخْوَالُهُ وَخَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
 التَّمِيمِيِّ . فَخَاضُوا فِي الْحَدِيثِ وَتَذَاكَرُوا مُضَرَ وَالْيَمَنَ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ الْيَمَنَ هُمْ الْعَرَبُ الَّذِينَ دَانَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا وَكَانَتْ لَهُمُ الْقُرَى وَلَمْ
 يَزَالُوا مُلُوكاً أَرْبَاباً وَوَرِثُوا ذَلِكَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ أَوَّلًا عَنْ آخِرٍ مِنْهُمْ النُّعْمَانِيَّاتُ
 وَالْمُنْذِرِيَّاتُ وَالْقَابُوسِيَّاتُ وَالتَّبَاعَةُ^١ ، وَمِنْهُمْ مَنْ مَدَحَتْهُ الزُّبَيْرُ^٢ ، وَمِنْهُمْ غَسِيلُ
 الْمَلَائِكَةِ^٣ ، وَمِنْهُمْ مَنْ اهْتَزَمَتْ لِمَوْتِهِ الْعَرْشُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَلِمَةُ الذُّبِّ ، وَمِنْهُمْ
 الَّذِي كَانَ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضَباً . وَلَيْسَ شَيْءٌ لَهُ خَطَرٌ إِلَّا وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ
 مِنْ فَرَسٍ رَائِعٍ أَوْ سَيْفٍ قَاطِعٍ أَوْ دَرَعٍ حَصِينَةٍ أَوْ حَلَّةٍ مَصُونَةٍ أَوْ دَرَّةٍ
 مَكُونَةٍ ، إِنْ سُئِلُوا أَعْطَوْا وَإِنْ سَيِّمُوا^٤ أَبَوْا ، وَإِنْ نَزَلَ بِهِمْ ضَيْفٌ قَرَوْا لَا
 يَبْلُغُهُمْ مَكَابِرُ ، وَلَا يَنَالُهُمْ مَفَاخِرُ ، هُمْ الْعَرَبُ الْعَرَبَاءُ ، وَغَيْرُهُمُ الْمُتَعَرِّبَةُ .

١ النُّعْمَانِيَّاتُ وَالْمُنْذِرِيَّاتُ وَالْقَابُوسِيَّاتُ : إِشَارَةٌ إِلَى اللَّخْمِيِّينَ مُلُوكِ الْحِيرَةِ . التَّبَاعَةُ :
 مُلُوكُ الْيَمَنِ .

٢ الزُّبَيْرُ ، الْوَاحِدُ زَبُورُ : الْكِتَابُ . غَلَبَ عَلَى صَحْفِ دَاوُدَ .

٣ غَسِيلُ الْمَلَائِكَةِ : هُوَ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ الْأَنْصَارِيِّ .

٤ سَيِّمُوا : لَعَلَهُ يَرِيدُ سَيِّمُوا الذَّلَّ أَيَّ كَلْفُوهُ .

قال أبو العباس السفاح : ما أظن التميمي يرضى بقولك . ثم قال :
ما تقول يا خالد ؟

قال : إن أذنت في الكلام تكلمت .

قال : أذنت لك في الكلام فتكلم ولا تهب أحد .

فقال : أخطأ يا أمير المؤمنين المقتحم بغير علم والناطق بغير صواب .
فكيف يكون ما قال ، وإن القوم ليست لهم السن فصيحة ولا حجة
رجيحة . نزل به كتاب ولا جاءت بها سنة ، وهم منا على منزلتين : إن
حادوا عن قصدنا أكلوا ، وإن جازوا حكمنا قتلوا ، يفخرون علينا
بالتعمانيات والمننريات وغير ذلك مما سنأتي عليه ، ونفخر عليهم بخير الأنام
وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، ولله المنة علينا
وعليهم لقد كانوا أتباعه فيه عزوا وله أكرموا ، فثنا النبي ﷺ ومنا الخليفة
المرتضى ، ولنا البيت المعمور والمسعى وزمزم والمقام والمينبر والركن والحطيم
والمشاعر والحجابة والبطحاء مع ما لا يخفى من المآثر ولا يدرك من المفاخر .
فليس يعدل بنا عادل ولا يبلغ فضلنا قول قائل ومنا الصديق والفاروق
والوصي وأسد الله وسيد الشهداء ذو الجناحين وسيف الله ، عرفوا الله
وأثاهم اليقين ، فن زاحمنا زاحمناه ومن عادانا اضطلمناه^١ .

ثم التفت إلى إبراهيم فقال : أعالم أنت بلغة قومك ؟

قال : نعم .

قال : فما اسم العين ؟

١ الصديق : أبو بكر أول الخلفاء الراشدين . الفاروق : عمر بن الخطاب . الوصي :
علي بن أبي طالب . أسد الله : حمزة بن عبد المطلب . سيد الشهداء ذو
الجناحين : جعفر الملقب أيضاً بالطيار . سيف الله : خالد بن الوليد .
٢ اضطلمناه : استأصلناه .

قال : الجمجمة .

قال : فما اسم السن ؟

قال : الميذن .

قال : فما اسم الأذن ؟

قال : الصَّتَّارة .

قال : فما اسم الأصابع ؟

قال : الشناتر .

قال : فما اسم اللحية ؟

قال : الذئب .

قال : فما اسم الذئب ؟

قال : الكنع .

قال : أمؤمن أنت بكتاب الله ؟

قال : نَعَمْ .

قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^١ ، وقال تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾^٢ ، وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ﴾^٣ . فنحنُ العربُ والقرآنُ بلساننا نزل ، ألم تر أن الله تعالى قال : العين بالعين ، ولم يقل : الجمجمة بالجمجمة ؛ وقال : السن بالسن ، ولم يقل الميذن بالمليذن ؛ وقال : الأذن بالأذن ، ولم يقل الصَّتَّارة

١ سورة يوسف ٢ .

٢ سورة الشعراء ٢٩٥ .

٣ سورة إبراهيم ٤ .

بالصَّارَةَ ، وقال : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ ، ولم يقل شناترهم .
وقال : لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ، ولم يقل بذئبي . وقال تعالى : فأكله
الذئب ، ولم يقل فأكله الكنع . ثم قال أسألك عن أربع إن أقررت بهنَّ
فُهِرَتْ وإن جحدتهنَّ كَفَرَتْ .

قال : وما هنَّ ؟

قال : الرسول منا أو منكم ؟

قال : منكم .

قال : فالقرآن نزل علينا أو عليكم ؟

قال : عليكم .

قال : فالبيت الحرام لنا أو لكم ؟

قال : لكم .

قال : فالخلافة فينا أو فيكم ؟

قال : فيكم .

قال خالد : فما كان بعد هذه الأربع فهو لكم .

خلافة أبي جعفر المنصور

قيل : إنه كان يحفظ الشعر من مرة ، وله مملوك يحفظه من مرتين ، وكان له جارية تحفظه من ثلاث مرّات ، وكان بخيلاً جداً حتى إنه كان يلقب بالدوانيقي لأنه كان يحاسب على الدوانيقي^١ ، فكان إذا جاء شاعر بقصيدة قال له : إن كانت مطروقةً بأن يكون أحد يحفظها أو أحد أنشأها : أي بأن كان أتى بها أحد قبلك ، فلا نعطيك لها جائزة ، وإن لم يكن أحد يحفظها نعطيك زنة ما هي مكتوبة فيه ، فيقرأ الشاعر القصيدة فيحفظها الخليفة من أوّل مرّة ، ولو كانت ألف بيت ، ويقول للشاعر اسمها منّي وينشدها بكمالها ، ثم يقول له : وهذا المملوك يحفظها ، وقد سمعها المملوك مرتين ، مرّة من الشاعر ومرّة من الخليفة فيقرأها ، ثم يقول الخليفة : وهذه الجارية التي خلف الستارة تحفظها أيضاً وقد سمعتها الجارية ثلاث مرّات فتقرأها بحروفهله فيذهب الشاعر بغير شيء .

قال الراوي : وكان الأصمعي من جلسائه وندمائهم فنظم أبياتاً صعبة وكتبها على قطعة عمودٍ من رخام ولفّها في عباءة وجعلها على ظهر بعير وغير حليته في صفة أعرابي غريب وضرب له لثاماً ولم يبين منه غير عينيّه ، وجاء إلى الخليفة وقال : إني امتدحت أمير المؤمنين بقصيدة . فقال : يا أخا

١ الدوانيقي ، الواحد دانق : سدس الدرهم .

العرب إن كانت لغيرك لا نعطيك عليها جائزة وإلا نعطيك زنة ما هي مكتوبة عليه ، فأنشء الأصمعي هذه القصيدة :

صوتُ صفير البلبِلِ هَيَّجَ قلبي الثَّمَلِ الماءُ والزهرُ معا
مع زهر لحظِ المُقَلِّ وأنت يا سيد دلي وسيددي ومولي
وكم وكم تيمني غزِيلُ عُنُقِي قُطِفْتُ من وجنته
بالثَّمِ وردَ الخجلِ وقلت بَسْ بسببني فلم يُجد بالْقُبَلِ
وقال لا لا لِلَّلا وقد غدا مهرولي والحدودُ مالت طربا
من فعل هذا الرجل وولولت ولولَةٌ ولي ولي يا ويللي
فقلت لا تولولي وبَيَّي اللؤلؤلي لما رآته أشمطا
يريد غير القُبَلِ وبعده ما يكتني إلا بطيب الوصلي
قالت له حين كذا انهض وجد بالنقلي وفتية سقوني
فَهَيوة كالعسلي شممها في أنفي أركى من القرنفلِ
في وسط بستان حُلِّي بالزهر والسرولي والعودُ دندن دني
والطبلُ طبطبلي والرقص قد طبطلي والسقفُ قد سبسقلي
شوا شوا وشاهشوا على ورق سفرجلي وغردَ القمري يصيحُ
من ملل في مللي فلو تراني راكبًا على حمار أهزلي
يَمشي على ثلاثة كمشية العرنجلِ والناسُ ترجمجملي
في السوق بالقلقي والكل كعكع كعكع خلني ومن حولي
لكن مشيت هاربًا من خشية العقنقلي إلى لقاء ملكِ
معظمٍ مَبَجَّلٍ يأمر لي بخلعة حمراء كالدمدمللي
أجر فيها ماشيًا مبغددًا للذيلِ أنا الأديب الألمي
من حي أرض الموصل نظمت قطعًا زُخرفت تُعجز الادبلي
أقول في مطلعها صوتُ صفير البلبِلِ

قال الراوي : فلم يحفظها الملك لصعوبتها ، ونظر إلى المملوك وإلى الجارية فلم يحفظها أحد منها فقال : يا أخا العرب هاتِ الذي هي مكتوبة فيه نعطك زنته .

فقال : يا مولاي إني لم أجد ورقاً أكتب فيه وكان عندي قطعة عمود رخام من عهد أبي ، وهي ملقاة ليس لي بها حاجة ، فنقشتها فيها . فلم يسع الخليفة إلا أنه أعطاه وزنها ذهباً فنقد ما في خزينته من المال . فأخذه وانصرف ، فلما ولى قال الخليفة : يُغلبُ على ظني أن هذا الأصمعي ، فأحضره وكشف عن وجهه . فإذا هو الأصمعي فتعجب منه ومن صنيعه وأجازه على عادته ، قال : يا أمير المؤمنين ، إن الشعراء فقراء وأصحاب عيال وأنت تمنعهم العطاء بشدة حفظك وحفظ هذا المملوك وهذه الجارية . فإذا أعطيتهم ما تيسر ليستعينوا به على عيالهم لم يضرّك ، انتهى .

حاج يعظ المنصور

وذكر الغزالي وابن بليان وغيرهما ، أن أبا جعفر المنصور حجّ ونزل في دار التدوّر ، وكان يخرج سحراً فيطوف بالبيت ، فخرج ذات ليلة سحراً ، فبينما هو يطوف إذ سمع قائلاً يقول : اللهم أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع . فهور المنصور في مشيته حتى ملأ سمعه ثم رجع إلى دار التدوّة . وقال لصاحب شرطته : إن بالبيت رجلاً يطوف فأتني به . فخرج صاحب الشرطة فوجد رجلاً عند الركن اليماني . فقال : أجب أمير المؤمنين . فلما دخل عليه ، قال : أنا الذي سمعتك آنفاً تشكو إلى الله من ظهور البغي والفساد في

الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ، فوالله لقد حشوت مسامي ما أمرضني .

فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن الذي داخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وامتلاأت بلاد الله بذلك بغياً وفساداً أنت هو .

فقال له المنصور : وبحك كيف يداخلني الطمع ، والصفراء والبيضاء ببائي ومُلك الأرض في قبضتي .

فقتل الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين ، وهل داخل أحداً من الطمع ما داخلك ؟ استرعاك الله أمور المؤمنين وأموالهم فأهملت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم ، واتخذت بينك وبين رعيتك حجاباً من الجبس والآجر وحجبة معهم السلاح وأمرت أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، نفر استخلصتهم لنفسك وأمرتهم على رعيتك ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الجائع ولا العاري ، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق . فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمع الأموال وتقسمها ، قالوا : هذا خان الله ورسوله فما لنا لا نخونهُ ؟ ، فأجمعوا على أن لا يصل إليك من أموال الناس إلا ما أرادوا . فصار هؤلاء شركاءك في سلطانتك ، وأنت غافل عنهم ، فإذا جاء المظلوم إلى بابك وجدك وقفت رجلاً ينظر في مظالم الناس ، فإن كان الظالم من بطانتك علل صاحب المظالم بالمظلوم وسوف من وقت إلى وقت ، فإذا اجتهد وظهرت أنت صرخ بين يديك ، فضربه أعوانك ضرباً شديداً ليكون نكالا لغيره ، وأنت ترى ذلك ولا تُنكر . لقد كانت الخلفاء قبلك من بني أمية إذا أتت إليهم الظلّامة أزيلت في الحال ، ولقد كنت أسافر إلى الصين يا أمير المؤمنين ، فقدمت مرة فوجدتُ الملك الذي به قد فقد سمعه ، فبكى ، فقال له وزراؤه : ما يُبكيك أيها الملك ؟ لا أبكي الله لك عينا إلا من خشيته .

فقال : والله ما بكيت لمصيبة نزلت بي وإنما أبكي لمظلوم يصرخ

باباب فلا اسمعه . ثم قال . إن كان سمعي ذهب فإن بصري لم يذهب . نادوا في الناس لا يلبس أحدٌ ثوباً أحمرَ إلاّ مظلومٌ . وكان يركبُ الفيل طرفي النهار ويدور في البلد لعله يجد أحداً لا بساً ثوباً أحمرَ فيعلم أنه مظلوم فينصفه . وهذا الأمير رجلٌ مُشرك غلبت عليه رأفته على شحِّ نفسه بالمشرّكين ، وأنت مؤمن بالله ورسوله وابنُ عمِّ رسول الله ﷺ .

يا أمير المؤمنين ! لا تجعلَ الأموالَ إلاّ لإحدى ثلاثٍ : فإن قلتَ إنما أجمعُ الأموالَ لصالح المُلْك فقد أراك الله عبدةً في الملوك والقرون من قبلك ما أغنى عنهم ما أعدّوا من الأموال والرجال والكراع ، حين أراد الله بهم ما أراد ؛ وإن قلتَ إنما أجمع للولد ، فقد أراك الله عبدةً فيمن تقدّم ممن جمع المال للولد فلم يُغن ذلك عنهم شيئاً بل ربما مات فقيراً ذليلاً حقيراً ؛ وإن قلتَ إنما أجمعه لغاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها ، فوالله ما فوق منزلتك إلاّ منزلة لا تدرك إلاّ بالعمل الصالح .

فبكى المنصور بكاءً شديداً ثم قال : وكيف أعمل وقد قرّرت منّي العبادُ ولم تقربني ، والصالحون لم يدخلوا عليّ ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، افتح الباب وسهّل الحجاب وانتصر للمظلوم وخذ المالَ مما حلّ وطاب ، واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن من هرب أن يعودَ إليك .

فقال المنصور : نفعل إن شاء الله تعالى .

وجاء المؤذنُ فأذن للصلاة فقام وصلى فلما قضى صلاته طلب الرجل فلم يجده ، فقال لصاحب الشرطة : عليّ بالرجل الساعة . فخرج يتطلبه فوجده عند الركن اليماني فقال له : أجب أمير المؤمنين .

فقال : ليس إلى ذلك من سبيل .

فقال : إذن يضرب عنتي .

فقال : ولا إلى ضرب رقبتك من سبيل . ثم أخرج من مزود كان معه رقاً مكتوباً فقال له : خذه فإن فيه دعاء الفرج من دعا به صباحاً ومات من يومه مات شهيداً ، ومن دعا به مساءً ومات من ليلته مات شهيداً . وذكر له فضلاً عظيماً وثواباً جزيلاً . فأخذه صاحب الشرطة وأتى به المنصور فلما رآه قال له : ويلك أو تحسن السحر؟

قال : لا والله يا أمير المؤمنين . ثم قصَّ عليه القصة ، فأمر المنصور بنقله وأمر له بألف دينار ، وهو هذا .

« اللهم كما لطفْتَ في عَظَمَتِكَ دون اللُّطفاء وعلوتَ بعَظَمَتِكَ على العُظماء ، وعلمُكَ بما تحت أرضك كعلمِكَ بما فوق عرشك . وكانت وساوسُ الصدور كالعلانية عندك ، وعلانيةُ القول كالسرِّ في علمك ، وانقادَ كلُّ شيءٍ لعَظَمَتِكَ ، وخضعَ كلُّ ذي سلطان لسلطانِكَ ، وصارَ أمرُ الدنيا والآخرة كُلُّهُ بيدِكَ ، اجعل لي من كلِّ همٍّ وغمٍّ أصبحتُ أو أمستُ فيه فرجاً ومخرجاً . اللهم ، إن عفوَكَ عن ذنوبي وتجاوزَكَ عن خطيئتي وسَتَرَكَ على قبيحِ عملي أطمئني أن أسألك ما لا أستوجبُه مما قصَّرتُ فيه ، أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً ، فإنك أنت المُحسن إليّ وأنا المُسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك ، تودَّدُ إليّ بالنعَمِ وأتبعُصُّ إليك بالمعاصي ، ولكنَّ الثقة بك حملتني على الجرأةِ عليك ، فجد بفضلِكَ وإحسانك عليّ ، إنك أنت الرؤوف الرحيمُ » .

القاضي ابن أبي ليلى والمنصور

وحدَّث عبد الله البلتاجي ، قال : دخل ابن أبي ليلى على أبي جعفر المنصور ، وكان ابن أبي ليلى قاضياً فقال أبو جعفر : إن القاضي يردُّ عليه

من ظرائف الناس ونوادرهم أمور . فإن كان ورد عليك شيء فحدثنيه ،
فقد طال عليّ يومي .

قال : والله يا أمير المؤمنين ، قد ورد عليّ منذ ثلاثة أيام أمر ما ورد
عليّ مثله . أتتني عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها أو تسقط من الخنائها
فقلت : أنا بالله وبالقاضي أن يأخذ لي بحقي وأن يعينني على خصمي .

قلت : ومن خصمك ؟

قالت : ابنة أخ لي .

فدعوت بها فجاءت امرأة ضخمة ممثلة شحماً فجلست منهرة .
فذهبت العجوز تتظلم ، فقالت الشابة : أصلح الله القاضي ، مرها
فلتسكت حتى أنكلم بحجتي وحجتها فإن لحت بشيء فلترد عليّ ، فإن
أذنت لي أسفرت .

فقلت العجوز : إن أسفرت قضيت لها .

فقلت لها : أسفري ، فأسفرت عن وجه والله ما ظننت أنه يكون
مثله إلا في الجنة . فقالت : أصلح الله القاضي ، هذه عمّي مات والدي
وتركني يتيمة في حجرها فربّنتي فأحسنّت التربية ، حتى إذا بلغت مبلغ
النساء قالت لي : يا بنت أخي ، هل لك في التزويج ؟ قلت : ما أكره
ذلك يا عمّة .

قالت العجوز : نعم .

قالت : فخطبني وجوه أهل الكوفة فلم ترض إلا رجلاً صيرفياً ،
فتزوجني ، فكنا كأننا ريحانتان ما أظن أن الله خلق غيره يغدو إلى سوقه
ويروح عليّ بما رزقه الله تعالى . فلما رأت العمّة موقعه منّي وموقعي منه

١ منهرة : منقطعة النفس من السعي الشديد .

حسدتنا على ذلك ، وكانت لها ابنة فشوّفتها وهيّاتها لدخول زوجي ،
فوقعت عينه عليها ، فقال : يا عمّة هل لك أن تزوّجيني ابنتك ؟

قالت : نعم بشرط .

فقال لها : وما الشرط ؟

قالت : تُصَيِّرُ أَمْرَ ابنة أخي إليّ .

قال : قد صَيَّرْتُ أَمْرَهَا إِلَيْكَ .

قالت : فأني قد طَلَّقْتُهَا ثَلَاثًا بَنَةً .

وَزَوَّجْتُ ابْنَتَهَا زَوْجِي ، فكان يغدو عليها ويروح ، فقلت لها : يا
عمّتي أتأذنين لي أن أنتقل عنك ؟

قالت : نعم .

فانتقلت عنها وكان لعمّتي زوج غائب فقدم فلما توسّط منزلها قال : ما
لي لا أرى ربيبتنا ؟

قالت : طَلَّقْتُهَا زَوْجُهَا فانتقلت عَنَّا .

فقال : إن لها من الحقّ علينا أن نعرّيها بمصيّبتها .

فلما بلغني مجيئه إليّ تهيّأت له وتشوّفتُ ، فلما دخل عليّ عزّائي
بمُصَيِّبَتِي ، ثم قال : إن فيك بقيةً من الشباب ؛ فهل لك أن أتزوّج
بك ؟

قلت : ما أكره ذلك ولكن على شرط .

قال لي : وما الشرط ؟

قلت : تُصَيِّرُ أَمْرَ عمّتي بيدي .

١ شوّفتها : زيّتها .

قال : فإني قد فعلت وصيرتُ أمرها بيدك .

قلت : فإني قد طَلَقْتُهَا ثلاثاً بَتَّةً .

قالت : فقدم عليّ بثقله من الغد ومعه ستة آلاف درهم فأقام عندي ما أقام ، ثم إنه اعتلّ وتوفي فلما انقضت عدتي جاء زوجي الأول الصيرفي يعزّيني بمُصِيبتي فلما بلغني مجيئه تهيأت ونشوّفتُ له ، فلما دخل عليّ قال لي : يا فلانة إنك تعلمين أنك كنت أعزّ الناس عليّ وأحبهم إليّ ، وقد حلّت المراجعة ، فهل لك في ذلك ؟

قلت : ما أكره ذلك ، ولكن اجعل أمر ابنة عمّتي بيدي .

قال : فإني قد فعلت .

قلت : فإني قد طَلَقْتُهَا ثلاثاً بَتَّةً ، أصلح الله القاضي ، فرجعت إلى زوجي فما اعتدائي عليها .

فقلت العجوز : أنا فعلت مرّة ، وفعلت مرّة بعد أخرى .

فقلت : إن الله لم يُؤَقِّتْ في هذا وقتاً ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُصْرَفَهُ اللَّهُ ﴾^١ . فواحدة بواحدة والبادي أظلم .

فقال القاضي : إن زوج العمة لم يكن له أن يتزوَّج ابنة أخيها وهي في عدّته ؛ فأرادت العجوز أن تتولّى التفريق بينه وبينها استيفاء لها ومجازاة لها على فعلها ، فقلت لها : قد فرّقت بينكما ، قومي إلى منزلك ، انتهى .

الأمير الأموي وملك التوبة

وذكر المنصور يوماً في مجلسه زوالَ مُلك بني أمية وما جرى عليهم ،
وأنهم عاشوا سعداء وماتوا فقراء ، فقال له إسماعيل بن عليّ الهاشمي :
إن عبد الله بن مروان بن محمد في حبسك ، وله قصة مع ملك التوبة .
فاحضره واسأله عنها . فأحضره ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين
ورحمة الله وبركاته .

فقال المنصور : ردّ السلام آمنٌ ولم تسمح نفسي بذلك ، ولكن
اقعد ! فقعده ، فقال : ما قصّتك مع ملك التوبة ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، كنت وليّ عهد أبي فلما طلبتنا دعوتُ عشرةً
من غلماني ودفعْتُ لكل واحدٍ ألفَ دينارٍ وأوسقتُ خمسَ بغالٍ وشددتُ في
وسطي جوهراً له قيمة عظيمةٌ وخرجتُ هارباً إلى بلاد التوبة ، فلما قربنا
بعثتُ غلاماً لي ، فقلتُ له : امضِ إلى هذا الملك وأقرئه السلام واخذ لنا
منه الأمان وابتغِ لنا ميرةً . فمضى وأبطأ حتى أسأت به الظن ، ثم أقبل
ومعه رجلٌ فدخل وسلم وقال : الملكُ يقرئك السلام ويقول لك : من
أنت وما جاء بك إلى بلادِي ؟ أحاربٌ ، أم راغبٌ في ديني ، أم
مستجير بي ؟

فقلتُ له : ردّ على الملك ، ما أنا بمُحارب ولا راغب في دينك ولا
ممن يبتغي بدينه بدلاً بل مستجيرٌ به .

فذهب الرسول ورجع إليّ وقال : الملك يقول لك إنني أجيء إليك
غداً فلا تُحدّث نفسك حدثاً ولا شيئاً من الميرة .

فقلت لأصحابي : افرشوا الفراش ، ففرش لي وجلست من الغد أرقبه ، وإذا هو قد أقبل وعليه بُردان قد ائتر بأحدهما وارتدى بالآخر ، حافي الرجلين . ومعه عشرة معهم الحراب : ثلاثة يقدّمونه وسبعة خلفه . فاستصغرت أمره وسوّلت لي نفسي قتله . فلما قرب إذا سوادٌ عظيم . قلت : ما هذا ؟ قالوا : الخيل . فوافي بها عشرة آلاف عِنان . ووافت الخيل عند دخوله فأحدقوا بنا . فلما دخل جلس على الأرض . قال : فقلت لترجّانه : لِمَ لم يقعد على الموضع الذي وطئ له ؟

فسأله . فقال : قل له إنه ملكٌ وكلُّ ملكٍ حقّه أن يكون متواضعاً لله وعظمته إذ رفعه الله على عباده .

ثم نكت بإصبعه الأرض طويلاً ورفع رأسه وقال : قل له كيف سُلِّبتم هذا الملك . فأخِذ منكم وأنتم أقربُ الناس إلى نبيكم ؟

فقلت : جاء من هو أقربُ منا قرابةً إليه . فسلبنا وغلبنا وطردنا فخرجتُ إليك مستجيراً بالله . ثم بك .

قال : فلمَ كنتم تشربون الخمر وهو محرّم عليكم ؟

قلت : فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا في ديننا وفي ملكنا من غير رأينا .

قال : فلمَ تركبون على الديباج وعلى خيولكم سروج الذهب والفضة وهي محرّمة عليكم ؟

قلت : فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا في ديننا وفي ملكنا بغير رأينا .

قال : فلمَ كنتم إذا خرجتم إلى الصيد مررتم على القرى وكلفتم أهلها ما لا طاقة لهم به بالضرب والإهانة ولا ينعكم ذلك حتى تحطموا زرعهم

في طلب درّاج قيمته نصف درهم ، والتكليف والعناء محرم عليكم ؟

قلت : فعل ذلك عبيد وغلّمان وأتباع .

قال : لا ! ولكنكم استحللتم ما حرّم الله عليكم وأتيتم ما نهاكم الله عنه فسلبكم العزّ وألبسكم الذلّ ونصر أعداءكم عليكم ، والله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد . وإني أخاف أن تنزل بك النقمة إذ كنت من الظّلمة فتشملي معك ، فإن النقمة إذا نزلت شملت ، فأخرج بعد ثلاث ، فإن وجدتكَ بعدها أخذتُ ما معك وقتلتك ومن معك .

ثم وثب قائماً وخرج وأقبت ثلاثاً ورجعت إلى مصر فأخذني عاملك وبعث بي إليك . وها أنا ذا والموت أحب إليّ من الحياة .

فرقّ له المنصور وهمّ بإطلاقه ، فقال له إسماعيل بن عليّ : في عني بيعة هذا .

قال : فما ترى ؟

قال : ينزل في دار من دورنا ويُجرى عليه ما يُجرى على مثله .

ففعل به ذلك ، انتهى .

بليّتان . المنصور والطاعون

وخطب المنصور يوماً بالشّام ، فقال : أيها الناس ينبغي لكم أن تحملوا الله تعالى على ما وهبكم فيّ فأني منذ وليتكم صرف الله عنكم الطاعون الذي كان يحيثكم .

فقال أعرابي : إن الله أكرم من أن يجمعك أنت والطاعون علينا .

١ . الدّراج : طائر شبيه بالحجل وأكبر منه ، أرقط بسواد نواياض ، قصير المنقار .

ابن هرمة والخمر

ودخل ابن هرمة على المنصور وامتدحه ، فقال له المنصور : سل حاجتك ؟

قال : تكتب إلى عاملك بالمدينة إذا وجدني سكران لا يحدني .

فقال له المنصور : هذا حدّ لا سبيل إلى تركه .

فقال : ما لي حاجة غيرها .

فقال لكاتبه : اكتب إلى عاملنا بالمدينة من أتك بابل هرمة وهو سكران فاجلده ثمانين ، واجلد الذي جاء به مائة .

فكان الشرطة يَمْرُون عليه وهو سكران ويقولون : من يشتري ثمانين بمائة ، فيمْرُون عليه ويتركونه ، انتهى .

الرجل الثبت الجنان

وحدّث أحمد بن موسى قال : ما رأيتُ رجلاً أثبت جناناً ولا أحسن معرفة ولا أظهر حمّة من رجل رُفِع فيه عند المنصور بأن عنده أموالاً لبني أميّة ، فأمر المنصور حاجبه الربيع أن يحضره . فلما حضر بين يديه . قال المنصور : رُفِع إلينا أن عندك ودائع وأموالاً وسلاحاً لبني أميّة فاخرجها لنا لنجمع ذلك إلى بيت المال .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، أنت وارث لبني أميّة ؟

قال : لا .

قال : فلم تسأل إذن عما في يدي من أموال بني أمية ولست بوارث لهم ولا وصي .

فأطرق المنصور ساعة . ثم قال : إن بني أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين .

فقال الرجل : يحتاج أمير المؤمنين إلى بيّنة يقبلها الحاكم تشهد أن المال الذي لبني أمية هو الذي في يدي وأنه هو الذي غصبوه من الناس . وأن أمير المؤمنين يعلم أن بني أمية كانت لهم أموال لأنفسهم غير أموال المسلمين التي اغتصبوها على ما يتّهم أمير المؤمنين ؟

قال : فسكت المنصور ساعة ، ثم قال : يا ربيع ، صدق الرجل ما يجب لنا على الرجل شيء . ثم قال للرجل : ألك حاجة ؟

قال : نعم .

قال : ما هي ؟

قال : أن تجمع بيني وبين من سعى فيّ إليك فوالله يا أمير المؤمنين ما لبني أمية عندي مال ولا سلاح . وإنما أحضرت بين يديك وعلمت ما أنت فيه من العدل والإنصاف واتباع الحق واجتناب المظالم . فأيقنت أن الكلام الذي صدر مني هو أنجح وأصلح لما سألتني عنه .

فقال المنصور : يا ربيع . اجمع بينه وبين الذي سعى به فجمع بينهما . فقال : يا أمير المؤمنين . هذا أخذ لي خمسمائة دينار وهرب . ولي عليه مسطور شرعي .

فسأل المنصور الرجل فأقرّ بالمال . قال : فما حملك على السعي كاذباً ؟

قال : أردت قتله ليخلص لي المال .
فقال الرجل : قد وهبُها له يا أمير المؤمنين ، لأجل وقوفي بين يديك
وحضوري مجلسك ووهبته خمسمائة دينار أخرى لكلامك لي .
فاستحسن المنصور فعله وأكرمه وردّه إلى بلده مكرّماً .
وكان المنصور كل وقت يقول : ما رأيت مثل هذا الشيخ قط ، ولا
أثبت من جنانه ولا من حجّتي مثله ولا رأيت مثل حمله ومروءته ، انتهى .

- خلافة المهدي

الرؤيا الصالحة

اسمه محمد بن المنصور . حدثنا داود بن رشيد ، قال : قلت للمهيم بن عليّ بأي شيء استحق سعيد بن عبد الرحمن أن ولّاه المهدي القضاء وأنزله منه تلك المتزلة الرفيعة ؟ . فقال : إن خبره . باتصاله بالمهدي ... ظريف . فإن أحببت شرحته لك . قلت والله قد أحببت .

قال : اعلم أنه وافى الربيعُ الحاجبُ حين أفضت الخلافة إلى المهدي . وقال له : استأذن لي على أمير المؤمنين . فقال له : من أنت وما حاجتك ؟ قال : أنا رجل قد رأيت لأمر المؤمنين أعزّه الله رؤيا صالحة ، وقد أحببت أن تذكرني له . فقال الربيع : يا هذا ، إن القوم لا يصدقون فيما يروونه لأنفسهم فكيف بما يراه لهم غيرهم . فاحتل بحيلة غير هذه ، فقال : إن لم تخبره بمكاني سألت من يوصلني إليه وأخبره أنني سألتك الإذن لي عليه فلم تفعل ؟

فدخل الربيع على المهدي ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم فقد احتالوا عليكم بكل ضرب .

فقال له المهدي : هكذا تصنع الملوك فماذا ؟

قال : رجل بالباب يزعم أنه رأى لأمر المؤمنين أيده الله رؤيا حسنة ، وقد أحب أن يقصّها عليك .

فقال المهدي : يا ربيع ، إني والله أرى الرؤيا لنفسي فلا تصح لي فكيف يُمكن ادّعاؤها ممن لعله قد افتعلها ؟
قال : والله قلت له مثل هذا فلم يقبل .

قال : هات الرجل .

قال : فأدخلَ عليه سعيدٌ وكان له رؤية وجمال ومروءة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان طلق ، فقال له : ما رأيت بارك الله فيك ؟

قال : رأيت يا أمير المؤمنين آتياً أتاني في منامي فقال : أخبر أمير المؤمنين أنه يعيش ثلاثين سنة في الخلافة ، وآية ذلك أنه يرى في ليلته الآتية في منامه كأنه يقلب يواقيت ثم يعدّها فيجد ثلاثين ياقوتة كأنها قد وهبت له .

فقال المهدي : ما أحسن ما رأيت ، ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا : فإن كان الأمر على ما ذكرت أعطيناك فوق ما تريد ، وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقبك لعلنا أن الرؤيا الصالحة ربما صدقت وربما اختلفت .

قال : يا أمير المؤمنين ، فما أصنع أنا الساعة إذا صرتُ إلى منزلي وعيالي وأخبرتهم أنني كنت عند أمير المؤمنين ، أكرمه الله ، ثم رجعت صفر اليد ؟

فقال له المهدي : فكيف نعمل ؟

فقال : يعجل لي أمير المؤمنين أعزّه الله تعالى ما أحب وما أحلف له بالطلاق إني قد صدقت .

فأمر له بعشرة آلاف درهم وأمر بأن يؤخذ له كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم فقبض المال وقال له : من يكفلك ؟ فهدّ عينه إلى خادم حسن الوجه والزيّ وقال : هذا يكفلني .

فقال له المهدي : أنكفله يا غلام ؟

فاحمرّ وخجل . وقال : نعم يا أمير المؤمنين . فكفله وانصرف سعيد بن عبد الرحمن بالعشرة آلاف درهم . فلما كانت تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرفاً بخرف وأصبح سعيد فوافى الباب واستأذن . فأذن له . فلما وقعت عين المهدي عليه قال له : أين مصداق ما قلت لنا عليه ؟ فقلت له : وما رأى أمير المؤمنين . فضحك في جوابه . فقال له : امرأتي طالق إن لم تكن رأيت شيئاً ؟

قال له المهدي : ما أجراك على هذا الحلف بالطلاق .

فقال : لأني أحلف على صدق .

قال له المهدي : فقد والله رأيت ذلك مبيناً .

فقال سعيد : الله أكبر . فأنجز لي يا أمير المؤمنين ما وعدتني .

قال : حباً وكرامة .

ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار وعشر نخوت ثياب من كل صنف وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاةً ، فأخذ ذلك وانصرف فلحق به الخادم الذي كان كفله . وقال : سألتك بالله هل لهذه الرؤيا من أصل ؟ فقال سعيد : لا والله .

فقال الخادم : كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته ؟

قال : هذا من الخاريق التي لا أبَ لها ، وذلك أنني لما ألقيت هذا الكلام خطر ببالي وحدث به نفسه وأسرى به قلبه واشتغل به فكره ففي ساعة نام خيّل له ما حلّ في قلبه واشتغل به فكره فنام فرآه .

فقال له الخادم : قد حلفت بالطلاق .

قال : طليقة واحدة وبقيت معي على اثنتين وأزيد مهرها عشرة

دراهم . وأتخصل على عشرة آلاف درهم وثلاثة آلاف دينار وعشرة نخوت
من أصناف الثياب . وثلاثة مراكب فارهة^١ .
فبهت الخادم وتعجب من ذلك . فقال له سعيد : قد صدقتك
وجعلت ذلك مكافأتك على كفالتك فأستر عليّ .
ثم طلبه المهديّ لمنادمته فنادمه وحظي عنده وقلّده القضاء على
العسكر فلم يزل كذلك حتى مات . انتهى .

المهدي والأعرابي

يحكى أن المهدي خرج يتصيد . فسار به فرسه حتى دخل إلى خباء
أعرابي . فقال : يا أعرابي . هل من قرى ؟ قال : نعم ، فأخرج له قرص
شعير فأكله . ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه . ثم أتاه بنبيد في ركوة
فسقاه قعباً . فلما شرب قال : يا أخا العرب أتدري من أنا ؟
قال : لا والله .

قال : أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة .
قال : بارك الله في موضعك .
ثم سقاه قعباً آخر فشربه فقال : يا أعرابي ، أتدري من أنا ؟
قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة .
قال : لا ، بل أنا من قواد أمير المؤمنين .
قال : رجبت بلادك وطاب مبرادك .
ثم سقاه ثالثاً فلما فرغ منه قال : يا أعرابي ، أتدري من أنا ؟

١ الفارهة : الشيطنة ، الواحد فاره .

قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين .

قال : لا ، ولكني أمير المؤمنين .

فأخذ الأعرابي الركوة وأوكأها وقال : والله لو شربت الرابع لادّعت
أنك رسول الله .

فصتحك المهدي حتى غشي عليه وأحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك
والأشراف فطار قلب الأعرابي فقال له : لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر
له بكسوة ومال .

أبو نواس وجارية بنت المهدي

وقيل : كان لأسماء بنت المهدي جارية يقال لها : كاعب . وكانت
بكرًا ناهدًا ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال ، وكانت بنت ستّ عشرة
سنة . قال : فتلاعِبَ عليها أبو نواس لينالها ، فتمنّعت منه مراراً . فظفر
بها ليلة من الليالي في ناحية من نواحي القصر فسكها فبكت وقالت :
الموت دون ذلك ، فقال أبو نواس في نفسه : هذا جزع الأبقار ، فتركها
مدة . فاتفق أنه خرج من القصر ليلة وقد رقرق الدجى ، فوجدها نائمة
سكرى فتقرّب منها وجلّ السراويل من وسطها ، ودهمها ، فإذا هي خالية
من البكارة ، فارتاع وظنّ أنه يكون أتاها دم ، فلم يجد وقام عنها وندم
على ما كان منه وأخذ يقول :

وناهدة الثديين من خدَم القصر	مرققة الخدين ليلية الشعرِ
كلّفتُ بها دهرًا على حُسن وجهها	طويلاً وماحب الكواعب من أمري
فما زلت بالأشعار حتى خدعتُها	وروضتُها ، والشعر من خدع السحرِ
أطالها شيئاً ، فقالت بعبرة :	أموتُ به ذاءً ، ودمعتُها تجري

فلَمَّا تعانقنا توسَّطت لجةً غرقتُ بها يا قومُ في لُججِ البحرِ
فصِحتُ أغثني يا غلامُ . فجاءني وقد زلقت رجلي ورحتُ إلى الصَّدِ
ولولا صياحي بالغلامِ وأنه تداركني بالحبلِ رحْتُ إلى القعرِ
فأقسمتُ عمري لا ركبْتُ سفينةً ولا سِرتُ طولَ الدهرِ إلا على الظهرِ

الشاعر المجنون

قال المبرِّد : صعدتُ من البصرة إلى بغداد . فررت بدير العاقول
فرايت مجنوناً فيه . فلم أر قط أظرفَ منه ولا أحسنَ ثياباً . ويده الواحدة
على صدره . فلما دنوت منه أنشأ يقول :

اللهُ يعلمُ أنني كَمِدُّ لا أستطيع أبثُّ ما أجدُّ
رُوحانِ لي : روحُ تملكها بلدُ . وأخرى حازها بلدُ
وأرى الصبابة ليس ينفعُها صبرٌ وليس لمثلها جلدُ
وأظنُّ ظاعنتي كشاهدتي بمكانها تجدُ الذي أجدُّ

فقلتُ : أحسنت والله ، لله درك يا مجنون . فأهوى لشيء يرميني به
فبعدت عنه . فقال لي : أنشدتُك ما تحبُّه واستحسنته . وتقول لي : يا
مجنون ، وتكون مع الزمان عليّ .
فقلت له : أخطأت .

فقال : إذن اعترفت بخطئك . ثم قال : أنشدك شعراً أيضاً ؟
قلت : نعم .
فأنشأ يقول :

ما أقتلَ البينَ للمحبِّ . وما أوجعَ قلبَ المحبِّ بالكمَدِ

عرضتُ نفسي على البلاء لقد أسرع في مهجتي وفي كبدي
يا حسرة ! إذ أبيتُ معتقلاً بين اختلاجِ الهمومِ والسُّهْدِ

فقلت : أحسنت والله زدنا . فقال :

إن فتشوني فحرقُ الكبدِ أو كشفوني فناحلُ الجسدِ
أضعفَ ما بي وزادني ألماً أن لستُ أشكو النوى إلى أحدٍ

فقلت : أحسنت والله زدنا .

فقال : يا فتى ، أراك كلما أنشدتك بيتاً قلت زدنا . وما ذاك إلا
للفارقة حبيبٍ أو خلٍّ أريب . ثم قال : أحسبك أبا العباس المبرّد . بالله ما
هو أنت ؟

قلت : أنا ذلك فمن أين عرفتني ؟

فقال : وهل يخفى القمر ؟ ثم قال : يا أبا العباس ، أنشدني من
شعرك شيئاً تنتعش به روحي ، فأنشدته قولي :

بكيتُ حتى بكى من رحمتي الطلل	ومن بكائي بكتُ أعداي إذ رحلوا
يا منزلاً الحي ! أين الحيُّ قد نزلوا ؟	نفسِي تُساق إذا ما سيقَت الإبلُ
أنعم صباحاً ، سقاك الله من طلل	غيثاً وجاد عليك الوابلُ الهطلُ
سقياً لعهدهم والدارُ جامعة	والشملُ ملتبثٌ والجبلُ متّصلُ
فطالما قد نعمنا والحبيبُ بها .	والدهرُ يُسعيدُ والواشونُ قد غفلوا
قد غيّر الدهرُ ما قد كنتُ أعرفه	والدهرُ ذو دولٍ بالناسِ ينتقلُ
بانوا فبان الذي قد كنتُ آملُه	والبينُ أعظمُ ما يُبلى به الرجلُ
فالشملُ مفترق . والقلبُ محترقُ ،	والدمعُ منسكبٌ ، والركبُ مرتجلُ
كأنّ قلبي لمّا سار عيسهم	صبّ به دنفٌ أو شاربٌ نعلُ
لمّا أناخوا قبيلَ الصُّبحِ عيسهم	وثُوروا وسارت بالهوى الإبلُ

وقلّبت من خلال السّجف ناظرها . ترنو إليّ . ودمع العين مُنهمِلُ
يا حادي العيس ! عرّج بي أودّعهم يا حادي العيس في ترحالك الأجلُ
إني وحقّك لا أنسى مودّتهم ياليت شعري لطول العهد ما فعلوا ؟

قال أبو العباس المبرّد : فلما أتممت شعري . قال لي : ما فعلوا ؟
قلت : : ماتوا : فصاح صيحةً عظيمةً وخرّ مغشياً عليه . فحرّكته . فوجدته
قد مات . رحمة الله عليه . انتهى .

خلافة موسى الهادي بن محمد

لم أر فيه شيئاً ومن رأى فيه شيئاً فليضعه .
قال بعض الفضلاء : من حيث أن المؤلف أمر بأن من رأى فيه شيئاً
فليضعه ، فرأيت هذا النذر اليسير مذكوراً في تاريخ الإسحاق فأحببت
ذكره امتثالاً لأمره ، فقلت :

الهادي والخارجي

ذكر صاحب الكرّدان : أن الهادي كان يوماً في بستان يتنزّه على
حمار ، ولا سلاح معه وبحضرتة جماعة من خواصّه وأهل بيته ، فدخل عليه
خاجّته وأخبره أن بالباب بعض الخوارج له بأس ومكايد ، وقد ظفروا به
بعض القوّاد فأمر الهادي بإدخاله فدخل عليه بين رجلين قد قبضوا على
يديه . فلمّا أبصر الخارجي الهادي جذب يديه من الرجلين واختطف سيف
أحدهما وقصد الهادي ففرّ كل من كان حوله وبقي وحده ، وهو ثابت على
حمّاره ، حتى إذا دنا منه الخارجي وهمّ أن يعلوه بالسيف أوماً إلى وراء
الخارجي وأوهمه أن غلاماً وراءه وقال : يا غلام اضرب عنقه ، فظن
الخارجي أن غلاماً وراءه والتفت الخارجي ، فنزل الهادي مسرعاً عن حمّاره
فقبض على عنق الخارجي وذبّحه بالسيف الذي كان معه ، ثم عاد إلى ظهر
حمّاره من فوره ، وأتباع الهادي ينظرون إليه ويتسلّلون عليه وقد ملئوا منه
حياة ورعباً ، فما عاتبهم ولا خاطبهم في ذلك بكلمة ، ولم يفارق السلاح

بعد ذلك اليوم ، ولم يركب إلا جواداً من الخيل . فانظر إلى هذا المقدار في ثبات جأش الملوك ، فإنه قلّ من يفعل ذلك ، وهذه مرتبة لم يصل إليها أحد إلا نادراً .

الهادي وحبّه لغادرة

حكى عبد الحق أنه قال ممّا ابتلي به الهادي من المحبة أنه كان مغرمًا بجارية تسمّى غادراً ، وكانت من أحسن النساء وجهاً وأطيبهم غناءً ، اشتراها بعشرة آلاف دينار ، فبينما هو يشرب مع ندمائه إذ فكّر ساعة وتغيّر لونه وقطع الشراب ، فقليل له : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال : وقع في قلبي أيّ أموت وأن أخي هارون بلي الخلافة ويتزوّج غادراً فامضوا وأتوني برأسه .

ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره ، وحكى له ما خطر بباله فجعل هارون يترفق به ، فقال : لا أرضى حتى تحلف عليّ بكل ما أحلفك به أيّ إذا متّ لا تزوّج بها . فرضي بذلك وحلف إيماناً عظيماً ، ودخل إلى الجارية وحلفها أيضاً على مثل ذلك ، فلم يلبث بعد ذلك سوى شهر ومات وولي الخلافة هارون الرشيد فطلب الجارية فقالت : يا أمير المؤمنين كيف تصنع بالإيمان ؟

فقال : قد كفّرت عنك وعتي .

ثم تزوّج بها ووقعت في قلبه موقعاً عظيماً وافتتن بها أعظم من أخيه الهادي حتى كانت تسكر وتنام في حجره فلا يتحرّك ولا ينقلب . فبينما هو في بعض الليالي وهي في حجره نائمة إذا بها انتبهت فزعة مرعوبة . فقال لها : ما بالك فديتك ؟

قالت : رأيت أخاك الهادي الساعة في النوم فأنشدني هذه الأبيات :

أخلفت عهدي بعدما جاورتُ سَكَّانَ المقابرِ
ونسيتني ، وحثت في إيمانك الزورِ الفواجرِ
ونكحت غادرةً أخي ، صدقَ الذي سَمَّكَ غادرُ
لا يهنك الإلفُ الجديدُ دُ ولا تدُرُ عنك الدوائرُ
ولحقتني قبل الصبا ح ، وصرت حيثُ غدتُ صائرُ

قالت : ثم ولَّى عني وكأن الأبيات مكتوبة في قلبي ما نسيت منها
كلمة .

فقال لها : هذه أحلام الشيطان .

فقالت : كلا ، والله يا أمير المؤمنين . ثم اضطربت بين يديه وماتت
في تلك الساعة ، ولا تسأل عن هارون الرشيد وما لقي بعدها .

خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدي

هو أخو موسى الهادي ، وهو الخامس من بني العباس .
قال إبراهيم الموصلي في تهنئة الخلافة عندما ولي الرشيد بعد أخيه موسى
الهادي :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هارونُ أشرق نورُها
تلبَّست الدنيا جالاً بملكه فهارون واليها وصي وزيرُها

هارون والأعرابي

قدم أعرابي حين ولي هارون الخلافة فقيل له : فيم جئت ؟
قال : أتيت برسالة .
قال : ائت بها .
قال : أتاني آت في منامي فقال : ائت أمير المؤمنين فابلغه هذه
الآيات :

توارث الخلافة من قرشي ترف إليكما أبداً عروسا
إلى هارون تُهدى بعد موسى تميم ، وما لها أن لا تميمسا
فأعطاه الرشيد عطاءً جزيلاً وصرفه .

ليلة عظيمة

بويج له بالخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه وولد في تلك الليلة المأمون ، وكانت ليلة عظيمة لم يُر مثلاً في بني العباس مات فيها خليفة ، وولي فيها خليفة ، وولد فيها خليفة .
ولمّا بويج الرشيد قلّد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وزارته .
وسيّأني إيقاع الرشيد بالبرامكة وسبب ذلك .

الرشيد والمستقيمة

ويحكى أن هارون الرشيد مرّ في بعض الأيام وبصحبته جعفر البرمكي وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء فعرج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول :

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي وقت المنام
كي أستريح وتنظني نارٌ تأججُ في العظام
دَيْفٌ تَقْلِبُهُ الأكفُّ على بساط من سقام
أما أنا فكما علمت ، فهل لوصلك من دوام ؟

فأعجب أمير المؤمنين ملاحظها وفصاحتها . فقال لها : يا بنت الكرام هذا من قولك أم من منقولك ؟
قالت : من قولي .

قال : إن كان كلامك صحيحاً فأمسكي المعنى وغيري القافية .
فأنشدت تقول :

قولي	لطيفك	ينثني	عن مضجعي وقت الوسن
كي	أستريح	وتنظني	نار تأجج في البدن
دنف	تقلبه	الأكف	على بساط من شجن
أما	أنا	فكما	علمت ، فهل لوصلك من ثمن ؟

فقال لها : والآخر مسروق .

قالت : بل كلامي .

فقال : إن كان كلامك أيضاً فأمسكي المعنى وغيري القافية ،
فقلت :

قولي	لطيفك	ينثني	عن مضجعي وقت الرقاد
كي	أستريح	وتنظني	نار تأجج في الفؤاد
دنف	تقلبه	الأكف	على بساط من حداد
أما	أنا	فكما	علمت ، فهل لوصلك من سداد ؟

فقال لها : والآخر مسروق .

فقلت : بل كلامي .

فقال لها : إن كان كلامك فأمسكي المعنى وغيري القافية . فقلت :

قولي	لطيفك	ينثني	عن مضجعي وقت الهجوع
كي	أستريح	وتنظني	نار تأجج في الضلوع
دنف	تقلبه	الأكف	على بساط من دموع
أما	أنا	فكما	علمت ، فهل لوصلك من رجوع ؟

فقال لها أمير المؤمنين : أنت من أيّ هذا الحيّ ؟
 قالت : من أوسطه بيتاً ، وأعلاه عموداً .
 فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحيّ . ثم قالت : وأنت من أي راعي
 الخيل ؟

فقال : من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة .
 فقَبِلَت الأرض وقالت : أيد الله أمير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت
 مع بنات العرب .
 فقال الخليفة لجعفر : لا بدّ من أخذها . فتوجّه جعفر إلى أبيها .
 وقال له : أمير المؤمنين يريد بنتك .

فقال : حبّاً وكرامة ، تُهدى جارية إلى أمير المؤمنين مولانا .
 ثم جهّزها وحملها إليه فتزوّجها ودخل بها فكانت عنده من أعزّ نسائه
 وأعطى والدها ما يستره بين العرب من الأنعام . ثم بعد مدّة انتقل والدها
 بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ، فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو
 كئيب ، فلمّا شاهدته وعليه الكآبة ، نهضت ودخلت إلى حُجرتها وقلعت
 كل ما عليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وأقامت النعي له .
 فقليل لها : ما سبب هذا ؟ فقالت : مات والدي ، ففضوا إلى الخليفة
 فأخبروه فقام وأتى إليها وسألها من أعلمها بهذا الخبر ؟
 قالت : وجهك يا أمير المؤمنين .

قال : كيف ذلك ؟

قالت : منذ أنا عندك ما رأيتك هكذا ولم يكن لي من أخاف عليه
 إلّا والدي لكبره ، ويعيش رأسك أنت يا أمير المؤمنين . فترغرت^١ عيناه

١ ترغرت : تردّد الدمع فيها ولم يجر .

بالدموع وعزاها فيه ، وأقامت مدة ، وهي حزينة على والدها ثم لحقت به
رحمة الله عليهم أجمعين .

الضيف الطارق

وحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة فقام يتمشى في
قصره بين المقاصير ، فرأى جارية من جواريه نائمة فأعجبته ، فداس على
رجليها فانتبهت فرأت أمير المؤمنين ، فاستحيت منه وقالت :
يا أمين الله ما هذا الخبر .

فأجابها بقوله :

قلت : ضيف طارق في أرضكم هل تضيفوه إلى وقت السحر
فأجابته تقول :

بسرور وهناء سيدي أخدم الضيف بسمعي والبصر .

فبات عندها إلى الصباح . فسأل أمير المؤمنين من الباب من
الشعراء ؟ قيل له : أبو نواس . فأمر به فدخل عليه . فقال : هات علي ،
يا أمين الله ما هذا الخبر ، فأنشأ يقول :

طال ليلى حين وافاني السهر	فتفكرت فأحسن الفكر
قت أمشي في المجالي ساعة	ثم أجري في مقاصير الحجر
فلذا وجه جميل مشرق	زانه الرحمن من بين البشر
فلمست الرجل منها موطأ	فدنت مني ومدت للبصر
وأشارت لي بقول مقصع	يا أمين الله ما هذا الخبر ؟
قلت : ضيف طارق في أرضكم	هل تضيفوه إلى وقت السحر

فأجابت بسرور سيدي أخدم الضيف بسمعي والبصر

قال : فتعجّب أمير المؤمنين من ذلك وأمر له بصلة .

هارون والحارية السكرى

يحكى أن هارون الرشيد هجر جارية له ثم لقيها في بعض الليالي في القصر سكرى تدور في جوانب القصر وغلبها مطرف خز ، وهي تسحب أذيالها من التّيه والعُجب ، وسقط رداؤها عن منكبيها ، والريح أبان نهدبها كأنهما رمانتان ، ولها ردفان ثقيلان ، فراودها عن نفسها ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! هجرتي هذه المدة وليس لي علم بملاقاتك فأنظرنى إلى غد حتى أتيها وآتيك .

فلما أصبح قال للحاجب : لا تدع أحداً يدخل عليّ إلا فلانة ، وانتظرها فلم تبيء فقام ودخل عليها وسألها إنجاز الموعد فقالت : يا أمير المؤمنين ، كلام الليل يمحوه النهار . فقام واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل عليه أبو نواس والرقاشي وأبو مصعب فقال لهم : هاتوا عليّ ، كلام الليل يمحوه النهار . فقال الرقاشي : أنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات ، وأنشأ يقول :

أتسلوها .	وقلبك مستطار	وقد مُنِعَ القَرَارُ فلا قَرَارُ
وقد تركتك صَبًّا مستهاماً	فتاة لا تزور ولا تُزَارُ	
فولّت وانثنت يَباً ، وقالت :	كلام الليل يمحوه النهار	

وقال أبو مصعب : وأنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات ، وأنشأ يقول :

أما والله لو تجددين وجدي لما وسعتك في بغداد دار

أما يكفيك أنّ العينَ عَبَرى ومن ذِكرِكَ في الأحشاءِ نارُ
تبسّمتِ الفتاةُ بغيرِ ضحكٍ كلامُ الليلِ يَمْحوهُ النهارُ

وقال أبو نواس : أنا قائل في ذلك أربعة أبيات ، وأنشأ يقول :

وخَوْدِ أقبلت في القصرِ سكرى ولكن زَيْنَ السكرِ الوقارُ
وهزَّ الريحُ أردافاً ثِقَلاً وغصناً فيه رُمانُ صِغارُ
وقد سقط الردا عن منكِياها من التخميشِ وانحلَّ الإزارُ
فقلتُ : الوعد سيدتي ، فقالت : كلامُ الليلِ يَمْحوهُ النهارُ

فقال الرشيد : قاتلك الله كأنك كنتَ معنا أو مطّلعاً علينا .

وأمر لكلِّ بخلعة سنّية وخمسة آلاف درهم ، ولأبي نواس عشرة آلاف درهم ، انتهى .

الرشيد وجارية الخيزران

وذكر الخطيب في بعض مصنفاته أن الرشيد دخل يوماً قبل وقت الظهر ، في مقصورة جارية تُسمّى الخيزران على غفلةٍ منها ، فوجدها تغتسلُ ، فلَمّا رآته تجلّلت بشعرها حتى لم يَر من جسديها شيئاً ، فأعجبه ذلك الفعلُ واستحسنه ، ثم عاد إلى مجلسه وقال : من البابِ من الشعراء ؟

قالوا له : أبو نواس وبشار .

فقال : ليحضرا جميعاً .

فأحضرا ، فقال الرشيد ليقُل كل منكما أبياتاً توافق ما في نفسي ،
فأنشأ بشار يقول :

تَحَبُّبُكُمْ ، والقلبُ صار إليكمو
 إذا ذكروا الهجرانَ ، لا عن ملالةٍ
 وقالوا تَحَبُّبُنَا ، ولا قرب بيننا
 على أنهم أحلى من الشهد عندنا
 بنفسي ذاك المنزلُ المتحَبُّ
 وذكراهم ، ينمي إليّ ، محبُّ
 فكيف وأنتم حاجتي تتحبُّوا
 وأعذب من ماء الحياة وأطيب

فقال : أحسنت ، ولكن ما أصبت ما في نفسي ، فقل أنت يا أبا
 نواس ، فجعل يقول :

نضت عنها القميصَ لصب ماء
 وقابلت الهواء ، وقد تعرَّت
 ومدت راحة ، كالماء منها
 فلما أن قضت وطراً وهمَّت
 رأت شخص الرقيب على التداني
 فغابَ الصبحُ منها تحتَ ليلٍ
 فسبحان الإله وقد براها
 فورَّدَ خدَّها فرطَ الحياءِ
 بمُعْتَدِلٍ أرقَّ من الهواءِ
 إلى ماء معدٍّ في إناءِ
 على عجل إلى أخذ الرداءِ
 فأسبلت الظلام على الضياءِ
 وظلَّ الماءُ يقطرُ فوقَ ماء
 كأحسن ما يكون من النساءِ

فقال الرشيد : سيفاً ونطعاً .

فقال له : ولِمَ يا أمير المؤمنين ؟

قال : أمعنا كنت ؟

قال : لا والله ولكن شيء خطر ببالي .

فأمر له بأربعة آلاف درهم وصرفه .

أجود أخبار النساء

ويحكى أن أمير المؤمنين الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً ، فقام من فراشه وتمشّى من مقصورة إلى مقصورة ، وقلقه زائدٌ ونفسه محصورةٌ ، فلما أصبح قال : عليّ بالأصمعي ، فخرج الطواشي إلى البوّابين ، فقال لهم : يقول لكم أمير المؤمنين أرسلوا أحداً خلف الأصمعي . فلما حضر أعلم الخليفة فأجلسه ورحب به وقال : يا أصمعي أريد منك أن تحدّثني بأجود ما سمعت من أخبار النساء وأشعارهنّ ؟

فقال : سمعاً وطاعة : لقد سمعت كثيراً ولم يعجبني سوى ثلاثة أبيات أنشدن ثلاث بنات .

فقال له : حدّثني حديثهنّ .

فقال : اعلم يا أمير المؤمنين ، أنّي توجّهت سنة إلى البصرة فاشتدّ عليّ الحرّ فطلبتُ مقبلاً أقيل فيه فلم أجد ، فبينما أنا أتلفتُ يميناً وشمالاً ، إذا أنا بساباطٍ مكنوسٍ مرشوش ، وفيه دكةٌ من خشب ، وعليها شبّاكٌ مفتوحٌ تفوح منه رائحةُ المسك ، فدخلت الساباط وجلستُ على الدكة وأردتُ الاضطجاع ، فسمعت كلاماً عذباً من فم جاريةٍ حسناء ، وهي تقول : يا أختي ! إنّنا جلسنا يومنا هذا على وجه الصّبح ، تعالين نطرح ثلاثمائة دينار وكلُّ منا تقول بيتاً من الشعر ، فكل من قالت البيت الأعذب الأملح كانت الثلاثمائة دينار لها ، فقلن : حبّاً وكرامة ، فقالت الكبرى :

١ الساباط : سقيفة بين دارين تحتها طريق .

عجبتُ له أن زارَ في النوم مضجعي - ولو زارني مستيقظاً كان أعجباً

فقلت الوسطى :

وما زارني في النوم إلا خيالُه فقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحباً

فقلت الصغرى :

بنفسي وأهلي من أرى كلَّ ليلةٍ ضجيعي ، وريّاه من المسك أطيباً

فقلت : إن كان لهذا المقال جالٌ ، فقد تمَّ الأمرُ على كل حال .
فترلت عن الدُّكَّة وأردت الانصراف ، وإذا بالبَاب قد فُتِحَ وخرجتُ منه
جاريةٌ ، وهي تقول : اجلس يا شيخُ ، فطلعت على الدُّكَّة ثانياً
وجلست ، فدفعت إليَّ ورقة فنظرت خطأ في نهاية الحسن مستقيم الألفات
بجوفِ ألْهَات مدوَّر الواوات مضمونُه : نُعلِّم الشيخَ ، أطالَ الله بقاءه ،
أننا ثلاثُ بناتٍ أخواتٍ جلسنا على وجه الصُّبوح وطرحنا ثلاثمائة دينار ،
وشرطنا أن كل من قالت البيتَ الأعذبَ الأملح كان لها الثلاثمائة دينار ،
وقد جعلناك الحكم في ذلك ، فاحكم بما تراه والسلام .

فقلت للجارية : عليَّ بدواةٍ وقرطاس .

فغابت قليلاً وخرجت إليَّ بدواة مفضضة وأقلام مذهبة ، فأنشأت

أقول :

أُحَدِّثُ عن خُودٍ تحدثن مرّةً حديثَ امرئٍ ساسَ الأمور وجرباً
ثلاثَ كِبَكراتٍ الصحاري جحافل حُلُنَ بقلبٍ للمشوق معذباً

١ الجحافل : العظيمات القدر ، يقال : رجل جحفل أي عظيم القدر ، وهو في
الأصل صفة للمذكر استعارها هنا للمؤنث .

خلون وقد نامت عيون كثيرة
فبحن بما يخفين من داخل الحشا
فقلت عروب ذات عز غريرة
عجبت له أن زارني النوم مضجعي
فلما انقضى ما زخرفت وتضاحكت
وما زارني في النوم إلا خيالُه
وأحسن الصُغرى ، وقالت بحية
بنفسي وأهلي من أرى كل ليلة
فلما تدبرت الذي قلن وانبرى
حكمت لصُغراهن في الشعر أنني
من الراقدين المشتين التغيبا
نعم ، وأخذن الشير طهوا وملعبا
وتبسّم عن عذب المقالة أنسبا
ولو زارني مستيقظاً كان أعجبا
تنفست الوسطى ، وقالت تطربا
فقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحباً
بلفظ لها قد كان أشهى وأعذبا
ضجعي ، ورياه من المسك أطيبا
لي الحكم لم أترك لذي اللب مَعْتَباً
رأيت الذي قالت جميلاً وأصوباً

قال الأصمعي : ثم دفعت الرقعة إلى الجارية ، فلما صعدت إلى
القصر ، فإذا برقص وتصفيق ودنيا دانية وقيامه قائمة ، فقلت : ما بقي لي
إقامة ، فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف ، وإذا بالجارية تنادي
وتقول : اجلس يا أصمعي .

فقلت : ومن أعلمك أنني الأصمعي ؟

فقلت : يا شيخ إن خفي علينا اسمك فما خفي علينا نظملك .

فجلست ، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه الجارية الأولى وعلى
يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى ، فتفكّكت وتحلّيت وشكرت
صنعها ، وأردت الانصراف ، وإذا بالجارية تنادي وتقول : اجلس يا
أصمعي ، رفعت بصري إليها فنظرت كفاً أحمر في كمّ أصفر فخلته البدر
يُشرف من تحت الغمام ، ورمت لي صرة فيها ثلاثمائة دينار ، وقالت :

١ العروب : الضحّاكة . الغريرة : الشابة لا تجربة لها .

هذا صار لي وهو مَنِّي لك هبة في نظير حكومتك .
فقال لي أمير المؤمنين : لأيّ شيء حكمت للصغرى ولم تحكم للكبرى
ولا للوسطى ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن بيتَ الكبرى قالت :

* عجبت له أن زار في النوم مضجعي *

وهو محمول معلق على شرط قد يقع ولا يقع ، وأما الوسطى ، فزَّ بها
طيف خيال في النوم فسَلَّمت عليه ، وبيت الصغرى ذكرت أنها ضاجعته
مضاجعةً حَقِيقَةً وشَمَّت منه أنفاساً أطيبَ من المسك وفَدَّتْهُ بنفسها وأهلها
ولا يُفدى بالنفس إلا مَنْ هو أعزُّ من النفس .

فقال الخليفة : أحسنت يا أصمعي .

ثم دفع إليّ ثلاثمائة دينار فأخذتها وانصرفتُ فكنْتُ أقول لله دُرُك من
شعر أخذتُ في حكومتي منه ثلاثمائة دينار ، وفي حكايته مثلها ، والله
أعلم .

الأصمعيّ والحارية

وممّا حكى عن الأصمعيّ في نوادره ، قال : سهرت ليلة عند
الرشيد في الرقّة ، فقال لي : من معك يا عبد الله يؤنسك ؟

فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، ما لي أنيس غير الوحدة .

فأمسك وأقبل في حديثه ما شاء الله ، ثم نهض ونهض من بحضرته
فلمّا صرت إلى منزلي ، وإذا بخادم الأمير يقرع الباب فخرجت ، فإذا ضوء
شمع وضجّة وغوغاء ومعهم جارية فلما رأي الخادم دنا مِنِّي وقبل يدي
وقال لي : يقول لك أمير المؤمنين قد أمرنا لك بمن يؤنسك . وهي جارية

من خواصه وشيء من المال . فشكرت أمير المؤمنين ودعوت له وتقدم الخادم بإدخال الجارية ومعها من الآلات والخدم والجواري والفرش ما لم أر مثله إلا عند أمير المؤمنين ، ثم ودّعني الخادم وانصرف . فلما نظرت إلى الجارية رأيته أحسن الناس وجهاً وأكملهم قدراً وشكلاً وظرفاً وأكثرهم مجوناً فداخطني لها هية وانقباض .

فقلت : ما هذا الحياء البارد السمج الذي لا وجه له ؟ أين ملحك ونوادرك ؟ ثم قالت لجارية من الجواري : هات ما عندك ، فجاءت بأحسن ما يكون من ألوان الطعام فأكلنا وهي مع ذلك تباسطني وتؤانسني بالحديث والملاعبة ، ثم دعت بالشراب فشربت وسقّيتني ، ثم قالت : ما بقي بعد الأكل والشرب إلا النوم والخلوة . فقامت ولبست من الثياب ما أرادت وألبستني ثياباً فاخرة مبيضة وتفرق من كان عندنا ، ثم اضطجعت إلى جانبي . فلما جمعنا الفراش أصابني من الحصر وانقطاع الانعاط ورخاوة الأير ما لم أكن أعده قبل ذلك فجعلت تقلّبه بيدها وتغمزه فلا يزداد إلا انكماشاً وموتاً فلما أعيته الحيلة فيه ويشتت من قيامه ومضى من الليل أكثره قالت : عظم الله أجرك في أيرك ، ثم نهضت ولبست ثياب الحديد ودعت بسفط فأخرجت منه مناديل صغاراً وحنوطاً وقالت : نَم على ظهرك يا بطل ، فاستولى عليّ الحجل حتى إني لم أقدر أخالفها في شيء مما تأمرني به في جميع ما تفعله فيّ فغسلته وحنّطته وكفنته بتلك المناديل فلما فرغت همّت بجواربها وقامت معهنّ في بكاءٍ ونحيبٍ ونوحٍ وندبٍ وصراخٍ بأشدّ ما يكون وما زلن على ذلك إلى وقت السحر ، ثم قالت : ما بقي إلا ما يتولاه الرجال من الصلاة والدفن ووَلّت عني . فقممت وأنا أخزى خلق الله نحالاً فلبست ثيابي وصلّيت الفجر وسرت من وقتي وساعتي إلى الرشيد . فأنكر الحاجب حضوري . في ذلك الوقت وأعلم الرشيد بي ، فأذن لي

فدخلت ، وهو قاعد في مصلاه ، فقال لي : ويحك ما دهاك في هذا الوقت ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، خبري عجيب وأمرني غريب ، فبالله عليك يا أمير المؤمنين ، ألا ما رحمتني وأرحتني من هذه الجارية التي أنفدتها إليّ فلا حاجة لي بها .

فقال لي أمير المؤمنين : وما السبب لذلك وما الخبر الذي دهاك وليس لها عندك حين من الزمان .

فشرحت له القصة من أولها إلى آخرها حتى بلغت إلى إقامة الصلاة فاشتدّ ضحكته حتى أنه كاد يستلقي على قفاه وسمعت الضحك من كل ناحية في الدار من الجوّاري وغيرهنّ ، ثم قال : نحن إلى هذه أحوج منك إليها وقد كنا غافلين عنها ، ثم إنه أمر بحملها إلى داره وعوّضني عنها خمسين ألف درهم وترك جميع ما حمل معها في منزلي وخرجت مجردة فحظيت بعد ذلك عند الرشيد حتى إنه لم يتقدّم عليها أحد من نظائرها ، وسُميت من وقتها هذا بالأصمعيّة إلى أن توفيت رحمة الله عليهم أجمعين .

إبراهيم الموصلي وإبليس

وعن أبي إسحاق إبراهيم الموصلي قال : استأذنت الرشيد أن يهب لي يوماً من الأيام للانفراد بجوّاري وإخواني ، فأذن لي في يوم السبت ، فأتيت منزلي وأخذت في إصلاح طعامي وشرابي وما احتجت إليه وأمرت اليّوايين بإغلاق الأبواب وأن لا يأذنوا لأحد بالدخول عليّ .

فبينما أنا في مجلسي والحريم قد جففن بي ، وإذا بشيخ ذي هيئة وجمال وعليه جبتان قصيرتان وقمص ناعم وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة

مقمة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق ،
فداخلني غيظ عظيم لدخوله عليّ وهممت بطرد البوابين فسلم عليّ أحسن
سلام ، فرددت عليه وأمرته بالجلوس ، فجلس وأخذ يحدثني بأحاديث
العرب وأشعارها حتى ذهب ما بي من الغضب وظننت أن غلامي تحروا
مسرتي لإدخال مثله عليّ لأدبه وظرفه ، فقلت : هل لك في الطعام ؟

قال : لا حاجة لي فيه .

قلت : فالشراب ؟

قال : ذلك إليك .

فشربت رطلاً وسقيته مثله ، ثم قال : يا أبا إسحاق ، هل لك أن
تغنينا شيئاً فنسمع من صنعتك ما قد فقت به العام والخاص .
فغاضني قوله ، ثم سهلت الأمر على نفسي ، فأخذت العود وضربت
وغنيت ، فقال : أحسنت يا إبراهيم ، فازددت غيظاً فقلت : ما رضي
بما فعله في دخوله بغير إذني واقتراحه عليّ حتى سماني باسمي ولم يحمل
مخاطبتي .

ثم قال : هل تريد ونكافئك ؟

فترنمت وأخذت العود وغنيت وتحفظت فيما غنيتها ، وقت به قياماً
تاماً لقوله : ونكافئك . فطرب وقال : أحسنت يا سيدي ، ثم قال لي :
أتأذن لي في الغناء ؟

فقلت : شأنك ، واستضعفت عقله في أن يغني بحضرتي بعد الذي
سمعه مني . فأخذ العود وجسه فوالله نلت أن العود ينطق بلسان عربي
واندفع يغني هذه الأبيات :

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبعني بها كبداً ليست بذات قروح

أبأها على الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح
أئن من الشوق الذي في جوانحي أنين غصيص بالشراب طريح

قال إبراهيم : فوالله لقد ظننت أن الأبواب والحيطان وكل ما في البيت
تجيبه وتغني معه ، وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط
قلبي ، ثم اندفع يغني ، فقال :

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة فأني إلى أصواتكن حزين
فعدن ولما عدن كدن يمتني وكدت بأسراري لهن أبين
دعون بترداد الهدير كأنما شربن الحميا ، أو بهن جنون
فلم تر عيني مثلهن حائما بكين ، ولم تدمع لهن عيون

قال : ثم سكت قليلا وغنى هذه الأبيات :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد فقد زادني مسراك وجداً على وجدي
أإن هتفت ورقاء في رونق الضحي على فني من غصن بان ومن رند
بكيت كما يبكي الوليد صباة وأبدت من شكواي ما لم تكن تبدي
وقد زعموا أن الحب إذا دنا يمل وأن البعد يشني من الوجد
بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كان من تهواه ليس بذي ودّ

ثم قال : يا إبراهيم ، هذا الغناء الماخوري خذه وانح نحوّه في غنائك
وعلمه جواريك .

فقلت : أعده عليّ ؟

فقال : لست تحتاج إلى إعادة فقد أخذته وفرغت منه .

ثم غاب من بين يدي فارتعبت منه وقت إلى السيف وجردته ، ثم

غدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجواري : أي شيء سمعتم ؟

فقلن : سمعنا غناءً أطيب شيء وأحسنه .

فخرجت متجبراً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً فسألت البوابين عن الشيخ فقالوا : أي شيخ ، فوالله ما دخل إليك اليوم أحد .
فرجعت أتأمل أمره ، فإذا هو قد هتف لي من جوانب البيت ، وقال : لا بأس عليك يا أبا إسحاق ، فإنما هو أبو مرة قد كنت نديمك اليوم ، فلا تفرع .

فركبت إلى الرشيد فأخبرته الخبر ، فقال : أعد الأصوات التي قد أخذتها ، فأخذت العود وضربت ، فإذا هي راسخة في صدري ، فطرب الرشيد عليها وجعل يشرب ، ولم يكن له همّة على الشراب ، وقال : كأن الشيخ علم أنك قد أخذت الأصوات وفرغت منها فليته متعنا بنفسه يوماً واحداً كما متعك ، ثم أمر لي بصلة فأخذتها وانصرفت ، انتهى .

الرشيد وإسماعيل بن صالح

وقال الرشيد يوماً للفضل بن يحيى ، وهو بالرقّة : قد قدّم إسماعيل ابن صالح بن عليّ ، وهو صديقك ، وأريد أن أراه ؟
فقال : إن أخاه عبد الملك في حبسك وقد نهاه أن يجيئك :
قال الرشيد : فإني أتعلّل حتى يجيئني عائداً ؟

أبو مرة : كنية إبليس .

فتعلّل ، فقال الفضل لإسماعيل : ألا تعودُ أمير المؤمنين ؟

قال : بلى .

فجاءه عائداً فأجلسه ، ثم دعا بالغداء ، فأكل وأكلَ إسماعيل بين يديه ، فقال له الرشيد : كأنني قد نشطتُ برؤيتك إلى شرب قدح ، فشرب وسقاه ، ثم أمر فأخرج جوارِ يغنين وضربت ستارةً وأمر بسقيه . فلما شرب أخذ الرشيد العودَ من يد جاريةٍ ووضعه في حجر إسماعيل ، وجعل في عنقه سُبحةً ، وفيها عشرُ حَبّاتٍ من دُرٍّ شراؤها بثلاثين ألف دينار ، وقال : غنّ يا إسماعيل ، وكفّر عن يمينك بثمن هذه السبحة ، فاندفع يغني شعر الوليد بن يزيد في غالية أخت عمر بن عبد العزيز ، وكانت تحته ، وهي التي ينسب إليها سوق الغالية ، فقال :

فأقسم ما أدنيتُ كفي لريبةٍ ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ولا دلّني رأبي عليها ولا عقلي
وأعلمُ أنني لم تُصنبي مصيبةً من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلي

فسمع الرشيد أحسنَ غناء من أحسن صوت . فقال : الريحُ يا غلامُ :

فجيء بالريح . فعقد له لواءً على إمارة مصر .

قال إسماعيل : فوليتها سنّين فأوسعها عدلاً . وانصرفت بخمسمائة ألف دينار ، وبلغ أخاه عبد الملك ولايته ، فقال : غنى والله الخبيثُ لهم ، ليس هو بصالح ، انتهى .

أعرابي يزاحم الرشيد

يروى أنه لما دخل هارون الرشيد إلى مكة ، شرفها الله تعالى ،
وابتداً بالطواف ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف . فسبقه
أعرابي ، فشق ذلك على الرشيد فالتفت إلى حاجبه منكرأ عليه ، فقال
الحاجب للأعرابي : تخلّ عن الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين .

فقال الأعرابي : إن الله قد ساوى بين الإمام والرعية في هذا المقام ،
فقال عز وجل : ﴿ سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ
مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ .

فلما سمع الرشيد من الأعرابي ذلك راعه أمره فأمر حاجبه بالكف
عنه ، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابي فاستلمه ،
ثم أتى الرشيد إلى المقام للمصلي فسبقه الأعرابي فصلى فيه ، فلما فرغ
الرشيد من صلاته قال : لحاجبه : اثني بهذا الأعرابي ، فأثاه الحاجب ،
فقال : أجب أمير المؤمنين .

فقال : ما لي إليه من حاجة إن كان له حاجة فهو أحقّ بالقيام إليّ
والسعي .

فقام الرشيد حتى وقف بإزاء الأعرابي وسلّم عليه ، فردّ عليه
السلام ، فقال له الرشيد : يا أخا العرب إجلس هنا بأمرك .

فقال الأعرابي : ليس البيت بيتي ولا الحرم حرمي وكلّنا فيه سواء ،

فإن شئت تجلس ، وإن شئت تنصرف .

قال الراوي : فعظم ذلك على الرشيد وسمع ما لم يكن في ذهنه ، وما ظنّ أنه يواجهه أحد بمثل هذا الكلام . فجلس الرشيد وقال : يا أعرابي ، أريد أن أسألك عن فرضك ، فإن أنت قتّ به فأنت بغيره أقوم ، وإن أنت عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز .

فقال الأعرابي : سؤالك هذا سؤال تعلّم أم سؤال تعتّ؟

فتعجّب الرشيد من سرعة جوابه وقال : بل سؤال تعلّم .

فقال له الأعرابي : قم فاجلس مقام السائل من المسؤول .

قال : فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدي الأعرابي ، فقال : قد جلست فاسأل عما بدا لك .

فقال له : أخبرني عما افترض الله عليك ؟

فقال له : تسألني عن أيّ فرض عن فرض واحد ، أم عن خمسة ، أم عن سبعة عشر ، أم عن أربعة وثلاثين ، أم عن خمسة وثمانين ، أم عن واحدة في طول العمر ، أم عن واحدة من أربعين ، أم عن خمسة من مائتين .

قال : فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاء به ، ثم قال

له : سألتك عن فرضك فأنتيني بحساب الدهر؟

قال : يا هارون ، لولا أن الدين بالحساب لما أخذ الله الخلاق بالحساب يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾^١

١ سورة الأنبياء ٤٧ .

قال : فظهر الغضب في وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال : يا هارون ، ولم يقل له : يا أمير المؤمنين ، وبلغ مبلغاً شديداً غير أن الله تعالى عصمه منه وحال بينه وبينه لما علم أنه هو الذي أنطق الأعرابي بذلك ، فقال له الرشيد : يا أعرابي ، إن فسرْتَ ما قلتَ نجوتَ وإلا أمرتُ بضرب عنقك بين الصفا والمروة .

فقال له الحاجب : يا أمير المؤمنين اعفُ عنه وهبْه الله تعالى ولهذا المقام الشريف ؟

قال : فضحك الأعرابي من قولها حتى استلقى على قفاه ، فقال : ممّ تضحك ؟

قال : عجباً منكما إذ لا أدري أيكما أجهل الذي يستوهب أجلاً قد حضر أم من يستعجل أجلاً لم يحضر ؟

قال : فهال الرشيد ما سمعه منه وهانت نفسه عليه ، ثم قال الأعرابي : أما سؤالك عمّا افترض الله عليّ ، فقد افترض عليّ فرائض كثيرة ، فقولي لك عن فرض واحد : فهو دين الإسلام ؛ وأما قولي لك عن خمسة : فهي الصلوات ؛ وأما قولي لك عن سبعة عشر : فهي سبعة عشر ركعة ؛ وأما قولي لك عن أربعة وثلاثين : فهي السجودات ؛ وأما قولي لك عن خمسة وثمانين : فهي التكبيرات ؛ وأما قولي لك عن واحدة في طول العمر : فهي حجة الإسلام واحدة في طول العمر كله . وأما قولي لك واحدة من أربعين : فهي زكاة الشياه ، شاة من أربعين ؛ وأما قولي لك خمس من مائتين : فهي زكاة الورق .

قال : فامتلاً الرشيد فرحاً وسروراً من تفسير هذه المسائل ، ومن حسن كلام الأعرابي وعظم الأعرابي في عينه وتبدّل بغضه محبةً ، ثم قال الأعرابي : سألتني فأجبك وأنا أريد أن أسألك فأجبنني .

قال : قل .

فقال الأعرابي : ما تقول في رجل نظر إلى امرأة في وقت صلاة الفجر فكانت عليه مُحَرَّمَةً ، فلما كان وقت الظهر حُلَّتْ له ، فلما كان في وقت العصر حُرِّمَتْ عليه ، فلما كان وقت المغرب حُلَّتْ له ، فلما كان وقت العشاء حُرِّمَتْ عليه ، فلما كان وقت الصبح حُلَّتْ له ، فلما كان وقت الظهر حُرِّمَتْ عليه ، فلما كان وقت العصر حُلَّتْ له ، فلما كان وقت المغرب حُرِّمَتْ عليه ، فلما كان وقت العشاء حُلَّتْ له .

فقال : والله يا أخا العرب لقد أوقعني في بحر لا يَخْلُصُنِي منه غيرك .

فقال له : أنت خليفة ليس فوقك شيء ولا ينبغي أن تعجز عن مسألة فكيف عجزت عن مسألتني وأنا رجل بدوي لا قدرة لي ؟

فقال الرشيد : قد عَظُمَ قَدْرُكَ العلم وُفِّعَ ذِكْرُكَ فأشتهي إكراماً لي ، ولهذا المقام تفسير ذلك .

فقال : حُبًّا وكرامةً ولكن على شرط أن تجبرَ الكسير وترحمَ الفقير ولا تزدري الحقير .

فقال : حُبًّا وكرامةً ، ثم قال : إن قولي لك عن رجل نظر إلى امرأة وقت صلاة الفجر فكانت عليه حراماً فهو رجل نظر إلى أمة غيره وقت الفجر فهي حرام عليه ، فلما كان وقت الظهر اشتراها فحُلَّتْ له ، فلما كان وقت العصر أعتقها ، فحرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب تزوجها فحُلَّتْ له ، فلما كان وقت العشاء طَلَّقَهَا فحرمت عليه ، فلما كان وقت الفجر راجعها فحُلَّتْ له ، فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العصر أعتقَ عنها ، فحُلَّتْ له ، فلما كان وقت المغرب ارتدَّ عن الإسلام . فحرمت عليه . فلما كان وقت العشاء تاب ورجع إلى الإسلام فحُلَّتْ له .

قال : فاغبط الرشيد وفرح به واشتد إعجابه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما حضرت قال : لا حاجة لي بها ردها إلى أصحابها .

فقال له : أريد أن أجري لك جارية تكفيك مدة حياتك ؟

قال : الذي أجرى عليك يجري عليّ .

قال : فإن كان عليك دين قضيناه عنك ؟

قال : لا ، ولم يقبل منه شيئاً ، ثم أنشد يقول :

هب الدنيا توافينا سينا	فتكدر ساعة وتلد حينا
فما أبغي لشيء ليس يبق	وأتركه غداً للوارثينا
كأن بالتراب عليّ يحتى	وبالآخوان حولي نادينا
ويوم تفر النيران فيه	وتقسم جهرة للسامعينا
وعزة خالتي وجلال ربي	لأنتقم منهم أجمعينا
وقد شاب الصغير بغير ذنب	فكيف يكون حال المحرمينا

فلما فرغ من إنشاده تأوه الرشيد وسأله عن أهله وبلاده ، فأخبره أنه موسى الرضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وكان يترباً بزيّ أعرابي زهداً في الدنيا وتباعداً عنها ، فقام إليه الرشيد وقبّل ما بين عينيه ، ثم قرأ : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ، وانصرف رحمة الله عليهم أجمعين

الحسين الخليلع والجارية العاشقة

قال السجستاني : أرق الرشيد ليلة ، فوجه إلى الأصمعي وإلى
حسين الخليلع فأحضرهما وقال : عللاني وابدأ أنت يا حسين .

فقال حسين : نعم يا أمير المؤمنين ! خرجتُ في بعض السنين منحدرًا
إلى البصرة ممتدحًا محمد بن سليمان الزبني بقصيدتي ، فقبلها وأمرني
بالمقام ، فخرجت ذات يوم إلى المبريد وجعلتُ المهالبة طريقي فأصابني حرٌّ
شديد فدنوت من باب دار كبيرة لأستسقي ، فإذا أنا بجارية كأنها قُصِبُ
يَتْنِي ، واسعة العينين ، زجاءُ^١ الحاجين ، مفتوحة الجبين ، عليها قميص
جُلْناري^٢ ورداءٌ عدني قد غلب شدَّةُ يياض بدنِها على حُمرة قميصها ، تتلألُ
من تحتِ القميص بثديين كرماتين وبطن كطيِّ القباطي^٣ ، وعُكْنُ^٤
كالقراطيس ، لها جُمَّةٌ جعدةٌ بالمسك محشوةٌ^٥ ، وهي يا أمير المؤمنين متقلدةٌ
خرزًا من الذهب والجوهر ، يزهو بين نَهْدَيها وعلى صحن جبينها طُرةٌ
كالسبيج^٥ وحاجبان مقرونان وعينان نجلاوان وخدان أسيلان وأنفٌ أَقْنَى تحتَه
نُغْرٌ كاللؤلؤ ، وأسنان كالدر ، وقد غلب عليها الطَّيب ، وهي والهةٌ حَيْرَى
ذاهبة في الدهليز ورائحةٌ تخطرُ على أكباد محبيها في مشيتها ، وقد خالط
أصواتُ نعلها خلاخلها ، فهي كما قال الشاعر فيها :

١ الحاجب الأزج : هو الطويل في رقة .

٢ الجلناري : الأحمر .

٣ القباطي : ثياب من الكتان منسوبة إلى القبط .

٤ العكن ، الواحد عكنة : ما انطوى وتثنى من لحم البطن .

٥ السبيج : الخرز الأسود .

كلّ جزءٍ من محاسنها كائنٍ من حسنها مثلاً

فهبّتها يا أمير المؤمنين ، ثم دنوت منها لأسلم عليها ، فإذا الدهليزُ
والدارُ والشارعُ قد عبق بالمسك ، فسلمتُ عليها فردّت بلسانٍ منكسرٍ
وقلب حزينٍ حريقٍ مُسعرٍ . فقلت لها : يا سيدتي ، إني شيخ غريب
أصابني عطش ، أفأمرين بشربة من ماء تُوجّرين عليها ؟

قالت : إليك عني يا شيخ ، فأني مشغولة عن الماء وادّخار الزاد .
قلت : لأبيّ علةً يا سيدتي ؟

قالت : لأني عاشقة لمن لا يُنصفني ، وأريد من لا يريدني ، ومع
ذلك فأني ممتحنةٌ برقباء فوق رقباء .

قلت : وهل يا سيدتي على بسطة الأرض من تريدينه ولا يريدك ؟
قالت : نعم ، وذلك لفضل ما رُكّب فيه من الجلال والكمال
والدلال .

قلت : وما وقوفك في هذا الدهليز ؟

قالت : ههنا طريقه وهذا أوانُ اجتيازِهِ .

فقلت لها : يا سيدتي ، فهل اجتمعتما في وقت من الأوقات ووُجِدَ
حديث في هذا القرب ؟

فتنفست الصُعداء وأرخت دموعها على خدّها كطلٍّ سقطَ على ورد ،
ثم أنشدت تقول :

وكنا كقصيّ بانهٍ فوق روضةٍ نشمّ جنّى اللذاتِ في عيشةٍ رغدٍ
فأفردَ هذا الغصنَ من ذاك قاطعٌ فيا من رأى فرداً يَحِنُّ إلى فردٍ

قلت : يا هذه ، فما بلغ من عشقك لهذا الفتى ؟

قالت : أرى الشمس على حائطهم أحسب أنها هو ، وربما أراه بغتةً
فأُبْهَتْ ويهربُ الدم والروح من جسدي وأبقى الأسبوعُ والأسبوعين بغير
عقل .

فقلت لها : فاعذريني ، فأنت على ما بك من الصُّبا وشغل البال
باهوى ونحول الجسم وضعف القوى أرى بك من اللون ورقة البشرة .
فكيف لو لم يمسِّك الهوى لكنت مفتنةً في أرض البصرة .

قالت : والله قبل محبتي هذا الغلام كنت تحفةً الدلال والجمال
والكمال ، ولقد فُتنتُ جميع ملوك البصرة حتى فتني هذا الغلام .

قلت : يا هذه ، فما الذي فرّق بينكما ؟

قالت : نوائبُ الدهر ولحديثي وحديثه شأنٌ من الشؤون ، وذلك أي
كنت قعدت في يوم نيروز^١ ، ودعوت عدّةً من مستظرفاتِ البصرة من
النساء الجميلات وكانت فيهنّ الحوراء جارية شيراز ، وكان شراؤها عليه من
عمان بثمانية آلاف درهم ، وكانت بي والعةً ، فلما دخلت رمت بنفسها
عليّ تقطّعتني قرصاً وعضاً ، ثم خلونا تتمرّن القهوة إلى أن يُدرك طعأمنا
ويجتمع من دعونا وكانت تلاعبني وألاعبي ، فتارة أنا فوقها ، وتارة هي
فوقي ، فحملها السكرُ إلى أن ضربت يدها إلى تكّتي فحلّتها من غير زينةٍ
كانت بيننا ، وأنزلت سراويلي ملاعبة ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا
حبيبي فرأى ذلك فاشمأز لذلك وصدف عني صدوفَ المهرة العربية إذا
سمعت صلاصلاً لجامها ، فوَلَّى خارجاً ، فأنا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسأل
الاجتماع به فلا ينظر إليّ بطرف ولا يكتب لي بحرف ولا يكلم لي رسولاً
ولا يسمع منّي قبيلاً .

١ النيروز: عند الفرس أول يوم من السنة الشمسية ، وهو يوم الفرح عموماً .

فقلت لها : يا هذه ، من العرب هو أم من العجم ؟

فقلت : ويحك هو من جملة ملوك البصرة .

فقلت لها : شيخ هو أم شاب ؟

فنظرت إليّ شزراً وقالت : إنك أحمق ، هو مثل القمر ليلة البدر ،
أجرد أمرد له طرة كحللك الغراب لا يُعيبه شيء غير انحرافه عني .

قلت لها : ما اسمه ؟

قالت : ماذا تصنع به ؟

أجتهد في لقائه فأتعرف الفضل بينكما .

قالت : على شرط أن تحمل إليه رُقعة .

قلت : لا أكره ذلك .

فقلت : اسمه ضمرة بن المغيرة ويكنى بأبي السخاء ، وقصره
بالمربد .

ثم صاحت في الدار : يا جوارى ، الدواة والقرطاس ، وشمرت عن
ساعدين كأنهما طوقان من فضة ، وكتبت بعد البسملة : سيدي ترك
الدعاء في صدر رقعتي ينبي عن تقصيري . ودعائي ، إن دعوته . هُجْنة
ورُعونة ، ولولا أن بلوغ الجهد يخرج عن حد التقصير لكان لما تكلفته
خادمته من كتابة هذه الرقعة معنى مع يأسها منك لعلها تركك الجواب .

سيدي ، جُدْ بنظرة وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز تُحيي بها
نفساً ميتة . واخطُ بخط يدك ، بسطها الله بكل فضيلة . رقعة واجعلها
عوضاً عن تلك الحُلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنت ذاكر
لها .

١ الطرة : الشعر الذي فوق الجبهة .

سيدي ، ألسْتُ لكْ مُجِيبَةً مُدْنِفَةٌ ؟ فَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى الْآيَسَةِ كُنْتُ لَكَ شَاكِرَةً وَبَعْدُ خَادِمَةً . وَالسَّلَام .

فَتَنَاولَتِ الْكِتَابَ وَخَرَجَتْ فَأَصْبَحَتْ عُذْوَةً إِلَى بَابِ مُحَمَّدَ بْنِ سَلِيمَانَ فَوَجَدَتْهُ مَجْلِسًا مُحْتَفِلًا بِالْمُلُوكِ وَرَأَتْهُ عَلَامًا زَانَ الْمَجْلَسِ وَفَاقَ عَلَى مَنْ فِيهِ جَالًا وَبَهْجَةً ، قَدْ رَفَعَهُ الْأَمِيرُ فَوْقَهُ . فَسَأَلَتْهُ عَنْهُ فَإِذَا هُوَ ضَمْرَةٌ بَنُ الْمُغِيرَةِ ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : بِالْحَقِّقَةِ حَلٌّ بِالسَّبْكِينَةِ مَا حَلَّ بِهَا . ثُمَّ قُتُّ وَقَصَدْتُ الْمَرْبَدَ وَوَقَفْتُ عَلَى بَابِ دَارِهِ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ وَرَدَ فِي مَوْكِبٍ فَوَثَبْتُ إِلَيْهِ وَبَالَعْتُ فِي الدَّعَاءِ لَهُ وَنَاوَلْتُهُ الرِّقْعَةَ ، فَلَمَّا قَرَأَهَا وَفَهَمَ مَعْنَاهَا قَالَ لِي : يَا شَيْخُ ! قَدْ اسْتَبَدَّلْنَا بِهَا ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى الْبَدِيلِ ؟

قُلْتُ : نَعَمْ .

فَصَاحَ فِي الدَّارِ أَخْرَجُوا الرَّبْدَاءَ . فَإِذَا أَنَا بِبِجَارِيَةِ خَابُوطِيَةِ الْكَمِينِ ، نَاهِدَةً الثَّيْدِينَ تَمْشِي مِشْيَةً مُسْتَوَحِّلٍ مِنْ غَيْرِ وَحَلٍّ ، فَتَنَاوَلَهَا الرِّقْعَةَ ، وَقَالَ : أَجِيبِي عَنْهَا . فَلَمَّا قَرَأَتْهَا أَصْفَرَتْ وَعَرِقَتْ وَقَالَتْ : يَا شَيْخُ اسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا جِئْتُ بِهِ .

فَخَرَجْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنَا أَجْرَّ رَجُلِي حَتَّى أَتَيْتُهَا وَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهَا فَقَالَتْ : مَا وَرَاءُكَ ؟ فَقُلْتُ : الْبُؤْسُ وَالْيَأْسُ .

فَقَالَتْ : مَا عَلَيْكَ مِنْهُ ، فَأَيْنَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ ؟

ثُمَّ أَمَرْتُ لِي بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ ثُمَّ جُرْتُ بَعْدَ أَيَّامٍ بِبَابِهَا فَوَجَدْتُ غُلَامًا وَفُرْسَانًا فَدَخَلْتُ فَإِذَا أَصْحَابُ ضَمْرَةٍ يَسْأَلُونَهَا الرَّجُوعَ إِلَيْهِ ؟ فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ لَا نَظَرْتُ لَهُ وَجْهًا ، فَسَجَدْتُ لِلَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، شِمَاتَةً بِضَمْرَةٍ

١ . قوله : خَابُوطِيَةِ الْكَمِينِ : لَمْ نَجِدْ هَذِهِ اللَّفْظَةَ فِي الْمَعَاجِمِ وَلَعَلَّ الْمُرَادَ بِهَا أَنَّ كَمِينَهَا طَوِيلَانِ تَخْبِطُهَا حِينَ تَمْشِي .

ونفرتي من الجارية ، فأوردت عليّ منه رقعةً فإذا فيها ، بعد التسمية ،
سيدتي ، لولا إبقائي عليك ، أدام الله حياتك ، لوصفتُ شطراً من غدرك
وبسطةً شطرَ عَنِّي عليك ، وسلكتُ ظلامي فيك ، إذ كنتِ الجانية ،
على نفسك ونفسي والمُظهرةَ لسوء العهد وقلةِ الوفاء والمؤثرةَ علينا غيرنا ،
فخالفتُ هواي ، والله المستعان ، على ما كان من سوء اختيارك والسلام .
وأوقفتني على ما حمله إليها من الهدايا والتحف العظيمة فإذا هو بمقدار
ثلاثين ألف دينار ثم رأيتها بعد ذلك ، وقد تزوّج بها ضمرة .
فقال الرشيد : لولا أن ضمرة سبقني إليها لكان لها معي شأن من
الشؤون ، انتهى .

جميل والفتى العذري وحبيبته

وحكى مسرور الخادم قال : أرق الرشيدُ أرقاً شديداً ليلةً من الليالي ،
فقال : يا مسرورُ مَنْ على الباب من الشعراء ؟
فخرجت إلى الدّاهليز فوجدت جميلَ بنَ مَعْمَرٍ العذري فقلتُ : أجب
أميرَ المؤمنين . فقال : سمعاً وطاعة . فدخلتُ ودخلَ معي إلى أن صار بين
يدي هارون الرشيد فسلمَ بسلامِ الخلافةِ ، فردَّ عليه وأمره بالجلوس ،
فقال له الرشيد : يا جميلُ ، أعندك شيءٌ من الأحاديث العجيبة ؟
قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أيُّما أحبُّ إليك ، ما عاينته ورأيته أو ما
سمعته ووعيته ؟
فقال : بل حدثني عما عاينته ورأيته .

١ الغبن : الخداع ، والخسارة .

فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، أقبل عليّ بكلّك واصنع إليّ بأذنك .
قال : فقعده الرشيدُ إلى مخدّة من الديباج الأحمر المزركش
بالذهب ، محشوة بريش النعام ، فجعلها تحت فخذيه ثم مكّن منها
مرفقيّه ، وقال : هلمّ بحديثك .

فقال : اعلم يا أمير المؤمنين ، أني كنت مفتوناً بفتاة محباً لها ، وكنتُ
ألفها إذ هي سؤلي وبُعيتي من الدنيا ، وإن أهلها رحلوا بها لقلّة المرعى ،
فأقمتُ مدّة لا أراها ، ثم إن الشوق أفلقني وجذبني إليها ، فراودتني نفسي
بالمسير إليها فلمّا كانت ذات ليلة من الليالي ، هزّني الوجد إليها ، فقمّتُ
وشددتُ رحلي على ناقتي واعتممتُ بعِمّتي ولبستُ أطاري^١ وتقلدتُ بسيني ،
وتنكّبتُ حَجَفَتِي^٢ ، وركبتُ ناقتي وخرجت طالبا لها ، وكنت أجدُ في
السير ، فسيرتُ ، وكانت ليلة مظلمة مُدْهِمَةٌ ، وأنا مع ذلك أكابدُ هبوط
الأودية وصعود الجبال ، أسمعُ زئير الأسد وعواء الذئب ، وأصوات
الوحوش من كلّ جانب ، وقد ذهل عقلي وطاش لبّي ، ولساني لا يفتر
عن ذكر الله تعالى .

فبينما أنا أسير كذلك إذ غلبني النوم فأخذتُ بي الناقة على غير الطريق
التي كنتُ فيها ، وزاد عليّ النوم ، وإذا أنا بشيء لطمني في رأسي ،
فانتبهتُ فزعاً مرعوباً ، وإذا بأشجار وأنهار وماء وأطيار على تلك الأغصان
تترنّم بلغاتها وألحانها ، وأشجارُ ذاك المرج مشتبكة بعضها ببعض ، فترلت
عن ناقتي وأخذت زمامها بيدي ، ولم أزل أتلطفُ بها إلى أن خرجتُ بها
من تلك الأشجار إلى أرضٍ فلاةٍ ، فأصلحتُ كُورَها ، واستويتُ ركباً

١ الأطار ، الواحد طير : التوت الرث .

٢ تنكّبت : ألقيت على منكبي ، والمنكب مجتمع رأس الكتف والعضد . الحجفة :
الترس من جلد بلا خشب .

على ظهرها ، ولا أدري إلى أين أذهبُ ولا إلى ما تسوقني الأقدار ؟ فددت نظري في تلك البرية ، فلاح لي نار في صدرها فوكرتُ ناقتي وسرتُ طالباً إلى أن وصلت إلى تلك النار ، فقرَّبْتُ نفسي منها وتأمَّلتُ وإذا بخباء مضروبٍ ورُمحٍ مركوز ، وراية قائمة وخيل واقفة ، وإبل سائمة^١ ، فقلت في نفسي : يوشك أن يكون لهذا الخباء شأنٌ عظيم ، فلاني لا أرى في هذه البرية سواه ، ثم تقدَّمتُ خلف الخباء وقلت : السلام عليكم يا أهل الخباء ورحمةُ الله وبركاته .

فخرج إليّ من الخباء غلامٌ من أبناء تسعةَ عشرَ ، كأنه البدرُ إذا أشرق ، والشجاعةُ لائحةٌ بين عينيه ، فقال : وعليك السلام ورحمةُ الله وبركاته يا أبا العرب . إني أظنُّك ضالاً عن الطريق ؟
فقلت : الأمر كذلك ، أرشدني يرحمك الله تعالى .

فقال : يا أبا العرب إن أرضنا هذه مَسْبُعةٌ ، وهذه الليلة مظلمة وحشةٌ شديدةُ الظلمةِ والبردِ ولا آمن عليك من الوحش أن يفترسَكَ ، فانزل عندي على الرَّحْب والسَّعة ، فإذا كان الغدُ أرشدْتُكَ إلى الطريق .

قال : فنزلت عن ناقتي وعَقَلْتُهَا بفاضل زمامها ونزعتُ ما كان عليّ من أطمار ، وجلستُ ساعةً ، وإذا بالشاب قد عمد إلى شاةٍ فذَبَحَهَا وإلى نارٍ فأضرمَهَا وأجَجَهَا ثم دخل الخباء وأخرجَ أبزراً ناعمةً ولحماً مُطَيَّباً وأقبل يقطع من اللحم ويشوي على النار ويُطعمني ويتنهد تارةً ، ويكي تارةً أخرى ، ثم شهق شهقةً عظيمةً وبكى بكاءً شديداً وأنشد يقول :

لم يبقَ إلَّا نَفْسٌ خافت ومُقلَّةٌ إنسانُها باهتٌ
لم يبقَ في أعضائه مَقْصِلٌ إلَّا وفيه سَقَمٌ ثابتٌ

١ سائمة : راعية .

فدمعه جار وأحشاؤه تُوقدُ ، إلا أنه ساكتٌ
تبكي له أعداؤه رَحمةً يا ويح من يرثي له الشامتُ

قال جميل : فعند ذلك يا أمير المؤمنين ، علمتُ أنّ الغلامَ عاشقٌ
ولهانٌ ، ولا يعرفُ الهوى إلا من ذاقَ طعمَ الهوى ، فقلتُ في نفسي : أنا
في منزل الرجل وأتهجمُ عليه في السؤال ؟ فردعتُ نفسي وأكلتُ من ذلك
اللحم بحسب الكفاية ، فلما فرغتُ من الأكل قامَ الشابُ ودخلَ الخِباءَ
وأخرجَ طشتاً نظيفاً وإبريقاً حسناً ومِنديلاً من الحرير أطرافه مزركشةٌ
بالذهب الأحمر وقمقمماً مملوءاً من الماوردِ المسك . فتعجبتُ من ظرفه
ورقةَ حاشيته ، وقلتُ في نفسي : ما أغربَ الظرفَ في البادية . ثم غسلنا
أيدينا وتحَدَّثنا ساعةً ثم إنه قامَ ودخلَ الخِباءَ وقطعَ بيني وبينه بمقطعٍ من
الديباج الأحمر . ثم خرج وقال : ادخل يا وجهَ العرب وخُذ مضجعتك
فقد لحقتُ في هذه الليلة تعبٌ وفي سفرك هذا نصبٌ مُفرط .

قال جميل : فدخلتُ فإذا أنا بفراش من الديباج الأخضر ، فعند
ذلك نزلتُ ما كان عليّ من الثياب ونمتُ بلبلةٍ لم أُنمَ عمري مثلها ، فلم
أزل كذلك ، وأنا متفكرٌ في أمر هذا الشاب إلى أن جَنَّ الليلُ ونامت
العيون ، فلم أشعرَ إلا بحسٍّ خفيٍّ لم أسمعَ اللفظَ منه ولا أرقَّ حاشيةً ، فرفعتُ
سِجافَ المضرب ، ونظرتُ فإذا أنا بصبيبةٍ لم أرَ أحسنَ منها وجهاً وهي إلى
جانبيه ، وهما يبكيان ويتشاكيان ألمَ الهوى والصباية والجوى وشدةَ اشتياقِهما
إلى التلاقي ، فقلتُ : يا الله ؛ العجب من هذا الشخص الثاني ، وهذا
بيت فردٌ فإنني لم أرَ فيه غير هذا الفتى ، وليس حوله أحدٌ ، ثم قلتُ في
نفسي : لا شك أن هذه الجارية من بنات الجنِّ تهوى هذا الغلام . وقد
تفرَّد بها في هذا المكان وتفرَّدت به ، فحقَّقتها فإذا هي أنسيةٌ عربيةٌ إذا
رمقتُ تُخجلُ الشمسَ المضيئة ، وقد أضاءَ الخِباءَ من نورِ وجهها ، فلما

نَحَقَّتْ أَنَّهَا مَحْبُوبَتُهُ غَلَبَتْنِي الْعَبِيرَةُ عَلَى الْحُبِّ ، فَأَرَخَيْتُ السِّتْرَ وَغَطَّيْتُ وَجْهِي وَنِمْتُ . فَلَمَّا أَصْبَحْتُ لَبَسْتُ ثِيَابِي ، وَتَوَضَّأْتُ لَصَلَاتِي ، وَصَلَّيْتُ مَا كَانَ عَلَيَّ مِنَ الْفَرَضِ ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُ : يَا أَخَا الْعَرَبِ ، هَلْ لَكَ أَنْ تُرْشِدَنِي إِلَى الطَّرِيقِ ، فَقَدْ تَفَضَّلْتَ عَلَيَّ .

فَنَظَرَ إِلَيَّ وَقَالَ : عَلَى رِسْلِكَ يَا وَجَهَ الْعَرَبِ ، الضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ وَمَا كُنْتُ بِالَّذِي يَدْعُكَ إِلَّا لثَلَاثَةِ أَيَّامٍ .

قَالَ جَمِيلٌ : فَأَقِفْتُ عِنْدَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ جَلَسْنَا لِمَحْدِثٍ فَحَادِثُهُ وَسَأَلْتُهُ عَنْ اسْمِهِ وَنَسَبِهِ فَقَالَ : أَمَا نَسَبِي فَأَنَا مِنْ بَنِي عُذْرَةَ ، وَأَنَا قُلَانُ بْنُ فُلَانٍ وَعَمِّي فُلَانٌ ، فَإِذَا هُوَ ابْنُ عَمِّي ، يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ مِنْ أَشْرَفِ بَيْتٍ فِي بَنِي عُذْرَةَ ، قَالَ : فَقُلْتُ : يَا ابْنَ لَعْمٍ ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا أَرَاهُ مِنْكَ مِنَ الْإِنْفِرَادِ فِي هَذِهِ الْبَرِيَّةِ ، وَكَيْفَ زَكَّتَ عِبِيدُكَ وَإِمَاءُكَ وَانْفَرَدَتْ بِنَفْسِكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ ؟

فَلَمَّا سَمِعَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَلَامِي ، تَرَعَرَعَتْ عَيْنَاهُ بِالْدَمْعِ ثُمَّ قَالَ : يَا بَنَ الْعَمِّ ، إِنِّي كُنْتُ مُحِبًّا لِابْنَةِ عَمِّي ، مَفْتُونًا بِهَا هَائِمًا بِحَبِّهَا مَجْنُونًا عَلَيْهَا لَا أُطِيقُ الْفِرَاقَ عَنْهَا ، فَزَادَ عَشْقِي لَهَا ، فَخَطَبْتُهَا مِنْ عَمِّي ، فَأَبَى أَنْ يَزَوِّجَنِيهَا وَزَوَّجَهَا مِنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي عُذْرَةَ وَدَخَلَ بِهَا وَأَخَذَهَا إِلَى الْحَلَّةِ الَّتِي هُوَ فِيهَا مِنَ الْعَامِ الْأَوَّلِ ، فَلَمَّا بَعُدَتْ عَنِّي وَحُجِّبَتْ عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهَا حَمَلْتَنِي لَوْعَاتٍ الْهَوَى وَشِدَّةِ الشَّوْقِ وَالْجَوَى عَلَى تَرْكِي أَهْلِي وَمَفَارِقِي عَشِيرَتِي وَخَلَّانِي وَجَمِيعِ أُمَّتِي ، وَانْفَرَدْتُ بِهَذَا الْبَيْتِ فِي هَذِهِ الْبَرِيَّةِ وَأَلْفَتْ وَحَلَّتَنِي .

فَقُلْتُ : وَأَيْنَ أُبْيَأْتُهُمْ ؟

قَالَ : هُمْ قَرِيبٌ فِي ذُرْوَةِ هَذَا الْجَبَلِ ، وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ عِنْدَ نَوْمِ الْعَيُونِ يَهْدُونُ مِنَ اللَّيْلِ تَنْسَلُّ مِنَ الْحَيِّ سِرًّا بِحَيْثُ لَا يَشْعُرُ بِهَا أَحَدٌ فَأَقْضِي مِنْهَا

بالحديث وطراً وتقضي هي كذلك ، وها أنا مقيمٌ كذلك على هذا الحال
أتسلى بها ساعةً من الليل ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، أو يأتيني الأمر على
رُغم الحاسدين ، أو يحكم الله لي ، وهو خير الحاكمين .

قال جميل : فلما حدثني الغلام يا أمير المؤمنين ، غمّني أمره وصرتُ
من ذلك في حيرةٍ لما أصابني عليه من الغيرة ، فقلت له : يا ابن العم ،
هل لك أن أدلك على حيلةٍ أُشير بها عليك ، وفيها إن شاء الله . عينُ
الصلاح وسبيلُ الرشد والنجاح ، وبها يفرجُ الله عليك الذي تخشاه .
فقال لي : قل يا ابن العم .

فقلت له : إذا كان الليلُ وجاءت الجاريةُ فاطرحها على ناقتي ، فإنها
سريعةُ الرواح ، واركبُ أنت جوادك ، وأنا أركبُ بعضَ هذه النوق وأسيرُ
بكم الليلةَ جميعها . فما يُصبح الضباح إلا وقد قطعتُ بكم براري وقفاراً
وتكونُ قد بلغتُ مُرادك وظفرتُ بمَحَبوبةِ قلبك ، وأرضُ الله واسعةٌ
فضاؤها ، وأنا والله مساعدك ما حييتُ بروحي ومالي وسيني .

فلما سمع ذلك قال لي : يا ابن العم ، حتى أشاورها في ذلك ، فإنها
عاقلةٌ لبيةٌ بصيرةٌ بالأمور .

قال جميل : فلما جنَّ الليل وحان وقتُ مجيئها وهو منتظرُ الوقتِ
لمعلومٍ فأبطأت عن عاديها فرأيتُ الفتى ، وقد خرج من باب الخباء وفتح
فاه وجعلَ يتنَسَّم هبوبَ الريح التي تهبُّ من نحوها وأنشد يقول :

ريحُ الصَّبَا يُهدي إليَّ نسيماً من بلدةٍ فيها الحبيبُ مقيمٌ
يا ريحُ فيك من الحبيبِ علاقةٌ أفتعلمين متى يكونُ قدومُ

ثم دخل الخباء وقعد ساعةً زمانيةً ، وهو يبكي ، ثم قال لي : يا ابن
العم ، إن لبنت عمّي في هذه الليلة نبأً وقد حدث لها حادث وعاقها عني .

عائق ، ثم قال لي : كن مكانك حتى آتيك بالخبر . ثم أخذ سيفه وحجفته
ثم غاب عني ساعة من الليل ثم أقبل وعلى يديه شيء يحمله ثم صاح إليّ
فأسرعت إليه . فقال : أتدري يا ابن العم ما الخبر؟
فقلت : لا والله .

فقال : فجعت في ابنة عمي في هذه الليلة لأنها كانت توجهت إلينا
كعادتها إذ عرض لها في طريقها أسدٌ فافترسها ولم يُبق منها إلا ما ترى .
ثم إنه طرح ما كان على يده . فإذا هو مُشاشٌ الجارية وما فضل من
عظامها . ثم بكى بكاءً شديداً ورمى الترس من يده وأخذ كساءً على يده
ثم قال لي : لا تبرحْ إلى أن آتيك إن شاء الله تعالى . ثم سار فغاب عني
ساعة ثم عاد ويده رأسُ الأسدِ فطرّحه عن يده ثم طلب ماءً فأتته به
فغسلَ فم الأسد وجعل يقبله ويبكي ويشنُّ وزاد حزنه عليها وأنشد يقول :

ألا أيها الليثُ المُدِلُّ بنفسه هلكَ لقد هيّجت لي بعدها شَجُنًا
وصيرتني فرداً وقد كنت إلفها وصيرت بطن الأرض لي ولها وطناً
أقول الدهر خاني بفراقها وغار عليها أن أكنّ لها حُزناً

ثم قال : يا ابن العم ، سألتك بالله وبحقّ القرابة والرحم التي بيني
وبينك إلا حفظت وصيتي ؟ إنك ستراني الساعة ميتاً بين يديك ، فإذا كان
كذلك ، فغسلني وكفني أنا وهذا الفاضل من مُشاشِ الجارية في هذا
الثوب وادفناً في قبر واحدٍ وأكتب على قبرنا هذه الأبيات ، وأنشد يقول :

كئناً على ظهرها ، والعيشُ في رَعْدٍ والشملُ مجتمعٌ والدارُ والوطنُ
ففرّق الدهرُ والتصريفُ ألفتنا وصار يجمعنا في بطنها الكفنُ

١ المشاش ، الواحدة مُشاشة : رأس العظم اللين .

قال : ثم بكى بكاءً شديداً . ثم دخل المضربَ وغابَ عني ساعةً وخرجَ وجعلَ ينتهزُ ويصيحُ ثم شهقَ شهقةً فارق الدنيا ، فلما رأيتُ ذلك منه عظمَ عليّ وكبرَ عندي حتى كدت ألحق به من شدة حُزني عليه ، ثم تقدّمت إليه وفعلتُ به ما أمرني من القسل وكفّتها جميعاً ودفنتُها في قبرٍ واحدٍ ، وأقيمتُ عند قبرها ثلاثة أيام ثم ارتحلتُ وأقيمتُ سنينَ أترددُ إلى زيارتهما .

وهذا ما كان من حديثهما ، يا أمير المؤمنين ، قال : فلما سمع الرشيد كلامه استحسّنه وخلع عليه وأجازه جائزةً حسنةً ، والله أعلم .

إسحاق الموصلي وإبليس

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : بينما أنا ذاتَ يومٍ في منزلي ، وكان زمنَ الشتاء ، وقد انتشرت السُحبُ وتراكمَت الأمطارُ بقطرٍ كأفواه القُرب ، وامتنع الغادي والمُقبل من المسير في الطرقات لما فيها من الأمطار والوحل ، وأنا ضَيِّقُ الصدرِ إذ لم يأتني أحدٌ من إخواني ، ولم أقدر على المسير إليهم من شدة الوحل والطين ، فقلت لغلامي : أحضر لي ما أتشغلُ به ، فأحضر لي طعاماً وشرباً فتغنصتُ إذ لم يكن معي من يوانسني ، ولم أزل أطلعُ من الطاقاتِ وأراقبُ الطرقات ، وأقبل الليلُ فتذكّرتُ جاريةَ لبعضِ أولاد المَهدي كنتُ أهواها . وكانت عارفةً بالغناء وتحريكِ الملاهي . فقلت في نفسي : لو كانت الليلةَ عندنا لثمَّ سروري وطابت ليلتي ممّا أنا فيه من الفكر والقلق وإذا بداقٌ يدقّ الباب وهو يقول : أيدخلُ محبوبٌ على البابِ وأقفُ . فقلت في نفسي : لعلَّ غرسَ التَّميِّ أثمر . فقُمتُ إلى الباب ، فإذا بصاحبتي وعليها مِرطاً أخضرٌ قد اتشحت به وعلى

١ المِرط : كساء من صوف ونحوه يؤتز به ، كل ثوب غير مخيط .

رأسها وقايةً من الديداج تقيها من المطر . وقد عَرَقَتْ في الطين إلى ركبتيها
وابتلَّ ما عليها من المَزاريبِ ، وهي في حال عجيب فقلت لها : يا
سيدتي ، ما الذي أتى بك في مثل هذه الأحوال ؟

فقلت : قاصدك جاعني ووصفَ ما عندك من الصَّابة والشوقِ ، فلم
يسعني إلا الإجابة والإسراعُ نحوك .

فعجبتُ من ذلك وكرهتُ أن أقول لها إني لم أرسل إليك أحداً ،
فقلت : أحمد الله على جمع الشَّمْلِ بعدما قاسيتُ من ألم الصبر ، ولو
كنتِ أبطأتِ عليّ ساعةً كنتُ أحقُّ بالسعي إليك ، فإني كثيرُ الصَّابةِ
نحوك . ثم قلت للغلامي : هاتِ الماء .

فأقبل بسخَّانة فيها ماءٌ حارٌّ حتى أصلحَ لها حالها ثم أمرته أن يصبَّ
الماء على رجليها وتولَّيت غسلها . ثم دعوتُ ببذلةٍ من أفخرِ الملبوس
فألْبَسْتُها إياها بعد أن نزعْتُ ما كان عليها ، وجلسنا ثم استدعيتُ بالطعام
نأبت ، فقلت : هل لك في الشراب ؟

فقلت : نعم .

فتناولت أقداحاً ثم قالت : من يغني لي ؟

فقلت لها : أنا يا سيدتي .

فقلت : لا أحبُّ .

فقلت : بعضُ جوارِي .

قالت : لا أريدُ .

فقلت : غنيّ لنفسك .

قالت : ولا أنا .

قلت : فمَن يغنيك ؟

قالت : إلتمس من يُعَيِّي لي . فخرجت طاعةً لها ، إلا أنني آيس من أن أجد أحداً في مثل هذا الوقت . فلم أزل حتى بلغت الشارع ، فإذا أنا بأعمى يختبئ الأرض بعصاً ، وهو يقول : لا جزى الله من كنت عندهم خيراً ، إن غيبت لم يسمعوا ، وإن سكت استخفوا . فقلت : أمغن أنت ؟

قال : نعم .

قلت : فهل لك أن تتم ليلتك عندنا وتؤانسنا ؟

قال : إن شئت خذ بيدي ، فأخذت بيده وسرت إلى الدار ، وقلت لها : يا سيدي أتيبت بمغنٍ أعمى نلتدُّ به ولا يرانا .

فقلت : عليّ به .

فأدخلته وعزمت عليه في الطعام فأكل أكلاً لطيفاً وغسل يده ، وقدمت إليه الشراب فشرب ثلاثة أقذاح ثم قال لي : من تكون ؟

قلت : إسحاق بن إبراهيم الموصلي .

قال : لقد كنت أسمع بك والآن فرحت بمئادمتك .

فقلت : يا سيدي فرحت بمن يسرك .

فقال : غنّ يا إسحاق .

فأخذت العود على سبيل الجون وقلت : السمع والطاعة ، فلما غيبت وانقضى الصوت قال : يا إسحاق ، قاربت أن تكون مغنياً . فصغرت عليّ نفسي وألقيت العود من يدي فقال : ما عندك ممن يحسن الغناء ؟ قلت : عندي جارية .

قال : مرّها فلتغنّ .

قلت : تغني وأنت واثق بغنائها ؟

قال : نعم .

فغنت ، قال : ما صنعت شيئاً فرمتِ العودَ من يدها مُغضبةً
وقالت : الذي عندنا جُدننا به فإن كانَ عندك شيءٌ فتصدق به .

فقال : عليّ بعودٍ لم تَمَسَّهُ يدٌ .

فأمرتُ الخادِمَ فجاء بعود جديد ، فضرب في طريق لا أعرُفها واندفع
يغني هذه الأبيات :

سرى يقطعُ الظُّلُماءَ والليلُ عاكفٌ حبيبٌ بأوقاتِ الزَّيارَةِ عارفٌ
وما راعنا إلا السلامُ وقولُها أيدخلُ محبوبٌ على البابِ واقفٌ

قال : فنظرتُ إليَّ الجارية شزراً ، وقالت : سرُّ بيني وبينك ما وسعَه
صدرُك ساعةً وأودعته لهذا الرجل .

فحلفت لها ثم اعتذرتُ إليها وأخذت أقبلَ يديها وأدغدغُ نديها وأعضُ
خديها حتى ضحكت ، ثم التفتتُ إلى الأعمى وقالت : غنَّ يا سيدي
فأخذ العود ، وغنى هذه الأبيات :

ألا ربَّما زُرْتُ المِلاحَ ، وربما لمستُ بكفي البَنانَ المُحَضَّبَا
ودغدغتُ رُمانَ الصُّدُورِ ، ولم أزل أُعَضُّصُ تَفَّاحَ الخُدودِ المُكَبِّبَا

فقلت لها : يا سيدي ، فمن أعلمه بما نحن فيه ؟

قالت : صدقت .

ثم تجبَّناه فقال : إني لحاقن .

فقلت : يا غلامُ ، خذ الشمعة وامض بين يديه .

١ شبه الخدود بالتفاح في لونها ونضارتها ثم جعلها مكببة أي مثل كبة القطن ، وهي الليفة .

فخرج وأبطأ فخرجنا في طلبه فلم نجده ، وإذا الأبوابُ مغلقةٌ والمفاتيحُ
في الخزانة فلا ندري أي السماء صعدَ أو في الأرض هبط ثم علمت أنه
إبليس . وأنه قاد لي . ثم انصرف . فتذكرت قول أبي نواس حيث قال :
عجبتُ من إبليسَ في كبره وخبتُ ما أضمرَ في نيته
تاهَ على آدمَ في سجدةٍ وصارَ قواداً لذريته

إبليس يزور أبا نواس

نظير ذلك ممّا يستظرف لأبي نواس ، ما حُكيَ عنه أنه قال :
ضجرتُ من ملازمةِ أمير المؤمنين هارون الرشيد حتى إنني لم أجد فراغاً إلى
نفسي ، فتوجهَ أمير المؤمنين إلى الصَّرحِ لبيت فيه ثم يعود . فوجدت
لروحي فرصة فدخلتُ داري وأغلقتُ بابي وأحضرتُ شراباً وطلبتُ نفسي
المخلوة ، فعند المساء ، وإذا بالباب يُطرقُ ، فخرجتُ وإذا أنا بظبي من
البلادِ الأتراكِ ما رأت عيني أحسنَ منه منظراً ، فسلمَ عليّ وقال لي :
أقبلُ ضيفاً ؟

قلتُ : يا سيدي ومن لي بذلك ؟

فدخل بيتي فحار عقلي عند دخوله ثم أخرج من تحت ثيابه سلاحية^١
شراب ، ونقلاً وشيئاً من اللّجاج ثم شرب وغنى شيئاً لم أسمعهُ من غيره ،
وقضيتُ مرادي منه مراراً إلى أن مضى وقتٌ من الليل ، وقد هام عقلي من
الشراب ومن حسنه ومن تسليم نفسه إليّ بغير تقديم عوضٍ ، ثم قال : يا
سيدي أريد الانصراف .

١ قوله : سلاحية : لم نجد هذه اللفظة في المعاجم والمعنى يدل على أنها تعني نوعاً من
الآنية ، ولعلّها من الألفاظ العامية .

فقلت له : يا سيدي متى خرجت أنتَ خرجتَ روحي من جسدي
وكلُّ شيءٍ أملكه بين يديك وأنا أصيرُ عبدك بعد هذا اليوم ولا أفارقك
قال : أصحيحُ ما تقول ؟
قلت : نعم .

قال : ما أنا محتاج إلى مالك . وإن كنتَ صادقاً فيما ادّعت من
محبّتك لي قم واحلق لحيتك وشاربك واقعد مثلي أمرد .
قال : فحكم عليّ السكر والعشق فما قدرت أن أخالفه فأجّته إلى
ذلك على أن يبيتَ عندي . فعمد إلى موسى . وبلّ لحيتي وفي الحال أنزلها
وبقيت مثله أمرد . ثم صار يضحك عليّ وقال : يا أبا نواس كيف الشعرُ
الذي ذكرت فيه آدم وإبليس ؟
فأنشدته قائلاً :

عجبتُ من إبليسَ في كيّره وخُبتُ ما أضمرَ في نِيَّتِه
تاهَ على آدمُ في سَجْدَةٍ وصارَ قَواداً لِنَدْرِيَّتِه
ثم ضحك ضحكاً عالياً وصكّ على ساحلِ قفائي صكاً مزعجاً .
فاغتظت منه ثم قلت له : وبلّك أتفعلُ بي هكذا . ثم أردت التطلّع إليه .
فما وجدتُ أحداً يجيبني فقلت : إنه الملعون إبليس ، انتهى .

إبليس والشعراء

قال بعضهم :
قد جاني ليلاً أبو مرّة إبليسُ يدعوني بلا رَجْوانِ
وقال لي : هل لك في أمرد يَهْزُ من أعطافِه عُصْنَ بانِ

قلت : نعم قال : وفي خَمْرٍ
قلت : نعم قال : فَنَمَّ آمَنًا
حَبَابُهَا يُحْكِي عَقْوَدَ الْعُجَانِ
أَنْتَ رَئِيسُ الْفُسْقِ هَذَا الزَّمَانِ

وقال أبو نواس :

وليلةٍ طَالَ سُهادي بها ،
وقال لي : هل لك في قَحْبَةٍ
قلت : نعم ! قال : وفي قَهْوَةٍ
قلت : نعم ! قال : وفي مُطْرَبٍ
قلت : نعم ! قال : وفي شَادِنٍ
قلت : نعم ! قال : وفي طَفْلَةٍ
قلت : نعم ! قال : فَنَمَّ آمَنًا
فزارني إبليسُ عندَ الرِّقَادِ
لَبِيبَةٍ تَطْرُدُ عَنْكَ الرِّقَادِ
عَتَّقَهَا الْغَاصِرُ مِنْ عَهْدِ عَادِ
إِذَا شَدَا يَطْرَبُ مِنْهُ الْجَادِ
قَدْ كُحِلَتْ أَجْفَانُهُ بِالسَّوَادِ
فِي وَجْتِهَا لِلْمُحِبِّ انْقِيَادِ
يَا كَعْبَةَ الْفُسْقِ وَرُكْنَ الْفَسَادِ

وقال زين الدين عمر بن الوردى معارضاً لذلك :

نِمْتُ وَإِبْلِيسُ أَتَى بِحِيلَةٍ مُنْتَدِبَةٍ فَقَالَ : مَا قَوْلُكَ فِي
حَشِيشَةٍ مُتَنَجِّبَةٍ ؟ فَقُلْتُ : لَا ! قَالَ : وَلَا خَمْرٍ كَرِيمٍ مُدْهِبَةٍ ؟
فَقُلْتُ : لَا ! قَالَ : وَلَا مَلِيحَةٍ مُطَيَّبَةٍ ؟ فَقُلْتُ : لَا ! قَالَ : وَلَا
أَعِيدَ بِالْبَدْرِ اشْتَبَهُ ؟ فَقُلْتُ : لَا ! قَالَ : وَلَا آلَةٍ لَهَا مُطْرَبَةٌ ؟
فَقُلْتُ : لَا ! قَالَ : فَنَمَّ مَا أَنْتَ إِلَّا حَظَبَةٌ

الرشيد وأبو نواس وأبو طوق

وحضر أبو نواس عند الرشيد ليلة أنس ، وكان أبو طوق حاضراً ،
وكان أبو نواس مشغولاً بحُسنه وجماله ، فلما انقضى المجلس أخذ كل واحدٍ
مضجِعاً للنوم ، فخاف الخليفة من أبي نواس على أبي طوق ، فقال الخليفة

لأبي طوق : بَمَ أنت على السرير ، وقال لأبي نواس : أنا أنا وأنت أسفل السرير .

فقال : سمعاً وطاعةً ، وهو بذلك غير راضٍ في نفسه .

وتغافل الخليفة عن أبي نواس وأظهر النومَ ثم انتبه فوجد أبا نواس فوق السرير يجنب أبي طوق يضمُّه ويعانقه ، فقال : ما هذا يا أبا نواس ؟ فقال :

هزَّني الشوقُ من أجلِ أبي طوق فتدحرجتُ من أسفل إلى فوق

فقال له : قاتلك الله ، انتهى من حلية الكميت .

الرشيذ والرجل الأموي

من غريب ما يُحكى ، ما حكاه القاضي أبو الحسن التنوخي في كتاب الفرج بعد الشدة : أن منارةً وكان صاحبَ شُرطةِ الرشيذِ قال : رُفِعَ إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا بني أميةٍ عظيمَ المالِ كثيرَ الجاه ، مُطاعاً في البلدِ ، له جماعةٌ وأولادٌ ومماليك يركبون الخيلَ ويحملون السلاحَ ويغزون الرومَ ، وأنه سَمَحَ جواد كثيرُ البذلِ والضيافةِ ، وأنه لا يؤمنُ منه ، فعظَّم ذلك على الرشيد .

قال منارة : وكان وقوفُ الرشيد على هذا ، وهو بالكوفة في بعض حِجَجِهِ ، في سنة ست وثمانين ومائة ، وقد عاد من الموسم ، وقد بايعَ للأمينِ والمأمونِ والمعتصمِ أولادِهِ ، فدعاني ، وهو خالٍ ، وقال : إني دعوتُكَ لأمرٍ يَهْمُنِي ، وقد منعني النومَ ، فانظر كيف يكون ؟

ثم قص عليّ خبر الأموي . وقال : اخرج الساعة ، فقد أعددتُ لك الخيولَ وأزحتُ عِلَّتَكَ في الزاد والنفقة والآلة ، وتضمُّ إليك مائة غلام

واسلُك البرية ، وهذا كتابي إلى نائب دمشق ، وهذه قنودُ فابداً بالرجل ،
 فإن سمِعَ وأطاعَ فقيدهُ وجنني به ، وإن عصَى فتوكَّل عليه أنت ومن معك
 لثلاثا يهرب ، وأنفذ الكتابَ إلى أمير دمشق ليكون مساعداً لك ، واقبضاً
 عليه وجنني به ، وأجلتُ لذهابك ستاً ولايتاً ستاً ويوماً لمقامك ، وهذا
 مَحْمَلٌ تجعله في شِقَّةٍ منه ، إذا قيَّده ، وتقعُدُ أنت في الشقة الأخرى ،
 ولا تُكِلَ حِفْظه إلى غيرك ، حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من
 خروجك . فإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها من أهله وولده
 وحاشيته وغلماؤه ، وقدَّر نعمته والحالَ والمحلَّ واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً
 بحرف من ألفاظه منذ يقعُ طرفك عليه حتى تأتيني به ، وإياك أن يُشكِلَ
 عليك شيء من أمره . انطلق .

قال منارة : فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الإبل وسرت أطوي
 المنازل أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبولِ وتنفيس
 النفس قليلاً إلى أن وصلت إلى دمشق في أول الليلة السابعة ، وأبوابُ
 البلد مغلقة فكرهت طروقها ليلاً فبتَ بظاهر البلد إلى أن فُتح بابها من
 غدٍ ، فدخلت حتى أتيت باب الرجل ، وعليه صفٌ عظيم وحاشية كثيرة ،
 فلم أستأذن ودخلتُ بغير إذنٍ ، فلما رأى القوم ذلك سألوا بعضَ من معي
 عني . قال : هذا منارةُ رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم .

قال : فلما صرتُ في صحنِ الدار نزلت ودخلتُ مجلساً رأيت فيه قوماً
 جلوساً فظننت أن الرجل فيهم فقاموا ورجبوا بي فقلت : أفيكم فلان ؟
 قالوا : نحن أولادُه وهو في الحمام .

فقلت : استعجلوه .

فرضي بعضهم يستعجله وأنا أتفقّد الدارَ والأحوالَ والحاشيةَ فوجدتها
 ماجت بأهلها موجاً كبيراً فلم أزل كذلك حتى خرجَ الرجل بعد أن طال

مكثته واسترَبْتُ منه واشتدَّ قلبي وخوفي من أن يتوارى إلى أن رأيت شخصاً
 بزيِّ الحَمَامِ يَمْشِي في صحن الدار وحواليه جماعة كُھول وأحداث
 وصبيان . وهم أولاده وغلَّمانه . فقلت : إنه الرجل ؛ فجاء وجلس وسلَّم
 عليّ سلاماً خفيفاً وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة أمرِ حضرته ، فأخبرته
 بما وجبَ وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهةٍ فقال : تقدِّم يا منارة
 وكل معنا .

فقلت : ما لي إلى ذلك من سبيل .

فلم يعاودني فأكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام ، فجاءوا
 إليه بمائدة حسنة لم أرَ مثلها إلَّا للخليفة ، فقال : يا منارة ساعدنا على
 الأكل . لا يزيد على أن يدعوني بأسي كما يدعوني الخليفة ، فامتنعت
 عليه ، فما عاودني فأكل هو ومن معه ، وكانوا تسعةً من أولاده ، فتأملت
 أكله في نفسه فوجدته يأكلُ أكلَ الملوك ووجدتُ ذلك الاضطراب الذي
 كان في داره قد سكن ووجدتهم لا يرفعون شيئاً من بين يديه قد وُضع على
 المائدة إلَّا تهباً غيره حالاً أعظم وأحسن منه . وقد كان غلَّمانه أخذوا لما
 نزلتُ إلى الدار مالي وغلَّماني وعدلوا بهم إلى دار أخرى فما أطاقوا مُمانعتهم ،
 وبقيت وحدي وليس بين يدي إلَّا خمسٌ أو ستُ غلمان وقوفٌ على رأسي
 فقلت في نفسي : هذا جبار عنيد . فإن امتنع من الشخصوص لم أطق
 إشخاصه بنفسي ولا بمن معي ولا حِفظ إلى أن يلحقني أمير البلد ،
 وجزعت جزعاً شديداً ورأيت منه استخفافه وتهاونه بأمرِي ، يدعوني بأسي
 ولا يفكر في امتناعي من الأكل ولا يسأل عما جئت به ويأكل مطمئناً .
 وأنا مفكر في ذلك ، فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا بالبُخور فتبخر وقام
 إلى الصلاة وصلى الظهر ، وأكثر من الدعاء والابتهال ، ورأيت صلاته
 حسنةً ، فلما انتقل من المحراب أقبل عليّ وقال : ما أقدمك يا منارة ؟
 فأخرجتُ كتاب أمير المؤمنين ودفعته إليه ، ففضَّه وقراه ، فلما استتمَّ

قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلقٌ كثير. فلم أشك أنه يريد أن يُوقع بي فلما تكاملوا ابتدأ فحلفَ إيماناً غليظة فيها الطلاقُ والعَناق والحجّ والصدقة والوقف أن لا يجتمع اثنان في موضع واحد . وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ، ولا يَظهروا إلى أن ينكشف لهم أمرٌ يعتمدون عليه . وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين بالمضيّ إليه ، ولست أُقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة ، فاستوصوا بمن ورائي من الحرم خيراً وما لي حاجة أن يصحبني أحد منكم . هاتِ قيودك يا منارة .

فدعوت بها وكانت في سفيطٍ ومدَّ يده فقيّدته وأمرتُ غلامي بحمله حتى صار في الحمل وركبت في الشقّ الآخر ، وسرتُ من وقتي ولم ألاقِ أمير البلد ولا غيره ، وسرت بالرجل وليس معه أحد إلى أن صيرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدّثني بانبساطٍ حتى انتهينا إلى بُستان حسن في الغوطة ، فقال لي : أترى هذا ؟

قلت : نعم .

قال : إنه لي ، وقال : إن فيه من غرائب الأشجار كيّت وكيّت . ثم انتهى إلى آخر ، فقال مثل ذلك . ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى ، فقال مثل ذلك ! هذا لي ، فاشتدَّ غيظي منه ، وقلت : ألسْتَ تعلم أن أمير المؤمنين أهداه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلِكَ ومالك وولّدك وأخرجك فريداً مقيداً مغلولاً ما تدري إلى ما يصير إليه أمرك ولا كيف يكون ، وأنت فارغُ القلب من هذا حتى تصفُ ضياعك وبساتينك بعد أن جئتكَ ، وأنت لا تفكر فيما جئت به ، وأنت ساكن القلب قليل التفكير . لقد كنتَ عندي شيخاً فاضلاً .

فقال لي بحياءٍ : إنا لله وإنا إليه راجعون . أخطأتُ فِرَاسَتي فيك . لقد ظننت أنك رجل كامل العقل وأنت ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا لَمّا

عرفوك ، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام ، والله المستعان . أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه ، فإني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصية أمير المؤمنين ، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه نفعا ولا ضرا إلا بإذن الله عز وجل ، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه ، وبعد فإذا عرف أمير المؤمنين أمري وعرف سلامتي وصلاح ناصيتي سرّحتي مكرما ، فإن الحسدة والأعداء رموني عنده بما ليس فيّ ونقولوا عليّ الأفاويل ، فإما أن يستحلّ دمي أو يخرج من إيدائي وإزعاجي ويردني مكرما ، أو يُقيمني ببلاده معظما مبعلا ؟ وإن كان قد سبق في علم الله عز وجل أنّه يبدو لي منه سوء وقد اقترب أجلي وكان سفك دمي على يده ، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل الأرض والسماء على صرف ذلك عني ما استطاعوا ، فلم أتعجلُ الفكرة فيما فرغ الله منه ، وإني أحسن الظنّ بالله الذي خلق ورزق وأحيا وأمات ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى ، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا فإذا قد عرفت مبلغ فهمك ، فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى يفرّق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى .

ثم أعرض عني ، فما سمعتُ منه لفظة غير القرآن والتسييح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر ، والتجّبُ قد استقبلتني قبل ستة فراسخ من الكوفة يتجسسون خبري ، فحين رأوني رجعوا عني متقدمين بالخبر إلى أمير المؤمنين ، فانتبهت إلى الباب في آخر النهار فحططت رحلي ، ودخلت على الرشيد وقبّلت الأرض بين يديه ووقفت ، فقال : هات ما عندك يا منارة وإياك أن تغفل منه عن لفظة واحدة .

فمسقت الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبحور وما حدثتني به نفسي من امتناعه ، والغضب يظهر

في وجه أمير المؤمنين ويتزايد حتى انتهت إلى فراغ الأمور من الصلاة والتفاته إليّ وسؤاله عن سبب قدومي ودفعي الكتاب إليه ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وأصحابه ، وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد وصرفه إياهم ومدّ رجليه ، فقيدته فما زال وجه الرشيد يُسفر ، فلما انتهت إلى ما خاطبني به عند توبيخي له لمّا ركبنا في المحمل ، فقال : صدق والله ما هذا إلّا رجلٌ محسودٌ على النعمة ، مكذوبٌ عليه ، ولعمري ، لقد أزعجناه وآذينا ورُعنا أهلّه فبادر بترع قيوده واثني به .

قال : فخرجت فترعتُ قيوده وأدخلته إلى الرشيد فما هو إلّا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يحول في وجه الرشيد فدنا الأموي وسلّم بالخلافة ووقف فردّ عليه الرشيد ردّاً جميلاً وأمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه الرشيد فسأله عن حاله ، ثم قال له : بلغنا عنك فضلُ هيئة وأمرٌ أحببنا معها أن نراك ونسمعَ كلامك ونُحسن إليك ، فاذا كنتَ حاجتك ؟

فأجاب الأموي جواباً جميلاً وشكر ودعا ، ثم قال : ليس لي عند أمير المؤمنين إلّا حاجةٌ واحدة .

فقال : مقضية ، فما هي ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، تردّني إلى بلدي وأهلي وولدي .

قال : نفعل ذلك ، ولكن سلّ ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك فإنّ مثلك لا يخرج إلّا ويحتاج إلى شيء من هذا .

فقال : يا أمير المؤمنين ، عمّالك منصفون وقد استغنيتُ بعدلهم عن مسألتي فأموري مستقيمة وكذلك أهلُ بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين .

فقال الرشيد : انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمرٍ إن عرض لك .

فودّعه الأموي ، فلما ولّى خارجاً قال الرشيد : يا منارة ، احمله من وقتك وسرّ به راجعاً كما سيرته حتى إذا وصلت إلى مجلسه الذي أخذته منه فودّعه وانصرف .

قال منارة : فما زلت معه حتى انتهى إلى محله ، ففرح به أهله وأعطاني عطاءً جزيلاً وانصرفت ، والله أعلم ، وهذه الحكاية على سبيل الإختصار .

الرشيد والخليفة الثاني الكاذب

حكى أن الخليفة هارون الرشيد قلق في بعض الليالي قلقاً شديداً فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي وقال له : يا وزيرى إن صدري ضيق ومرادى الليلة التفرّج في شوارع بغداد والنظر في مصالح العباد بشرط أن لا يعرفنا أحد من الناس ونترّياً بزيّ تجار الأكياس . فقال له الوزير : السمع والطاعة .

فقاموا في الوقت والساعة وقلعوا ما عليهم من ثياب الملك والافتخار ولبسوا ثياب التجار : الخليفة والوزير جعفر ومسرور السيّاف الأكبر ، وتمشّوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدجلة فقرأوا بالأمر المقدور شيخاً قاعداً في شختور ، فتقدّموا إليه وسلّموا عليه ، وقالوا : يا شيخ ، نشتهي من فضلك وإحسانك أن تفرّجنا الليلة في مركبك ، وخذ هذين الدينارين أجرتك انتفع بهما .

فقال لهم الشيخ : ومن يقدر على الفرجة ، والخليفة هارون الرشيد ينزل كلّ ليلة في حرّاقة صغيرة إلى الدجلة ومعه منادٍ ينادي : معاشر الناس كافة من جيّد ورديّ شيخ وصبيّ خاصّ وعام عبدٍ و غلام ، كلّ من نزل

في مركب بالليل وشقّ الدجلة ضربت عنقه أو يُشتق على صاري مركبه .
وكأنكم الساعة بالخرقة وهي مقبلة .

فقال له الخليفة هارون الرشيد وجعفر البرمكي : يا شيخ خذ هذين
الدينارين وادخل بنا قبواً من هذه الأقبية إلى أن تروح الخرقاة .

فقال لهم الشيخ : هاتوا الذهب والله المستعان .

.. فأخذ الذهب وعوم بهم قليلاً . وإذا بالخرقة قد أقبلت من كبد الدجلة
وفيها الشموعُ والمشاعل فقال لهم الشيخ : أما قلت لكم ! يا ستار لا
تكشف الأستار ؟

فقال الخليفة هارون الرشيد والوزير جعفر البرمكي . ادخل بنا يا شيخُ
في قبو من الأقبية حتى تمضي هذه الخرقاة .

فدخل إلى قبو ووضع عليهم مئزراً أسوداً . وصاروا يتفرجون من تحت
المئزر ، وإذا بالخرقة قد أقبلت والشمعُ يوقد فيها . وإذا في مُقدّم الخرقاة
مشاعليٌ بيده مشعلٌ من الذهب الأحمر يُوقد فيه بالعود القاقلي وعلى
المشاعلي قباء أطلس أحمر بطراز مزركش أصفر وعلى رأسه شاشٌ مُوصليٌ
وعلى كتفيه مخلاةٌ من الحرير الأخضر ملأى من العود القاقلي . وهو يوقد به
عوض الخطب ؛ ومشاعليٌ آخر في مؤخر الخرقاة مثله ، ومائتا مملوك واقفون
ميمينّة وميسرة ، وكُرسيّ منصوب من الذهب الأحمر ، وعليه شابٌ حسنٌ
جالس كالقمر وعليه خِلعة سوداء بطرازين من الذهب الأصفر ، وبين يديه
انسانٌ كأنه الوزير جعفر . وعلى رأسه خادمٌ واقف كأنه مسرور بسيف
مشهر ، وعشرون نديماً . فقال الخليفة : يا جعفر .

قال : لبيك ، أمير المؤمنين .

قال : لعلّ أن يكون هذا أحد أولادي إما المأمون أو محمد الأمين .
فلما وصلت الخرقاة إليهم وإذا بالمشاعلي ينادي : معاشر الناس كافة

الخاص والعام . الجيد والردىء . والعبد والغلام . جهاوات وغير جهاوات^١
قد رسمَ خليفتنا هذا أن كل من تفرّج في الدجلة أو فتح طاقته حلّ ماله
وضربت رقبتَه ومن لا يصدّق يجرب .

قال : فتأمّل الخليفة هارون الرشيد في الشاب وهو جالس على كرسي
من الذهب قد كمل بالحسن والجمال والبهاء والكمال . فلما تأمّله هارون
الرشيد التفت إلى الوزير وقال : يا وزير .

قال له : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : والله ما أبقي شيئاً من شكل الخلافة . وهذا الذي بين يديه كأنه
أنت يا جعفر لا محالة ، والخدام الذي على رأسه كأنه مسرور ، هذا ،
وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائي ، وقد حار عقلي في هذا الأمر .

فقال له الوزير : وأنا والله يا أمير المؤمنين كذلك .

ثم تقدّمت الحراقة إلى أن غابت عن العين فعند ذلك خرج الشيخ
بالشختور الذي فيه الجماعة من تحت القبوة ، وقال : الحمد لله على
السلامة ، فإنه لم يصادفنا .

فقال له الخليفة : يا شيخ ! وهذا الخليفة ينزل كل ليلة في الدجلة ؟

قال : نعم يا سيدي ، له على هذه الحالة سنة كاملة .

فقال له الخليفة : يا شيخ ! نشتهي من فضلك وإحسانك أن تقف
لنا ليلة غدٍ في هذه المكان ، ونحن نعطيك خمسة دنانير ، فإنّا قوم غرباء
وقصدنا التّزّه ، ونحن نازلون في الفندق .

فقال الشيخ : السمع والطاعة .

١ الجهاوات : لعلها لفظة عامية محرّفة عن وجهاء .

ثم إن الخليفة وجعفرًا ومسورًا توجَّهوا من عند الشيخ المراكبي إلى القصر وقلعوا ما عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك والافتخار ، وجلس كل واحد في مرتبته . ودخلت الأمراء والحجاب والنواب . وانعقد المجلس بالناس . ولما انقضى النهار وتفرقت الأجناد قال الخليفة هارون الرشيد لوزيره : يا جعفر ! انهض بنا للفرجة على الخليفة الثاني .

فضحك جعفر ومسور ، ولبسوا لبس التجار وخرجوا من شرعي الصلور ، وكان خروجهم من باب السرّ ، فلمّا وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الشختور لهم في الانتظار فترلوا عنده في المركب . فلمّا استقروا مع الشيخ المراكبي ، وإذا بالخليفة الثاني في الحراقة ، وقد أقبلت عليهم فتأمّلوها وإذا فيها مائتا مملوك غير المالك الأول والمشاعليّة تنادي على عادتهم ، فقال الخليفة : يا وزير ، هذا شيء لو سمعتُ به ما صدّقت ، ولكن رأيت هذا عياناً .

ثم إن الخليفة قال لصاحب الشختور : يا شيخ ! هذه عشرة دنانير وسرّ بنا في مساواتهم ، فإنهم في النور ونحن في الظلام ننظرهم ونتفرّج عليهم . وهم لا ينظروننا .

فأخذ الشيخ عشرة دنانير وأطلق الشختور في مساواتهم وصار في ظلام الحراقة ، ولم يزلوا سائرين في أثرهم إلى آخر البساتين ، وإذا بزريرة^١ بطول الحراقة التصقت عليها ، وإذا بغلامين واقفين ، ومعهما بغلة مُسرّجة مُلجّمة ، فطلع الخليفة الثاني وركب البغلة وسار بين الندماء ، وزعقت المشاعلية والجاويشيّة ، واشتالت الغاشيّة^٢ ، وطلع هارون الرشيد وجعفر

١ الزرية : ما تزرب فيه المواشي ، ولعلها هنا ضرب من الأطواف حملة عليه البغلة .

٢ اشتالت : ارتفعت ، ولعلها هنا مستعملة بمعناها العالي وهو المضي . الغاشية : الخدم .

مسرور إلى البرّ وشقّوا بين الممالك وساروا قدّامهم ، فلاحت من المشاعليّة التفاتة فرأوا ثلاثة أنفار لبسهم لبسُ التجار ، وهم غرباء ، فأنكروهم فغمزوا عليهم فسكّوهم وأحضروهم بين يدي الخليفة الثاني ، فلما نظرهم قال : كيف وصلتكم إلى هذا المكان وما الذي جاء بكم في مثل هذا الوقت ؟

قالوا : يا مولانا ! اليوم كان قدومنا ، ونحن قومٌ غرباء تجارٌ ، وخرجنا نتمشّي الليلة . وإذا بكم قد أقبلتم وجاء هؤلاء وقبضوا علينا وأوقفونا بين أيديكم . وهذا خبرنا .

فقال لهم الخليفة الثاني : طيّبوا قلوبكم ، فلا بأس عليكم لأنكم قومٌ غرباء . ولو كنتم من بغداد لضربتُ أعناقكم للمُخالفة . ثم التفت إلى وزيره وقال : خذ هؤلاء صحبتي ليكونوا ضيوفنا الليلة .

فقال : سماعاً وطاعة ..

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى قصر عظيم الشأن محكم البنيان ما حواه سلطان ، قصر قام من التراب وتعلّق بأكتاف السحاب ، بأية من خشب الساج ، مرصّع بالذهب الوهاج ، يُدخل منه إلى إيوان فبِسْقِيّة شاذروان ، وحُصر عبدانية وميخداث اسكدرانية ، وسِتْرٌ مَسْبُول وفُرش ذهل العقول ، وعلى عتبة الباب مكتوبٌ هذان البيتان :

قصرٌ عليه تحيةٌ وسلامٌ نشرت عليه جلالها الأيامُ
فيه العجائب والغرائبُ نُوِّعت فتحيّرت في نعتها الأقلامُ

قال : فدخل الخليفة الثاني إلى القصر ، والجماعةُ في خدمته ، إلى أن

الفِسْقِيّة : الخوض . الشاذروان : نوع من القناطر أو خزانات الماء ، أو السقايف .

جلس على كرسي من الذهب مرصع بالدرّ والجوهر ، وعلى الكرسيّ
 بشخانة^١ من الحرير الأخضر لا يُرى مثلها إلّا عند كسرى وقيصر ، مزركشة
 بالذهب الأحمر ، معلّقة في بكرة من الصنّدل ، رباطاتها من الحرير
 الأصفر ، هذا وقد جلس الندماء في مراتبهم ، وصاحبُ سيف النقمة
 واقف بين يديه ، فمدّوا السّمّاط وأكلوا ورفعوا الخوان ، ولأيديهم غسلوا ،
 وأحضرت آلة المدام ، ووُضعت الطاسات والأواني وصُفّفت الأباريقُ
 والكاسات والقناني ، ودار الدّورُ إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد ،
 فامتنع من الشراب فقال الخليفة الثاني لجعفر : ما بالُ صاحبك لا يشرب .
 فقال : يا مولاي له مدّة ما شرب .

فقال الشاب : عندي مشروبٌ غير هذا يصلح لصاحبك . عليّ
 بشراب التفّاح ! ففي الحال أحضر فقدم بين يدي هارون الرشيد وقال : كلّما
 وصل إليك الدور فاشرب من هذا ، ولا يزالون يشربون في انشراح
 وتعاطي أقداح إلى أن تمكّن الشراب من رؤوسهم واستولى على عقولهم
 ونفوسهم فقال الرشيد لوزيره : والله يا وزيرُ ما عندنا آنيةٌ مثل هذه
 الآنية ، فيا ليت شعري من يكون هذا الشاب .

فبينما هما يتحدثان بلطافة إذ لاحت من الشاب التفّاحة فوجد الوزيرُ
 يسائرُ الخليفة ، فقال : المسائرُ عريضةٌ .

فقال الوزير : ما ثمّ عريضة ، إلّا أن رفيقي هذا يقول : سافرتُ
 غالبَ البلاد ، ونادمتُ الملوكَ وعاشتُ الأجنادُ ما رأيت أحسن من هذا
 النظام ولا مثل آنية هذا المدام ، إلّا أن أهل بغداد يقولون الشراب بلا
 سماع من جملة الجحون .

١ بشخانة : لفظة فارسية ، يستدل من الكلام عليها أنها ضرب من الستور يعلّق فوق
 الكرسي ويسدل عند الاقتضاء فيستر الكرسي ومن يكون قاعداً عليها .

فلما سمع الخليفة الثاني هذا الكلام تجسّم وانشرح ، وكان بيده قضيب ، فضرب به على مُدَوَّرَةٍ ، وإذا بباب قد فُتِحَ وخرج منه خادم يحمل كرسياً من العاج مصفّحاً بالذهب الوهاج ، وخلفه جارية قد كملت بالحسن والجمال والبهاء والكمال ، فنصبَ الخادم الكرسيَّ وجلست عليه الجارية وهي كالشمس الضاحية ، ويدها عود من صنعة الهنود ، وشدّته وحتّت إليه بعد أن ضربت أربعة وعشرين طريقة عليه ، فأذهلت العقول وعادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول :

لسانُ الهوى من مُقلتي لك ناطقٌ يُخبرُ عني أنني لك عاشقٌ
ولي شاهدٌ من طرف قلبي معذبٌ وقلبي جريح من فراقك خافقٌ
وكم أكنتم الحبّ الذي قد أذابني وقلبي جريحٌ والدموع سوابقٌ
وما كنت أدري قبل حبّك ما الهوى ولكن قضا الرحمن في الخلق سابقٌ

قال : فلما سمع الخليفة الثاني هذا الشعر من الجارية صرخ صرخة عظيمة ، وشقّ البذلة التي كانت عليه إلى الذيل ، فأسبلت عليه البشخانة . وأُتي ببذلة غيرها أحسن منها ، فلبسها وجلس على عادته . فلما وصل القدحُ إليه ضربَ القضيب على المدوّرة وإذا بباب قد فُتِحَ وخرج منه خادم حاملٌ كرسياً من الذهب ، وخلفه جاريةٌ أحسن من الأولى . وجلست على الكرسيَّ ويدها عود يكمد الحسود . وأنشدت تقول :

كيف اصطباري ! ونارُ العشق في كبدي والدمعُ من مقلتي صوفاه مددٌ
والله ما طاب لي عيش أُسرُّ به وكيف يفرحُ قلبٌ حشوّه كمدٌ

قال : فصرخ الشاب صرخة عظيمة ، وشقّ ما عليه إلى الذيل وأسبلت عليه البشخانة على العادة وأُتي ببذلة غيرها أحسن منها فلبسها ، واستوى جالساً . ودار المدام وانبسط الكلام ، فلما وصل القدحُ إليه

ضرب القضيبة على المدورة ففتح الباب وخرج منه خادم على العادة ومعه كرسي وخلفه جارية . فجلست على الكرسي . ومعها عود يُذهل الأسود فغنت . وأنشدت تقول :

أَقْصِرُوا هَجْرَكُمْ وَقُلُّوا جَفَاكُمْ ففؤادي وحقكم ما سلاكُم^١
وارحموا مدنفاً كثيراً حزيناً ذا غرام متبماً في هواكم
قد براه السقام من عظم وجد يتمنى من الإله رضاكم
يا بدوراً محلُكم في فؤادي كيف أختار في الأنام سواكم

قال : فصرخ الشاب . وشق ما عليه من الثياب فأرخوا عليه البشخانة وأتوا ببذلة غيرها . وعاد إلى حالته مع ندمائه ودارت الأقداح وطاب الانسراح . فلما وصل القدح إليه ضرب القضيبة على المدورة . ففتح باب وخرج منه خادم حامل كرسي وخلفه جارية . فجلست على الكرسي . وأخذت العود وغنت تقول :

هل ينقضي حال التهاجر والقلبي ويعود لي ما قد تَقَضَى أُولَا
أيام كنا . والديار تلمنا في طيب عيش . والحواسد غفلاً^٢
غدر الزمان بنا وفرق شملنا من بعد هاتيك المنازل والحلا^٣
أترؤم مني يا عدولي سلوة وأرى فؤادي لا يُطيع العذلا
فدع الملام وخلني بصبايتي فالقلب من أنس المحبة ما خلا
يا سادة نقضوا العهود وبدلوا لا تحسبوا قلبي لبعدكمو سلا

١ قوله : وقُلُّوا جفاكم : هكذا في الأصل والصواب أقَلُّوا . أي اجعلوه قليلاً .

٢ قوله : والحواسد غفلاً : هكذا في الأصل والصواب غفل . فيكون في البيت إقواء .

٣ الحلا : لعلها حلال جمع حلة أي محلة القوم . حُذفت اللام الأخيرة مراعاة للقافية والوزن . ومثل هذا وارد في الشعر القديم .

قال : فلما فرغت الجارية صرخ الشاب صرخةً عظيمةً ، وشقّ ما عليه .
من الثياب ، ووقع إلى الأرض مغشياً عليه ، وسقط منه القُوى والحيل ،
فأرادوا أن يُرخوا عليه البشخانة على العادة ، فتعوّقت حبالُها بالإرادة ،
فلاحت من هارون الرشيد التفاتةً فنظر على أجناب الشاب أثرَ مقارع ،
فقال الرشيد بعد النظر والتأكّد لجعفر : إنه شاب مليح . إلا أنه لصّ قبيح ،
وما عند أحد منه خبر . هل رأيت ما على جنبه من الأثر .

وقد أسبلت البشخانة عليه على العادة وأُتي ببذلة غيرها فلبسها وقد
أفاق من غشيته فاستوى جالساً على العادة مع الندماء ، فحانت منه التفاتةٌ
فوجد جعفرًا والخليفة يتحدثان ، فقال لهما : ما الخبرُ يا فتیان ؟

فقال جعفر : يا مولاي خيرٌ ، لا شك ولا خفاء ، إن رفيقي هذا من
لتجّار الكبار . وسافر إلى جميع الأمصار ، وصحب الملوك والأخيار ،
يقال : إن الذي حصل من مولانا الخليفة في هذه الليلة إسرافٌ عظيم لم أر
حداً فعل هذا الفعل في هذه الأقاليم لأنه شقّ كل بذلة بخمسمائة دينار ،
وهذا شيء زائد في العيار .

فقال الشاب : يا هذا ! المال مالي والقماشُ قماشي ، وهذا من بعض
إنعامي على الخدم والحواشي ، فإن كلّ بذلة شقّقتها هي لواحد من الندماء
الحضّار . وقد رسمتُ لهم أن العوّض على كل بذلة خمسمائة دينار .

فأنشد عند ذلك الوزير جعفر وقال :

بَنَتِ المَكَارِمُ وَسَطَ كَفْكَ مَنْزَلاً فَجَمِيعُ مَالِكَ لِلْأَنْزَامِ مَبَاحُ
وَإِذَا المَكَارِمُ أَغْلَقَتْ أَبْوَابَهَا يَوْمًا . فَأَنْتَ لِقُفْلِهَا مِفْتَاحُ

قال : فلما سمع الشاب من الوزير جعفر ذلك ، رسم له بألف دينار
ببذلة . ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم شراب الراح . فقال الرشيد :

يا جعفر ، أسأله عن الضرب الذي رأيته على جنبيه حتى ننظر ما يقول في جوابه .

فقال الوزير : يا مولاي لا تعجل وترفق بنفسك فالصبر أجمل .
فقال : وحياة رأسي وتربة العباس إن لم تسأله أخدمت منك الأنفاس .

فعند ذلك التفت الشاب إلى الوزير وقال : ما لك مع رفيقك وما الخبر ؟

فقال : خير يا مولانا .
فقال : سألتك بالله إلا ما أخبرني بخبره ، ولا تكتم عني شيئاً من أمره .

فقال : يا مولاي ! إنه أبصر على جنبيك أثر سياط ، فتعجب من ذلك غاية العجب وقال : يا لله العجب ! الخليفة يضرب ؟ وقصده يعلم ما السبب ؟

فلما سمع الشاب هذا الكلام تبسم وقال : اللهم فنعم ، اعلموا أن حديثي عجيبٌ وأمرني غريبٌ لو كتب بالابر على آفاق البصر لكان عبرة لمن اعتبر . ثم تأوه وأن واشتكى وبكى وأنشد :

حديثي عجيب فاق كلّ العجائب	وحقّ إله غامر بالمواهب
فإن شئتمو أن تسمعوا إليّ فأنصتوا	فيطرب هذا الجمع من كلّ جانب
وأصغوا إلى قولي ، ففيه إشارة	وإن كلامي صادق غير كاذب
لأنني قتيلٌ من غرام ولوعة	وقاتلتي فاقت جميع الكواعب
لها مقلةٌ كحلا وخدٌ مورّد	ويقتلني منها قسيّ الحواجب
وقد حسّ قلبي أن فيكم إمامنا	خليفة هذا الوقت ابن الأطايب
وثانيكمو يدعي الوزير بجعفر	وفي الحق يدعي صاحباً وابن صاحب

وثالثكم مسرورٌ سيفٌ نعمةٍ فإن كان هذا القول حقاً بصائبٍ
فقد نلتُ ما أرجو على كلِّ حالةٍ وجاء سرورُ القلبِ من كلِّ جانبٍ

قال : فعند ذلك حلف له جعفرُ أنهم لم يكونوا المذكورين ، فضحك الشاب وقال : الذي أعرفكم به أني ما أنا أمير المؤمنين ، وإنما سميتُ نفسي بهذا الاسم لأبلغَ ما أريد من أبناء المدينة ، واسمي علي بن محمد الجوهري ، وإن أبي كان من الأعيان ، ومات وخلف لي أموالاً لا تأكلها النيران من ذهب وفضة ولؤلؤ ومرجان وياقوت وجوهر وزمرد وبهرمان وحمّامات وغيطان وبساتين وفنادق وطواحين وعبيد وجوارٍ وغلّمان ، فلما كان في بعض الأيام وأنا جالس في حانوتي وحوالي الحشم والخدم ، وإذا أنا بجاريةٍ قد أقبلت على بغلةٍ وفي خدمتها ثلاثُ جوارٍ كأنهن الأقمار . ونزلت على دكاني وجلست وقالت : أنت عليّ بن محمد الجوهري ؟ فقلتُ لها : مملوكك وعبدُ رَقِّك .

ف قالت : هل عندك عقدُ جوهر يصلح لثلي ؟

فقلتُ لها : يا سَيِّ الذي عندي يحضُر بين يديك ، فإن أعجبك شيء كان بسعد المملوك ، وإن لم يعجبك شيء منه فبسوء حظي . وكان عندي مائةُ عقد جوهر فعرضتُ عليها الجميع فلم يُعجبها شيء منها ، وقالت : أريد أحسنَ مما رأيت ، وكان عندي عقد صغيرٌ شراؤه على والذي بمائة ألف دينار لم يوجد مثله عند أحد السلاطين الكبار ، فقلت : يا سيِّدتي بقي عندي عقدُ الفُصوص^١ والجواهر الذي لم يملكه أحد من الأصاغر والأكابر .

١ الفصوص ، الواحد فص : ما يركَّب في الخاتم من الحجارة الكريمة ويراد به هنا ما يوجد في العقد المذكور من هذه الحجارة .

فقلت : أرني إياه .

فلما رآته قالت : هذا الذي طولَ عمري أتمنّاه . ثم قالت : بكم ثمنه في الأسواق ؟

فقلت : شراؤه على والذي بمائة ألف دينار .

فقلت : ولك خمسة آلاف زائدة .

فقلت لها : يا سيديّ العقد وصاحبه في الرق بين يديك ، ولا خلاف .

فقلت : لا بدّ من الفائدة ولك الجميلة الزائدة .

وقامت من وقتها عجلة وركبت البغلة بسرعة ، وقالت : يا سيدي نور الدين ، باسم الله فلتكن في صحبتنا لتأخذ الثمن ، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن .

فقمْتُ وأقلت الدكان وسرت معهنّ في أمان إلى أن وصلنا إلى الدار ، فوجدتها داراً عليها السعادة لائحة والافتخار وعلى بابها مكتوب بالذهب واللازورد^١ العجيب هذه الأبيات :

ألا يا داراً لا يدخلك حزنٌ ولا يغدرُ بصاحبك الزمانُ
فنعم الدارُ أنت لكل ضيفٍ إذا ما ضاق بالضيف المكانُ

فنزلت الجارية ، ودخلت الدار وأمرت بجلوسي إلى أن يأتي الصيرفيّ ، فجلست على باب الدار ساعة لطيفة ، وإذا بجارية خرجت إليّ وقالت : يا سيدي ادخل إلى الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح .

١ اللازورد : معدن مشهور يتولد بجمال أرمينية وقارس وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة يتخذ للحل .

فقمّت إلى الدهليز وجلست على الدكة^١ ساعة ، وإذا بجارية خرجت إليّ . وقالت : يا سيدي ! تقول لك سيديّ ادخل واجلس على جانب لايوان حتى تقبضَ مالك .

فقمّت فدخلت وجلست حيث أمرتني ، وإذا بكرسي من الذهب وعليه ستارة من الحرير الأحمر ، وإذا بتلك الستارة قد رُفعت فبان من تحتها تلك الجارية التي اشتريت منّي العقد ، وقد أسفرت عن وجه كأنه دائرة القمر ، والعقد في عنقها فدهّش عقلي وحارّ ذهني ولبّي من رؤية تلك الجارية وحسنها ، فلما رأيتني قامت من على الكرسي ، وسعت نحوي . وقالت : يا نور الدين ! هل رأيت جميلةً مثلي ؟

فقلت : يا سيديّ الحسنُ كلّه فيك ، وهو من بعض معانيك .
فقال : يا عليّ ، اعلم أنّي أحبّك وما صدّقتُ أنّك صرتَ عندي .
ثمّ إنها طوّقتني وعانقتني ، فقبّلتها وقبّلتني ثمّ جذبتني وعلى صدرها رمتني . فلما علمت مني أنّي أريد أن أهمّ بها قالت : يا عليّ ، أتريد أن تجتمع بي في الحرام ، والله لا كان من يفعل الآثام ويرضى بقبيح الكلام ، فإني بكر عذراء ما دنا منّي أحد ، ولست بمجهولة في البلد . أتعلم من أنا ؟
فقلت : لا والله ، وحلفت لها يميناً .

فقال : أنا الستُ دنيا بنتُ يحيى بن خالد البرمكي ، وأخي جعفر .

فلما سمعت منها ذلك جمعت خاطري عنها . وقلت : يا سيديّ ما لي ذنب في التهجم عليك ، أنت التي أطمعتني في إحسانك والوصول إلى جنابك .

^١ الدكة : بناء يسطح أعلاه للجلوس ، أو يوضع كرسي عليه .

فقلت : لا بأسَ عليك ولا بدَّ من الإحسان إليك فإن أمري بيدي ،
والقاضي وليّ عقدي ، والقصد أن أكون لك ونكون لي .

ثم إنها دعت بالقاضي والشهود وبذلت المجهود . فلما حضروا قالت
لهم : هذا نور الدين علي بن الجوهري قد طلب زواجي ودفع لي هذا
العقد مهري ، وأنا قد قبلت ورضيت .

ثم إن القاضي حمد الله تعالى وأثنى عليه وكتب الكتاب فدخلتُ عليها
بعد أن أعطت للقاضي شيئاً ما . له حساب ، وأحضرت المدام وأحضرت
الأفداح بأحسن نظام ، فلما لعبت الخمرة في رؤوسنا أمرت جاريةً عوديّةً
أن تغني فأنشأت تقول :

قلبي وآمالي بباب رجاكمو	لا أبتغي في الكون غير رضاكمو
يا جيرةً جاروا عليّ ببعدهم	حتّوا علينا وارحموا مضناكمو
حاشاكمو ، ياسادتي ، أن تهجروا	صبيّاً معنيّ مغرماً بهواكمو
بالله جودوا وارحموا ملتئم	لم يستمع فيكم حديث سواكمو
مرسبي فؤادي فوق بحر رضاكمو	فإذا شجاه حسنكم ناجاكمو

قال : فأطربتنا الجارية بحسن غنائها ولم تزل الجوازي يغنين جارية بعد
جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنت عشر جوارٍ ، فعند ذلك أخذت العود
الست . دنيا وأنشدت تقول :

قسماً بلين قوامك الميَّاس	إني لنار الهجر منك أقاسي
فارجم لصب في هواك متيم	يا بدر تم أنت سيد الناس
أنعم بوصلك كي أبيت بليلة	أجلو جمالك في ضياء الكاس
ما بين ورد جمعت ألوانه	مع نرجس أيضاً وحسن الآس

قال الشاب : ثم إني أخذت منها العود وضربت عليه وغنيت هذه
الآيات :

سبحانَ ربي جميعَ الحسن أعطاكِ حتى بقيتُ أنا من بعضِ أسراكِ
يا من لها ناظرٌ تسبي الأنامَ به خذي الأمان لنا من سحرِ عيناكِ^١
فالماء والنارُ في خديكِ قد جمعا والوردُ جوهرٌ نبت وسطَ خدّاكِ^٢
أنتِ الغرامُ لقلبي والنعيمُ له فإِمرْكِ في قلبي وأحلاكِ

قال : فلما سمعت مَنّي ما قلتُ فرحتُ فرحاً شديداً ، ثم إنها صرفت
الجواري وقفنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه من سائر الألوان . ونزعت
ما عليها من الثياب وخلوتُ بها خلوةَ الأحباب ، فوجدتها بتتاً بكرّاً بختم
ربّها ، ففرحت بي وفرحتُ بها فرحاً لم أجِد في عمري ليلةً أطيب منها ،
وفيها أنشدت أقول :

يا ليلُ ! دم لي لا أريدُ صباحاً يكني بوجه معانتي مصباحاً
طوّقته طوقَ الحمامِ بساعدي وجعلت كفيّ للمنام مُباحاً
هذا هو الفوز العظيم فخلّنا متعانقين ، فلا نريدُ براحاً

فأقمتُ عندها شهراً كاملاً ، وقد نسيتُ الدكان والأهل والأوطان إلى
ذات يوم من الأيام قالت : يا نورَ الدين قد عزمْتُ اليوم على المسير إلى
الحمام ، وأنت اقم على هذا السرير إلى أن أرجعَ إليك .
فقلت : سمعاً وطاعة .

وحلفنني أن لا أنتقل من موضعي ، فأخذتُ جوارِيها وذهبت إلى

١ قوله سحر عينك ، ووسط خدّاك : هو على لغة من يعرب المثني بالحركات
المقدرة على الألف لا بالحروف .

الحمام ، فوالله يا إخواني ما لَحِقَتْ أن تخرج من رأس الرُقاقِ ، إلَّا والبابُ قد فُتِحَ ودخِلَتْ منه عجوزٌ وأَيُّ عجوز ، وقالت : يا نور الدين الستُ زُبيدة تدعوك ، فقد سمعت بشبابك وطيب غنائك .

فقلت : والله عليّ يمين أنني ما أقوم من مقامي حتى تأتي الستُ دنيا .

فقال العجوز : يا نور الدين لا تخلُ الست زُبيدة نصير عدوتك ، فقم كلمها وارجع .

فقممت من وقفي إليها ، والعجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى الست زُبيدة ، فلما وصلت إليها ، قالت : يا نور الدين أنت معشوقُ الست دنيا ؟

فقلت : مملوكك وعبدُ رَقِّك .

ف قالت : صدق الذي وصفك بالحُسن والجمال ، فإنك فوق الوصف والمقال ، ولكن غنّ لي شيئاً حتى أسمعك ؟

فقلت : السمع والطاعة ، فأتتني بعود فغنّيت عليه وأنشدت أقول :

قلبُ المحبِّ مع الأحباب متعوب	وجسمُه بيدِ الأسقامِ منهوبٌ
ما في الركائبِ من زُمتِ حُمولهم	إلَّا وكان له في الظعنِ محبوبٌ
أستودعُ الله لي في حبكم قرأ	يهواه قلبي وعن عينيَّ محبوبٌ
يرضى ويغضب ، ما أحلى تدلله	وكلُّ ما يفعلُ المحبوبُ محبوبٌ

ف قالت لي : حفظ الله بدنك وطيبَ أنفاسك ، فلقد كملت في الحسن والطرف والمعنى ، فقم إلى مكانك قبل أن تجيء إليه الست دنيا فلا تجهدك فتغضب عليك .

١ قوله : متعوب هكذا في الأصل وهي لفظة عامية ، والصواب تعب ومُتعب .

فَقَبِلَتِ الْأَرْضُ وَخَرَجَتِ الْعَجُوزُ أَمَامِي إِلَى أَنْ أَوْصَلْتَنِي إِلَى الْبَابِ
الَّذِي خَرَجْتَ مِنْهُ ، فَدَخَلْتُ وَجِئْتُ إِلَى السَّرِيرِ لِأَجْلَسَ فَوَجَدْتُهَا جَاءَتْ مِنْ
الْحَمَامِ وَنَامَتْ عَلَى السَّرِيرِ ، فَقَعَدْتُ عِنْدَ رِجْلِهَا وَصَرْتُ أَكْبِسُهَا ، فَفَتَحَتْ
عَيْنَيْهَا فَرَأَتْنِي فَجَمَعَتْ رِجْلَيْهَا وَرَفَسْتَنِي فَرَمْتَنِي مِنْ عَلَى السَّرِيرِ وَقَالَتْ : يَا
نُورَ الْبَدِينِ ! خُنْتَ الْيَمِينَ وَكَذَبْتَ . وَذَهَبْتَ إِلَى السَّتِ زَبِيدَةً ؟ وَوَاللَّهِ لَوْلَا
خَوْفِي مِنَ الْهَيْكَةِ وَالْفَضِيحَةِ لَخَرْتُ قَصْرَهَا عَلَى رَأْسِهَا . ثُمَّ قَالَتْ لِعَبْدِهَا :
يَا صَوَابُ ، قُمْ اضْرِبْ رَقَبَةَ هَذَا النَّذْلِ الْكَذَّابِ ، فَلَا حَاجَةَ لَنَا بِهِ .

فَتَقَدَّمَ ذَلِكَ الْخَادِمُ إِلَيَّ وَشَرَطَ ذَيْلِي وَعَصَبَ عَيْنِي ، وَأَرَادَ أَنْ يَضْرِبَ
رَقَبَتِي . فَقَامَتْ إِلَيْهَا الْجَوَارِي الْكِبَارُ وَالصَّغَارُ ، وَقُلْنَ لَهَا : يَا سَيِّدَاهُ ، مَا هُوَ
بِأَوَّلِ مَنْ أَخْطَأَ وَمَا عَرَفَ خُلُقَكَ ، وَأَنْتِ مَا تَبْغِضِيهِ ، وَمَا فَعَلَ ذَنْبًا
يُوجِبُ أَنْ تُقَتِّلِيهِ .

فَقَالَتْ : وَاللَّهِ لَا بَدَّ أَنْ أُؤْثِرَ فِيهِ أَثَرًا . ثُمَّ أَمَرْتُ بِضَرْبِي فَضُرِبْتُ عَلَى
أَصْلَاعِي الضَّرْبِ الَّذِي رَأَيْتُمُوهُ ، وَأَمَرْتُ بِإِخْرَاجِي . فَأَخْرَجُونِي وَأَبْعَدُونِي
عَنِ الْقَصْرِ ، وَرَمُونِي وَرَجِعُوا وَتَرَكَونِي ، فَلَمْتُ نَفْسِي : فَهَشِيتُ قَلِيلًا قَلِيلًا
إِلَى أَنْ وَصَلْتُ إِلَى مَنْزِلِي ، وَأَحْضَرْتُ جَرَّاحًا وَأَرَيْتُهُ الضَّرْبَ فَلَا طَفَنِي وَبَسَعِي
فِي مَصَالِحِي . فَلَمَّا صَحَّ جِسْمِي دَخَلْتُ الْحَمَامَ وَزَالَتْ عَنِّي الْأَوْجَاعُ
وَالْأَسْقَامُ . وَجِئْتُ إِلَى الدَّكَانِ وَأَخَذْتُ جَمِيعَ مَا فِيهِ وَبَعْتُهُ وَجَمَعْتُ ثَمَنَهُ
وَاشْتَرَيْتُ أَرْبَعَمِائَةَ مَمْلُوكٍ مَا جَمَعْتُهُمْ أَحَدٌ مِنَ الْمَمْلُوكِ يَرْكَبُ مَعِيَ فِي كُلِّ يَوْمٍ
مَائَتَانِ ، وَعَمِلْتُ هَذَا الْمَرْكَبَ الْحَرَّاقَةَ بِالْفِ وَمَائَتَيْنِ مِنَ الذَّهَبِ الْعَيْنِ ،
وَسَمَّيْتُ نَفْسِي بِالْخَلِيفَةِ ، وَرَبَّيْتُ مِنْ مَعِيَ مِنَ الْخَدَّامِ كُلِّ وَاحِدٍ فِي وَظِيفَتِهِ
وَنَادَيْتُ : كُلُّ مَنْ تَفَرَّجَ فِي الدَّجَلَةِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ بِلَا مَهْلَةٍ . وَلِي عَلَى هَذِهِ
الْحَالَةِ سَنَةٌ كَامِلَةٌ وَلَمْ أَسْمَعْ لَهَا بِخَبَرٍ وَلَا وَقَفْتُ لَهَا عَلَى أَثَرٍ ، ثُمَّ إِنَّهُ بَكَى وَأَنَّ
وَاشْتَكَى وَأَنْشَدَ يَقُولُ :

والله ما كنتُ طولَ الدهر ناسيها ولا دنوتُ إلى من ليس يُدنيها
كأنها البدرُ في تكوين خُلقتها سبحانَ خالقها سبحانَ باريها
صدتُ ولا ذنبَ لي إلّا محبّتها فكيف حال الذي قد بات نايها^١
وصيرتني حزيناً ساهياً دنفاً والقلب قد حار مني في معانيها

قال : فلما سمع هارون الرشيد كلام الشاب وما أبداه من الخطاب
تعجّب غاية العجب . وقال : سبحانَ من جعل لكلّ شيء سبباً .

ثمّ إنهم طلبوا من الشاب الانصراف وأضمر الرشيد للشاب الإنصافَ
وأن يُتحفه غايةً الإتحاف ، فانصرفوا من عنده سائرين وإلى قصر الخلافة
طالبين ، ولما استقرّ بهم في منزلهم الجلوسُ غيّرُوا ما كان عليهم من الملبوس
ولبسوا أثوابَ الموكب والمُلك والزينة ، وكذلك مسرورُ نسيافُ النعمة
والعطب ، فقال الخليفة لجعفر المهيّب : يا وزير ! عليّ بالشاب .

فخرج إليه في الحشم والخدم وسار إلى منزل الشاب فخرج إليه وسلمَ
عليه فقال له الوزير جعفر : أجب أمير المؤمنين .

فقال : سمعاً وطاعةً لأمر المؤمنين وحامي حوزة الدين .

فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم عليه في حصر ، فلما دخل إلى
الخليفة ورفع الوزير الستَر عن السُدة الشريفة ورأى الشاب الخليفةَ عرفه ،
فقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العزِّ وأثنى عليه وقال : السلامُ
عليك يا أمير المؤمنين وحامي حوزة الدين وقامع المُفسدين وإمام المُتقين
هناك الله بما أعطاك وجعل الجَنّة مأواك والنارُ مثوى لأعداك وأنشد
يقول :

١ نايها : أي بات نايها أي مجافياً لها .

لا زال بأك كعبة مقصودةً وُثَّابها فوق الجباه رسوم
حتى يُنادي في البلاد بأسرها هذا المقام وأنت إبراهيم

فعند ذلك تبسم الخليفة في وجهه ، وردّ عليه السلام وأظهر له
الإحسان والإكرام وقربه إليه ، وأجلسه بين يديه وقال له : يا نور الدين
أريد أن تحدّثني بحديثك الليلة يا مسكين ، فإنه من أعجب الأمور .
فقال الشاب : العفو يا أمير المؤمنين ، أعطني منديل الأمان ليهدأ
روعي وبطمئن قلبي .

فقال الخليفة : لك الأمان .

فشرع الشاب يتحدّث بالذي جرى له من أوّله إلى آخره ، فعلم
الخليفة من غير إطالة أن الصبي عاشق لا محالة ، فقال الخليفة : أتحبُّ أن
أردّها إليك يا مسكين ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين ثم أنشد يقول :

إن رُمتَ إحساناً فهذا وقته أو رُمتَ معروفاً فهذا حينه

فعند ذلك التفت الرشيد إلى الوزير وقال له : أحضر أختك الست
دُنيا بنت الوزير يحيى .

فقال له : السمع والطاعة .

فأحضرها في الوقت فلمّا مثلت بين يديه قال لها : أتعرفين هذا من ؟
فقالت : أين للنساء معرفة بالرجال ؟

فتبسم وقال : يا دنيا قد عرفنا الحالَ وسمعنا الحكاية من أوّلها إلى
آخرها وفهمنا باطنها وظاهرها ، والأمر لا يخفى وإن كان مستوراً .

فقالت : كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وأنا أستغفر الله ممّا جرى

مني ، وأسأل من فيض الفضل العفو عني .
فضحك الخليفة وأحضر القاضي والشهود وعقد له ثانياً عليها .
وحصل له سعدُ السعد ، وأكمد العدو والحسود وجعله نديمه وزاد
تكريمه ، وعاش بقيّة عمره في أهنا عيشٍ ونعمة ، يجالس الخليفة في الليل
والنهار ، تؤانسه الست دنيا ذاتُ الفخار .

الرشيد وجارية جعفر

ويحكى أن جعفرًا البرمكي نادم الرشيد ليلة . فقال : يا جعفر بلغني
أنك اشتريت الجارية الفلانية ، ولي مدة أطلبها ، فإنها بديعة الجمال ، ولي
شوق زائد إليها فبعنيها .

قال : ليس عليّ فيها بيع .

قال : هبنيها .

قال : ولا أهبها .

فقال الرشيد : زبيدة طالق مني ثلاثاً إن لم تبعنيها أو تهنيها .

وقال جعفر : زوجتي طالق مني ثلاثاً إن بعته أو وهبتها .

ثم أفاقا من نشوتهما وعلما أنها وقعا في أمر عظيم وعجزا عن تدبير
الحيلة فقال الرشيد : هذه واقعة ليس لها غير أبي يوسف ، فاطلبوه ،
فكان قد انتصف الليل . فلما طُلب قام فرعاً وقال : ما طُلبت في هذا
الوقت إلا لأمر حدث في الإسلام .

ثم خرج مسرعاً وركب بغلته وقال لغلامه : اصحب معك
المِخلّة ، واجعل فيها بعضَ شعير ، فإذا دخلنا دارَ الخلافة ودخلتُ فضع
بين يدي الدابة شيئاً منه تشتغل به إلى حين خروجي ، فإنها لم تستوفِ

علفها في هذه الليلة .

فقال : سمعاً وطاعة .

فلما دخل على الرشيد قام له وأجلسه على سريريه بجانبه وكان لا يجلس معه غيره ، وقال له : ما طلبناك إلا لأمر مهم ، وهو كذا وكذا ، وقد عجزنا عن تدبير الحيلة .

فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا من أسهل ما يكون . يا جعفر ! بع أمير المؤمنين نصفها وهبه نصفها تبرأ من يمينكما .

فسر بذلك أمير المؤمنين وفعلاً ، فقال الرشيد : أحضر الجارية في هذا الوقت فلني شديد الشوق إليها .

فأحضرت ، فقال للقاضي أبي يوسف : أريد وطأها في هذا الوقت ، ولا أطيع الصبر إلى مضي مدة الاستبراء ، انظر لي الحيلة في ذلك ؟

فقال أبو يوسف : ائتوني بمملوك من ممالك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم العتق .

فأحضّر مملوك ، فقال أبو يوسف : يا أمير المؤمنين ، إئذن لي أن أزوجه منه ، ثم يطلقها قبل الدخول فيحلّ وطؤها في الحال من غير استبراء .

فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول ، فقال : أذنت لك .

فأوجب القاضي النكاح ، ثم قبله المملوك ، فقال له القاضي : أطلقها .

فقال له : هذه صارت لي زوجة وأنا لا أطلقها .

فردّد عليه القول فأبى وضاق صدر الخليفة لذلك ، وقال : قد اشتدّ

الأمر أعظم مما كان .

فقال القاضي أبو يوسف : يا أمير المؤمنين رغبه بالمال .

فقال : طَلَّقْهَا وَلَكَ مِائَةُ دِينَارٍ .

قال : لَا أَفْعَلُ .

قال : مِائَتَا دِينَارٍ .

قال : لَا أَفْعَلُ .

إِلَى أَنْ عَرَضُوا عَلَيْهِ أَلْفَ دِينَارٍ وَهُوَ يَمْتَنِعُ ، وَقَالَ لِلْقَاضِي : الطَّلَاقُ

بِيَدِي أَمْ بِيَدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَمْ بِيَدِكَ ؟

قال : بَلْ بِيَدِكَ أَنْتَ .

قال : وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ أَبَدًا .

فَاشْتَدَّ غَضَبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ الْقَاضِي : يَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَا تُجْزِعْ

فَإِنَّ الْأَمْرَ هَيِّنٌ أَعْتَقَ الْجَارِيَةَ ، ثُمَّ مَلَكَ هَذَا الْعَبْدَ لِلْجَارِيَةِ ؟

قال : أَعْتَقْتُهَا وَمَلَكَتْهَا هَا .

فقال لها القاضي : قُولِي قَبْلَتِ ؟

فَقَالَتْ : قَبْلَتِ .

فقال القاضي : حَكَمْتُ بِالتَّفْرِيقِ بَيْنَكُمَا لِأَنَّهُ دَخَلَ فِي مَلَكَهَا فَانْفَسَخَ

النِّكَاحُ .

فَقَامَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قَدَمَيْهِ ، وَقَالَ : مِثْلَكَ مَنْ يَكُونُ قَاضِيًّا فِي

زَمَانِي . وَاسْتَدْعَى بِأَطْبَاقِ الذَّهَبِ فَأَفْرَغَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِلْقَاضِي : هَلْ

مَعَكَ شَيْءٌ تَوْعِيهِ ؟ فَتَذَكَّرَ مَخْلَاطَ الْبَغْلَةِ . فَاسْتَدْعَى بِهَا ، فَمَلَأَتْ لَهُ ذَهَبًا ،

فَأَخَذَهَا وَانصَرَفَ . فَلَمَّا أَصْبَحَ قَالَ لِحُجْلَانِهِ : انظُرُوا إِلَى مَنْ تَعْلَمُ الْعِلْمَ

فليتعلّمه كذلك ، فأني أعطيت هذا المال العظيم في مسألتين أو ثلاث .
 فانظر أيها المتأدّب إلى لطف هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن منها
 إدلال الوزير على قلب أمير المؤمنين وحلم الخليفة ، وزيادة علم القاضي .
 فرحم الله أرواحهم أجمعين .
 ولكن مسألة الاستبراء لم تتخرّج إلّا على مذهب أبي حنيفة فخرّجها
 أبو يوسف على قواعد مذهبه لأنه حنفي المذهب . والله أعلم .

هجرتك وزرّتك

من كلام إبراهيم الموصلي رحمه الله تعالى :

هجرْتُكَ حتّى قِيلَ لا يعرف الهوى وزرْتُكَ حتّى قِيلَ ليس له صبرُ
 فيا هجرَ ليلي قد بلغت بي المدى وزدتَ على ما ليس يبلغه الهجرُ
 ويا حبُّها زدني جوى كلّ ليلةٍ ويا سلوةَ الأيام موعِدُك الحشرُ
 وإني لتعروني لذكرِك هزّةٌ كما انتفض العصفورُ بلّله القطرُ

المجنون العاقل

من الحكايات اللطيفة . أن بعض الملوك قصد التفرّج على المجانين ،
 فلما دخل عليهم رأى فيهم شاباً حسن الهيئة نظيف الصورة يُرى عليه آثار
 اللطف وتفوح منه شمائل الفطنة ، فدنا منه وسأله مسائل ، فأجابه عن
 جميعها بأحسن جواب . فتعجّب منه عجباً شديداً .
 ثم إن المجنون قال للملك : قد سألتني عن أشياء فأجبتك . وإن
 سألتك سؤالاً واحداً .

قال : وما هو؟

قال : متى يجد النائم لذّة النوم؟

ففكّر الملك ساعة ، ثم قال : يجد لذّة حال نومه .

فقال المجنون : حالة النوم ليس له إحساس .

فقال الملك : قبل الدخول في النوم .

فقال المجنون : كيف توجد لذّته قبل وجوده .

فقال الملك : بعد النوم .

فقال المجنون : أتوجد لذّته وقد انقضى؟

فتحيرّ الملك وزاد إعجابه وقال : لعمري إن هذا لا يحصل من عقلاء كثيرة ، فأولى أن يكون نديمي في مثل هذا اليوم ، وأمر أن يُنصب له تختٌ بإزاء شُبّاك المجنون ، ثم استدعى بالشراب ، فحضر فتناول الكأس وشرب ، ثم ناول المجنون ، فقال : أيها الملك أنتَ شربت هذا لتصير مثلي فأنا أشربه لأصير مثلاً مَنْ؟

فأعظ الملك بكلامه ورمى القدر من يده وتاب من ساعته ، والله أعلم .

الستّ بدور والأمير عمرو

يُحكى أن الرشيد أرق ذات ليلةً أرقاً شديداً ، فاستدعى جعفرأ وقال : أريد منك أن تُزيل ما بقلبي من الضجر .

فقال الوزير : يا أمير المؤمنين ، كيفَ يكون على قلبك ضجرٌ ، وقد خلق الله أشياء كثيرة ، تزيل الهمّ عن المهموم ، والغمّ عن المغموم ، وأنتَ

قادر عليها ؟

فقال الرشيد : وما هي يا جعفر ؟

فقال له : قُمْ بنا الآن ، حتى نطلعَ فوق سطح هذا القصر ونتفرّج على النجوم واشتباكها وارتفاعها والقمر وحسن طلّعه كأنه وجه من تحب كما قيل :

فكأنما حسنُ السماء ولونُها قد رقمت فيها أفانين الصُّور
وكأنّ هذا البدر حين بدا لنا في بعض ليل من غلاف قد ظهر

فقال الرشيد : يا جعفر ، ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، افتح شباك القصر الذي يطّلع على البستان وتفرّج على حسن تلك الأشجار واسمع صوت تغريد الأطيار وانظر إلى هدير الأنهار وشمّ روائح تلك الأزهار واسمع الناعورة التي كأنها أنين محب فارق محبوبه ، وهي كما قال فيها بعض واصفها :

وناعورةٍ حنّت وغنّت وقد غدّت تعبّر عن حال المَشوق وتُعربُ
ترقص عطفَ البانِ تيهًا لأنها تغني له طولَ الزمانِ ويشربُ

وإما أن تنام يا أمير المؤمنين ، إلى أن يدركنا الصباح .

فقال : يا جعفر ، ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك .

فقال : يا أمير المؤمنين ، افتح الشباك الذي يطّلع على الدجلة حتى تفرّج على تلك المراكب والملاحين ، فهذا يصفّق ، وهذا ينشد موالياً ، وهذا يقول دُوبيّت^١ ، وهذا يقول كَيْت وكَيْت .

١ دوبيت : لفظة فارسية تعني بيتين ويقال له الرباعي لأنه مؤلف من أربعة مصاريع ، وهو من الأوزان الشعرية ، قيل أن الفرس اخترعوه ونظموه بلغتهم وأخذته العرب عنهم .

فقال الرشيد : ما تلتفت نفسي إلى شيء من ذلك .

فقال جعفر : قُيِّم يا أمير المؤمنين ، حتى ننزل إلى الاصطبل الخاص
وننظر إلى الخيل العربيات وتفرّج على حسن ألوانها ، ما بين أدهم كالليل
إذا أظلم ، وأشقر ، وأشهب ، وكميت أحمر ، وأبيض ، وأخضر ،
وأبلق ، وأصفر ، وألوان تحيّر العقول .

فقال الرشيد : ما تلتفت نفسي إلى شيء من ذلك .

فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ، عندك في قصرِكَ ثلاثمائة جارية ، ما
بين جُنْكِيَّة^١ ، إلى عودِيَّة ، إلى دُقِيَّة ، إلى قانونية ، إلى زامرة ، إلى
مغنيّة ، إلى راقصة ، إلى سنطيريّة^٢ ، أحضر الجميع ، وأحضر العقار
المروّق ، فلعلّ أن يزول ما بقلبك من الضَجَر .

فقال : ما تهّم نفسي إلى شيء من ذلك .

فقال جعفر : يا أمير المؤمنين ما بقي إلا ضربُ عُنق مملوكك جعفر ،
فإني قد عجزت عن إزالة همّ مولانا .

فقال : يا جعفر ، أما سمعت قول ابن عمّي رسول الله ﷺ ؟

فقال : من فهم مولانا أسمع .

فقال الرشيد : قال رسول الله ﷺ : « فرح أمّي في ثلاث : أن
يرى بعينه شيئاً ما رآه ، أو يسمع شيئاً ما سمعه ، أو يطأ مكاناً ما
وطئه » ، فيتفق يا جعفر أن يكون في بغداد مكان ما وطئناه ، أو شيء ما
سمعناه ، أو موضع ما رأيناه .

١ الجنكية : التي تعزف بالجنك وهو من آلات الطرب .

٢ السنطيرية : العازفة بالسنطير وهو آلة طرب كالقانون أوتارها من نحاس .

فقال جعفر : أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أطلع إلى مجلس التوبة^١ وأنظر
أحداً من المسافرين أحضره بين يدي أمير المؤمنين ، لعلّه أن يحدثك بحديث
ما سمعته ؟

فقال الرشيد : قم وافعل .

فقام جعفر وطلع وعاد بسرعة بالشيخ أبي الحسن الخليلع الدمشقي
المُسامير . قال : فلما رأى أمير المؤمنين سلّم فأحسن وترجم فأبلغ ، ثم
قال : يا أمير المؤمنين وحامي حوزة الدين وابن عم سيّد المرسلين وخاتم
النبين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ، أطل الله بقاءك وجعل الجنة مأواك
والنار مثوى لأعداك لا خَمَدَتْ لك نار ولا أغيط لك جار ، ثم أنشد
يقول :

دامَ لك العزّ والبقاء ما اختلفَ الصبحُ والمساء
ودمت ما دامت الليالي بمُدّة ما لها انقضاء
الناسُ ناسٌ بكل أرضٍ وأنتَ من فوقهم سماء

قال : فردّ الشيخ السلام وقال له : اجلس يا أبا الحسن ، وحدّثنا
بحديث عجيب مليح لم نسمعه قط ؟
فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، أحدثك بشيء سمعته بأذني أو بشيء
رأيتُه بعيني ؟

قال الرشيد : يا شيخ أبا الحسن الذي تراه العين أحسنُ من الذي
تسمعه الأذن .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، أفرغ لي عن ثلاثة أشياء منك ؟

١ النوبة : الجماعة من الناس .

فقال : ما الثلاثة ؟

فقال : ذهنك وسمعتك وقلبك .

فقال الرشيد : هات يا أبا الحسن .

فقال : يا أمير المؤمنين لي عادة أني أسافر في كل سنة إلى البصرة
للأمير محمد بن سليمان الزبيني ، وأقعد عنده أحدثه الأسفار ، وأورد له
الأخبار ، وأنشد له الأشعار ، ولي عليه رسم ألف دينار آخذها وأعود إلى
بغداد . فاتفق لي في سنة من السنين أني سافرت إلى البصرة على عادتي
ودخلت على الأمير محمد بن سليمان وجلست عنده اليوم الأول والثاني
والثالث ، فركب إلى الصيد وتركني في منزله وأوصى أرباب دولته بخدمتي
وإكرامي إلى أن يعود ، وأوصى الطباخ الذي له أن لا يطعمني إلا شيئاً
تشبهه نفسي ، فاشتيت السمك فقلت للطباخ : فعمل لي من السمك
عدّة ألوان فأكلت وطاب لي الأكل حتى ثقل على فؤادي ، فقلت : ما
يصرف عني هذا إلا المشي ، ولي عدّة أسفار إلى البصرة ما أعرف فيها
مكاناً ، وأريد اليوم أن أجعلها حجة وفرجة . ثم إنني نزلت أتمشّي في
شوارع البصرة فعطشت عطشاً شديداً وناهيك بعطش السمك ، فقلت في
نفسي : إن تناولت شربة من السقاء لا تطيب نفسي لأنه يشرب منه
أصحاب الأمراض ، وكبر على نفسي أن أحملها إلى شاطئ الدجلة ،
وقلت : ما لي إلا أن أقصد بعض دور المحتشمين وأطلب منها شربة من
ماء ، فأتيت إلى درب وفي ذلك الدرب خمسة دور داران مقابلتان لدارين
ودار صدرائيّة قد قامت من التراب وتعلقت بأذيال السحاب ، ولها باب
مقنطر مزخرف بمصاطب طولانية ، مفروش عليها حصر عبّدانية ، والباب
ساج مصفّح بصفائح الذهب الوهاج ومسامير الفضة وسير من الحرير
الأصفر المدنّر مكتوب عليه هذه الأبيات :

ألا يا دارُ لا يدخلُك حزنٌ ولا يغدرُ بصاحبك الزمانُ
فنعم الدارُ أنتِ لكل ضيفٍ إذا ما ضاق بالضيف المكانُ

قال : فقلت في نفسي ، من هذه الدار أشرب الماء ، فأتيت إلى
الباب فسمعت صوتاً ضعيفاً من فؤاد نحيف ، وقائلاً يقول :

بالله ربكما عوجا على سكتي وعاتباه لعل العتبَ يُعطفه
وعرضا بي وقولا في حديثكما ما بال عبدك بالهجران تُثلفه
فإن تبسم قولا في مُلاطفة ما ضرَّ لو بوصال منك تُسعهفه
وإن بدا لكما في وجهه غضبٌ فغالطاه وقولا ليس نعرفه

قال : فقلت ، يا حبذا إن كان قائلُ هذا الصوت شخصاً صورته
على قدر صوته واحتشمت ، ثم إني قويت قلبي ورفعت السِتر ودخلتُ
الدهلِيز إلى أن انتهيت إلى آخره ومدّيتُ طرفي ، وإذا أنا بدارٍ قد أقبلت
عليها السعادة ، وزالت عنها الشقاوة ، ورأيت في صدر ذلك المكان إيواناً
وبركة وشاذرواناً ، وفي ذلك الإيوان تحت من السياج ، وقوائمه من
العاج ، مصفح بالذهب الوهاج ، وفوق التخت فراش من الحرير
الأطلس ، ومسند مزركش ، وعليه جارية نائمة خُراسية القد ، قائمة النهد
لا بالطويلة الشاهقة ولا بالقصيرة اللاصقة ، أشهر من علم ، تربية العجم
على أكتاف الخدم ، بخد أسيل ، وطرف كحيل ، وخصر نحيل ، وردف
ثقيل ، إن أقبلت فتنت ، وإن ولّت قتلت ، كما قال فيها بعض واصفيها :

كما اشتيت خِلقت حتى إذا اعتدلت في قالب الحسن لا طول ولا قصرُ
جرى بها الشحم حتى دار أعكئها طيُّ القباطي فلا سِمن ولا عورُ
كانها أفرغت من ماء لؤلؤة في كل جارحة من حُسنها قمر

إلا أن الجارية ، يا أمير المؤمنين ، قد حكمت عليها يدُ الأيام ونزلت

بها جميع الأسقام وعند رأسها طيب ، وهو يجسّ يدها ويقول : يا ست بدور ، الضارب ضارب والساكن ساكن ولا برد ولا حمى ولا شيء تشكينه أكثر من سهر الليل وجريان الدمع لعلّ الست في قلبها هوى من أحد ، فلما سمعت كلام الطيب أنشدت تقول :

إذا هممتُ بكمّان الهوى نطقَتْ مدامعي بالذي أخني من الألم
فإن أبغِ افتضح من غير منفعة وإن كتمتُ فدمعي غير منكم
لكن إلى الله أشكو ما أكابده من طول وجدي ودمع غير منصرم

قال : فنهض الطيب قائماً على قدميه فناولته صرةً فيها عشرون ديناراً ، ثم التفتت إليّ وقالت : من أين يا شيخ ؟

فقلت لها : من بغداد ، حملني العطش إلى أن أتيت إلى هنا .

فقلت : لعلّ أن يكون على يدك فرجي ، فأنا أكتب لك ورقة فتسأل عن بيت الأمير عمرو وتعطيه إياها ، فإن رددت عليّ الجواب فأنا أعطيك خمسمائة دينار .

ثم استدعت بدواة وورق وكتبت ، وهي تقول : أمّا بعد ، يعجز لساني ويكلّ جناني عن بثّ الأشواق ، ولكن أسأل الكريم الخلاق أن يمنّ علينا بالثّلاق بالسعد الرائق والأمر الموافق ، وأنا القائلة حيث أقول :

سروري من الدنيا لقاكم وقربكم وحُبكم فرض وما منكم بدّ
ولي شاهدٌ دمعي إذا ما ذكرْتُكم جرى فوق خدي لا يُطاق له ردّ
إذا الريح من نحو الحبيب تنسّمت وجدتُ لمسراها على كبدي بردّ
فوالله ما أحبتُ ما عشت غيركم ولا كنتُ إلّا ما حييت لکم عبد
سلامٌ عليك ما أمر فراقكم فلا كان منكم ما جرى آخر عهد

أمّا بعد ، فهذا كتابٌ ممّن ليلها في نحيب ، ونهارها في تعذيب ، لا

أَتَرَكُنْ إِلَى عَاذِلٍ وَلَا تُصْغِي إِلَى قَاتِلٍ ، قَدْ غَلَبَتْهَا أَيْدِي الْفِرَاقِ ، وَلَوْ شَرَحْتَ
بَعْضَ مَا عِنْدَهَا لِلْفَسِيحِ ضَاقَ وَمَا وَسَعَتْهُ الْأَوْرَاقُ ، وَلَكِنْ أَسْأَلُ الْكَرِيمَ
الْخَلَّاقَ ، رَافِعَ السَّبْعِ الطَّبَاقِ ، أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالتَّلَاقِ ، وَأَنْشُدْتَ تَقُولُ :

أَحَبَّةَ قَلْبِي وَإِنْ جَرْتُمْ عَلَيَّ فَكُلَّ الْمُنَى أَنْتُمْ
رَحَلْتُمْ فِي الْقَلْبِ خَلْفْتُمْ لَهَيْباً فَهَلَّا تَرْفَقْتُمْ
وَأَوْدَعْتُمْ يَوْمَ وَدَعْتُمْ بِأَحْشَايَ نَاراً وَأَضْرَمْتُمْ
وَمَا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ الْجَفَا عَلَى شَوْمٍ بَحْتِي تَعْلَمْتُمْ

فَأَلْفُ أَلْفٍ لَا أَوْحَشَ اللَّهُ مِنْكُمْ وَالسَّلَامُ مِنِّي عَلَيْكُمْ عَدَدَ شَوْقِي إِلَيْكُمْ
مَا حَنَّ الْغَرِيبُ إِلَى الْأَوْطَانِ ، وَغَرَّدَ حَمَامُ الْأَيْكِ عَلَى الْبَانِ ، فَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ
قَرَأَ كِتَابِي وَتَعَطَّفَ بَرْدَ جَوَابِي ، وَأَنْشُدْتَ تَقُولُ :

أَحْبَابُنَا مَا رَقَا دَمْعِي لِفِرْقَتِكُمْ يَوْمَ الْفِرَاقِ وَلَا كَفَّتْ غَوَادِيهِ
بَتَمَ فَلَمْ يَبْقَ لِي مِنْ بَعْدِكُمْ جَلْدٌ وَلَا قُوَادٌ وَلَا صَبْرٌ أَرْجِيهِ
فَكَمْ أُمْنِي قُوَادِي بِالْهَوَى كَذِباً وَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ بَانَتْ غَوَاشِيهِ^١

قال : ثم إنها طوت الكتاب وختمته بعد أن ثرت فيه فُتَاتُ الْمَسْكِ
وَالْعَنْبَرِ ، وَنَاوَلْتَنِي إِيَّاهُ فَأَخَذْتَهُ ، وَأَتَيْتُ إِلَى دَارِ الْأَمِيرِ عَمْرُو فَوَجَدْتَهُ فِي
الصَّيْدِ وَالْقَنْصِ ، فَجَلَسْتُ عَلَى بَابِهِ سَاعَةً أَنْتَظِرُهُ وَإِذَا بِهِ قَدْ أَقْبَلَ ، وَهُوَ
رَاكِبٌ عَلَى حِصَانٍ أَشَقَرٍ ، مِنَ الْخَيْلِ الضَّمَرِّ يَسَاوِي مَلِكَ كَسْرَى وَقَيْصَرَ ،
مِنْ أَوْلَادِ الْأَبْجَرِ ، الَّذِي كَانَ لَعَنَتُهُ ، إِنْ طَلَبَ لَحَقَ ، وَإِنْ طُلِبَ لَمْ
يُلْحَقْ . وَالْأَمِيرُ فِي ظَهْرِهِ كَأَنَّهُ الْبَدْرُ فِي مَنْزِلَتِهِ ، وَالْمَالِيكَ قَدْ أَحْدَقُوا بِهِ كَمَا
تُحْدَقُ النُّجُومُ بِالْقَمَرِ ، وَهُوَ بِخَدِّ أَسِيلٍ وَطَرَفِ كَحِيلٍ وَخَصِرِ نَحِيلٍ وَرِدْفِ

١ بَانَتْ : ظَهَرَتْ . غَوَاشِيهِ ، الْوَاحِدَةُ غَاشِيَةٌ : الدَّاءُ فِي الْقَلْبِ .

ثَقِيلُ وَلَهُ عِذَارٌ أَخْضَرُ فَوْقَ خَدِّ أَحْمَرَ وَثَغْرُ جَوْهَرٍ وَعَنْقُ مَرْمَرٍ كَمَا قَالَ فِيهِ ابْنُ
مَعْشَرٍ :

قُرَّ تَكَامُلٌ فِي نِهَآيَةِ حُسْنِهِ مِثْلُ الْقُضَيْبِ عَلَى رَشَاقَةِ قَدِّهِ
فَالْبَدْرُ يَطْلُعُ مِنْ ضِيَاءِ جَبِينِهِ وَالشَّمْسُ تَغْرُبُ فِي شَقَاقِقِ خَدِّهِ
مَلِكُ الْجَمَالِ بِأَسْرِهِ فَكَأَنَّمَا حَسَنُ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا مِنْ عِنْدِهِ

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ : فَمَا أَمَهَلْتَهُ دُونَ أَنْ قَبَّلْتَ رِكَابَهُ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ تَرَجَّلَ
وَاغْتَنَقَنِي وَأَخَذَ بِيَدِي وَأَدْخَلَنِي الدَّارَ وَأَنشَدَ يَقُولُ :

مَا أَظَنَّ الزَّمَانُ يَأْتِي بِهَذَا غَيْرَ أَنِّي رَأَيْتُهُ فِي مَنْامِي

قَالَ : فَلَمَّا جَلَسَ عَلَى حَافَةِ الْبَرَكَةِ أَقْبَلَ عَلَيَّ يَحْدِثُنِي سَاعَةً ، وَإِذَا
بِالْمَائِدَةِ قَدْ وُضِعَتْ بَيْنَ أَيْدِينَا ، وَإِذَا عَلَيْهَا مِنْ أَلْوَانِ الطَّعَامِ مَا دَرَجَ وَتَطَايَرَ
فِي الْأَسْحَارِ ، وَتَنَاحَكَ فِي الْأَوْكَارِ مِنْ قِطَآءِ وَسْطَانِي وَأَفْرَاحِ حَمَامٍ وَبَطِّ مَسْمَنِ
وَدَجَاجِ مَحْمَرٍّ وَأَفْرَاحِ رُضْعٍ وَبَعْلَبَكَّاتِ السُّكَّرِ فَقَالَ لِي : بِسْمِ اللَّهِ يَا شَيْخُ يَا
أَبَا الْحَسَنِ ، فَقُلْتُ : لَا وَاللَّهِ يَا مَوْلَايَ ، مَا أَكَلْتُ لَكَ طَعَامًا وَلَا شَرَبْتُ
لَكَ مُدَامًا ، إِلَّا أَنْ قَضَيْتَ لِي حَاجَتِي .

فَقَالَ : يَا أَبَا الْحَسَنِ كَانَ هَذَا مِنَ الْأَوَّلِ . أَيْنَ الْكِتَابُ الَّذِي
لِلْسِتِ بِدَوْرٍ ؟

فَقُلْتُ : يَا سَيِّدِي وَمَا هِيَ السِتُّ بِدَوْرٍ .

فَقَالَ : الَّتِي جِئْتُ مِنْ عِنْدِهَا تَطْلُبُ شَرِبَةً مِنَ الْمَاءِ مِنْهَا ، وَوَجَدْتُ
عِنْدَهَا الطَّبِيبَ وَجَرَى لَكَ مَعَهَا مَا هُوَ كَيْتٌ وَكَيْتٌ .

فَقُلْتُ : يَا مَوْلَايَ أَكُنْتُ حَاضِرًا ؟

فَقَالَ : لَوْ كُنْتُ حَاضِرًا فَلَا يُشْيِءُ كَتَبْتُ الْكِتَابَ ؟

فقلت : هل جاء أحدٌ من عندها وأعلمك ؟
 فقال : إنه لا يجسرُ أحدٌ من غلمانها أن يقابلني .
 فقلت : ولا راح أحدٌ من عندك إليها .
 فقال : هي أخسُّ وأحقُّ من أن يمضي إليها أحد من عندي .
 فقلت : يا سيدي ! الغيبُ لا يعلمه إلا الله تعالى والوحي ما نزل إلا
 على رسول الله ﷺ .
 فقال : يا عاقل أما سمعتَ قول القائل :

قلوبُ العاشقين لها عيونٌ ترى ما لا يراه الناظرون
 وأجنحةٌ تطير بغير ريشٍ إلى ملكوت ربِّ العالمينا

فقلت : صدقت يا مولاي ، ثم ناولته الكتاب ففضَّه وقرأه ثم بصَّقَ
 فيه وداسَه برجله ورماه في البركة فصعب عليّ ، فلما علم منِّي ذلك قال :
 ممَّ غيظك ؟ أقعد الليلة عندي كلَّ واشربْ وخذ منِّي الخمسمائة دينار التي
 وعدتك بها الست بدور ، وأنا أحبُّ إليك منها وأنشد يقول :

رأيت شاةً وذئباً وهي ماسكةٌ بأذنه وهو منقادٌ لها ساري
 فقلت : أعجوبةٌ ، ثم التفت أرى ما بين ناييه مُلقى نصفُ دينار
 فقلت للشاة : ماذا الإلف بينكما والذئب يسطو بأنياب وأظفار
 تبسَّمت ثم قالت وهي ضاحكة : بالتبرئ كسر ذاك الضيغم الضاري

قال : فلما سمعت كلامه ، يا أمير المؤمنين تقدَّمت وأكلتُ بحسب
 الكفاية والنهاية . ثم انتقلنا إلى مجلس الشراب وقُدِّمت بين أيدينا البواطي
 والسلاحيات ، فتناول الأمير عمرو وشرب وسقاني ، وأنا أجدُّه وأنادمه
 إلى أن قرب الغروبُ فقال : يا أبا الحسن ، ما لذَّةُ الأمير إذا شرب إلى

المساء من غير غناء ؟

فقلت : يقال : الشراب بلا طرب ولا سماع ، الدنّ أولى به..

فقال لي : قم بسم الله .

فقمّت معه إلى مجلس وحضيرة تنقط بالذهب واللازورد العجيب ، وهي مزخرفة قد عبقت أزهارها وضحكت سلاحيتها وصفت بواطيا ورُفعت أقداحها فجلس الأمير عمرو وأجلسني بجانبه وقدمت بين أيدينا الشموع وأسرجت القناديل فنظرت إلى مجلس عجيب وحضيرة مليحة ثم قلت : يا مولاي ، قد تقدّم القول إن الشراب بلا سماع ، الدنّ أولى به ، فصفت بكفّ على كفّ وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهنّ الأقمار . الواحدة تحمل عوداً ، والثانية تحمل دفّاً ، والثالثة تحمل مزماراً ثم نقرت الدفّة على دفّها ، وأصلحت العودية عودها وزمرت الزامرة بمزمارها فخيّل إليّ أن المجلس الذي نحن فيه يرقص بنا ثم إن الدفّة غتّت تقول :

أحبّابنا إنني من يوم فرقكم على فراش الضنا مازلت مضطجعا
داويت قلبي بحسن الصبر بعدكم عسى يُفريق من الأسقام ما نفعنا

فوالله يا أمير المؤمنين لقد طربت غاية الطرب من حسن صوتها . فلما فرغت الدفّة ضربت العودية على عودها طرقاً عديدة ، ثم رجعت إلى الطريقة الأولى وأنشدت تقول :

أمؤنسَ طرفي لا خلا منك ناظري وجامعَ شملي لا خلا منك مجلسي
ويا ساكناً قلبي وما فيه غيره يحلّ فما استوحشتُ فيه لمؤنسي
وبالله يا أغنى الورى من ملاحية تصدّق على صبّ من الصبر مفلسي
أنلني الرضا حتى أغبط به العدا ويا موحشي من بعدما كان مؤنسي
رضاك الذي إن نلته نلت رفعة وألبسني في الناس أشرف ملبس

قال : والله يا أمير المؤمنين لم نتمالك حقولنا من الطرب . ثم التفتت
العودية نحو الدفية وقالت لها : يا فلانة أحسنني أن تقولي مثل هذا ؟
فقلت الدفية : أنا أحفظ أبياتاً ما أظن أنك تحفظين هنّ وزناً ولا
قافية ولا عروضاً .

فقلت العودية : هاتِ ما عندك .

فنقرت الدفية على دَفِّها بأناملها ورفعت صوتها وهي تقول :

كّرر وردّد ذكرهم في مسمعي فهم الشفا لتألّي وتوجعي
أقصر بعذلك يا عدولُ فإن لي قلباً لعذلك لا يُفيق ولا يعي

فقلت لها العودية : أنا أحفظ الوزن والقافية والعروض .

فقلت الدفية : هاتِ .

فضربت العودية طريقة من اثنين واثنين وأربعة وأربعة وثمانية وثمانية
وستة عشر وستة عشر ثم عادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول :

إن لم أسلّ وادي إلّا سيل بأدمعي أعلمُ بأنّي في الصبابة مدّعي
يا سعدُ إن جئت الغويرَ وعانيت عينك بأنّ المُنحني فلترجعِ
وخذِ الحِذارَ من الغزالِ المنحني واحذرِ يصيدك لحظُ ذاتِ البرقعِ

قال : والله يا أمير المؤمنين فلقد طربنا حتى قام كل منا ورقص . فلما
فرغت الجارية قال لها سيّدها : غنّ لي على الذي بقلبي وحدي ، فعندها
ساوت عودها وقالت :

ما كنتُ أوّلَ رامي صَبًّا صبا نحو التصابي ، وهو في عُمر الصبا
فعلامٌ يعذلني العذولُ على البكا لولا الغرامُ لما غدوتُ معذباً
حكم الغرامُ بحكمه في مهجتي ولقد غدا قلبي به متقلّباً

يا للرجال خبا الهوى بحُشاشتي نارا ، فما تخبو على ذاك الخبا
ولقد سبى قلبي غزال لو رأته بلقيسُ طلعتَه لما سكنت سبا
ولقد هربتُ من الغرام فقال لي : مهلاً ! فلن تجدنَّ مني مهرباً

فلما سمع الأمير عمرو ذلك صرخ ووقع على الأرض مغشياً عليه .
فقال الجارية : يا مولاي ، إنه قد نام سيدي ، فإن اخترت أن تنام فقم
نم في مرقدك ، وإن اخترت الشراب فدونك ، ونحن بين يديك إلى
الصباح .

فقامت ونمت فلما أصبحت قمت وسألت عن الأمير عمرو فقال بعض
الجواري : إنه قد سرح إلى الصيد والقنص فأخذت شاشاً لألبسه فرأيت
تحتَه كيساً فيه ألف دينار ، فأخذته وأتيت إلى الست بدور ، وإذا بها واقفة
خلف الباب تنتظر وهي تقول :

يا رسولي إلى الحبيب اعتذر لي فلعلَّ الحبيبَ يقبلُ عذري
ثم قل للحبيب عني بلطف : أيُّ ذنب جرى فأوجبَ هجري

فلما رأتني قالت : يا شيخ أقح أم شعير ؟
فقلت : لا والله ما هو إلا زوان ، والله ما رضي يقرأ مكتوبك ولا
يرد جوابك .

فرمت إليّ الصرة وفيها مائة دينار ، وقالت : اذهب يا أبا الحسن ،
ما مضى الليل وأتى النهار على شيءٍ إلا وأزاله وغيره ويغيرُ الله ما في
القلوب .

ثم إنها أغلقت الباب في وجهي ومضت وعدتُ إلى دار الأمير محمد
بن سليمان الزينبي فلقيناهُ قد جاء من الصيد فقعدتُ عنده أياماً وأخذتُ
رسمي وعدتُ إلى بغداد . ثم إنني في السنة الثانية سافرت إلى البصرة على ما

جرت العادة به ومضيت إلى الأمير عمرو بن جبير الشيباني لأتمتع بذلك
الوجه المليح والقدَّ الرجيح ، فوجدت الدارَ متغيرة الآثار والعيبةً لا يسوق
السواد فلما رأيت ذلك بكيت وأنشدت أقول :

يا دارُ أين ترحلُ السكانُ وسرت بهم من بعدها الأظعانُ
بالأمس كان بك الضياءُ مع هنا واليوم في عرصاتك الغربانُ

فسمعتني بعض الغلمان ، فظهر لي وقال : من ذا الذي يبكي على
ديارنا ويندب منازلنا ؟ كفى بنا ما عندنا .

فقلت له : يا عبدَ الخير ، إن صاحبَ هذه الدار كان من أصدق
الناس إليّ فما فعل به الزمان ؟

فقال لي الغلام : يا مولاي هو في قيد الحياة ، وهو يطلب الموت فلا
يجده .

فقلت له : بالله عليك خذ لي الطريق .

فقال لي الغلام : يا مولاي من أقول .

فقلت : قل الشيخ أبو الحسن الخليلع الدمشقي المسامر .

قال : فعبر الغلام وغاب ساعة وعاد وقال لي : بسم الله أدخل .

فدخلت فوجدت الأمير عمراً نائماً وعند رأسه طبيب وهو يحسّ يده
ويقول له : يا مولاي الضارب ضارب والساكن ساكن لا برد ولا حمى
ولا تشتكي غير سهر الليل وجريان الدمع ، لا يكون المولى إلا مسحوراً .

فلما سمع الأمير عمرو كلام الطبيب بكى وأنشد يقول :

قال الطبيب لقومي ، حين جسَّ يدي : هذا فتاكم ، ورب البيت ، مسحورُ
فقلت : وبحك قد قاربت في صفتي عمن الصواب ، فهلاً قلت : مهجورُ

ثم إنه ناوله كاغداً فيه بعض دنائير ، فأخذها الطيب وانصرف ثم التفت الأمير عمرو إليّ وقال : يا شيخ أبي الحسن أما تنظر إلى هذا الحال الذي وقعت فيه ؟

فقلت له : حاشاك من الأسوأ ما سبب ذلك ؟

قال : ما أعرف له سبباً إلا أن هجر الست بدور قد قتلني وحبّها أضنى قوادي .

فقلت : يا مولاي ، بالعام الماضي تركتك أميراً ، واليوم أتيت لقيتك أسيراً فما السبب ؟

فقال الأمير عمرو : يا شيخ إنّي في ليلة من الليالي ركبت في الشط ، وقد شحنت مركبي من سائر الأزهار والفواكه والرياحين والطعام والمُدام ، وأوقدت الشموع حتى صارت مثل ضوء النهار ، وقد غرقنا في البسط ، وبقينا في لعب وضحك إلى ثلث الليل الأول ، وإذ قد أقبل من صدر الشط مركب وهو يعزف بالطارات والدفوف ويضيء كضوء الشمس وفيه هج عظيم ، فقلت للملاح : قدّم بنا حتى نتفرّج وننظر أينما أحسن تعبئة مركبنا أو هذا المركب ؟

فهددت عيني فرأيت صاحبتى الست بدور ، وهي بين جواربها وغلماها تلعب وتضحك ، وهي مثل اسمها ، اسم على مسمى ، فلما وقعت عيني عليها ، كأنما رمّت في قلبي جمرة نار فقلت في نفسي : ما فارقتُ هذا الوجه المليح بذنب . ثم إنني تذكرت العهد القديم الذي كان بيننا فلم أقدر أن أصبر ، هددت يدي وأخذت تفاحة ورميْتُها إلى الست بدور فالتفتت فرأيتني . فقالت للملاح : إرجع بنا إلى البرّ ، نحن خرجنا هذه الليلة ننشرح ، فأرسل الله لنا هذا الفتى ينغص علينا عيشنا . فلما سمعتها تشتمني أضرمت النار في قلبي ثم قلت لنفسني : أنت كنتَ المطلوب فصرتَ

الطالب ، فلم يهن لي عيش في هذه الليلة فقلت للملاح : ارجع إلى الشط . ثم إني نزلت ومضيت إلى منزلي وما ذقت طعم المنام . فلما أصبحت لم يقرّ لي قرار وصرت أترقب أن يأتي أحد من عندها ، ثلاثة أيام ، فلم يأت أحد فبعثت من يعرض بذكري لها ، فدعت عليهم وشتمتهم . فكتبت لها بعد ذلك ألف كتاب ، فلم تردّ لي جواباً ، وقد رميتُ روعي على كل كبير في البصرة ، فيدخلون عليها فلم تقبل ولم تزد إلا جفاء ، ولي مدة أنتظرك يا شيخ أبا الحسن حتى أبعث معك كتاباً وأنا أحلف لك إن هي ردّت لك جوابه أعطيتك ألف دينار ، وإن لم تردّ جوابه أعطيتك مائة دينار .

فقلت له : اكتب !

فدعا بدواة وقرطاس وكتب في أول الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من ميثم يشكو إليك الصبابة ويسألك بالله أن تردّي جوابه . أما بعد ، فإنه يعجز لساني ويكلّ جناني مما أنا فيه من طول السهر ودوام الفكر ، وبكى لبكائي أصمّ الحجر فألف ألف لا أوحش الله منك والسلام عليك .

ثم ختم الكتاب وناولني إياه فأخذته وأتيت به إلى دار الست بدور ، فلقيت الباب على غير تلك الحالة الأولى عليه ستر مَرخِي وبوابٌ وخادمٌ . فقلت : لا إله إلا الله ، كان هذا الباب بالأمس خالياً من الأصحاب ، واليوم عليه خادمٌ وبوابٌ ، ثم إني تقدّمت إلى الخادم ، وقلت له : قم يا ولدي ادخل واستأذن على مولاتك الست بدور وقل لها : الشيخ أبو الحسن الخليلي الدمشقي قد أتى ويطلب المثل بين يديك .

فغاب الخادم ثم عاد مسرعاً وقال : بسم الله ادخل .

فدخلت الدهليز فسمعت الست بدور وهي تقول :

ولأصبرنَّ على الزمان وجوره حتى يعودَ كما أريدُ وأشتهي

قال : فلما دخلت رأيتها قاعدة على حافة البركة ، وبين يديها جارية تروّح لها ، فتقدمت ، وقبلت يدها وجلست فنظرتُ ، وإذا عليها غلالة لازوردية ، وجميع جسدها بائن من تحت الغلالة كأنه عمود مرمر ، وعلى الغلالة مكتوب هذه الأبيات :

أقبلت في غلالة زرقاء لازوردية كلون سماء
فتأملتُ في الغلالة ألقى قر الصيف في ليالي الشتاء
ليتني كنتُ للمليحة عقداً أو لثاماً للوجه مثل الرداء
أو قيصاً من الحرير خفيفاً لاصقاً بالفؤاد والأحشاء
ضربتني بنحجر العشق حتى صرت مُلقى مخضباً بدمائي
تركنتي على الطريق ونادت من يصلي على قتيل هوائي

ثم إني لما فرغت من قراءة الأشعار قالت لجاريتها : هات لي بذلة قماش ، ثم غيرت ما كان عليها ، وجلست ثم أمرت بإحضار المائدة وقالت : بسم الله ، كلُّ يا أبا الحسن .

فقلت : لا والله لا أكلت لك طعاماً ولا شربت عندك مُداماً حتى تقضي حاجتي .

فقلت : كان هذا من الأوّل لكن والله قد وقعت من عيننا برواحك إلى الأمير عمرو قبل مجيئك إلينا .
فقلت لها : أنا ما رحتُ .

فقلت : تكون شيخاً وتكذبُ ، أنت ما عبرتَ عليه ولقيتَ الطبيب ، وهو يقول له : كيت وكيت ، وجرى لك معه كذا وكذا . وهذا الكتابُ في طبي عيامتكَ وبالأمانة قال لك : إن ردّت الجواب

أعطيتك ألف دينار وإن لم تردّ لي الجواب أعطيتك مائة دينار؟

فقلت : يا سَيِّ من أعلمك بهذا؟

فقلت : أليس القائل يقول :

قلوبُ العاشقين لها عيونٌ ترى ما لا يراه الناظرون

وأنا يا شيخُ أبا الحسن أعشق منه وأرى أكثر ممّا يراه .

فقلت : صدقت يا مولائي . كان ذلك .

ثم ناولتها الكتاب ففحصته وقرأته ثم إنها مرّفته وبصقت عليه . وداسته ورمته في البركة . فلما رأيت ذلك قلت في نفسي : هذا بذاك وقرض الدّين لا بدّ له من وفاء إلّا أني حصل لي بعضُ غيظ على الألف دينار التي تفوتني . فنظرت إليّ وعرفت منّي ذلك فقلت : يا شيخُ أبا الحسن ممّ غيظك ؟ إن كان وعدك بألف دينار ، فبت الليلة عندي وكل واشرب والتذ وطرب . وخذ لك غداً مني ألف دينار وامض في حفظ الله .

فقلت : يا سيدي يكاد الأمير عمرو أن يموت .

فقلت : دعنا من هذا الكلام .

ثم إن المائدة حضرت فأكلنا بحسب الكفاية ، فلما فرغنا قالت : يا شيخُ أتعرف لعبَ الشّطرنج .

قلت : ما أَلعب إلّا على الحكم والرضا .

فقلت : نعم . ثم دعت بالشطرنج فوضع بين أيدينا ولعبت معها الدست الأول . فغلبتني فأمرت الجوّاري أن يرموني في البركة . فسكوني ورموني في البركة . فضحكت عليّ ساعة . ثم أخرجوني وقد ابتلت جميع حوائجي . فلما رأيتني على تلك الحالة أمرت ببذلة من القماش من أفخر

الملبوس فلبستُ فقالت : أتلعب أيضاً على الحكم والرضا ؟

قلت : نعم ، فلعبنا فاحتلتُ عليها ، وأتيتُ لها بحكاية لطيفة مُضحكة
وشغلتها وسرقت القطعَ إلى أن غلبتها وتحكمتُ فيها وقلت : أريدُ الألفَ
دينار وجوابَ الكتاب فأعطتني الألفَ دينار ، وطلبت الدواءَ والفُرطاسَ ،
ثم إنها أطرقت ساعةً ورفعت رأسها وكتبت تقول :

ألا يا عمرو كم هذا العناء وكم هذا التجلُّد والجفاء
كتبت إليّ تشكو ما تلاقي من الأسقام إذ نزل القضاء
فسقمٌ لا يزال بطول دهر وداء ما له أبداً دواء
ولو ساعدتنا يا عمرو يوماً لساعدناك إذ نزل البلاء
فعش صباً ومت كمداً حزيناً فواجدةً بواحدةٍ جزاء

فلما قرأت ناولتني الورقة فقرأتها فقلت : يا ستي ، بالله عليك لا
تفعلي وارحمي الأميرَ عمراً واكتبي له غير هذا .

فقالت : يا شيخ أبا الحسن ، أنت رسولٌ أو فضوليٌّ ؟ فقلت لها :
رسول وفضولي وطفيلي ، ويعط القطط ويحلف أنه ما يبيت إلا في الوسط
ويغني يُلَيْتُ بكم .

قال : فضحكت من كلامي ، وقالت : حكمتك في نفسي .

فقلت : ست بدور أين تلك الحبة التي كنت تحيينها للأمير عمرو ؟ فلو
أبصرته ما عرفته من شدة ما يقاسي من الأسقام والآلام والأمراض .

فلما سمعت ذلك قالت : أخبرني عن أقوى شيء به من المرض ؟

فقلت : يا سيدتي ، ما أقدرُ أصِف لك بعض ما فيه من ألم المرض .

فترغرت عيناها بالدموع ثم قالت : يعز علي ما وصفت لي عنه
وروحه الفداء فالحمد لله الذي جعل اجتماعنا على يدك . ثم دعت

بدرج غير تلك الورقة وكتبت في أول الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم إنها ابتدأت تنشد وتقول :

وصل الكتابُ فلا عدمتُ أنا ملاً عُنيت به حتى تَصَوَّعَ طيباً
ففضضته وقرأته ، فوجدته لَخْفِيَّ أوجاع القلوبِ طيباً
فكأنَّ موسى قد أُعيدَ لأُمّةٍ أو ثوبَ يوسفَ قد أتى يعقوباً

المملوكةُ تقبّل الأرض وتُنهي أن شوقها شديد ، وعَرامها ما عليه من
مزيد ، ومأمولها من الحميدِ المجيد أن يجمعَ شملها بك قبل أن تُريد ،
وأقول :

أشتاقكم حتى إذا نهض الهوى لمقامكم قعدت بي الأيامُ
والله إني لو وصفتُ صبايتي فَنِي المداؤُ وقلتُ الأقلامُ

ثم إنها نثرت فُتات المسك والطيب في رسالتها وطوتها وحققتها وناولتني
إياها فأخذتها وقتُ مسرعاً وأنا فرحانُ إلى أن أتيت دار الأمير عمرو
ودخلتُ الدهليز ، فسمعتَه يقول :

تُرى حُرِّمتُ كُتبُ الحجةِ بيننا ! أسحُرُ أم القرطاسُ أصبح غالياً

فاستأذنتُ عليه ودخلتُ فلما رآني قال لي : أقمح أم شعير ؟

فقلت له : قمح مغربلٍ ليس فيه كدَر . ثم ناولته الكتاب ففضضه وقرأه
فلما فهم معناه تهلّل وجهه بالفرح فبكى وقال :

هجمَ السرورُ عليّ حتى إنه من فرطِ ما قد سرّني أبكاني
يا عين ! قد صارَ البكا لك عادةً تبكين في فرحٍ وفي أحزانٍ

فلما فرغ من البكاء قال لي : يا شيخ ما أظنّ الحديد يلين ولا الصخر

يدوبُّ نعلٌ أن تكونَ صنعتَ هذا الكتابَ من عندك؟

فقلت : يا مولاي والله ما صنعتُهُ ولا كتبتُهُ بل هو خطُّها بيدها .

فبينما هو يخاطبني ، إذ هي عبرت علينا وهي تخطر في قوامها وهي تنشد وتقول :

نزوركُم لا نجازيكم بجفوتكم إن الكريمَ إذا لم يُستزر زارا

فلما رآها الأمير عمرو نهض قائماً على قدميه ورمى بروحه عليها واعتنقها واعتنقته ساعةً زمانيةً ، فقامت لأخلي لها المكان . فقالت الست بدور : إلى أين تروحُ يا شيخ؟

قلت أخلي لكما المكان لأنكما ما اجتمعتما من مدَّة سنة كاملة .

فقالت : لا تفارقي من الساعة إلى الصباح .

فقام الأمير عمرو وأخذنا ومضى بنا إلى مجلسٍ مليحٍ وقَدَّم لنا الطعامَ المفتخرَ وأمر بإزالة كل شيء كان عليه من آلة الحزن وجيء له بالماء فغسل يديه وغسلنا أيدينا ، وانتقلنا إلى مجلس الشراب ، وبتنا في لذَّةٍ ورأيت الماويَّة تدب في وجه الأمير عمرو . فلما أصبحتُ قالت : يا شيخ أبا الحسن ، امضِ واتننا بالقاضي والشهود .

فلم يكن بأسرع مما أحضرُهم . فقالت الست بدور للقاضي : اكتب كتابي على الأمير عمرو ، وقد وليتُ الشيخَ أبا الحسن عقدَ النكاح .

فخطب القاضي خطبة النكاح وعقد العقدَ بينهما ، فرسم الأميرُ عمرو للقاضي بألف دينار وللشهود بمائتي دينار ، وعمل الوليمة وطبخ الطعامَ وعملَ الحلاوات وجمع الناس ووضَعَ بين أيديهم الموائد وأطعم الشارد والوارد ، وزُفَّت الست بدور تلك الليلة إلى الأمير عمرو ، فلما وقفوا على المنصَّة قلت : ما تصلح إلَّا له ولا يصلح إلَّا لها ، ولو رآها غيره لرزلت

الأرض زلزالها ، ثم تقدّمت إلى الأمير عمرو وقلت له : يا مولاي . المثل يقول : العصفور يتفلى والصياد يتقلّى ، وأنتم تقولون : واطرباه وأنا أقول واجزناه .

فقيالت الست بدور : ما معنى كلامك هذا ؟

قلت : يا سيدتي الأمير عمرو وعدني بوغد والوعد على الكرماء دين .

فقيالت الست بدور : صدق الشيخ أعطه الذي وعده به .

فقال الأمير عمرو لبعض غلمانه : أعط الشيخ أبا الحسن ألفاً وخمسمائة دينار ، يستحق أكثر من ذلك .

ففضى الغلام وعاد بسرعة ومعه كيسٌ وناولني إياه وأعطيني الست بدور مثله . ثم إني ودّعتهم وخرجت إلى أن أتيتُ إلى الأمير محمد بن سليمان الزينبي ، وقعدت عنده على عادتي ، وأخذت رسمي الذي عليه في كل سنة وعدت إلى بغداد فما رأيت سنة أبرك عليّ منها ، حصل لي فيها أربعة آلاف دينار .

وهذا جملة الحديث فتعجّب الخليفة وقال : ما قصّرت يا شيخ أبا الحسن خذ من جعفر ألفَ دينار لأنك أنت الذي أزلت عني ما بقلبي . فقال جعفر : ومن عند أمير المؤمنين ألفَ دينار لأنه هو الذي زال عنه ما كان يجده .

فقال أبو الحسن : صدق الوزير أبقاء الله تعالى ، ثم إنه قبض الألفين ديناراً ومضى إلى منزله والله أعلم .

من هم البرامكة ؟

قال أبو القاسم عبد الملك بن بدرون في شرحه لقصيدة عبد المجيد بن عبدون: جعفر البرمكي . هو جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، والبرمك هو الذي يعمُر بيتَ النور ، وهو بيت النار ، وكان برمكُ من بجوسِ بلخ وكان عظيمَ القدرِ فيهم ، وولدهُ خالدٌ ، فلما كبر صار وزيراً لأبي السفاح . بعد أبي سلمة الخلال ، وقتل هارون الرشيد جعفرًا سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان قد بلغ من الرشيد ما لا يُلغى وزيرٌ من خليفة قبله ، حتى كان يجلسُ معه في حلة واحدة قد اتَّخذ لها جيبان على ما ذكره بعضُ المخبرين حتى بلغ عنده أن يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وولده .

منزلة جعفر عند الرشيد

فمن ذلك ما حكاه ابنُ المهدي عمُ الرشيد ، وهو إبراهيمُ المعروف بابنِ شَكْلَة ، وكانت شَكْلَة أمةً سوداء ، وقد ذُكر أن إبراهيم كان أسود شديدَ السواد ، وكان من الطبقة العُليا في صنعة العود قال : قال لي جعفرُ يوماً : يا إبراهيم ، إذا كان غدٌ فأبكر إلي .

فلما كان الغد مشيتُ إليه بكرة . فجلسنا نتجذَّبُ . فلما ارتفع النهار أحضرَ حَجَّاماً فَحَجَمَنَا . ثم قدَّم لنا الطعامَ فطعِمَنَا ثم خلَعَ علينا ثيابَ المنادمة . وقال جعفرُ لخدمته : لا يدخلُ علينا أحدٌ إلَّا عبد الملك القهرماني .

فنسي الحاجبُ ما قالَ فجاء عبد الملك بن صالح الهاشمي ، وكان رجلاً من بني هاشم ذا ملاحه وعلم وحلم وجلالة قدر وفخامة ذكر وصيانة وديانة . فظنَّ الحاجبُ أنه الذي أمره بإدخاله عليها ، فلما رآه جعفرُ تغيَّرَ لونه ورآهم عبد الملك بن صالح على تلك الحالة ، وظهر له أنهم احتشموه فأراد أن يرفعَ خجله وخجلهم بمُشاركته لهم في فعلهم فقال : اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم .

فجاء الخادمُ فطرحَ عليه ثيابَ المنادمة ثم جلس للشراب ، فلما بلغ ثلاثاً قال للساقى : لتخفف عني فإني ما شربته قط .

فتهلَّل وجه جعفر فقال له : هل من حاجة تبُلِّغها مقدرتي وتحيطُ بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لما صنعت ؟

قال : بلى ، إن أمير المؤمنين عليّ غاضب ، فسله الرضا عني .

قال : قد رضيَ عنك أمير المؤمنين .

قال : عليّ أربعة آلاف دينار .

قال : هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين .

قال : وابني إبراهيم أريد أن أشدَّ ظهره بصهر من أمير المؤمنين .

قال : قد زوجهُ أمير المؤمنين بابنته عائشة .

قال : وأحب أن تحفُّق الألوثة على رأسه .

قال : نعم ، قد ولّاه أمير المؤمنين مصر .

قال إبراهيم بن المهدي ، فانصرف عبدُ الملك بن صالح وأنا أنعجب من إقدام جعفرٍ على قضاء الحوائج من غير استئذان . فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر فلم نلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي ومحمد بن واسع وإبراهيم بن عبد الملك فعقد له النكاح وحملت البدرُ إلى

منزل عبد الملك وكُتب سجل إبراهيم على مصر وخرج جعفر فأشار إلي فلما
 سار إلى منزله ونزلت بنزوله التفت إلي وقال : لعل قلبك معلقٌ بأمر عبد
 الملك بن صالح فأجبت معرفة خبره .
 قلت : نعم .

قال لي : لما دخلت على أمير المؤمنين وتمثلتُ بين يديه وابتدأت
 القصة من أولها إلى آخرها ، كما كانت ، قال الرشيد : أحسن والله أحسن
 والله . ثم قال : ما صنعت ؟ فأخبرته عما سأل وبما أجبت في ذلك فقال :
 أحسنت . وخرج إبراهيم والياً على مصر من يومه والله تعالى أعلم .

الفتى العاشق وجعفر

قال إبراهيم بن إسحاق : كنت منقطعاً إلى البرامكة ، فبينما أنا ذات
 يوم بمترلي وإذا ببائي يدق فخرج غلامي وعاد وقال لي : على الباب فتى
 جميل يستأذن ، فأذنت له ، فدخل شابٌ عليه أثر السقم ، فقال : لي
 مدة أحاول لقاءك ولي إليك حاجة .

فقلت : وما هي ؟

فأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها بين يدي . وقال : أسألك أن تقبلها
 مني وتصنع لي لحناً في بيتين قلتها .

فقلت : أنشدنيها فقال :

بالله يا طرفي الجاني على كبدي لتُطفئنْ بدمعي لوعةَ الحزنِ
 لا لا أبوحنّ حتى تتري سكني فلا أراه ولو أدرجتُ في كفني

قال : فصنعت لهما لحناً يشبه النوح ثم غنّيته فأغمي عليه حتى أني

ظننت أنه مات ثم أفاق ، وقال : أعده فناشدته الله وقلت : أخشى أن تموتَ فقال : ليت ذلك ، وما زال يخضع ويتضرع حتى رحمته وأعدته فصُيِقَ صُعْقَةً أَشَدَّ مِنَ الْأُولَى ، فلم أشك في موته وما زلتُ أنضح عليه من ماء الورد حتى أفاقَ ثم جلس ، فحمدت الله على السلامة ووضعت دنانيره بين يديه وقلت : خذ مالك وانصرف عني .

فقال : لا حاجة لي بها ولك مثلها إن أعدته .

فشرحت نفسي فقلت : أعيده ولكن بثلاث شروط : أولها تقيم عندي تأكل من طعامي حتى تتقوى نفسك ؛ الثاني أن تشرب من الشراب ما يُمسك قلبك ؛ الثالث أن تحدّثني بحديثك .

ففعل ذلك ثم قال : إني رجل من أهل المدينة خرجتُ متترهاً ، وقد سال المطر في العقيق ، مع إخواني فرأيت فتاةً مع فتيات كأنها غصن جلّله الندى ، تنظر بعينين ما ارتدّ طرفها إلا بنفس مُلاحظها ، فظَلَلن حتى فرغ النهار ، فانصرفن وقد رمت بقلبي جراحاً بطيئة الاندمال ، فعدت أتتسّم أخبارها فلم أجد أحداً يرشدني إليها فجعلت أتتبعها في الأسواق فلم أقع لها على خبر ، ومرضت أسيّ ، وحكيت قصّتي لذات قرابة لي فقالت : لا بأس عليك ، هذه أيام الربيع ما انقضت وسُطّطر السماء فتخرج حينئذ ، وأنا أخرج معك فافعل مرادك .

قال : فاطمأنت نفسي بذلك إلى أن سال العقيق وخرج الناس ينظرون فخرجت مع إخواني وقرابتي ، فجلسنا في مجلسنا بعينه فما لبثنا إلّا والنسوة كفرسي رهان فقلت لذات قرابتي : قولي لهذه الجارية يقول لك هذا الرجل : لقد أحسن من قال :

رمتني بسهم أقصد القلب وانثنت وقد عاودت جرحاً به وندوبا

قال : فضضت إليها وقالت لها ذلك ، فقالت لها : قولي له ، وقد حسن من أجابه :

بنا مثلُ ما تشكو فصبراً لعلنا نرى فرجاً يُشفي القلوبَ قريباً

قال : فأمسكت عن الكلام خوفاً الفضيحة ، وقت منصرفاً ، فقامت لقيامي فتبعته قرايتي حتى عرفت منزلها ، ورجعت فأخذتني ، وسرنا إليها حتى اجتمعنا . واتصل ذلك حتى شاع وظهر وحجبا أبوها . فلم أزل مجتهداً في لقائها فلم أقدر ، وشكوت ذلك إلى أبي فجمع أهلنا ومضى إلى أبيها راغباً في خطبتها فقال : لو بدا له ذلك قبل أن يفضحها لفعلت ولكنه شهرها ، فما كنت لأحقق قول الناس . قال إبراهيم فأعدت عليه الصوت وعزفتي منزله ثم انصرف . وكانت بيننا عشرة . ثم جلس جعفر بن يحيى وحضرتُ على عادتي فغنيته شعر الفتى . فطرب وشرب أقداحاً وقال : ويلك ! لمن هذا الصوت ؟

فحدثته حديث الفتى فأمرني بالركوب إليه وأن أجعله على ثقة من بلوغ أربه ، فضضت إليه وأحضرتة فاستعاد الحديث فحدثته فقال : هي في ذمتي حتى أزوجه إياها فطابت نفسه ، وأقام معنا ، فلما أصبح ركب جعفر إلى الرشيد وحدثه بذلك فاستظرفه ، وأمر أن يحضرا جميعاً واستعاد الصوت وشرب عليه ، فأمر بكتف كتاب إلى عامل الحجاز بإحضار المرأة وأهلها ووالدها مبجلين إلى حضرته ، والإنفاق عليهم نفقة واسعة ، فلم يَمُضْ إلا يسيراً حتى حضروا ، فأشار الرشيد بإيصال الرجل إليه ، فحضر وأمر بتزويج ابنته من الفتى ، وأعطاه ألف دينار ، ونقلت إلى أهله ، ولم يزل الشاب من ندماء جعفر حتى حدث ما حدث فعاد الفتى بأهله إلى المدينة ، فرحم الله تعالى أرواحهم أجمعين .

الوزير أبو عامر والملك الناصر والغلام حكاية أجنبية

مما اتفق أن الوزير أبا عامر أحمد بن مروان كان قد أهدي له غلاماً من النصارى لا تقع العيون على أحسن منه . فلمحه الملك الناصر ، فقال له : أنى لك هذا ؟

قال : هو من عند الله .

فقال : تتحفونا بالنجوم ، وتستأثرون بالأقمار .

فاعتذر إليه ثم احتفل في هدية بعثها إليه مع الغلام ، وقال له : كن داخلاً في جملة الهدية ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي ، وكتب معه هذه الأبيات :

أمولاي هذا البدر سار لأفقيكم وللأفق أولى بالبدور من الأرض
أرضيكم بالنفس ، وهي نفيسة ولم أر قبلي من بمهجته يُرضي

قال : فحسن ذلك عند الناصر ، وأتحفه بمال جزيل ، وتمكن عنده ، ثم بعد ذلك أهديت للوزير جارية من أجمل نساء الدنيا ، فخاف أن ينهى ذلك إلى الناصر فيطلبها ، فتكون كقصة الغلام ، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وأرسلها مع الجارية ، وكتب معها هذه الأبيات :

أمولاي هذي الشمس والبدر أولاً تقدّم كيما يلتقي القمران
قرانٌ لعمري بالسعادة ناطقٌ فدُم معها في كوثر وجنان
فما لها والله في الحسن ثالثٌ وما لك في مثلك البرية ثانٍ

قال : فتضاعفت مكانته عنده ، ثم وَشَى به بعضُ أعدائه عند الناصر
أنَّ عنده بقيةٌ من حبِّ الغلام ، وأنه لا يزال يلهجُ بذكره حين تُحرَّكه
الشُّمول ، فيقرعُ السِّينَ على تعدُّرِ الوصولِ إليه . فقال الناصر للواشي : لا
تحرك به لسانك ، وإلا طارَ رأسك ، وكتب على لسان الغلام ورقةً فيها :
يا مولاي تعلمُ أنك كنت لي على الانفراد ، ولم أزل معك في نعيم وأنا وإن
كنتُ عند السلطان مشاركاً في منزله محاذراً ما يبدو من سطوة المَلِك .
فَتَحَيَّلَ في استدعالي منه .

ثم بعثها مع غلام صغير وأوصاه أن يقول هي من عند فلان ، وإن
الملك لم يكلمه قط ، فلما وقف عليها أبو عامر واستخبر الخادمَ أحسنَّ
بالمكيذة ، فكتب على ظهر الورقة يقول :

أمن بعد أحكام التجارب ينبغي	لديّ سقوط العير في غابة الأسد
ولا أنا ممَّن يغلبُ الحبُّ عقله	ولا جاهلٌ ما يدَّعيه أولو الجسد
فلنُكُنَّ رُوحِي قد وهبْتُك طائعاً	وكيف يرُدُّ الروح إن فارقَ الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجَّب من فطنته ، ولم يعد إلى سماع
واشٍ فيه بعد ذلك ، ثم قال له : كيف خلصت من الشرك؟ قال : لأن
عقلي بالهوى غير مشترك .

سبب قتل البرامكة وما وقع لهم مع الرشيد

والقصة في ذلك على ما رواه إبراهيم بن إسحاق عن أبي ثور زاهر بن صقلاب قال : بلغني أنه كان لهارون الرشيد مجلس بالليل مع جعفر البرمكي . فقال له يوماً : لا يطيبُ لي ذلك إلا بمَحْضَرِ أُخْتِي ميمونة^١ ، ولكن لا يجوز إلا إن كتبتُ لك عليها لإباحة النظر من غير أن تقرَّ بها .

فاتفقا على ذلك وعقد له عليها ثم أحضرها فكانت تحضر لذلك المجلس إلا أنه زادَ غَرامُها وعشَقُها فيه ، وكان لجعفر البرمكي امرأة تزَّينَ له الجواري كلَّ ليلةٍ ، فجاءت ميمونةٌ إليها ورشتها بجمالٍ فزَّينتها له ، وأدخلتها عليه ، فظن أنها جاريةٌ فواقعها . فلما أصبحوا قالت له : أنا ميمونةٌ ، وقد كنتُ أسألك أن تساعدني على مودَّتِكَ فتأبى . فلما أيسست منك احتلت عليك بما رأيت في هذه الليلة ، وإن لم تواظب لأكوننَّ سبباً في سلب نعمتك ، وهل أنت إلا زوجي ؟

فقال لها جعفر : ويحك أهلكني وأهلك نفسك .

وكان كما قال ، ولم يزرها حتى ظهر أمرها للرشيد ، فهذا كان سبب قتل البرامكة وهذا ابتداء الحديث .

قال المبرِّد : قال أبو عبد الله المارستاني عن يحيى بن أكرم القاضي ،

١ قوله : ميمونة : هكذا في الأصل ، وفي روايات أخرى أن اسمها العباسر ، وقد أورد ابن خلدون في مقدمته هذا الاسم حين نقده هذه القصة .

قال : سألت إسماعيل بن يحيى الهاشمي عن سبب زوال نعمة البرامكة .
قال : نعم أعرف صحة الخبر وباطن القصة : كان سبب ذلك أني كنت
مع الرشيد يوماً من الأيام راكباً إلى الصيد ، فبينما نحن نسير إذ نظر إلى
موكب بالبعد اعترضنا ، فقال لي : يا إسماعيل لمن هذا ؟

قلت : هو لأخيك جعفر بن يحيى .
فالتفت يميناً وشمالاً إلى من معه في موكب ، فإذا هو شرذمة يسيرة ،
ثم نظر إلى الموكب الذي فيه جعفر فلم يره . فقال : يا إسماعيل ما فعل
جعفر وموكبه ؟

قلت : يا سيدي قد مضى أخوك في طريق ولم يعلم بموضعك .
فقال : ما رأنا أهلاً أن يزيتنا بمركبه ويحملنا بحيشه .
قلت : العفو يا أمير المؤمنين ، لو علم بمكانك ما تعداك وما سار إلا
بين يديك ، واعتذرت بما حضر لي من الكلام .

ثم سرنا حتى انتهينا إلى ضيعة عامرة ومواشي كثيرة وعمارة حسنة ،
وكان الطريق يدور عليها ، فدُرنا حتى وردنا باب القرية ، فنظر الرشيدُ إلى
البيدر وإلى كثرة الغلال فيه والمواشي ويسار أهلها ، فالتفت إليّ وقال : يا
إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟

قلت : لأخيك جعفر بن يحيى .
فسكت ثم تنفّس الصعداء ثم سرنا ولم يزل يمرُّ بكل ضيعة أعمر من
الأخرى ، وكلما مرّ وسألني عن ضيعة قلتُ : لجعفر بن يحيى ، حتى سرنا
ووصلنا إلى المدينة ، فلما أردتُ وداعه والانصرافَ إلى منزلي نظر إلى من
كان حواليه نظرة ، فعلموا ما أراد ففرّقوا وبقيت أنا وهو ، فقال : يا
إسماعيل .

قلت : لَيْبِكَ يا أمير المؤمنين .

فقال : انظر إلى البرامكة أغنيانهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم .

فقلت في نفسي : بلية والله ، ثم قلت : لماذا يا أمير المؤمنين ؟

قال : نظرتُ لهؤلاء وغفلتُ عن هؤلاء لأنني لا أعرف لأحد من

أولادي ضيعة من ضياع البرامكة على طريق واحد ، على قرب هذه المدينة ، فكيف بما هو لهم غير ذلك على غير هذا الطريق في سائر البلدان .

فقلت : يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك ، والضيعات

وأموالهم وكل ما يملكون لك .

فنظر إليّ نظرة جبار عنيد .

ثم قال : ما عدَّ البرامكةُ بني هاشم إلا عبيدَهم ، وأنهم هم الدولة

وأن لا نعمة لبني العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها .

فقلت : أمير المؤمنين أبصرُ من غيره بخبره ومواليه .

فقال : والله يا إسماعيل ! إنك لتعلم أني قلت هذا وكأني أراك أن

تُعلِّمهم بكلامي فتتخذُ لك عندهم يداً ، وإني آمرك أن تكتمَ هذا الأمر

فإنه ما علم به أحدٌ غيرك ، ومتى بلغهم شيء مما جرى ؟ علمت أنه ما أفساه إلا أنت .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أعوذ بالله أن يكون مثلي يُفشي سرَّك .

قال : وكان هذا القول أولُ ما ظهر من أمر البرامكة ، ثم ودَّعته

وانصرفت متفكراً في إيقاع الحيلة عليهم .

فلما كان من الغد بكرتُ إليه ، وجلست بين يديه وكان في محلِّ

يشرف على الدجلة من شرقي مدينة باب السلام ، وبإزائه منزل جعفر من

الجانب الغربي ، وكانت المواكب من جميع الأصناف : من قائد وأمير

وعامل يردون في كل يوم إلى قصر جعفر ، فالتفت إليّ وقال : يا إسماعيل ، هذا ما كنّا فيه بالأمس . انظروكم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب ، وأنا ما على باب داري أحد؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ، ناشدُك الله أن لا تعلق نفسك بشيء من هذا . وإن جعفرًا إنّما هو عبدك وخادمك ووزيرك وصاحب جيوشك ، إذا لم يكن الجيش على بابه فعلى باب من يكون ؟ إنّما بابه باب من أبوابك .

فقال : يا إسماعيل ، انظر إلى دوابهم ألسّت ترى أعجازهم إلى قصري وتروث بإزائنا ، ونحن ننظر إليها ، والله هذا هو الاستخفاف بعينه ، والله لا أصبر على ذلك .

ثم غضب غضباً شديداً وامتلاً غيظاً ، فأمسكت عن الكلام وقلت : والله هذا قضاء من الله سابقٌ وحكم لا محالة واقع ، ثم استأذنته في الانصراف ورجعت إلى منزلي ، فلقيني جعفر في الطريق يريد الرشيد ، فتواريت عنه حتى مضى ، فدخل إليه وسلّم عليه فأجلسه عن يمينه وأكرمه غاية الإكرام وبشّر في وجهه وحادثه ساعة ووهب له خادماً من خاصة خدمته وأنبلهم وأوضحهم وجهاً وأكملهم ظرفاً ، كاتباً حاسباً لبيباً ، فسرّ جعفر سروراً كاملاً ، ووقع في قلبه أجلٌ موقع ، وكان دسيساً عليه وبلية لديه يرفع أخباره إلى الرشيد ويحصي عليه أنفاسه ساعة بساعة ووقتاً بوقت ، فخلا به جعفر يومه ذلك وليلته واحتجب من أجله عن الناس ، فلما كان بعد ثلاثة أيام سرت إلى جعفر فسلمت عليه ، فلما خلا مجلسه ولم يبقَ عنده غيري وذلك الخادم واقفٌ ، وعلمت أن الخادم يُحصي علينا أخبارنا فقلت : أيها الوزير ، نصيحة أفتأذن لي في الكلام؟

قال : تكلم .

وكان الرشيد ولّاه كورة خراسان كلّها وما يضاف إليها وينسب لها قبل هذا الكلام بأيام ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكراً بالنهروان ، وضرب الناس مضاربهم بها ، وهم متأهبون للسفر ، فقلت : يا سيدي ! أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده ؟

فلما قلت ذلك نظر إليّ مغضباً وقال : والله يا إسماعيل ، ما أكل الخبز ابن عمك أو قال صاحبك إلّا بفضلتي ، ولا قامت هذه الدولة إلّا بنا ، أما كفى أني تركته لا يهتم بشيء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله أموالاً ، ولا زلت للأُمور الجلييلة أدبرها حتى يمدّ عينيه إلى ما ادّخرته واخترته لولدي وعقبتي من بعدي ، وداخله حسد بني هاشم وبغيهم ودبّ فيه الطمعُ والله لئن سألتني شيئاً من ذلك ليكوننّ وبالأعلى عليه سريعاً .

فقلت : والله يا سيدي ، ما كان ممّا ظننت شيء ولا تكلم أمير المؤمنين بحرف .

قال : فما هذا الفضول منك ، فقعدت بعدها هنيهة ثم قمت إلى منزلي ولم أركب إليه ولا إلى الرشيد لأنني صرت بينها في حال تهمة ، وقلت في نفسي : هذا الخليفة وهذا وزيره ، وأي شيء لي بالدخول بينها ؟ ولا شك في زوال نعمة البرامكة ، وأن أمورهم قد انثلمت .

قال : وحدّثني خادم أم جعفر : أن الخادم الذي وهبه الرشيد لجعفر كتب إلى الرشيد بما كان بيني وبينه ، وما تكلم به من الكلام الغليظ . قال : فلما قرأ الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلاثة أيام متفكراً في إيقاع الحيلة على البرامكة فدخل في اليوم الرابع على زبيدة فخلا بها وشكا لها ما في قلبه ، وأطلعها على الكتاب الذي رفعه إليه الخادم ، وكان بين جعفر

وزيدة شرّ وعداوة قديمة فلما تَمَلَّكَتِ الحِجَّةَ عليه بالغت في المكر بهم واجتهدت في هلاكهم ، وكان الرشيد يتبرَّك بمشورتها ، فقال : أشيري عليّ برأيك الموافق الرشيد ، فإنني خائف أن يخرج الأمر من يدي إن تَمَكَّنُوا من خراسان وتغلَّبوا عليها ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين ! مثلك مع البرامكة كمثَّل رجل سكران غريق في بحر عميق ، فإن كنت قد أفقت من سكرتك وتخلَّصت من غرفتكَ أخبرتك بما هو أصعبُ عليك وأعظمُ من هذا بكثير ، وإن كنت على الحالة الأولى تركتُكَ .

فقال لها : قد كان ما كان ، فقولي أسمع منك .

فقلت : إن هذا الأمر أخفاه عنك وزيرك وهو أصعب مما أنت فيه وأقبح وأشنع .

فقال لها : ويحك ، وما هو ؟

فقلت : أنا أجلّ من أن أناطبك به ولكن تُحضِرُ أرجوانَ الخادم وتشدّد عليه وتؤوِّهه ضرباً فإنه يعرفك الخبر .

وكان الرشيد قد أحلَّ جعفرًا محلاً لم يحلّه أخوه ولا أبوه ، وأمره أن يدخل على الحريم في السفر والحضر وأبرز إليه جواريه وأخواته وبناته لأنه كان بينهما رضاع سوى امرأته زبيدة ، فإنه لم يكن رآها ولا دخل عليها ولا قضى لها حاجة ، ولا هي أيضاً تستقضيه حاجة ، فلما فسد قلب الرشيد وعزم على هلاك البرامكة وجدّت سبيلاً على البرامكة فحطّت على جعفر ، وكان جعفر يدخل على الحريم في غياب الرشيد ويقضي حوائجهم لأنهن لا يستترن منه ، وكان ذلك بأمر الرشيد ، ولم يعلم الرشيد ما حدث من جعفر .

قال : فخرج الرشيد واستدعى أرجوان الخادم وأحضر السيف

والتطع ، وقال : برئت من المنصور إن لم تصدقني في حديث جعفر لأقتلنك .

فقال : الأمانُ يا أمير المؤمنين ؟

قال : نعم لك الأمان .

فقال : اعلم أن جعفرًا قد بخانك في أختك ميمونة ، وقد دخل بها منذ سبع سنين وولدت منه ثلاث بنين : أحدهم له ست سنين ، والآخر له خمس سنين ، والثالث عاش سنتين ومات قريباً ، والاثنان قد أنفذهما إلى مدينة الرسول ﷺ ، وهي حامل بالربيع ، وأنت أذنت له بالدخول على أهل بيتك ، وأمرتني أن لا أمنعه في أيّ وقت شاء ليلاً أو نهاراً .

قال : أمرتك أن لا تحجبه ، فحين حدثت هذه الحادثة لِمَ لا أخبرتني أول مرة ؟ ثم أمر بضرب عنقه ، وقام من وقته على الفور ، ودخل على زبيدة ، وقال لها : رأيت ما عاملني به جعفر وما ارتكب من هتك ستري ونكس رأسي وفضّحني بين العرب والعجم ؟

فقلت : هذه شهوتك وإرادتك ، عمدت إلى شاب جميل الوجه حسن الثياب طيب الرائحة جبار في نفسه ، أدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله ، وهي أحسن منه وجهاً ، وأنظف منه ثوباً ، وأطيب منه رائحة ، لكنها لم تر رجلاً قط غيره ، فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب .

فخرج من عندها مكروباً فدعا بخادمه مسروراً ، وكان قاسي القلب فظاً غليظاً قد نزع الله الرحمة من قلبه ، فقال : يا مسرور ، إذا كان الليلة بعد العتمة فأتي بعشرة من الفعلة أجلاًداً ومعهم خادمان .

قال : نعم .

فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلة والخادمان ، فقام الرشيد

وهم بين يديه حتى أتى المقصورة التي فيها أخته فنظر إليها وهي حامل فلم يكلمها بشيء ولم يعاتبها على ما فعلت ، وأمر الخادمين بإدخالها في صندوق كبير في مقصورتها بعد قتلها ووضعها بحليها وثيابها كما هي وأقفل عليها ، وقد علمت أنها بعد قتل أرجوان لاحقة به ، فلما علم أنه استوثق بها دعا بالفعلة ومعهم المعاول والزناويل فحفروا وسط تلك المقصورة حتى بلغوا الماء وهو قاعد على كرسي ، ثم قال : حسبكم ! هاتوا الصندوق ، فدلوه في تلك الحفرة ، ثم قال : ردّوا التراب عليه ، ففعلوا وسوّوا الموضع كما كان ، ثم أخرجهم وأقفل الباب وأخذ المفتاح معه وجلس في موضعه والفعلة والخادمان بين يديه ، ثم قال : يا مسرور ! خذ هؤلاء القوم وأعطهم أجرتهم . فأخذهم مسرور وجعلهم في جواليق وخيط عليهم بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم في وسط الدجلة ورجع من وقته فوقف بين يديه ، فقال : يا مسرور ! فعلت ما أمرتك به ؟

قال : وفيت القوم أجورهم .

فدفع إليه مفتاح البيت ، وقال : احفظه حتى أسألك عنه ، وامض الآن فانصب في وسط المحل القبة التركية .

ف فعل ذلك ووافاه قبل الصبح ولم يعلم أحد ما يريد . فلما جلس في مجلسه وكان يوم الخميس يوم موكب جعفر . قال : يا مسرور لا تتباعد عني .

ودخل الناس فسلموا عليه ووقفوا على مراتبهم ودخل جعفر بن يحيى البرمكي فسلم عليه فردّ عليه السلام أحسن ردّ ورحّب به وضحك في وجهه ، فجلس في مرتبته ، وكانت مرتبته أقرب المراتب إلى أمير المؤمنين ، ثم حدّثه ساعة وضاحكه . فأخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحي ، فقرأها عليه ، وأمر ، ونهى ، ومنع ، ونفّذ الأمور ، وقضى

حوائج الناس ، ثم استأذنه جعفر في الخروج إلى خراسان في يومه ذلك ، فدعا الرشيد بالمنجم ، وهو جالس بحضرته ، فقال الرشيد : كم مضى من النهار .

قال : ثلاثُ ساعات ونصف .

وأخذ له الارتفاع وحسب له الرشيد بنفسه ونظر في نجمه ، فقال : يا أخي ، هذا يوم نحوسك ، وهذه ساعة نحس ، ولا أرى إلّا أنه يحدث فيها حدث ، ولكن تصلي الجمعة وترحل في سعودك وتبيت في النهروان وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق بالنهار ، فإنه أصلح من اليوم .

فما رضي جعفر بما قاله الرشيد حتى أخذ الاصطلاب^١ من يد المنجم وقام وأخذ الطالع وحسب الطالع لنفسه ، وقال : والله صدقت يا أمير المؤمنين ؛ إن هذه الساعة ساعة نحس ، وما رأيت نجماً أشدّ احتراقاً ولا أضيّق مجرى من البروج في مثل هذا اليوم .

ثم قام وانصرف إلى منزله ، والناس والقواد والخاصّ والعامّ من كل جانب يعظمونه ويبجلونه إلى أن وصل إلى قصره في جيش عظيم ، وأمر ونهى وانصرف الناس فلم يستقرّ به المجلس حتى بعث إليه الرشيد مسروراً ، وقال له : امض إلى جعفر وأتني به الساعة ، وقل له : وردت كتب من خراسان ، فإذا دخل الباب الأول أوقف الجند ، وإذا دخل الباب الثاني أوقف الغلمان ، وإذا دخل الباب الثالث فلا تدع أحداً يدخل معه من غلمان ، بل يدخله وحده ، فإذا دخل صحن الدار قل به إلى القبة التركية التي أمرتك بنصبها فاضرب عنقه ، واثنى برأسه ، ولا توقف أحداً من خلق الله على ما أمرتك به ، ولا تراجعني في أمره ، وإن لم تفعل أمرت

١ الاصطلاب ، أو الاصطلاب : آلة يقيس بها الفلكيون ارتفاع الكواكب .

من يضرب عنقك ويأتينني برأسك ورأسه جملة ، وفي هذا كفاية ، وأنت أعلم ، وتبادر قبل أن يبلغه الخبر من غيرك .

فضى مسرور واستأذن على جعفر فدخل عليه ، وقد نزع ثيابه وطرح نفسه ليسترخ ، فقال : سيدي ! أجب أمير المؤمنين .

قال : فانزعج وارتاع منه ، وقال : ويلك يا مسرور ! أنا في هذه الساعة خرجت من عنده ؛ فما الخبر ؟

قال : وردت كتب من خراسان يحتاج أن تقرأها .

فطابت نفسه ودعا بثيابه فلبسها وتقلد سيفه وذهب معه ، فلما دخل من الباب الأول أوقف الجند ، وفي الثاني أوقف الغلمان ، فلما دخل من الباب الثالث التفت فلم يرَ أحداً من غلمانه ولا الخادم الفرد ، فندم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع ، فلما صار بإزاء تلك القبة المضروبة في صحن الدار مال به إليها وأنزله عن دابته وأدخله القبة فلم يرفها أحداً . وفي رواية : رأى فيها سيفاً ونطعاً فحسّ بالباء ، وقال لمسرور : يا أخي ما الخبر ؟

فقال له مسرور : أنا الساعة أخوك ، وفي منزلك تقول لي : ويلك ! أنت تدري ما القضية ؟ وما كان الله ليهملك ولا ليغفلك ، فقد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك وحمل رأسك إليه الساعة .

فبكى جعفر وجعل يقبل يدي مسرور ورجليه ، ويقول : يا أخي ! يا مسرور ، قد علمت كرامتي لك دون جميع الغلمان والخاصية ، وأن حوائجك عندي مقضية في سائر الأوقات ، وأنت تعرف موضعي ومحلي من أمير المؤمنين ، وما يوحيه إليّ من الأسرار ، ولعلّ أن يكونوا بلغوه عني باطلاً ، وهذه مائة ألف دينار أحضرها لك الساعة قبل أن أقوم من موضعي هذا ، واخلني أهم على وجهي .

فقال : لا سبيل إلى ذلك أبداً .

قال : فاحملني إليه وأوقفني بين يديه ، فلعلّه إذا وقع نظره عليّ
تدرّكه الرحمة فيصّبح عنيّ ؟

قال : ما لي سبيل إلى ذلك أبداً ، ولا يُمكنني مراجعته ، وقد
علمت أنه لا سبيل إلى الحياة أبداً .

قال : فتوقّف عنيّ ساعة وارجع إليه ، وقل له : قد فرغت مما
أمرتني به ، واسمع ما يقول ، وعد فافعل ما تريد ، فإن فعلت ذلك
وحصلت لي السلامة ، فأني أشهد الله وملائكته أني أشبّطرك في نعمتي مما
ملكته يدي وأجعلك أمير الجيش وأملكك أمر الدنيا .

ولم يزل به وهو يبكي حتى طمع في الحياة . فقال له مسرور : ربما
يكون ذلك .

وحلّ سيفه ومنطقته وأخذهما ووكل به أربعين غلاماً من السودان
يخفظونه ومضى مسرور ووقف بين يدي الرشيد وهو جالس يقطر غضباً ،
وفي يده قضيب ينكث به الأرض . فلما رآه قال له : ثكلتك أمك ما
فعلت في أمر جعفر ؟

فقال : يا أمير المؤمنين قد أنفذت أمرك فيه .

فقال : فأين رأسه ؟

فقال : في القبة .

قال : فأتني برأسه الساعة .

فرجع مسرور وجعفر يصلّي ، وقد ركع ركعة فلم يُمهله أن يصلّي
الثانية حتى سلّ سيفه الذي أخذه منه وضرب عنقه وأخذ رأسه بلحيته
فطرحه بين يدي أمير المؤمنين ، وهو يشخب دماً فتنفّس الصُّعداء وبكى

بكاءً شديداً وجعل ينكت الأرض أثر كل كلمة ويقرع أسنانه بالقضيب ،
ويخاطبه ، ويقول : يا جعفر ألم أحلك محلّ نفسي ؟ يا جعفر ! ما كافأتني
ولا عرفت حقّي ولا حفظت عهدي ولا ذكرت نعمتي ولا نظرت في
عواقب الأمور ، ولا تفكّرت في صروف الدهر ، ولا حسبت تقلّب الأيام
واختلاف أحوالها ، يا جعفر ختني في أهلي وفضحتني بين العرب والعجم ،
يا جعفر ، أسأت إليّ وإلى نفسك ولا تفكّرت في عاقبة أمرك .

قال مسرور : وأنا واقف بين يديه ، وهو ينكت الأرض في كل
كلمة ، ولم يزل كذلك إلى أن أذن لصلاة الظهر ، فدعا بماء فتوضأ
للصلاة وخرج للجامع فصلّى بالناس جماعة ، ثم التفت بوجهه لقصور
جعفر ودوره وقبض على أبيه وأخيه وجميع أولاد البرامكة ومواليهم
وغلمانهم واستباح ما فيها ، ووجّه مسروراً إلى العسكر فأخذوا جميع ما فيه
من مضارب وخيام وسلاح وغير ذلك . فلما أصبح يوم السبت ، فإذا هو
قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو ألف إنسان ، وترك من بقي منهم لا
يرجع إلى وطنه وشئت شملهم في البلاد ، ولم يقدر أحد منهم على كسرة
خبز ، وحبس أباه يحيى وأخاه الفضل في مطمورة^١ ، وأمر بجثة جعفر
فصُلبت على الجسر ببغداد ، ثم بعث إلى خراسان أن يوطن^٢ بلادها ، وأمر
الناس فردّوا مضاربهم ودخل العسكر ، واستقرّت له الأمور وأحضر علي
بن عيسى بن ماهان ، فولّاه خراسان ، ثم وجّه إلى مدينة النبي ﷺ فأثنى
بالصبيين ولدي جعفر من أخته ميمونة فأدخلها عليه في بيته . فلما رأها
أعجب بهما وكانا في نهاية من الحسن والجمال ، فاستنطقها فوجد لغتها
مدنية وفصاحتها هاشمية ، وفي ألفاظها عذوبة وبلاغة ، فقال لكيرهما :

١ المطمورة : حفيرة في الأرض تحبّأ فيها الحبوب ونحوها .

٢ وطن البلد : اتخذها وطناً له .

ما اسمك يا قرّة عيني؟

قال : الحسن .

وقال للصغير : ما اسمك يا حبيبي؟

قال : الحسين .

فنظر إليهما وبكى بكاءً شديداً ، ثم قال : يعزّ عليّ حسنكما وجهكما
لا رحم الله من ظلمكما ولم يدري ما يراد بهما ، ثم قال : ما فعلتَ بالفتاح
الذي دفعته لك وأمرتكَ بحفظه؟

قال : هو حاضر يا أمير المؤمنين .

قال : فائتني به .

ثم دعا بجماعة من الغلمان والخدم وأمرهم أن يحفروا في البيت حفرة
عميقة ودعا مسروراً وأمره بقتلها ودفنها مع أمها في تلك الحفرة ،
رحمهم الله تعالى جميعاً ، وهو مع ذلك يبكي بكاءً شديداً حتى ظننت أنه
رحمهما ، ثم مسح عينيه من الدموع وأمر أن لا تُذكر البرامكة في مجلس ،
ولا يستعان بمن بقي منهم في المدينة أبداً . فخرجوا على وجوههم في البلاد
شاردين متكرين وقطع الله دابرهم .

قال : فلما كان بعد مدّة من هلاك البرامكة وجد الرشيد رقعة تحت
مصلّاه فيها خطاب وأبياتٌ من الشعر فبحث عنها ، فقبل : إن صاحب
السّر عملها ، فبعث إليه فسأله عنها ، فقال : يا أمير المؤمنين وجدتها في
صحن الدار ، ولا أعلم من طرحها فأخذتها وطرحتها تحت مصلاك ،
فقبل : إن ذلك من زبيدة لتهلك من بقي من البرامكة فعملت الرقعة للرشيد
وحركته وزادت في غيظه ، فاستدعى في الوقت بالفضل بن يحيى وضربه
سياطاً حتى كاد يهلكه وزاد في حديده وأغلاله ، ثم استدعى يحيى وكان
شيخاً كبيراً ، وزاد في حديده وأغلاله أيضاً ، وكان قد أنشأ في النعم ،

فتذكر فقد جعفر وتشئت الأهل ، فكتب كتاباً إلى الرشيد يستعطفه ويسأله
أن يخفف عنه من القيد والغل ، وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى أمير المؤمنين ونسل المهديين وإمام
المسلمين وخليفة رسول الله رب العالمين ، من عبد أسلمته ذنوبه وأوثقته
عيوبه وخذله شقيقه ورفضه صديقه وخانه الزمان وأناخ عليه الخذلان ونزل
به الحدّان فصار إلى الضيق بعد السّعة ، وعالج الموت بعد الدّعة ،
وشرب كأس الموت مترعة ، وافترش السُّخْط بعد الرضا ، واكتحل
بالسهر بعد الكرى ، فنهاره فكرٌ ونومه سهر ، وساعته شهرٌ وليله دهرٌ قد
عاین الموت مراراً وشارف الهلاك جهاراً ، يا أمير المؤمنين ، قد أصابني
مصيبتان : الحال والمال ؛ أما المال ، فإن ذلك منك ولك ، وكان في
يدي عارية منك ، ولا بأس بردّ العواري إلى أهلها ، وأما المصيبة بجعفر
فبجرمه وجراءته وعاقبته بما استخفّ من أمرك وكان جزاؤه فوق ما
استحقّ ، وأما الفقير ، فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتي وارحم ضعفي ووهن
قوّتي وهب لي رضاك فن مثلي الزلل ومن مثلك الإقالة ، ولست أعتذر
ولكن أقرّ وقد رجوت أن أفوز برضاك فتقبل عذري وصدق نيتي وظاهر
طاعتي وتلويح حجّتي فني ذلك ما يكتفي به أمير المؤمنين ويرى الحقيقة فيه
ويبلغ المراد منه . ثم أنشأ يقول :

قل للخليفة ذي الصنا	ثع	والعطايا	الفاشية
وابن الخلائف من قريد	ش	والمملوك	العالیه
رأس الأمور وخير من	ساس	الأمر	الماضيہ
إنّ البرامكة الذيد	نَ	رُمُوا	لَدَيْكَ
عمّتهمو لك سَخْطَةٌ	لم	تُبْقِي	منهم
فكأنهم ممّا بهم	أعجازُ	نخل	خاويه
صفرُ الوجوه عليهم	خِلْعُ	المذلة	باديه

مستضعفون ومُطردو ن بكل أرضٍ قاصيه
بعد الإمارة والوزا رة والأمور الساميه
ومنازلٍ كانوا بها فوق المنازلِ عاليه
أضحوا ، وجلُّ مُنا همو منك الرضا والعافيه
يا مَنْ يُريد لي الردى يكفيك ، ويحك ، ما بيه
يكفيك أني مستبا حُ عِترتي ونسائيه
يكفيك ما أبصرته ذلي وذلّ مكانيه
فلقد رأيتُ الموت من قبل المماتِ علانيه
وبكاء فاطمة الكبي رة والدموع الجاريه
ومقالها بتفجع : يا سوائي وشقائيه
من لي ، وقد غلب الزما نُ على جميع رجاليه
يا لهفَ نفسي ، لهفأ ما للزمان وما ليه
أوما سمعتَ مقالتي يا ذا الفروع الزاكيه
يا عطفة الملك الرضا عودي علينا ثانيه

فلما وقف الرشيد على الرقعة ، كتب على ظهرها هذه الأبيات :

يا آلَ برمك ! إنكم كتمتم ملوكاً عاتيه
فعصيتُمو وطغيتمو وكفرتمو نَعائيه
هذي عقوبة من عصى مَنْ فوقه وعصانيه
أجري القضاء عليكمو ما خنتُمُوهُ علانيه
من تركِ نُصح إمامكم عند الأمور الباديه

ثم أردفه بقوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم وضربَ الله مثلاً ، قريةً كانت آمنةً مطمئنةً

يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوفِ بما كانوا يصنعون .

فلما قرأها يحيى ، وهو بالسجن ، أخذته الحمى لوقته وساعته ، وكان ينام على التراب وأيس من الحياة ، وعلم أنه ليس له مخلصٌ مما هو فيه من السجن ، انتهى .

أحسن ما رأى جعفر

وقيل ليحيى بن خالد برمك : أيها الوزير ، أخبرنا بأحسن ما رأيت في أيام سعادتك ؟

قال : ركب يوماً في بعض الأيام في سفينة أريدُ التَّزُّه ، فلما خرجت برجلي لأصعد ، فاتكأت على لوح من ألواحها وكان بأصبعي خاتم فطار فصُّه من يدي ، وكان ياقوتاً أحمرَ قيمته ألفٌ مثقال من الذهب ، فتطيرت من ذلك . ثم عدت إلى منزلي ، وإذا بالطباخ قد أتى بذلك الفصَّ بعينه ، وقال : أيها الوزير لقيت هذا الفصَّ في بطن حوت ، وذلك لأنِّي اشتريت حيتاناً للمطبخ ، فشقق بطنها فرأيت هذا الفصَّ ، فقلت : لا يصلح هذا إلا للوزير أعزّه الله تعالى . فقلت الحمد لله هذا بلوغ الغاية .

أعظم ما مرَّ به

وقيل له : أخبرنا ببعض ما لقيت من المحن ؟

قال : اشتيت لحماً في قدر طباخ ، وأنا في السجن فغرمت ألف دينار في شهوتي حتى أتيت بقدرٍ ولحمٍ مقطّعٍ في قصبة فارسية ، والخلُّ وسائر حوائجها في قصبة أخرى وتركوا عندي ما أحتاج إليه ، وأتيت بنار

فأوقدت تحت القدر ونفخت ، ولحيتي في الأرض حتى كادت روعي
تخرج . فلما أنصجت تركتها تفور وتغلي وقت الخبز وعمدت لأنزلها فانفلتت
وانكسرت القدر على الأرض ، فبقيت ألتقط اللحم وأمسح منه التراب
وأكله . وذهب المرق الذي كنت أشتهيه ، وهذا أعظم ما مرّ بي ، انتهى .

موت يحيى البرمكي

ثم إن الرشيد نذر الحج ، فخرج وخرج معه العسكر وكان خروجه في
رمضان ، فكانت تُضرب له السُرادقات المكلّلة بالديباج مفروشة بالحرير ،
يخرج من سُرادق إلى سُرادق ، والناس مُحدقون به ، حتى وصل إلى
الحرم وحجّ . فاتفق أن الوفاة دنت من يحيى ، وهو في السجن ، فكتب
رقعة وأوصى ولده الفضل أن يُوصلها إلى الرشيد وكتب فيها هذه
الآيات :

ستعلمُ في الحسابِ إذا التقينا	غداً ، يومَ القيامة ، منَ الظلومِ
وينقطع التلذُّدُ عن أناس	من الدنيا ، وتنقطع الهمومُ
تنام ولم تتم عنك المنايا	تنبّه للمنيّة يا نؤومُ
ترومُ الخُلدَ في دار المنايا	وكم قد رام غيرُك ما ترومُ
إلى دِيانِ يومِ الدين نَمضي	وعندَ اللهِ تجتمعُ الحُصومُ

قال : فلما قدم الرشيد أنفذهَا إليه الفضل . فلما قرأها علم بموته
فقال : مات والله يحيى ، ومات الجود والكرم والسخاء ، والله لو كان
حيّاً لفَرَّجت عنه . ثم أمر بإطلاق الفضل ابنه واستوزره مكان أخيه
جعفر ، رحمة الله عليهم أجمعين .

مدح البرامكة

قال بعضهم في البرامكة :

إن البرامكة الكرام تعلموا	فعلَ الكرام فعلموه الناسا
كانوا إذا غرسوا سقوا ، وإذا بنوا	لم يهدموا مما بنوه أساسا
وإذا هم صنعوا الصنائع في الوري	جعلوا لها طولَ البقاء لباسا
فعلامَ تُقصيني ، وأنت سقيتي	من مرّ هجرِك ، من جنبك كاسا
آنستني متفضلاً ، أفلا ترى	أن انقطاعك يُوحش الإيناسا

رأي الموصلي بالبرامكة

وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد ، فقال : أما الفضل ففعله يُرضيك ، وأما جعفر فقوله يرضيك ، وأما محمد فيفعل ما يجد ، وفي يحيى يقول القائل :

سألت الندى : هل أنت حرٌّ ، فقال : لا	ولكنني عبد ليحيى بن خالدٍ
فقلت : شراءً قال : لا بل وِراثَةً	توارثني من والد بعد والدٍ

وفي الفضل يقول القائل :

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدةٍ	رأيت بها عشب الساحة ينبتُ
فليس بسعالٍ إذا سبل حاجةً	ولا بمكبٍ في ترى الأرض ينكتُ

وفي محمد يقول القائل :

سألت الندى والجود : مالي أراكما تبدلتما عزا بذل مؤبد ؟
وما بال ركن المجد أمسى مهلاً ؟ فقالا : أصبنا في ابن يحيى محمد
فقلت : فهلاً متما بعد موته وقد كنتما عبديه في كل مشهد ؟
فقالا : أقننا كي نُعزي بفقدته مسافة يومٍ ثم نتلوه في غدٍ

مُنْتَهَى الْكِرْمِ لِلْبِرَامِكَةِ

وذكر الحافظ السيوطي : نفعنا الله به في رسالته : « مشتهر العقول في منتهى النقول » ، أن منتهى الكرم للوزراء البرامكة ، كاد أن لا يوجد أحد من العلماء والحكام والعظماء والندماء إلا وللبرامكة عليه كرم نما كماء السماء ، وتكرم جعفر بن خمسين ألف دينار من الذهب وتكرر منه كثيراً في ولايته كلها من غير من ولا أذى ولا لغرض ولا لمرض ، حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر بقولهم : تبرمك فلان .

ومن كرم جعفر أنه تكرم في يوم على ألف شاعر ، أعطى كل شاعر ألف درهم ، والدرهم ثلاثة أصناف فضة . ومن كرمه أنه تكرم على من هجاه بخمسة آلاف دينار وعفا عن تأديبه وتعذيبه .

فقر البرامكة وذللهم

ولما أوقع بهم من الأمر ما أوقع الرشيد ، صار أمرهم إلى ما سيوصف من الفقر والذل والإهانة ؛ فمن ذلك ما قاله محمد بن غسان صاحب ولاية الكوفة وقاضيا . قال : دخلت على أمي في يوم عيد أضحي فرأيت عندها

عجوزاً في أطار رثّة ، وإذا لها يّانٌ ولسانٌ ، فقلت لأمي : من هذه ؟
 قالت : هذه خالّتك عتّابةُ أم جعفر البرمكي بن يحيى .
 فسلمت عليها ، وقلت لها : أصار بك الدهر إلى ما أرى ؟
 قالت : نعم يا بنيّ ، إن الذي كُنا فيه كان عارية ارتجعها الدهرُ منا .
 قال : فقلت حدّثيني ببعض شأنك ؟
 قالت : خذه جملة ! لقد مضى عليّ عيدٌ أضحي مثل هذا منذ
 ثلاث سنين ، وعلى رأسي أربعائة وصيفة ، وأنا أزعّم أن ابني عاقٌ لي ،
 وقد جئتكم اليوم أطلب جِلْدِي شاة أجعل أحدهما شعاراً والآخر دثاراً .
 قال : فغمّني ذلك وأبكاني ، فوهبت لها بعض دنائير كانت عندي
 والله أعلم .

من أقوال البرامكة

من قول يحيى بن خالد لابنه جعفر : يا بني ، ما دام قلمك يرفعُ
 فامطره معروفاً .
 ومن كلام جعفر : إذا أحببتَ إنساناً من غير سبب فارح خيرَه ،
 وإذا أبغضتَ إنساناً من غير سبب فتوقّ شرّه .

الرشيد يبكي على البرامكة

قال يحيى بن سلام الأبرش ، قال : حدّثني أبي قال : خرج الرشيد
 للصيد يوماً بعدما أباد البرامكة فاجتاز بجدار خراب من جدران بني برمك
 فرأى لوحاً مكتوباً عليه هذه الأبيات :

يا منزلاً لعب الزمانُ بأهله فأبادهم بتفرُّقٍ لا يُجمَعُ
إن الذين عهدتهم فيما مضى كان الزمان بهم يَصْرُ وينفَعُ
أصبحت تُفزعُ من رآك ، وطالما كنّا إليك من المخاوف نَصْرَعُ
ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقي الذين حيائهم لا تنفَعُ

قال : فبكى الرشيد ، وأقبل على الأصمعي وقال : أتعرف شيئاً من أخبار البرامكة تحدّثني به ؟

فقال الأصمعي : ولي الأمان .

قال : ولك الأمان .

فقال : أحدثك بشيء شاهدته بعيني من الفضل بن يحيى ، وذلك أنه خرج يوماً للصيد والقنص ، وهو في موكبه ، إذ رأى أعرابياً على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض في سيره ، قال : هذا يقصدني .

فقلت : ومن أعلمك ؟

قال : لا يكلمه أحدٌ غيري .

فلما دنا الأعرابي ورأى المضارب تُضربُ والخيامُ تُنصبُ والعسكر الكثير ، والجُمُ الغفير ، وسمع الغوغاء والضجّة ، ظنّ أنه أمير المؤمنين ، فنزل وعقل راحلته وتقدّم وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

قال : الآن قاربت ، اجلس .

فجلس الأعرابي فقال له الفضل : من أين أقبلتَ يا أخا العرب ؟

قال : من قضاة .

قال : من أدناها أم من أقصاها ؟

قال : من أقصاها .

قال الأصمعي : فالتفت إليّ الفضل وقال : كم من العراق إلى أرض
قضاة ؟

فقلت : ثمانمائة فرسخ .

فقال : يا أبا العرب ، مثلك لم يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق
إلا شيء .

قال : قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم في
البلاد .

قال : من هم ؟

قال : البرامكة .

قال الفضل : يا أبا العرب البرامكة خلق كثير ، وفيهم جليل
وخطير ، ولكل منهم خاصة وعامة ، فهلاً أفردت لنفسك منهم من اخترت
لنفسك وأتيتك لحاجتك ؟

قال : أجل ! أطولهم باعاً وأسمحهم كفاً .

قال : من هو ؟

قال : الفضل بن يحيى بن خالد .

فقال له الفضل : يا أبا العرب ، إن الفضل جليل القدر عظيم
الخطر ، إذا جلس للناس مجلساً عاماً لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء
والأدباء والشعراء والكتّاب والمناظرون للعلم ، أعالم أنت ؟

قال : لا .

قال : أفأديب أنت ؟

قال : لا .

قال : أفعارفُ أنتُ بأيامِ العربِ وأشعارها ؟

قال : لا .

قال : هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة ؟

قال : لا .

فقال : يا أخا العربِ غرّتك نفسك ، مثلك يقصد الفضل بن يحيى ، وهو كما عرّفتك عنه من الجلالة ، بأيّ ذريعة أو وسيلة تقدم عليه ؟

قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدته إلا لإحسانه المعروف وكرمه الموصوف وببيتين من الشعر قلّتهما فيه .

فقال الفضل : يا أخا العربِ أنشدني البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرتُ عليك بلقائه ، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشيء من مالي ورجعتُ إلى باديتك ، وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً .
قال : أفتفعل أيها الأمير ؟

قال : نعم .

قال : فإني أقول :

ألم ترَ أن الجودَ من عهد آدم
تحدّر حتى صار يملكه الفضل
ولو إنّ أمّا قضّها جوعُ طفلها
ونادت على الفضل بن يحيى أغتذى الطفلُ

قال : أحسنت يا أخا العرب . فإن قال لك هذان البيتان قد مُرّحنا

بهما شاعر . وأخذ الجائزة عليها . فأنشدني غيرها فما تقول ؟

قال : أقول :

قد كان آدم حين حان وفاته أوصاك ، وهو يجود بالحواء
ببنيه أن ترعاهمو ، فرعيتهم وكفيت آدم عيلة الأبناء

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل ممثناً : هذان
البيتان أخذتهما من أفواه الناس ، فأنشدني غيرها ما تقول ، وقد رمقتك
الأدباء بالأبصار ، وامتدت الأعناق إليك ، وتحتاج أن تناضل عن
نفسك ؟

قال : إذن أقول :

ملّت جهابذة فضل وزن نائله وملّ كاتبه إحصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة خلق ، ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك هذان البيتان أيضاً
أخذتهما من أفواه الناس ما كنت قائلاً ؟

قال : أقول :

وللفضل صولات على مال نفسه يرى المال منه بالمذلة والعنا
ولو أن ربّ المال أبصر ماله لصلى على مال الأمير وأذن

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان
مسروقان ، أنشدني غيرها ما تقول ؟

١ الحوباء : النفس .

قال : إذن أقول :

ولو قيلَ للمعروف نادِ أخا العلا لناذى بأعلى الصوت يا فضلُ يا فضلُ
ولو أنفقتَ جدواك من رملٍ عالِجٍ لأصبحَ من جدواك قد نفذ الرملُ^١

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان أيضاً أنشدني غيرهما ما تقول ؟

قال : أقول :

وما الناسُ إلَّا اثنان : صبُّ وباذلُّ وإني لذلَّك الصبُّ والباذلُّ الفضلُ
على أن لي مثلاً كما ذكر الورى وليس لفضلٍ في سماحتِه مثْلُ

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدني غيرهما ما تقول ؟

قال : أقول أيها الأمير :

حكى الفضلُ عن يحيى سباحةَ خالدٍ فقامت به التقوى وقام به العدلُ
وقام به المعروفُ شرقاً ومغرباً ولم يك للمعروفِ بعدُ ولا قبلُ

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك : قد ضجرنا من الفاضل والمفضول أنشدني بيتين على الكُنية لا على الاسم ما تقول ؟

قال : إذن أقول :

ألا يا أبا العباس يا واحدَ الورى ويا ملكاً خدَّ الملوكة له نعلُ
إليك تسير الناسُ شرقاً ومغرباً فرادى وأزواجاً كأنهم نحلُ

١ عالِج : موضع في البادية بها رمل (اللسان) .

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدنا غير الاسم والكنية والقافية .

قال : والله لئن زادني الفضل وامتحنني بعد هذا لأقولن أربعة أبياتٍ ما سبقني إليها عربي ولا أعجمي ، ولئن زادني بعدها لأجمعن قوائم ناقتي هذه وأجعلها في حِرِّ أم الفضل وأرجعن إلى قُضاعة خاسراً ، ولا أبالي .
فنكس الفضل رأسه ، وقال للأعرابي : يا أخا العرب أسمعني الأبيات الأربعة :

قال : أقول :

ولائمةٍ لامتك ، يا فضلُ ، في الندى	فقلت لها : هل يقدحُ اللومُ في البحرِ
أُتَهِنَ فضلاً عن عطاياه للغنى	فمن ذا الذي ينهى السحابَ عن القطرِ
كأن نوالَ الفضل في كلِّ بلدةٍ	تحدّر هذا المزنُ في مهمهِ قفرِ
كأن وفودَ الناس في كلِّ وجهةٍ	إلى الفضل لأقوا عنده ليلةَ القدرِ

قال : فأمسك الفضل عن فيه ، وسقط على وجهه ضاحكاً ، ثم رفع رأسه وقال : يا أخا العرب ، أنا والله الفضل بن يحيى ، سل ما شئت .

فقال : سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو ؟

قال : نعم .

قال له : فأقلني .

قال : أقالك الله ، اذكر حاجتك .

قال : عشرة آلاف درهم .

قال الفضل : ازدريت بنا وبنفسك ، يا أخا العرب ، تُعطي عشرة

آلاف درهم في عشرة آلاف .

وأمر بدفع المال ، فلما صار المال إليه حسده وزيرُ الفضل ، وقال : يا مولاي هذا إسراف يأتيك جلفٌ من أجلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب فتجزيه بهذا المال ؟

فقال : استحقّه بحضوره إلينا من أرض قضاة .

قال الوزير : أقسمتُ عليك يا مولاي إلّا أخذتَ سهماً من كِنانتك وركبته في كبدِ قوسك وأومأت به إلى الأعرابي فإن ردّ عن نفسه بيت من الشعر ، وإلّا استعدت مالك ، ويكون له في بعضه كفاية .

فأخذ الفضل سهماً وركبه في كبد قوسه وأوماً به إلى الأعرابي وقال له : ردّ سهمي بيت من الشعر ؟

فأنشأ يقول :

لقوسك قوسُ الجودِ والوتر والندى وسهمك سهمُ العزِّ فارم به فقري

قال : فضحك الفضل وأنشأ يقول :

إذا ملكت كفيّ منالاً ولم أنل فلا انبسطت كفي ولا نهضت رجلي
على الله إخلافُ الذي قد بذلته فلا مُسعدي بخلي ولا مُتلي بذلي
أروني بخيلاً نال مجدداً ببخله وهاتوا كريماً مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل لوزيره : أعط الأعرابي مائة ألف درهم لقصده وشعره ، ومائة ألف درهم ليكفيها شرّ قوائم ناقته .

فأخذ الأعرابي المال وانصرف ، وهو يبكي فقال له الفضل : ممّ بكائك يا أعرابي استقلالاً بالمال الذي أعطيناك ؟

قال : لا ، ولكنني أبكي على مثلك يأكله الثراب وتواريه الأرض ،

وتذكرت قول الشاعر :

لعمرك ما الرزيةُ فقدُ مالٍ ولا فرسٌ يموتُ ولا بَعيرُ
ولكن الرزيةُ فقدُ حرٌّ يموتُ لموته خَلْقٌ كثيرُ
وتوجّه الأعراي بالمال مسروراً رحمة الله عليهم أجمعين .

الرشيد وذقن أبي نواس

ويحكى أن الرشيد قال لأبي نواس : يعني ذقنك ؟

قال : بكم ؟

قال : بألف دينار .

قال : بعثك .

فقال الرشيد لخازن داره : ادفع له ألف دينار . فدفعتها له فأخذها وربطها وقال : يا أمير المؤمنين خذ ما اشتريت .
قال : لا ، ولكن جعلتها وديعةً عندك .

قال : فضى أبو نواس واشتغل بأمره ولهوه ، وهو خائف على ذقنه من أمير المؤمنين . قال : فبينما هو متفكّر في شيء يفعله إذ جاء قاصدُ أمير المؤمنين ، فلم يقدر أن يتكلّم دون أن قام معه ودخل إلى دار الخلافة ، فوجده في جمع كثير من خواصّ المملكة وأعوان الدولة ، وكان من شأنه أن يجلسَ بالقرب من أمير المؤمنين ، فتحدّثوا وتماجّنوا فصرط أبو نواس ضربةً مزعجةً أزعجت الحاضرين ، فضحكوا جميعاً ، وضحك أمير المؤمنين وقال له : في ذقنك يا معرّص .

فقال له في الحال : الله أعلم هي ذقن من ؟

فقال أمير المؤمنين : قد وهبْتُها لك يا ملعون .
فأخذها وانصرف وكسب الألف دينار بهذه الحيلة والله أعلم ، انتهى .

يضرب الشاة الحدّ

وكان نصر بن مقبل عاملاً على الرقة ، فأُتي برجل من الظرفاء وجده
ينكح شاةً فقال : ما حملك على هذا ؟

فقال : أيها الأمير ، إنها والله ملك يميني ، وقد قال الله تعالى :
﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾^١ .

فأطلقه وأمر بضرب الشاة الحدّ^٢ ، فإن ماتت تُصلب .

قالوا : أيها الأمير إنها بهيمة .

قال : وإن كانت بهيمة فإن الحدود لا تعطل وإن عطّلتها فبئس الوالي
أنا .

فاتتهى إلى الرشيد خبرها ولم يكن رآه قبل فدعا به فلما حضر بين
يديه . قال : من أنت ؟

قال : مولى لكّلب .

فضحك منه ثم قال : كيف بصرك بالحكم ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، البهائم عندي والناس سواء ، ولو وجب حدّ
على بهيمة ، وكانت أُمي أو أختي لحديتها ولم تأخذني في الله لومة لائم .

١ سورة النساء ٣ .

٢ الحدّ : عقوبة جُعِلت لمن ركب ما نهى عنه .

فأمر الرشيد أن لا يستعان به على عمل فلم يزل معطلاً إلى أن مات ،
والله أعلم .

الرشيد يأمر بقتل أبي نواس

ويحكى أن هارون الرشيد أمر بقتل أبي نواس فقال : أتقتلني شهوةً
لقتلي ؟

فقال : لا ، بل أنت مستحق للقتل .

قال : فيم استحققت القتل ؟

قال : بقولك :

ألا فاسقني خمرأً وقل لي هي الخمرُ ولا تَسْقِي سراً إذا أمكنَ الجَهْرُ

فقال : يا أمير المؤمنين ، أفتعلم أنه سقاني وشربت ؟

فقال له أمير المؤمنين : أظن ذلك .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أفقتلني على الظن ، وقد قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾^١ .

فقال له الرشيد : قد قلتَ ما تستحقُّ به القتل .

فقال : ما هو ؟

فقال له : قولك :

ما جاءنا أحدٌ يحبرُ أنه في جنةٍ من ماتَ أو في نارٍ .

١ سورة الحجرات ١٢ .

فقال له: يا أمير المؤمنين ! هل جاءنا أحد؟

قال : لا .

قال : أتقتلني على الصدق؟

فقال له الرشيد : أولست القائل :

يا أحمدُ المُرَجى في كلِّ نائبة قُم سيدي نعص جبار السمواتِ

فقال له : يا أمير المؤمنين ! أوصار القولُ فعلاً؟

قال : لا أعلم .

قال : أفتقتلني على ما لم تعلم .

فقال له أمير المؤمنين : دع هذا كله ، فقد اعترفتَ في مواضع كثيرةٍ

من شعرك بالزنا .

قال أبو نواس : قد علم الله هذا قبلَ عِلْمِ أمير المؤمنين بقوله تعالى :

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾^١.

فقال الرشيد : خلُّوا عنه .

ومن هذا أخذ الصفي الحلبي فقال :

نحن الألى جاء الكتاب مخبراً بعفافِ أنفسينا وفُسقِ الألسُنِ

١ سورة الشعراء ٢٢٤ / ٢٢٥ / ٢٢٦ .

تُغفر ذنوبه بأبياتٍ

وعن محمد بن نافع ، قال : رأيت أبا نواس في النوم بعد موته ،
فقلت : يا أبا نواس !
فقال : لا حينَ كُتبت .
فقلت : الحسنُ بن هانيء .
قال : نعم .
قلت : ما فعل الله بك ؟
قال : غفر لي بأبياتٍ قلَّتها في علَّتي قبل موتي هي تحت الوسادة .
فسألت أهله فقلت : هل قال أخي شعراً ؟
قالوا : لا نعلم ! إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندري ما
هو .

فدخلت ورفعت وسادته وإذا أنا برقعةٍ مكتوب فيها :

يا ربّ ! إن عظمت ذنوبي كثرةً	فلقد علمتُ بأنَّ عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا مُحسِنٌ	فمَنْ الذي يدعو ويرجو المُجرِمُ
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرجا	وجميلُ عفوك ثمَّ إني مُسلِمٌ

هذه حكاية العجمي والكردى وما جرى بينهما على يد القاضي بسبب الجراب

قيل إن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة ، فاستدعى بوزيره جعفر
البرمكي ، فلما حضر عنده قال له : يا جعفر ، إني قلق وضاق صدري
وأريدُ منك شيئاً يشرحُ خاطري .

فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين ، إن لي صديقاً اسمه علي العجمي ،
وعنده من جميع الحكايات والأخبار .

فقال : عليّ به .

فقال : سمعاً وطاعةً .

ثم إن جعفرأخرج من عند الخليفة في طلب علي العجمي ، فأرسل
خلفه فلما حضر قال : أجب أمير المؤمنين .

قال : سمعاً وطاعةً .

فأتى الخليفة فسلم وترحم ، فقال له : اجلس فجلس ، فقال له
الخليفة : إسمع يا عليّ ، إني الليلة ضيق الصدر ، وسمعتُ عنك أن في
ذهنك حكايات وأخباراً وأريدُ منك أن تُسمعي ما يزيلُ همِّي وفكري .

فقال : يا أمير المؤمنين ، تريد أن أحكي لك شيئاً سمعته أو رأيته ؟

فقال : إن كنت رأيت شيئاً فاحكه .

فقال : سمعاً وطاعةً ! اعلم يا أمير المؤمنين أني سافرت في بعض

السنين من بلدي إلى هذه المدينة ، وهي بغداد ، وصحبي غلامٌ ظريف
ومعه جِرابٌ نظيف ، فأودعني إياه . فبينما أنا أبيع وأشتري ، وإذا أنا برجل
كردي ظالم معتدٍ هجم عليّ وأخذ الجِراب مَنّي وقال : هذا الجِراب
جراي ، وكلُّ ما فيه قاشي وثيابي .

فقلت : يا معشرَ الناس قد اعتراني الوسواس .

فقال الناس جميعاً : امضوا إلى القاضي ، وكلُّ بحكمه راضي .

فدخلنا عليه ، وتمثّلنا بين يديه ، فقال القاضي : في أي شيء

جئتما ؟

فقال الكردي : نحن خصمان .

قال : أيكما المدّعي ؟

فتقدّم الكردي ، وقال : أيد الله مولانا القاضي ! هذا الجِراب
جراي ، وكل ما فيه قاشي وثيابي ، وقد ضاعَ ووجدته مع هذا الرجل .

فقال القاضي : ومتى ضاع منك ؟

فقال الكردي : ضاع مَنّي بالأمس .

فقال القاضي : إن كنتَ عرفته فصِف لي ما فيه .

فقال الكردي : إن في جراي هذا مِرودَيْن من لُجَيْن^١ ، وأكحالاً
للعيّين ، ومنديلاً لليدين ، ومِشْرَبَتَيْن مُذهبتَيْن^٢ ، وشَمْعَدَانَيْن ومَكْبَتَيْن^٣
وطبقين ، وإبريقَيْن ، وصينيّة وطشتَيْن ، وقِدْرٌ ودِسْتَيْن ، ومِغْرَفَةٌ

١ المِرود : الميل يكتحل به . اللجَيْن : الفضة .

٢ المِشْرَبَةُ : إناء يُشرب به .

٣ المكَبَةُ : ما يُلفّ عليها الغزل .

وَمَلْعَتَيْنِ ، وَمِسْلَةً وَمِقْلَمَةً^١ وَمِلْبَتَيْنِ^٢ ، وَقَعْبًا^٣ وَقَصْعَتَيْنِ ، وَخِدَّةً وَنَطْعَيْنِ ،
وَجَبَّةً وَفَرَوَيْنِ ، وَبَقْرَةً وَعِجْلَتَيْنِ ، وَعَنْزًا وَشَاتَيْنِ ، وَنَعْجَةً وَخَرَوَيْنِ ،
وَقُطَيْنِ أُلْبَقَيْنِ ، وَجَمَلًا وَنَاقَتَيْنِ ، وَبَقْرَةً وَثَوْرَيْنِ ، وَلَبُوءَ وَسَبْعَيْنِ ، وَذِبَّةً^٤
وَتَلْعَيْنِ ، وَمَرْتَبَةً وَسَرِيرَيْنِ ، وَطَبَقَةً وَقَاعَتَيْنِ ، وَرَوَاقًا وَمَقْعَدَيْنِ ، وَمَطْبَخًا ،
بِابَيْنِ ، وَجَمَاعَةً أَكْرَادٍ يَشْهَدُونَ أَنَّ الْجَرَابَ جَرَابِي .

فقال القاضي : فما تقولُ أنت يا عليّ ؟

فَتَقَدَّمْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدْ بَهَّيْتُ كَلَامَهُ فَقُلْتُ : أَعَزَّ اللَّهُ مَوْلَانَا
القاضي ، أَنَا مَا فِي جَرَابِي إِلَّا دُورَةٌ^١ حَرَابٌ^٢ وَأُخْرَى بِلَا بَابٍ وَمَقْصُورَةٌ
لِلْكَلاِبِ وَفِيهِ لِلصَّبِيَّانِ كِتَابٌ^٣ وَشَبَّانٌ يَلْعَبُونَ بِالْكَعَابِ ، وَفِيهِ عَسَاكِرُ
وَأَطْنَابٌ وَمَدِينَةٌ بُصْرَى وَبَغْدَادُ ، وَقَصْرُ كَنْعَانَ بْنِ شَدَّادٍ ، وَكُورٌ وَحَدَّادُ ،
وَشَبَكَةٌ وَصَيَّادٌ وَعَصَا وَأُوتَادُ ، وَبَنَاتٌ وَأَوْلَادٌ وَأَلْفُ قَوَادٍ يَشْهَدُونَ أَنَّ
الْجَرَابَ جَرَابِي .

فَلَمَّا سَمِعَ الْكَرْدِي هَذَا الْكَلَامَ بَكَى وَانْتَحَبَ وَقَالَ : يَا سَيِّدِي
القاضي ، جَرَابِي هَذَا مَعْرُوفٌ ، وَكُلُّ مَا فِيهِ مَوْصُوفٌ ، فِي جَرَابِي هَذَا
حِصُونٌ وَقِلَاعٌ وَفُرَى وَضِيَاعٌ وَطَابِقٌ لِلصَّرَاعِ وَوَحُوشٌ وَضَبَاعٌ وَرِجَالٌ يَلْعَبُونَ الطَّابَةَ
وَالرَّقَاعَ^٤ ، وَإِنِّي فِي جَرَابِي هَذَا حُجْرَةٌ وَمُهَرِّينٌ وَفَحْلًا وَحِصَانَيْنِ وَرُحْمَيْنِ طَوِيلَيْنِ
وَسَبْعًا وَأَرْبَعَيْنِ ، وَسَكِينًا وَخَنْجَرَيْنِ ، وَبَحْرًا وَخَلِيجَيْنِ ، وَكَمْرًا وَجُوحَتَيْنِ ،

١ المِقْلَمَةُ : وعاء تُجعل فيه أقلام الكتابة . وقوله : ملبتين : لم نجد هذه اللفظة في
المعاجم ، فلعلها لفظة عامية تعني شيئاً من أدوات المنزل ، أو لعلها محرقة عن ملبنة
مؤنث ملبن : وهو مصفاة اللبن والحليب .

٢ القعب : القدح الضخم .

٣ اللويرة : مصغر دار .

٤ الرقاع ، الواحدة رقعة ، ورقعة الشطرنج : اللوح الذي تُصفّ أدواته عليه

وعُشاري^١ وموكبين ، وصاري وقرتين ، وكوراً ودُكانين ، ومِنْقَلَة ونَرْدِين^٢ ،
وعجوزاً وقحبين ، وقواداً وشاطرين^٣ ومُخَنَّثاً وعلقين وأعمى وبصيرين وأعرَجَ
وكسيحين وعياراً وأزعرين وجامعاً ومدرستين وديراً وكنيستين وقسيساً
وشماسين وبطركاً وراهبين وقاضياً وشاهدين يشهدون أن الجراب جراي .
فقال القاضي : ما تقول أنت يا علي .

فبادرت يا أمير المؤمنين ، وقد امتلأت غيظاً وزدت في الحق .
وقلت : أيد الله مولانا القاضي ! إن في جراي هذا زردخانات صفاح^٤ ،
وخزائن سلاح ، وألف كبش نطّاح في عشرين مُراح ، وأربعين كلباً نَبّاح ،
وبساتين وكروم عنب وتين وتَفّاح ، وصوراً وأشباحاً وقناني وأقداحاً
وعرائس ملاحاً ومغاني وأفراحاً وهرجاً وصباحاً وعبداً وفلاحاً وأخاه نَجّاحاً
ورفيقه صباحاً ، ومعهم سيوفٌ ورماح ، وقسي ونشّابٌ وأصدقاء وأحباب
وخَلّان وأصحاب ومجلس للعتاب ونُدّمان للشراب ، وطُنبور مع رَبّاب ،
ونايات وقناني مصفوفات ، وصبيانٌ ودايات ، وأخوات معلّات ، وبنات
متجليات وجوارٍ مغنيات وجوارٍ حبشيّات وثلاث هنديات وأربع بدويات
 وخمس روميّات وست تركيات وسبع عجميّات وثمان قفجيات وتسع

١ العشاري : ثوب طوله عشرة أذرع .

٢ المِنْقَلَة ، عند المولدين : لعبة تتخذ من خشبة مستطيلة تُقَرَّبُ فيها أربع عشرة نقرة في
صفين متوازيين ، فيجعل في كل نقرة سبع حصى وتدار الحصى بطرق معلومة .
الرد : لعبة معروفة .

٣ الشاطر : المتّصف بالدهاء والحباثة .

٤ المَخَنَّث : المتشبه بالنساء في تشبهه . العلق هنا : يعني ما تعنيه لفظة المَخَنَّث من التشبه
بالنساء في التزيّن ، وهي لفظة مولدة أو عامية لا تزال نستعملها .

٥ زردخانات : بيوت من الصُفَر . الصفاح : السيوف ، ولعل المراد خزانات تحفظ
فيها السيوف .

كُرجيات^١ وعشر كلبات ، والدجلة والفرات وشبكة وصياد وقدّاحة وزناد ، وإرم ذاتُ العماد ، وألف جواد ، وقصر شدّاد بن عاد ، وخانات مع حمامات ، وقدّوم ونجّار وخشبة مع مسمار وتاجر مع عطار ، وبزار مع بيطار ، وعبد أسود بمزمار ومقدّم وركبدار^٢ ومدن وأمصار ومائة ألف دينار ، وبواب وكشدار^٣ ورأس نوبة ، وعلم دار ، والكوفة مع الأنبار وعشرين صندوقاً ملأى قماشاً ودُكّان نحاس ، وحاصل معاش ، وبُرجان للحمام وغزة وعسقلان ، ومن دميّاط إلى أسوان وإيوان كسرى ومُلك سليمان ، ومن كُوش نعمان إلى أرض خُراسان وبلخ وأصبهان ومن الهند إلى بلاد السودان ، وفيه أطلال الله عمرَ مولانا القاضي ، قماش وعلائل^٤ وعراض^٤ ومُوسى بحد ماضٍ ، يخلق دُفن مولانا القاضي ، إن حكم أن الجراب ما هو جراي .

فعند ذلك يا أمير المؤمنين حار القاضي ممّا سمع ثم قال : ما أراكم إلاّ شخصين نحسين تلعبان بالقُضاة والحكّام لأنّه ما وصف الواصفون ولا سمع السامعون ما وصفتم في هذا الجراب ، ما هذا إلاّ بحرّ ليس له قرار . ثم أمر القاضي بفتح الجراب ففتحه الكردي ، فإذا فيه خبرٌ وليّمون ، وجبن وزيتون ، ثم إني رميت الجراب قدّام القاضي والكردي ، ومضيت إلى حال سبيلي .

فلما سمع أمير المؤمنين ذلك ضحك حتى استلقى على قفاه وقد زال همه وغمّه ، وأحسن جائزة علي العجمي ، وانصرف والله أعلم .

-
- ١ القفجيات : المنسوبات إلى بلاد القفج . الكرجيات : المنسوبات إلى بلاد الكرج .
 - ٢ ركبدار : الركب والواحد . ركاب ، وهو ما يعلّق بالسرّج ليضع فيه الفارس رجله .
 - ٣ الكشدار : الفلاحون .
 - ٤ الغلائل ، الواحدة غلالة : شعار يلبس تحت الثوب . العراض ، الواحد عريض : ولعلّها نوع من الثياب العريضة .

معن بن زائدة الشيباني

كان من الكرماء ، يقال فيه : حدث عن البحر ولا حرج ، وكان عاملاً بالبصرة ، فحضر على بابه شاعر وأقام مدة يريد الدخول فلم يتهياً له ، فقال يوماً لبعض الخدام : إذا دخل الأمير البستان. فعرفني ، فلما دخل أعلمه بذلك ، فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، وكان معن جالساً على القناة ، فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها هذا البيت :

أيا جودَ معنٍ ناجٍ معنًا بحاجتي فليس إلى معنٍ سواك رسولُ

فقال : من الرجل صاحب هذه ؟ فأتي به إليه . فقال : كيف قلت ؟ فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر ، فأخذها وانصرف ، فوضع معن الخشبة تحت بساطه . فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت بساطه ينظر فيها ، ودعا بالرجل فأمر له بمائة ألف درهم ، فلما كان في اليوم الثالث فعلَ مثلَ ذلك ، فتفكر الرجل وخاف أن يأخذَ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما كان معه . فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يوجد ، فقال معن : والله هممتُ أن أعطيَه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار إلا أعطيته له ، وفيه يقول القائل :

يقولون معن لا زكاة لماله وكيف يزكي المال من هو باذله

إذا حال جُولٌ لم يكن في دياره
 تراه ، إذا ما جتته ، منهلاً
 هو البحرُ من أيِّ النواحي أتته
 تعود بسط الكفِّ حتى لو أنه
 فلو لم يكن في كفِّه غير نفسه
 من المال إلا ذكره وجماليه
 كأنك تُعطيه الذي أنت آمله
 فلجته المعروف والبر ساحله
 أراد انقباضاً لم تُطعه أنامله
 لجاد بها فليتنق الله سائله

ومن قول معن :

دعيني أنهب الأموال حتى أُعِفَّ الأكرمين عن اللثام

ويروى أن معن بن زائدة خرج في جماعة يتصيدون ، فاعترضهم قطع
 ظباء ، ففترقوا في طلبه ، وانفرد معن خلف ظبي ، فلما ظفربه نزل فذبحه ،
 فرأى شخصاً مقبلاً من البرية على حمار ، فركب فرسه واستقبله ، فسلم
 عليه وقال له : من أين أتيت ؟

قال : أتيت من أرض قضاة وإن لي بها أرضاً ، لها عدة سنين ،
 مجدبة ، وقد أحصبت في هذه السنة فزرعتها قثاء فطرحت في غير وقتها ،
 فجمعت منها ما استحسنته وقصدت الأمير معن بن زائدة لكرمه المشهور
 ومعروفه المأثور ، وإحاسنه المذكور .

فقال له : كم أمّلت منه ؟

قال : ألف دينار .

فقال : إن قال لك : كثير .

قال : خمسمائة دينار .

قال : إن قال لك : كثير .

١ جمائله ، الواحدة جميلة : أراد أعماله الجميلة .

قال : ثلاثمائة دينار .

قال : إن قال لك : كثير .

قال : ماتي دينار .

قال : إن قال لك : كثير .

قال : مائة دينار .

قال : إن قال لك : كثير .

قال : خمسين ديناراً .

قال : إن قال لك : كثير .

قال : أفلا أقلّ من ثلاثين .

قال : فإن قال لك : كثير .

قال : أدخل قوائم حماري في حِرِّ أمّه ، وأرجعُ إلى أهلي خائباً .

فضحك معن منه وساقَ جواده حتى لحق بعسكره ونزل منزله ،
وقال لحاجبه : إذا أتاكَ شيخٌ على حمارٍ بقثاء فادخل به عليّ .

فأتى بعد ساعة فلما دخل على الأمير معن لم يعرفه لهيبته وجلالته ،
وكثرة خدمه وحشمه وهو متصدّرٌ في دَسْت مملكته ، والحفدةُ قيامٌ عن
يمينه وشماله وبين يديه . فلما سلّم عليه قال له الأمير معن : ما الذي أتى
بك يا أخا العرب ؟

قال : أملت الأمير وأتيته بقثاء في غير أوانها .

قال : فكُم أملت فينا ؟ قال : ألف دينار .

قال كثير .

قال : خمسمائة دينار .

قال : كثيرٌ .

قال : ثلاثمائة دينار .

قال : كثيرٌ .

قال : مائتي دينار .

قال : كثير .

قال : مائة دينار .

قال : كثير .

قال : والله لقد كان ذلك الرجل الذي قابلني عليّ مشؤوماً ثم قال :
خمسین ديناراً .

قال : كثير .

قال : أفلا أقلّ من ثلاثين ؟

قال : فضحك معن وسكتَ فعلم الأعرابيُّ أنه صاحبه فقال : يا
سيدي إن لم تعطني الثلاثين فالخمار مربوطٌ بالباب ، وها أنا مع معن
جالس .

فضحك معن حتى استلقى على قفاه ثم استدعى بوكيله وقال : أعطه
ألفَ دينار وخمسمائة دينار وثلاثمائة دينار ومائتي دينار ومائة دينار وخمسين
ديناراً وثلاثين ديناراً ودع الخمار مربوطاً مكانه .
فبهتَ الأعرابي وتسلّم ألني دينار ومائة وثمانين ديناراً ، فرحمة الله
عليهم أجمعين .

وقيل : كان معن بن زائدة في بعض صيوده فعطش فلم يجد مع غلامه
ماءً ، فبينما هو كذلك ، وإذا بثلاثِ جوارٍ قد أقبلن حاملاتٍ ثلاثِ قَرَبٍ
فسقيته ، فطلب شيئاً من المال مع غلامه ، فلم يجده ، فدفع لكلٍّ واحدةٍ

منهنّ عشرة أسهمٍ من كِنَانته ، نصولُها من ذهب ، فقالت إحداهنّ :
ويلكنّ لم تكن هذه الشمائلُ إلّا لمعن بن زائدة . فلتقل كل واحدة منكن
شيئاً من الأبيات فقالت الأولى :

يركّبُ في السهامِ نصول تير ويرمي للعدا كرمأً وجوداً
فللمرضى علاجٌ من جراحٍ وأكفانُ لمن سكنَ اللُحودا

وقالت الثانية :

ومحاربٍ من فرطِ جودِ بَنَانِه عمت مكارمُه الأقاربَ والعِدا
صِغْتَ نصولِ سِهامِه من عَسَجِدٍ كي لا يقصّر في العوارِفِ والندى

وقالت الثالثة :

ومن جوده يرمي العداة بأسهمٍ من الذهب الإبريز صِغْتَ نصولُها
لينفّقها المجروحُ عند انقطاعه ويشترى الأكفانَ منها قتيلاً

وكان مع كرمه صاحبَ شهامة ، فمن ذلك ، أنه سعى رجلٌ في
إفساد دولة المَهدي ، وكان من الكوفة فعلم به المهدي فأهدرَ دمه ،
وجعل لمن دُلَّ عليه مائة ألف درهم ، فأقام الرجلُ حيناً مختفياً ثم ظهر في
بغداد ، فبينما هو في بعض الشوارع ، إذ رآه رجلٌ من الكوفة فعرفه ،
فأخذ بمجامع طوقه ونادى : هذا طلبة أمير المؤمنين ، فبينما الرجل على
تلك الحالة ، وقد اجتمع حوله خلقٌ كثير ، إذ سمع وقع حوافر الخيل من
ورائه ، فالتفت فإذا هو بمعن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد ! أجزني
أجارك الله .

١ العوارف ، الواحدة عارفة : المعروف ، العطية .

فوقف فقال للرجل الذي تعلّق به : ما تريدُ منه ؟
 قال : هذا طلبه أمير المؤمنين أهدرَ دمه ، وجعل لمن دلّ عليه مائة ألف درهم .
 فقال له معن : دعه ! ثم قال : يا غلام أردفه ، فأردفه وكرّر راجعاً إلى داره ، فصاح الرجل : معنُ حال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين ، ولم يزل صارخاً إلى أن أتى قصرَ المهدي ، فأمر المهدي بإحضار معن ، فأنته الرسلُ ، فدعا معنُ أولاده ومماليكه وقال : لا تسلّموا الرجلَ ، وواحدٌ منكم يعيشُ .
 ثم سار إلى المهدي فدخل وسلم فلم يردّ عليه ، ثم قال : يا معن !
 أئجبر علينا عدوّنا ؟
 قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال المهدي : ونعم أيضاً .
 واشتدّ غضبه . فقال معن : يا أمير المؤمنين ، بالأمس بعثني إلى اليمنَ مقدّم الجيش ، فقتلتُ في طاعتك في يوم واحدٍ عشرة آلاف رجلٍ ، ولي مثلَ هذا أيامٌ كثيرةٌ فما رأيتموني أهلاً أن أجبر رجلاً واحداً استجار بي ، ودخل منزلي .
 فسكن غضبُ المهدي ، وقال : قد أجرنا من أجرتَ يا أبا الوليد .
 قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يَصِلَه بصلّةٍ يعلمُ منها موقعَ الرضا ، فإن قلبَ الرجل قد انخلعَ من صدره خوفاً .
 قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم .
 قال : يا أمير المؤمنين ، إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية .
 قال : قد أمرنا له بمائة ألف درهم .
 قال : عجّلها يا أمير المؤمنين ، فإن خيرَ البرِّ عاجله .

فأحضر معن الرجل وقال له : خُذْ صَلَـةَ أمير المؤمنين ، وقبَلْ يده ، وإياك ومخالفةَ خلفاءِ الله في أرضه ، « فما كلَّ مرّةً تسلّم الجِرّة » ، فأرسلها الناسُ مثلاً ، وأخذ الرجلُ المالَ واستغفر الله ، انتهى .

وكان معن لا يغيظُ أحداً ، ولا أحدٌ يغيظُه ، فقال بعضُ الشعراء : أنا أغيظُه لكم ، ولو كان قلبُه من حجر ، فراهنوه على مائةٍ بعيرٍ إن أغاظَه أخذَها ، وإن لم يُغيظَه دفعَ مثلَها . فعمد الرجلُ إلى جملٍ فذبحَه وسلَخَه ولبسَ الجلدَ مثلَ الثوبِ وجعلَ اللحمَ من خارجٍ والشعرَ من داخلٍ ، والذبابُ يقعُ عليه ، ويقوم ، ولبسَ برجليه نعلين من جلدِ الجمل ، وجعلَ اللحمَ من خارجٍ والشعرَ من ناحيةِ رجليه ، وجلسَ بين يدي معنٍ على هذه الصورةِ المشروحةِ ومدَّ رجليه في وجهه وقال :

أنا والله لا أبدي سلاماً على معن المسمّى بالأُمير

فقال له معن : السلامُ لله إن سلّمتَ رَدَدْنَا عَلَيْكَ ، وإن لم تسلّمَ ما عتبنا عليك .

فقال الشاعر :

ولا آتي بلاداً أنتَ فيها ولو حزْتُ الشَّامَ مع الثُّغُورِ

فقال له : البلادُ بلادُ الله إن نزلتَ فرحياً بك ، وإن رحلتَ كان الله في عونك .

فقال الشاعر :

وأرحلُ من بلادك ألفَ شهرٍ أجدُّ السيرِ في أعلى القُفُورِ

فقال له : مصحوباً بالسلامة .

فقال الشاعر :

أَتَذْكُرُ إِذْ قَبِصْتُكَ جِلْدُ شَاةٍ وَإِذْ نَعْلَاكَ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ
فَقَالَ لَهُ : أَعَرَفْتُ ذَلِكَ وَلَا أُنْكِرُهُ .

فَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَتَهْوَى كُلَّ مَضْطَبَةٍ وَسَوْقٍ بَلَا عَبْدٍ لَدَيْكَ وَلَا وَزِيرٍ
فَقَالَ لَهُ : مَا نَسِيتَ ذَلِكَ يَا أَخَا الْعَرَبِ .

فَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَنَوْمُكَ فِي الشِّتَاءِ بَلَا رِءَاٍ وَأَكُلُّكَ دَائِمًا خَبَزَ الشَّعِيرِ
فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ .

فَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَفِي يُمْنَاكَ عُكَّازٌ قَوِيٌّ تَذُودُ بِهِ الْكِلَابَ عَنِ الْهَرِيرِ

فَقَالَ لَهُ : مَا خَفِيَ عَلَيْكَ خَبْرُهَا إِذْ هَبِي كَعَصَا مُوسَى .

فَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَسُبْحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكًا وَعَلَّمَكَ الْقُعُودَ عَلَى السَّرِيرِ

فَقَالَ لَهُ : بِفَضْلِ اللَّهِ لَا بِفَضْلِكَ .

فَقَالَ الشَّاعِرُ :

فَعَجَّلْ يَا بَنَ نَاقِصَةٍ بِمَالٍ فَلِإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْمَسِيرِ

فَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ .

فَقَالَ الشَّاعِرُ :

قليلٌ ما أمرتَ به فإني لأطمعُ منك بالشيء الكثيرِ

فأمر له بألف دينار أخرى .

فقال الشاعر :

فثُلثُ ، إذ مُلكتَ المُلْكَ رِزْقاً بلا عقلٍ ولا جاءِ خطيرِ

فأمر له بثلاثمائة دينار .

فقال الشاعر :

ولا أدبٍ كسبتَ به المعالي ولا خُلقي ولا رأي مُنيرِ

فأمر له بأربعمائة دينار .

فقال الشاعر :

فمنك الجودُ والإفضالُ حقاً وفيضُ يدك كالبحر الغزيرِ

فأمر له بخمسمائة دينار ، وما زال يطلب منه الزيادة حتى استكمل ألفَ دينار ، فأخذها وانصرف متعجباً من حِلْم معن وعدم انتقامه منه ثم قال في نفسه : مثلُ هذا لا ينبغي أن يُهَجى بل يُمدح ، واغتسلَ ولبس ثيابه ورجع إليه فسَلَّم عليه ومدَّحه واعتذر له بأن الحامل له على هجوه المائتة بعير التي صار الرهنُ عليها في نظيرِ إغاضته له ، فأمر له بمائة بعير يدفعُها في نظيرِ الرهنِ وبمائة بعيرٍ أخرى لنفسه ، فأخذها وانصرف ، والله أعلم .

خلافة المأمون بن هارون الرشيد واسمه عبد الله

ومما وُضع في بطون الدفاتر ، واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال : طلبني أمير المؤمنين المأمون ليلةً ، وقد مضى من الليل ثلثه ، فقال لي : خذ معك فلاناً وفلاناً ، وسماهما لي : أحدهما ، عليّ بن محمد ، والآخر ، دينار الخادم ، واذهب مسرعاً لما أقول لك ، فإنه بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى آثار دور البرامكة ، ويُشدد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويندبهم ويبيكي عليهم ، ثم ينصرف ، فامض أنت وعليّ ودينار حتى تردوا تلك الخرائب فاستتروا خلف بعض الجدران ، فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتاً فأتوني به .

قال : فأخذتها ومضينا حتى أتينا الخرائب ، فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساطٌ وكرسی حديد ، وإذا شيخ قد جاء وله جمالٌ وعليه مَهابة ولطف ، فجلس على الكرسي وجعل يبكي ويتنحب ويقول هذه الأبيات :

ولما رأيتُ السيفَ جندلَ جعفرأ ونادى منادٍ للخليفة : يا يحيى
بكيتُ على الدنيا وزاد تأسني عليهم وقلت : الآن لا تنفع الدنيا

مع أبياتٍ أطالها . فلما فرغ قبضنا عليه ، وقلنا له : أجب أمير المؤمنين ، ففرع فرعاً شديداً وقال : دعوني حتى أوصي بوصية فإني لا أوقن بعدها بحياة .

ثم تقدّم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصيّة وسلّمها إلى غلامه ثم سرنا به ، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين قال حين رآه : من أنت ، وبم استوجبت منك البرامكة ما تفعله في خرائب دورهم ؟

قال الخادم : ونحن نستمع .

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن للبرامكة أيادي خضرة عندي ، أفأذن لي أن أحدثك بحالي معهم ؟
قال : قل .

فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا المندّر بن المغيرة من أولاد الملوّك ، وقد زالت عني نعمتي ، كما تزول عن الرجال ، فلما ركبني الدين ، واحتجت إلى بيع ما على رأسي ورؤوس أهلي وبيتي الذي وُلدت فيه ، أشاروا عليّ بالخروج إلى البرامكة ، فخرجت من دمشق ومعي نيفٌ وثلاثون امرأة وصبيّاً وصبيّةً ، وليس معنا ما يُباع ولا ما يُوهب ، حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد ، فدعوتُ ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها ، فلبستها وخرجتُ وتركتهن جياعاً لا شيء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد سائلاً عن البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخٌ بأحسن زيّ وزينة ، وعلى الباب خادمان ، وفي الجامع جماعة جلّوس ، فطمعت في القوم ودخلت المسجد وجلستُ بين أيديهم ، وأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى ، والعرق يسيلُ منّي لأنها لم تكن صنّاعتي ، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم ، فدخلوا دار يحيى بن خالد ، فدخلت معهم ، وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان ، فسلمنا ، وهو يعدّنا مائةً وواحداً ، وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا بأمرد نبت العذار في خديّه قد أقبل من بعض المقاصير ، وبين يديه مائة خادم متمنطقون ، في

وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال ، مع كل خادم مجمرة من ذهب ، في كل مجمرة قطعة من عود كهية الفهر ، وقد قرن به مثله من العنبر السلطاني فوضعه بين يدي الغلام ، وجلس إلى جنب يحيى ، ثم قال للقاضي : تكلم وزوج ابتي عائشة من ابن أخي هذا . فخطب القاضي خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار بينادق المسك والعنبر ، فالتقطت ، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت ، وإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايع وولده والغلام مائة واثنى عشر ، وإذا بمائة واثنى عشر خادماً قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة ، على كل صينية ألف دينار ، فوضعوا بين يدي كل رجل من الصواني تحت آباطهم ، ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية ، فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي والصينية في يدي وقت جعلت أتلقت إلى ورائي مخافة أن أمتع من الذهب ، فبينما أنا كذلك إلى أن وصلت إلى صحن الدار ، ويحيى يلاحظني ، فقال للخادم : اثني بهذا الرجل ، فأتيته ، فقال : ما لي أراك تلتفت يميناً وشمالاً ؟

فقصصت عليه قصتي فقال للخادم : اثني بولدي موسى ، فأتاه به . فقال له : يا بني ! هذا رجل غريب ، فخذة إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك .

فقبض موسى ولده على يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الإكرام ، وأقت عنده يومي وليلتي في الد عيش وأتم سرور ، فلما أصبح

١ الفهر ، عند الأطباء : حجر رقيق تُسحق به الأدوية .

دعا بأخيه العباس ، وقال له : الوزيرُ أمرني بالعطف على هذا الفتى ، وقد علمتَ اشتغالي في بيت أمير المؤمنين ، فاقبضه إليك ، وأكرمه .
ففعل ذلك وأكرمني غايةً الإكرام ثم لما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد ، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني مدةً عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء ، فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا : قُمْ فاخرج إلى عيالك بسلام .
فقلت : واويلاده ، ألسب الدنانير والصنينة ، وأخرج على هذه الحالة ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون .

فرفع السِتر الأولُ ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع ، فلما رفع الخادمُ السِتر الأخير قال لي : مهما كان لك من الخواج فارفعها إليّ فلاي مأمورٌ بقضاء جميع ما تأمرني به .

فلما رفع السِتر الأخير رأيتُ حجرةً كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحةُ الندِّ والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبياني وعيالي يتقبلون في الحرير والديباج ، وحمل إليّ مائة ألف درهم ، وعشرة آلاف دينار ، ومنشور بضيعتين ، وتلك الصنينة التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق ، وأقمت يا أمير المؤمنين ، مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلمُ الناسُ أمن البرامكة أنا أم رجلٌ غريب ، فلما جاءتهم البلية ونزل بهم يا أمير المؤمنين ، من الرشيد ما نزل أجحف بي عمرو بن مسعدة وألزمي في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يني دخلهما به ، فلما تحمل عليّ الدهر كنتُ في آخر الليل أقصدُ خرائب دورهم ، فأندبهم وأذكرُ حسنَ صنيعهم إليّ وأبكي على إحسانهم .

فقال المأمون : عليّ بعمرو بن مسعدة .

فلما أتني به قال له : تعرف هذا الرجل ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، هو بعض صنائع البرامكة .

قال : كم ألزمتَه في ضيعتيه ؟

قال : كذا وكذا .

فقال له : ردُّ إليه كلَّ ما أخذته منه في مدَّته ، وأفرغها له ليكونا له ولعقبه من بعده .

قال : فعلاً نجيبُ الرجل ، فلما رأى المأمون كثرةً بكائه قال له : يا هذا ! قد أحسنا إليك ، فما يبكيك ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، وهذا أيضاً من صنيع البرامكة ، لو لم آت خرائبهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري إلى أمير المؤمنين ، ففعل بي ما فعل من أين كنتُ أصيل إلى أمير المؤمنين ؟

قال إبراهيم بن ميمون : فرأيتُ المأمون ، وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنُه وقال : لعمرى هذا من صنائع البرامكة ، فعليهم فابكٍ ، وإياهم فاشكر ، ولهم فأوفٍ ولا إحسانهم فاذاكر ، انتهى .

المأمون والورد

وقال إسحاق : دخلت يوماً على المأمون في زمن الورد . فقال لي : يا إسحاق ! هل قلت شيئاً في الورد ؟

قلت : أقول بسعادة أمير المؤمنين .

وفكرت ساعة فلم تسمح قريحتي في ذلك الوقت بشيء ، فخرجت من عنده وبقيت ليلتي ساهراً متفكراً ، فلم يُفتح عليّ بشيء ، فلما أصبحتُ غلوتُ إلى دار الخلافة ، وإذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون ، ومعه سبعُ ورذات على صينية فضة ، ينتظر الإذن في الدخول بها عليه ،

فسألته المهلة بها قليلاً ، فامتنع ، فسألته ثانياً ، وقلت : أمهل قليلاً ،
ولك بكل وردة دينار .

فأجابني إلى ذلك فدفعت له سبعة دنانير ، وأحببت أن لا يصل إليه
الورد قبل وصول الشعر ، وخرجت أقصد الأزقة لعلّي أسمع شيئاً من أحد
أو ينبعث خاطري ولو بيت واحد ، فبينما أنا كذلك وإذا أنا برجل يُعربل
التراب وهو ينشد ويقول :

اشرب على وردِ الخدودِ فإنه أزهى وأبهى ، فالصُّبوحُ يَطِيبُ
ما الورد أحسن من تورّد وجنة جمراء جاد بها عليك حبيبُ
صبيغ المدام يياضها فكأنه ذهبٌ بقالِبِ فِضّةٍ مضروبُ

فلما سمعته نزلتُ عن دابتي ، ودخلت مسجداً بالقرب منه وطلبتُه ،
فلما أقبلَ سألتُه أن يُملِئها عليّ فاعتلّ ، وقال : إن أردت فاعطني بكل بيت
عشرة دنانير ، فدفعتها له واستمليتها منه ثم عدت أنا وغلامُ الفضل بن
مروان ، وإذا بالمأمون يشربُ من وراء الستارة ، فلما جسيّتُ العودَ قال
لجواريه : اسكتنَ ، فقد جاء إسحاق ، فقدّمت ذلك الوردَ بين يديه
وأنشدتُ الأبيات فسمعتُ الشهيقَ والزفير من وراء الستارة ثم أخرج إليّ
بدرّة فيها عشرة آلاف درهم ، فأعدتُ الأبيات ، فأخرج إليّ بدرّة
أخرى ، فأعدت الثالثة فأخرج إليّ بدرّة ثالثة ، فأخذت في غير الشعر ،
فخرج إليّ خادم وقال : يقول لك أميرُ المؤمنين لو دمت على إنشادك لدنا
على البدرّة ولو إلى الليل ، انتهى من حلية الكهيت .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

ويحكى عن العباس صاحب شرطة المأمون ، قال : دخلت إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد يوماً ، وبين يديه رجل مكبل بالحديد ، فقال لي : يا عباس ؟

قلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : خذ هذا إليك فاستوثق به واحتفظ عليه وبكر به إليّ في غدٍ واحترز عليه كل الاحتراز .

قال العباس : فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرك . فقلت في نفسي : مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي ، فلما تركوه في داري أخذت أسأله عن قضيتّه وحاله ومن هو ؟

فقال : أنا من دمشق .

فقلت : جزى الله دمشق خيراً ، فمن أنت من أهلها ؟

فقال : وعمّن تسأل ؟

قلت : أوتعرف فلاناً ؟

قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟

فقلت : وقعت لي معه قضية .

فقال : ما كنتُ أعرفُك خبره حتى تعرّفني قضيتك معه ؟

فقلت : ويحك ! كنت مع بعض الولاة بدمشق فسمعت أهلها ،
وقد خرجوا علينا حتى أنّ الوالي خرج في زنبيل من قصر الحجاج ، وهرب
هو وأصحابه ، وهربت في جملة القوم ، فبينما أنا هارب في بعض الدور ،
وإذا بجماعة يعدّون ، فما زلت أعدو أمامهم حتى تجاوزتهم ، ومررت بهذا
الرجل الذي ذكرته لك ، وهو جالس على باب داره ، فقلت : يا هذا
أغني أغاثك الله ؟

قال : لا بأس عليك ادخل الدار .

فدخلت ، فقالت لي زوجته : ادخل تلك المقصورة .

فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار ، فما شعرت إلا وقد دخل ،
والرجال معه يقولون هو والله عندك .

فقال : دونكم الدار فتشوها .

ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها ، فقالوا : ها
هو هنا .

فصاحت بهم المرأة ونهرتهم ، فانصرفوا . وخرج الرجل وجلس على
باب داره ساعة ، وأنا قائم أرجف ما تحملي رجلاي من شدة الخوف .
فقالت المرأة : اجلس لا بأس عليك .

فجلست ، فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف فقد صرف
الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله .

فقلت : جزاك الله خيراً .

فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكاناً من داره ولم
يخونني إلى شيء ولم يفتّر عن تفقّد أحوالي ، فأقمت عنده أربعة أشهر في
أتمّ عيشٍ وأرعدّه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت له :

أتأذن لي في الخروج حتى اتفق حال غلماني ، فلعلّي أئف منهم على خبر .
فأخذ عليّ الموائيق بالرجوع إليه ، فخرجت وطلبتُ غلماني فلم أر لهم
أثراً فرجعت إليه وأعلمته بالخبر ، وهو مع هذا كله لا يعرفني بنفسه ولا
يعرف من أنا . فقال لي : علام تعزم ؟

فقلت : عزمت على التوجه إلى بغداد .

قال : إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج .

فقلت له : إنك قد تفضّلت عليّ هذه المدة . لك عليّ عهد الله إنني
لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت .

قال : فدعا بغلام أسود وقال له : أنعل الفرس الفلاني ، ثم جهّز آلة
السفر فقلت في نفسي : ما أشك أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية
من النواحي ، فأقاموا يومهم ذلك في كدّ وتعب ، فلما كان يوم خروج
القافلة جاء في السحر ، فقال : يا فلان ! قم ، فإن القافلة تخرج
الساعة ، وأكره أن تنفرد عنها .

فقلت في نفسي : كيف أصنع وليس معي ما أتزوّد به ولا ما أكتري
به مركباً ، ثم قمت ، فإذا هو وامرأته يحملان بُقجةً من أفخر اللباس وخفين
جديدين وآلة السفر ، ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي ، ثم
قدّم لي غلاماً وعلى كتفه صرّتان وفوقهما مرتبة السفر وسجادة من أفخر ما
يكون ، وأعلمني بما في الصرّتين أنه خمسة آلاف درهم ، وشدّ لي الفرس
الذي أنعله بسرجه ولجامه ، وقال لي : اركب ، وهذا الغلام الأسود
يخدمك ويسوسُ مركوبك . وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في
أمري وركب معي من يشيّعني ، وانصرفت إلى بغداد ، وأنا أتوقّع خبره
لأني بعهدي له في مجازاته ومكافاته . واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أقدر أن
أنفّرغ إلى أن أرسل إليه من يكشف خبره ، فلهذا أسأل عنه .

فلما سمع الرجل الحديث قال : قد أمكنك الله من الوفاء له ومكافأته على فعله ومُجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك .

فقلت : وكيف ذلك ؟

قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضر الذي أنا فيه قد غيّر عليك حالي وما كنت تعرفه مني ، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته ، فما تماكنت أن قتّ وقبّلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذي صيرك إلى ما أرى ؟

قال : هاجت بدمشق فتنةٌ مثل الفتنة التي كانت في أيامك فتسببت إليّ ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فضبطوا البلد فأخذت أنا وشربت إلى أن أشرقت على الموت ، وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمرني عنده عظيم ، وهو قاتلي لا محالة ، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية ، وقد تبغني من ينصرف إليهم بخبري ، وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد ، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقت بوفاء عهدك .

قال العباس : فقلت يصنع الله خيراً .

ثم أحضر حدّاداً في الليل وفكّ قيوده ، وأزال ما كان عليه من الإنكال ، وأدخله حمام داره ، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سیر من أحضر إليه علامه ، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه ، فاستدعى العباس نائبه وقال : عليّ بفرسي الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عدّ عشرة ، ثم عشرة من الصناديق ، ومن الكسوة كذا وكذا .

قال ذلك الرجل : وأحضر لي بكرة فيها عشرة آلاف درهم ، وكيساً فيه خمسة آلاف دينار ، وقال لعامله في الشرطة : خذ هذا الرجل وشيئعه إلى حد الأنبار .

فقال له : إن ذنبي عظيم عند أمير المؤمنين وخطبي جسيم ، وإن أنت احتجيت بأني هربتُ بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأرادوا قتلي .

فقال : انج بنفسك ودعني أدبر أمري .

فقال : والله لا أبرحُ من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك ، فإن احتجت إلى حضوري حضرت .

فقال لصاحب الشرطة : إن كان الأمر على ما يكون ، فليكن في موضع كذا وكذا ، فإن أنا سلمتُ في غداة غد أعلمته ، وإن أنا قُلت وقيتَه بنفسي كما وقاني بنفسه ، وأنشدك الله أن لا يذهبَ من ماله درهم ، وتجتهد في إخراجه من بغداد .

قال الرجل : فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان يثق به ، وتفرغ العباس لنفسه وتحنّط وجهه له كفناً .

قال العباس : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي يقولون : يقول لك أمير المؤمنين : هات الرجل معك وقم .

قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين ، وإذا هو جالس وعليه كآبة ، فقال : أين الرجل ؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل ؟

فسكت ، فقال ويحك أين الرجل ؟

فقلت : يا أمير المؤمنين اسمع مِنِّي ما أقول .

فقال : لله عليّ عهد ، لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك .

فقلت : لا والله ، يا أمير المؤمنين إنه ما هرب ، ولكن اسمع حديثي معه كيت وكيت ، وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي ، وقلت : أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين

بين أمرين : إما أن يصفح عني ، وقد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحطّطت ، وها كفتني يا أمير المؤمنين .

فلما سمع المأمون الحديث قال : ويحك ، لا جزاك الله خيراً عن نفسك ، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ، وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير ؟ هلاً عرفني خبره ، فكنت أكافئه عنك ولا أقصر بوفائي له ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ههنا ، وقد حلف أنه لا يرح حتى يعرف سلامتي ، فإن احتجت إلى حضوره حضر .

فقال المأمون : وهذه مئة أعظم من الأولى ، اذهب الآن فطيب نفسه وسكّن روعه واثني به حتى أتوّلّى مكافأته عنك .

قال : فأتيت إليه وقلت : ليزل عنك حزنك ، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت .

فقال : الحمد لله الذي لا يُحمد على السراء والضراء أحد سواه ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم أتيت به إلى أمير المؤمنين ، فلما مثل بين يديه أقبل عليه وأدنى مجلسه وحدّثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى عنها ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولُجُمِها ، وعشرة بغال بآلاتها ، وعشر بدر ، وعشرة آلاف دينار ، وعشرة ممالك بدوآبهم ، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به ، وأطلق خواجه ، وأمر بمكاتبته بأحوال دمشق ، فصارت كتّبه تصل إلى المأمون ، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابته يقول لي : يا عباس هذا كتاب صديقك ، والله أعلم .

المأمون وزنبيل بوران

ويحكى عن إسحاق الموصلي أنه قال : خرجت ليلة من عند المأمون متوجّهاً إلى بيتي ، فأحسست بالبول ، فعدت لزقاق ، وقت لأتمسّح بالحيطان ، وإذا بزنبيل كبير بأربعة آذان ملبس ديباجاً ، فقلت : إن لهذا سبباً وبقيت متحيراً في أمره ، فحملني السكر وقال لي : اجلس فيه ، فجلست ، فلما أحسّ بي الذين كانوا يرقبونه جذبوه إلى رأس الحائط ، فإذا أنا بأربع جوارٍ يقلن لي : انزل بالرحب والسعة ، ومشيت بين يدي جارية بشمعة حتى نزلت إلى دار ومجالس مفروشة لم أر مثلها إلا في دار الخلافة فجلست ، فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رُفعت في ناحية من الجدران ، وإذا بوصائف يتمشّين وفي أيديهنّ الشمع وبعض مجامرٍ تحرق فيهنّ العود وبينهنّ جارية كأنها البدر الطالع ، فنهضت وقالت : مرحباً بك من زائر وجلست ، ثم سألتني عن خبري فقلت : انصرفت من عند بعض إخواني وغرّني الوقت وحرقتني البول ، فعدت إلى هذا الزقاق ، فوجدت زنبيلاً معلقاً ، فحملني السكر على أن جلست فيه ، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه .

قالت : لا ضير ، وأرجو أن تَحْمَدَ عاقبةَ أمرك ، ثم قالت : فما صناعتك ؟

قلت : بزاراً ببغداد .

١ البزار : باع البزور ، والأبازير أي التوابل التي يطيب بها الطعام .

فقلت : هل رويت من الأشعار شيئاً ؟

قلت : شيئاً ضعيفاً .

قلت : فذاكرنا شيئاً .

قلت : إن للدخل حشمة ، ولكن تبدين أنت .

قلت : صدقت ، فأنشدني شعراً لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدري مِمَّ أعجب من حسنها أم حسن روايتها ؟ ثم قالت : أذهب ما كان فيك من الحصر ؟

قلت : إي والله .

قلت : فإن رأيت أن تنشدنا .

فأنشدتها شيئاً لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسنت ذلك ، ثم قالت : والله ما ظننتُ أنه يوجد في أبناء السوقِ هذا ، ثم أمرت بالطعام فأحضر ، فجعلت تقطع وتضع قدامي ، وفي المجلس من صنوف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند السلطان ، ودعت بالشراب ، فشربت قدحاً ، ثم ناولتني قدحاً ، ثم قالت هذا أوانُ المذاكرة والأخبار ، فاندفعتُ إذاكرها وقلتُ : بلغني أن كذا وكذا ، وكان رجلاً يقال له كذا ، حتى أتيت على عدة أخبار حسان ، فسُرتُ بذلك وقالت : كثر تعجبي أن يكون أحدٌ من التجار يحفظ مثل هذا ، وإنما هذه أحاديثُ ملوك .

فقلت : كان لي جار يحادث الملوك وينادهم ، وإذا تعطلتُ حضرتُ معه فربما حدثتُ بما سمعت .

فقلت : لعمري ، لقد أحسنتَ الحفظ وما هذه إلا قريحة جيدة .
وأخذنا في المذاكرة ، إذا سكتُ ابتدأتُ هي ، وإذا سكنتُ ابتدأتُ

أنا ، حتى قطعنا أكثر الليل وبحور العود يعبق ، وأنا في حالة لو توهمها
المأمون لطار شوقاً إليها ، فقالت : إنك من أطرف الرجال ، وضبيء الوجه
بارعٌ في الأدب وما بقي إلا شيء واحد ؟

قلت : وما هو ؟

قالت : لو كنت تترنم ببعض الأشعار ؟

قلت : والله لقديمًا كنت ألفتُه ولم أرزقه وأعرضتُ عنه ، وفي قلبي
منه حرارة ، ولو كنت أحبُّ في مثل هذا المجلس شيئاً منه لتكملَ ليلتي .
قالت : كأنك عرّضت .

فقلت : والله ما هو تعريض قد بدأت بالفضل ، وأنتِ جديرة
بذلك .

فأمرت بعود فحضر ، وغنّت بصوتٍ ما سمعتُ بحُسْنِه مع حُسن
أدبها وجودة الضرب بالكمال الراجح ، ثم قالت : هل تعرفُ هذا الصوت
ومن غنّى به ؟ قلت : لا .

قالت : الشعر لفلان ، والغناء لإسحاق .

قلت : وإسحاق هذا جُعِلت فداك بهذه الصفة ؟

قالت : بَخ بَخ ! إسحاقٌ بارعٌ في هذا الشأن .

فقلت : سبحان الله أعطي هذا الرجلُ ما لم يعطه أحد ؟

قالت : فكيف لو سمعتَ هذا الصوتَ منه .

ثم لم تزل على ذلك حتى إذا كان الفجرُ أقبلت عجوزٌ كأنها داية لها ،
وقالت : إن الوقتَ قد حضرَ ، فنهضتُ عند قولها ، فقالت : لتستر ما كنّا
فيه فإن المجالس بالأمانات .

قلت : جُعِلت فداك لم أكن أحتاج إلى وصية في ذلك .

فودّعها ، وجارية بين يديّ إلى باب الدار ففتح لي فخرجتُ ورحتُ إلى داري ، فصلّيتُ الصبحَ ونمتُ . فانتهى رسولُ المأمون إليّ فسرتُ إليه وأقمتُ عنده نهاري ، فلما كان العشاء تفكّرتُ في ما كنتُ فيه البارحة ، وهذا شيء لا يصبر عليه إلّا جاهل ، فخرجتُ وجئتُ إلى الزننيل ، فوجدته على عادته ، فجلستُ فيه ورُفعتُ إلى موضع البارحة ، وإذا هي قد طلعت ، فقالت : لقد عاودت .

فقلت : ولا أظنّ إلّا أنني قد ثقّلت .

وأخذنا في المحادثة مثل تلك الليلة السالفة في المذاكرة والمناشدة وغرب الغناء منها إلى الفجر . فانصرفتُ إلى منزلي ، فصلّيتُ الصبح ، ونمتُ . فانتهى رسولُ أمير المؤمنين إليّ فمَضَيْتُ إليه وأقمتُ نهاري عنده ، فلما كانت العشيّة توجّه إليّ مخاطباً ، وقال : أقسمت عليك لتجلسنَ حتى أجيء وأحضر ، فما كان حتى أن غاب وجالت وساوسي ، فلما تذكرتُ ما كنتُ فيه هان عليّ ما يخصّني من أمير المؤمنين ، فوثبتُ مبادراً وخرجتُ جاريةً حتى أتيتُ الزننيل ، فجلستُ فيه فرُفعتُ إلى مجلسي ، فقالت : صديقُنَا .

قلت : إي والله .

قالت : أجعلتها دار إقامةٍ ؟

قلت : جُعِلتُ فداك حقُّ الضيافةِ ثلاثةَ أيامٍ ، فإن رجعتُ بعد ذلك ، فأنتم في حلٍّ من دمي .

ثم جلسنا على ذلك الحال فلما قرب الوقتُ علمتُ بأن المأمون لا بدّ أن يسألني ، فلا يقنع إلّا بشرح القصة فقلت : أنا أراك ممّن يُعجب بالغناء ولي ابنُ عمّ أحسنُ منّي وجهاً ، وأظرفُ قدّاً وأكثرُ أدباً وأطيب أرجاً ، وهو أعرفُ خلق الله بغناء إسحاق .

فقلت : طفيلي وتقترح .

قلت لها : أنت المحكّمة .

ثم قالت : إن كان ابنُ عمك على ما تصف فما نكره معرفته .

ثم جاء الوقت فهضتُ وقتُ وذهبتُ ، فلم أصل إلى داري إلا
ورسلُ المأمون قد هجموا عليّ وحملوني حملاً عنيفاً فوجدته قاعداً على
كرسي وهو مغتاظ فقال : يا إسحاق ، أخرجاً عن الطاعة ؟

قلت : لا والله .

قال : فما قصُّك أصدقني ؟

قلت : نعم في خلوة .

فأومأ إلى من بين يديه فتنحوا ، فحدّثته الحديثَ وقلت له : وعدّها
بك .

قال : أحسنتَ فأخذنا في لذّتنا ذلك اليوم ، والمأمون معلّق القلب
بها . فما صدّقنا أن جاء الوقت وسرنا ، وأنا أوصيه وأقولُ له : تجبّ
واحذر أن تناديّني باسمي يحضرتها ، وغنّ وأنا لك تبعٌ وهو يقول : نعم ،
ثم سرنا إلى الزنبيل فوجدناهما اثنين ، فقعنا فيهما ورُفعا إلى الموضع
المعهود ، فحضرت وأقبلت وسلمت ، فلما رآها المأمون بُهت في حُسْنها
وجالها وأخذت تذاكره وتناشده الأشعار ، ثم أحضرت النبيذ فشربنا ،
وهي مقبلة عليه مسرورة به ، وهو أكثر ، فأخذت العودَ وغنّت صوتاً ،
ثم قالت : وابن عمك هذا من التجار ، وأشارت إليّ .

قلت : نعم .

قالت : والله إنكما لقريان .

فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب ، فصاح وقال :

يا إسحاق !

قلت : لبيك يا أمير المؤمنين .

قال : غنّ هذا الصوت ؟

فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى مكان فدخلته ، فلما فرغت من الصوت قال : انظر من ربُّ هذه الدار ؟

فبادرت العجوز وقالت : للحسن بن سهل .

فقال : عليّ به .

فغابت العجوز ساعة ، وإذا الحسن قد حضر .

فقال له المأمون : ألك ابنة ؟

قال : نعم .

قال : ما اسمها ؟ قال : بوران .

قال : أمتزوجة ؟ قال : لا والله .

قال : فإني أخطبها منك .

قال : هي جاريتك وأمرها إليك .

قال : قد تزوّجتها على نقد ثلاثين ألفاً ، تُحمل إليك صبيحة يومنا هذا ، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتنا .

قال : نعم . ثم خرجنا فقال : يا إسحاق لا توقف على هذا الحديث أحداً .

فسترته إلى أن مات المأمون فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لي في تلك الأربعة أيام مجالسة المأمون بالنهار وبوران بالليل . والله ما رأيت أحداً من

الرجال مثل المأمون ولا شاهدت امرأة تقارب بوران فهماً وعقلاً والله تعالى أعلم ، انتهى من حلية الكعبين .

المأمون وجارية أبيه

وقيل : كان المأمون يوماً يأكل مع أبيه الرشيد ، فلما فرغا جعلت جارية تصبّ الماء على يد الرشيد ، فنظر إليها المأمون ، وأشار إليها كأنه يقبلها ، فأنكرت ذلك منه بعينها ، وأبطأت في الصبّ بقدر النظر إلى المأمون ، فقال لها الرشيد : لأي شيء صغى الإبريق في يدك ، فوالله لئن لم تصدقيني الحق لأضربن عنقك ؟

فقالت : يا سيدي نظر إليّ عبد الله المأمون ، وأشار إليّ كأنه يقبلني ، فأنكرت ذلك بعيني .

فنظر الرشيد إلى المأمون ، فسقط مغشياً عليه كأنه ميتٌ مما داخله من الخوف والفزع ، فأخذه وضّمّه إلى صدره ، وقال : يا عبد الله ؛ أتحبّها ؟ قال : إي والله يا أمير المؤمنين .

فقال : هي لك ، خذ بيدها وادخل بها في هذه القبة . ففعل ، فلما خرج إلى الرشيد قال له : هل قلت في هذا شيئاً ؟

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم أنشد يقول :

ظبي كَنَيْتُ بطرفي عن الضمير إليه قَبَلْتُهُ من بعيدٍ
فاعتَلَّ من شفتيه وردَّ أخْبَثَ ردُّ بالكسر من حاجبيه
فما برحتُ مكاني حتى قدرتُ عليه

المأمون والفتاة العربية

عن أبي عبد الله الثميري أنه قال : كنت يوماً مع المأمون ، وكان بالكوفة ، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عينان فرسه وكان على سابق من الخيل ، فأشرف على نهر من ماء بحر الفرات ، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد ، قائمة التهد ، كأنها القمر ليلة تمامه ، ويدها قرية قد ملأتها من النهر ، ورفعتها على كتفها ، وصعدت من حافة النهر ، فأنحلت وكأوها ، فصاحت برفع صوتها : يا أبت ! أدرك فاها ، قد غلبني فوها ، لا طاقة لي بفيها .

قال : فعجب المأمون من فصاحتها ورمت القرية من يدها ، فقال لها المأمون : يا جارية من أي العرب أنت ؟

فقلت : أنا من بني كلاب .

قال : وما حملك أن تكوني من الكلاب ؟

قالت : والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لثام ، يقرن الضيف ، ويضربون بالسيف ، ثم قالت : يا فتى من أي الناس أنت ؟

قال : أوعندك علم بالأنساب ؟

قالت : نعم .

قال : أنا من مضر الحمراء .

قالت : من أي مضر ؟

قال : من أكرمها نسباً وأعظمها حسباً وخيرها أمّاً وأباً ، ممّا تهابه مضر وتخشاه .

قالت : أظنّك من كنانة ؟

قال : أنا من كنانة .

قالت : من أي كنانة ؟

قال : من أكرمها مولداً وأشرفها مَحْتِداً وأطولها في المكرمات يداً ، ممن تهابه كنانة وتخشاه .

قالت : والله أنت من بني هاشم ؟

قال : أنا من بني هاشم .

قالت : من أي هاشم ؟

قال : من أعلاها منزلةً وأشرفها قبيلةً ممن تهابه هاشم وتخشاه .

قال : فعند ذلك قَبِلَت الأرضَ وقالت : السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين وخليفةَ رسول ربِّ العالمين .

قال : فتعجّب المأمون منها وطرب طرباً شديداً ، ثم قال : لأتزوَّجَنَّ بها لأنها من أكبر الغنائم ، ووقف حتى التحق به العسكر ، فترل وأرسل خلف أيها وخطبها منه ، فزوَّجه بها ، وهي والدة العباس ، والله أعلم .

أخلاق المأمون

من محاسن الأخلاق ، ما حكى عن القاضي يحيى بن أكثم قال : كنت نائماً ذات ليلةٍ عند المأمون ، فعطش ، فامتنع أن يصيحَ لغلام يسقيه ، وأنا نائمٌ فينغصّ عليّ نومي ، فرأيتُه وقد قام يتمشّي على أطراف

أصابه حتى أتى موضع الماء ، وكان بينه وبين الماء نحو ثلاثمائة خطوة . ثم رجع يَمْشِي على أطراف أصابعه حتى وصل إلى الفراش الذي أنا عليه ، وخطا خطواتٍ لطيفةً لئلا يَنْهَي حتى وصل إلى فراشه ، ثم رأته آخر الليل ، وقد قام يبول ، فقعده طويلاً يحاول أن أُنْحَرِّك فيصيح للغلام . فلما تحرَّكتُ وثب قائماً وصاح بالغلام وتأهَّب للصلاة ثم جاءني وقال : كيف أصبحت يا أبا محمد ، وكيف مبيتك ؟

قلت : بخير مبيتٍ جعلني الله فداك .

قال : لقد استيقظتُ للصلاة ، فكرهتُ أن أصبح للغلام فأزعجك .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، لقد خصَّك الله بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ووهب لك سيرتهم ، فهتألك الله بهذه النعمة ، وأتمها عليك .

فأمر لي بألف دينار وانصرفت .

حِلْمُ الْمَأْمُونِ

وحدَّث سليمان الوراق قال : ما رأيتُ أعظم حِلْماً من المأمون ، دخلت عليه يوماً وفي يده فَصٌّ مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس ، وهو يقلِّبه بيده ويستحسُّه ، ثم دعا برجلٍ صائغ وقال له : اصنع بهذا الفصَّ كذا وكذا ونزِّل فيه كذا وكذا ، وعَرِّفْه كيف يعمل به ، فأخذه الصائغ وانصرف ثم عدتُ إلى المأمون بعد ثلاثٍ فتذكَّره فاستدعى الصائغ ، فأُتي به ، وهو يُرْعَدُّ وقد امْتَقِعَ لونه . فقال المأمون : ما فعلت بالفصِّ ؟

فتلعجج الرجل ولم ينطق بكلام ، ففهم المأمون بالفراصة أنه حصل فيه

خللٌ ، فوَّلى وجهه عنه ، حتى سكنَ جأشه ، ثم التفت إليه وأعاد القول .

فقال : الأمان يا أمير المؤمنين .

قال : لك الأمان .

فأخرج الفصَّ أربع قطع وقال : يا أمير المؤمنين ، سقط من يدي على السندال فصار كما ترى .

فقال المأمون : لا بأس عليك ، اصنع به أربع خواتم ، وألطف له في الكلام حتى ظننت أنه كان يشتهي الفصَّ على أربع قطع . فلما خرج الرجل من عنده ، قال : أتدرون كم قيمة هذا الفصَّ ؟
قلنا : لا ، قال : اشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفاً ، انتهى .

* * *

ومن حِلْمه أيضاً . قال يحيى : كنتُ أنا والمأمونُ يوماً في بستان ندورُ فيه فمشينا في البستان من أوله إلى آخره ، وكنتُ مما يلي الشمس والمأمونُ مما يلي الظلِّ ، فكان يجذبني أن أكونَ في الظلِّ وهو في الشمس ، فأمتنع من ذلك ، فإذا رجعنا قال لي : والله يا يحيى لتكوننَّ في مكاني ولأكوننَّ في مكانك ، حتى آخذَ نصيبي من الشمس كما أخذتَ نصيبك منها .
فقلت : والله يا أمير المؤمنين ، لو قدرتُ أن أقيك من هول المطلعُ لفعلتُ .

ولم يزل بي حتى تحوَّلتُ إلى الظلِّ وتحوَّل هو إلى الشمس ، ووضع

١ هول المطلع : هول يوم القيامة .

يدّه على عاتقي وقال : بحياتي عليك إلّا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلتُ ، فإنّه لا خير في صحبة من لا يُنصف .

* * *

ومن حِلْمه أيضاً . أنه كان له خادم يسرق طاساته التي يتوضأ فيها فقال له المأمون : إذا سرقت شيئاً فائتني بما تسرقه ، فأشتريه منك . فقال له الخادم : اشترِ مِنّي هذه ، وأشار إلى التي بين يديه . فقال : بكم .

قال : بدينارين .

قال : على شرط أنّك لا تسرقها .

قال : نعم .

فأعطاه دينارين ، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئاً لِمَا رأى من حِلْمه ، والله أعلم .

الطفيلي الأديب والمأمون

وروى بعض أهل الأدب أن فتى من أهل الكوفة قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة باللسان ناقداً في صناعته ، حافظاً للأقدار ، راوياً للأشعار ، خبيراً بسير الملوك في الأيام السالفة ، بصيراً بالبحث عن أمورهم في الأيام الآنفة ، حاذقاً في التصنيف ، فائقاً في التأليف ، صريح الوجه ، مقبول المشاهد ، حلّو الشمائل ، وكان مع ذلك لا يتوجّه له وجهٌ من العمل إلّا عارضه فيه عائق ، وحال دونّه حائل وقدّر سابق ، فبقي حيناً من الدهر . وقد برز في القدر والمال والجاه من كان عنده في الصنعة متأخراً . فضاق صدره وعيل صبره وضلّت مقاليدُه ، فخرج إلى

بغداد واكثرى في بعض خاناتها منزلاً وأجمع رأيته على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكه أو ملكه . وتربص لذلك أن يرى وحهاً إلى أن عزم أمير المؤمنين المأمون أن يشرب يوماً هو وصنوه المعتصم . فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سمّاه ليخلو فيه مع الجوّاري . منفردين عن سائر الندماء . فظهر خبرهما بذلك . وعرف الناس ذلك اليوم الذي عزم عليه . فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل في ذلك على المأمون وأخيه المعتصم ، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وزردية^١ . ومن آخر منطقة وخيفاً وسيفاً . ومن آخر برذوناً . ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب واستعدّ لذلك اليوم . ودخل الحمام سحراً . وتطيّب ، وليس . وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب : عرّف الأمير أنّي رسول أمير المؤمنين . واستأذن لي عليه .

فسعى الحاجب عدواً حتى أخبر المعتصم . فأذن له . فلما دخل عليه . وتمثّل بين يديه . قال له : سيدي إن أمير المؤمنين يُقرئك السلام ويقول لك : أنسيت الوعد . ألم يُقدّم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يوماً هذا؟

قال المعتصم : لا والله ما نسيت ذلك . ولكن تربصت ساعة . ونمت نومةً لأنقوى بذلك على انتصاب سائر النهار . فقال الفتى : فعجل الآن أيها الأمير . فإنه أمرني أن لا أفارقك حتى آتية بك .

فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع في التأهب ، ولبس ثيابه وتطيّب وركب الفتى معه ، والمعتصم لا يُنكر شيئاً من كلام الفتى ويتأمل لطافته

١ الزردية : لعلها ضرب من الثياب مصنوع على شكل زرد .

وهيئته . ولم يتوهم إلا أنه من بعض خواصّ المأمون ، وأخذ الفتى يحدث المعتصم وأقبل عليه بكلّيته ، ولم يتمكّن من سؤاله شهوةً لاستماع حديثه ، حتى بلغَ بابَ الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته ، وأخذ يمشي بين يديه . والحجابُ لا يُنكرون منه شيئاً ويظنون أنه من خدام المعتصم ، حتى نزل المعتصم . وأخذ الفتى بركابه . ودخل المجلس ، فلما استقرّ المعتصمُ في مجلسه جلس الفتى بين يديه . وهو منهك في نوادره وأخباره والمعتصمُ مصعجٌ إليه تعجباً مما يسمع من حسن كلامه . وأخبر المأمونُ أن المعتصم قد وصل ومعه رفيقٌ لا يُعرف من هو .

فقال المأمون : أخي قد عرفَ أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي أن يحضره أحدٌ من الناس إلا مَنْ هو عدلٌ النفس . وقد أحسنَ أخي إذ جعل لنا ثالثاً . فإن المجلسَ إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطلّ لقيام أحدهما إلى الصلاة وإلى ما لا بدّ منه . ثم خرج من ساعته فرحاً وليس له همّة إلا تصفّحَ وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قدّه وعقله . فلما استقرّ على سرير مُلكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون نهض قائماً فقبل يد المأمون ، وعاد إلى مجلسه وأخذ في نوادره وحديثه ومضحكاته وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر . وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواصّ المعتصم . فساعةً يكتّبه وساعةً يُسمّيه حتى غلب على قلب المأمون . وأظهر الحسد لأخيه في صحبة مثل هذا الغلام وكلامه ، وأمر المأمون بإحضار المائدة ، فنصبت بأنواع الطعام ، فأكلوا وغسلوا أيديهم ، ومجلس الشراب انتقلوا ، وأمر المأمون بإحضار الجوّاري من غير ستارة ، فحضرن وأخذن في الغناء ، فما من صوت يمرّ إلا والفتى عارف به ، وبالغناء . ومتى قيل وفيمن قيل ، فعزّ في عين المأمون حتى ملأ عينه ، وتزايد حسدُ أخيه في صحبة مثله فمسّ الفتى بولاً ، ولم يجد للمدافعة سبيلاً ، فقام وهو متيقّن أنهما سيذكرانه ، ويتواصفاً أمره وحاله ، إذا

خلا المجلس ، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما حتى قال المأمون لأخيه المعتصم : يا أبا إسحاق من صاحبك هذا ؟ فوالله ما رأيت رجلاً قطّ أكثر منه أدباً ولا أنظفُ هيئةً ولا أشرفُ من شمائله .

فقال المعتصم : والله ما أعلم من هو ، وإنما جاءني مبكراً برسالة أمير المؤمنين .

فقال المأمون : سألتك بالله يا أخي أهو كذلك ؟

فقال : إي والله الذي لا إله إلا هو .

فقال المأمون : طفيلي ، وربّ الكعبة ، وغضبَ وأمرَ الجوّاري بالنهوض ، فنهضن وأقبل الفتى راجعاً فلما نظر إلى خلوّ المجلس من الجوّاري وإلى تغيّر وجه المأمون ، وقف على رأس المجلس وأقبل بوجهه على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق ! كأني بك قد أخذتَ في نوعِ الزور والبهتان ، وهذا المجلس من المجالس التي لا تحمل المزاح ، وما هكذا وعدتني . ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ، ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا لأنه دائماً أبداً يعرضني لمثل هذا وأشباهه ، ويغري بي ويوقعني في كل ورطة .

ثم أقبل على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق ، سألتك بالله وبحقّ أمير المؤمنين إلّا ما أعفيتني من ملاعبتك التي لا تُحتمل وتؤدي إلى مؤاخذه أمير المؤمنين .

ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شكّ المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال : سألتك بالله يا أخي ، بجياي عليك إلّا ما أعلمتني بحقيقة أمره ؟

فقال المعتصم : يا أمير المؤمنين برئتُ من ذمّة الله ورسوله ومن حياتك وولائتك إن كنت أعرفه أو رأيتَه قطّ إلّا في يومي هذا .

فقال الفتى : كذِبَ والله يا أميرَ المؤمنين لقد كنتُ معه دهري الطويل
وفي موضع كذا وكذا ، وإن هذا فعلُهُ معي أبداً .

فضحك المأمون تعجباً ، وقال : ادخل فدخل ، وأمره بالجلوس
فجلس ، ثم قال : لك الأمان إن صدقتني .

فصدقه الحديث على وجهه فأعجب من حُسن منطقه ولطف مدخله
ودقيق تصرفه وأمر بإعادة الجوارى إلى مجلسهن ، فطربوا سائر يومهم .
فقال له المأمون : أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى
بغداد واجعله نظماً ولا تكتم عني شيئاً .

فقال : نعم ، ثم أنشأ يقول :

بيننا أنا راقداً في البيت مكتئبٌ	مفكرٌ في حصول الكدِّ والقوتِ
وليس في البيت لي شيءٌ أَلُمُّ به	وبي من الجوع ما يُدني إلى الموتِ
إذا بصوت بباب الدار أسمعُه	والأذن مصغيَّةٌ مني إلى الصوتِ
ناديتُ: من ذا الذي أرجوه لي فرجاً؟	نادى : أنا فرجُ زَنْ لي كِرا البيتِ

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه ، ثم ضرب برجله الأرض
من شدة إعجابه وقال : ثم ماذا ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، فخرجت فإذا هو صاحب الخان بطالبي
بالكراء ، فوعده بأن يرجع إليّ مرة أخرى ، فضى ومضيت على وجهي لا
أعلم أين أتوجه . فسألت كل من لقيته من صديقي لي كنتُ أستأنس به ،
فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك وهما :

غريبُ الدار ليسَ له صديقٌ	جميعُ سؤاله : أين الطريقُ ؟
تعلقَ بالسؤالِ لكلِّ شخصٍ	كما يتعلقُ الرجلُ الغريقُ

فأشرفت يا أمير المؤمنين عليّ جارية كأنها البدر ليلة كماله ، وهي تقول :

ترفق يا غريب فكلّ حرّ يمرّ بحاله سعة وضيق
وكلّ مليمّة إن أنت فيها صبرت لها أتيح لها الطريق

ثم قالت : خذ هذه فادفع بها فاقتك ، فوالله ما هي إلّا مؤاساة من قوت ، ورمت إلى صدري بقرطاس ، وإذا فيه عشرة دراهم ، فرجعت من فوري ، فوجدت صاحب الكراء قائماً على الباب ، فدفعت إليه خمسة دراهم ، واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة ، وهذا الأمر الذي كلّفني وحملني على ما فعلت وأنشأ يقول :

لم آتِ فعلاً غير مستحسن جهلاً بفعل الأحسن الأملح
لكنني في حالة أوجبت ضرورة ، إتيان مستقبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه وأمر له بمائة ألف درهم يُصْلَحَ بها شبّانه وألحقه بمراتب الخاصّة ، ورُفِعَت منزلته ، وصار أقرب الناس إليه ، وآخر خارج من عنده وأوّل داخل إليه ، وسُمِّي طفيلي المعتصم ، وأنشد للمأمون يوماً يقول :

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذ رأتك العين أهواي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلاً بذكرك عن ديني ودنياي
وصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولاي

فاستحسن المأمون الأبيات ، وأمر بكتبتها على الستارة ، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلّا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضي المجلس ، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته ، أرسل إلى الدار

التي أشرفت عليه منها الجارية ، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشرها ، وقد مات ولم يخلّف ولداً سوى تلك الجارية ، وما مات حتى تضعّص حاله ، فأعلم المأمون بذلك ، فأمر بحُطبتها للفتى ودفع المهر من عنده وصار الفتى والجارية في نعمة عظيمة بقيّة عمرهما والله أعلم .

رَقَّة قلب المأمون

وسرق شاب سرقة ، فأُتي به إلى المأمون فأمر بقطع يده فتقدّم لتقطع يده فأنشد الشاب يقول :

يدي ، يا أمير المؤمنين ، أعيدُها بعفوك أن تلقى نكالاّ يَشِيئُها
فلا خيرَ في الدنيا ولا راحةً بها إذا ما شيالُ فارقتها يمينها

وكانت أم الشاب واقفةً على رأسه ، فبكت وقالت : يا أمير المؤمنين إنه ولدي وواحدي ، ناشدُك الله إلّا رحمتي وهدأت لوعتي وجدت بالعضو عمّن استحقّ العقوبة .

فقال المأمون : هذا حدّ من حدود الله تعالى .

فقالت : يا أمير المؤمنين ! اجعل عفوك عن هذا الحدّ ذنباً من الذنوب التي تستغفر منها .

فرقّ لها المأمون وعفا عنه .

المأمون ونذير الشؤم

قال : رأيت في بعض المجاميع بخط بعض العلماء الأكابر أن المأمون أشرف يوماً من قصره فرأى رجلاً قائماً ويده فحمة ، وهو يكتب بها على حائط قصره . فقال المأمون لبعض خدمه : إذهب إلى ذلك الرجل ، فانظر ما كتب واثني به .

فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً وقبض عليه ، وقال : ما كتبت ؟ فإذا هو قد كتب هذين البيتين :

يا قصرُ جُمِعَ فيك الشؤمُ واللومُ متى يعيش في أركانك اليومُ
يوماً يعيشُ فيك اليومُ من فرحي أكونُ أولَ من ينعاك مرغومُ

ثم ان الخادم قال له : أجب أمير المؤمنين .

فقال الرجل : سألتك بالله لا تذهب بي إليه .

فقال الخادم : لا بدّ من ذلك .

ثم ذهب به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين وأعلم بما كتب قال له المأمون : ويلك ، ما حملك على هذا ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ! إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرُك هذا من خزائن الأموال والحلى والحلل والطعام والشراب والفرش والأواني والأمتعة

١ قوله : مرغومٌ ، بالرفع ، لعله مرفوع له على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره وأنا مرغوم ، فتكون الجملة حالية .

والجوارى والخدم وغير ذلك ممّا يقصر عنه وصني ويعجز عنه فهمي . وإني
يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن . وأنا في غاية من الجوع والفاقة .
فوقفت مفكراً في أمري وقلت في نفسي : هذا القصر عامراً عالٍ ، وأنا
جائع ولا فائدة لنا فيه ، فلو كان خراباً ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة
أو مسماراً أبيعه وأتقوت بثمنه أو ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ نصيبٌ ولا حظٌ تَمَنَّى زوالها
وما ذاك من بغضٍ له ، غير أنه يُرَجِّي سواها ، فهو يهوى انتقالها

فقال المأمون : يا غلام ، أعطه ألف درهم ، ثم قال : هي لك في
كل سنة ما دام قصرنا عامراً بأهله مسروراً في دولته .

وأنشدوا في معنى ذلك :

إذا كنت في أمر ، فكن فيه محسناً فعماً قليل أنت ماضٍ وتاركه
فكم دحت الأيام أربابَ دولة وقد ملكوا أضعافَ ما أنت مالكه

المأمون ومدعي النبوة

ويحكى أنه تنبأ رجلٌ في أيام المأمون ، فقال ليحيى بن أكرم القاضي :
يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبئ وإلى دعواه .
فركبا في الليل مستترين ومعهما خادم حتى صارا إلى بابه وكان مستتراً
بثوبه ، فاستأذنا عليه فخرج إليهما ، فقال : من أنتم ؟

١ دحت الأيام : هكذا في الأصل ، ومنى دحاه بسطه ، ودحا الحجر رماه .

فقالا : رجلان يريدان أن يُسلما على يدك .
قال : ادخلا . فدخلا وجلس المأمون عن يمينه . ويحسى عن
يساره . فقال المأمون : إلى من بعثت ؟
قال : إلى الناس كافة .
قال : أفيوحى إليك . أم ترى في المنام . أم يُنْفَث في قلبك ؟
قال : بل أُنَاجَى وَأُكَلِّم .
قال : ومن يأتيك ؟
قال : جبريل .
قال : فمتى كان عندك ؟
قال : الساعة قبل أن تأتياني بساعة .
قال : فما أوحى إليك ؟
قال : أوحى إليّ أنه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن
يمينك ، والآخر عن يسارك . والذي يجلس عن يسارك ألوطُ خلق الله
تعالى .
فقال له المأمون : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . وكان
يحسى يُعزى إلى ما قاله عنه المتنبى .

أبو نواس والغلام الجميل والقاضي

دخل أبو نواس على القاضي يحيى بن أكثم ودخل معه غلام جميل
الوجه . فقال الغلام : هذا مرّ عليّ وقبّلني كرهاً .
ففتن به القاضي . فأنشد يقول :

إذا كنتَ للتخميشِ والبوسِ كارهاً فلا تدخلِ الأسواقَ إلّا منقباً
ولا تُظهرِ الأصداغَ من تحتِ طُرّةٍ وتُشهرِ منها ، فوقَ خديكَ . عقرباً
فلما سمعَ الغلامُ ، أنشأ يقول :

لقد كنتُ أرجو أن أرى العدلَ بيننا فأعقبني . بعد الرجاء . قنوطُ
متى تصلحُ الدنيا ويصلحُ أهلُها إذا كان قاضي المسلمين يلوطُ

المأمون ويحيى بن أكرم

يحكى أنه كان عند المأمون يوماً . فقال له المأمون وهو يعرض له
باللواط : يا يحيى ! من ذا الذي يقول :

قاضي يرى الحد في الزناء . ولا يرى على من يلوط . من بأسٍ

فقال له : الذي يقول :

ما أرى الجور ينقضي . وعلى الأمّة والي منكم . بني العباس

سليب العقل لا الدين

سكرة القاضي ابن أكرم

ويقال : إن المأمون شرب يوماً ومعه القاضي يحيى بن أكرم ، فقال
لساقي على القاضي حتى وقع سكران ، فأمر المأمون أن يلقي عليه الورد
والرياحين حتى يدفن فيها كأنه ميت ، وصنع بيتين شعراً ، وقال لمغنيته :
خذي العود وغني على رأسه فغنت وقالت :

ناديته وهو حي لا حراك به مزمل في ثياب من رياحين
فقلت: قم! قال: رجلي لا تطاوعني فقلت: خذ! قال: كفي لا يوافيني

فاستيقظ يحس لرنّة العود والجارية تغني البيتين فقام ، وقال :
يا سيدي وأمير الناس كلهم قد جاز في حكمه من كان يسقيني
سقاني الراح لم يمزج سلاقتها حتى بقيت سلب العقل لا الدين

إبراهيم بن المهدي والمأمون

قال الواقدي : كان إبراهيم بن المهدي ادعى لنفسه الخلافة بالري وأقام مالکها سنةً وأحدَ عشرَ شهراً واثني عشر يوماً وله أخبار كثيرة .

فما حكاه قال : لما دخل المأمون الريّ في طلي أثقل عليّ الطلب وجعل لمن دلّ عليّ وأتاه بي مائة ألف درهم ، فخفت على نفسي ، وتحيرت في أمري . فخرجت من داري وقت الظهر ، وكان يوماً صائفاً ، وما أدري أين أتوجه ، ففررت بزقاق لا ينفذ ، فقلت : لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم . إنّ الله وإنا إليه راجعون ، وخفت إن رجعتُ على أثري يعلموا بي ، فرأيت في صدر الزقاق عبداً أسود قائماً على باب داره ، فتقدّمت إليه ، وقلت له : عندك موضع أقيم فيه ساعةً من :هار؟

قال : نعم . وفتح الباب ، فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر نظيفة وبُسط ومخدّات جلد ، ثم إنه أغلق الباب عليّ ومضى ، فخفت أن يكون سمع الجعالة في حقّي ، وأنه عرفني ومضى ليدلّهم عليّ ، فبقيت مثل الحبة في القلاة قلقاً ميتاً من الخوف ، فبينما أنا كذلك ، إذ أقبل ومعه حمّال حامل كلّ ما احتاج إليه من لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان

جدد ، ثم التفت إليّ وقال : جعلني الله فداك ! أنا رجل حجّامٌ ، وأنا أعرف أنك تنفر مني لما أتولاه من معيشتي . فشأنك بما لم تقع عليه يدي . وكان لي حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت قدرًا ما ظننت أني أكلتُ مثلها قدرًا ، فلما قضيت أربي ، قال لي : هل لك أن تشرب شيئاً فإنه يسلي الهمّ ويزيل الغمّ ، ويُمهّد للنفس الفرح ؟ قلت : ما أكره ذلك ، رغبةً في مؤانسته .

فأتى بقطرميز جديد وأحضر لي نُقلاً وفاكهة في أوانٍ جُدّد من فخّار ، ثم قال بعد ذلك : إن أذنت لي ، جُعِلْتُ فِداك أن أقعد بناحية منك ، وآتي بشراب فأشربُ مسروراً بك . فقلت : افعل .

ففعل وشرب ثلاثاً ، ثم دخل إلى خزانة له : فأخرج عوداً مُصلحاً ، ثم قال : يا سيدي ليس من قدرتي أن أسألك أن تغني ، ولكن قد وجب على مروءتك حرمتي ، فإن رأيت أن تشرفَ عبدك بأن تغني لنفسك ، والعبدُ يسمعُ فافعل .

فقلت له : ومن أين لك أني أحسن الغناء ؟

فقال متعجباً : سبحان الله ! أنت أشهر من ذلك ، أنت إبراهيم بن المهدي خليفَتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن يدلّ عليك مائة ألف درهم .

فلما قال ذلك عظمت مروءته عندي ، وعلمت أن نحوته أجلّ مما بذل ، فتناولت العود فأصلحته ، وقد مرّ بخاطري ذكرُ أهلي وولدي ، فقلت :

وعسى الذي أهدى ليوسف أهله وأعرّزه في السجن ، وهو غريبٌ

أَنْ يَسْتَجِيبَ لَنَا فَيَجْمَعَ شَمْلَنَا فَاللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ قَرِيبُ

فقال : يا سيدي اجعل ما تَغْنِيهِ مما أَقْتَضِيكَ^١ به .

قلت : نعم . فقال : غنّ لي :

إِنْ الَّذِي عَقَدَ الَّذِي انْعَقَدْتَ بِهِ عَقْدُ الْمَكَارِهِ ، فَهُوَ يَمْلِكُ حَلَّهَا
فَاصْبِر . فَإِنَّ اللَّهَ يُعْقِبُ رَاحَةً فَلَعَلَّهَا أَنْ تَنْجِلِي ، فَلَعَلَّهَا

فحسن عندي اقتراحه وشربت . ثم قال لي : غنّ لي :

وراء مضيقِ الخوفِ مَتَسَعُ الْأَمَنِ وَأَوَّلُ مَفْرُوحٍ بِهِ آخِرُ الْحَزَنِ
فَلَا تَيَأْسُنْ فَاللَّهُ مَلِكٌ يَوْسُفًا خَزَائِنُهُ بَعْدَ الْخِلَاصِ مِنَ السَّجَنِ

ففرح وشرب وشربت . وقال : غنّ لي :

إِذَا الْحَادِثَاتُ بَلَغْنَ النُّهْيَ وَكَادَتْ لَهْنَ تَذَوُّبُ الْمُهْجِ
وَحُلَّ الْبَلَاءُ وَقَلَّ الْعِزَاءُ فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَكُونُ الْفَرْجُ

وَعُثِّيَّتُهُ وَحُسْنُ فِي نَفْسِي اقْتِضَاؤُهُ ، وَأَنْسَتْ بِهِ ، وَاسْتَظَرَفْتُهُ ، ثُمَّ
قال : إِنْ رَأَيْتَ يَا سَيِّدِي أَنْ تَأْذُنَ لِي أَنْ أُغْنِيَ مَا خَطَرَ بِيَالِي ، وَإِنْ كُنْتُ
مِنْ غَيْرِ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ ؟

فقلت : يَكُونُ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي أَدَبِكَ وَمَرْوَعَتِكَ .

فأخذ العود ، ثُمَّ قال : دَسْتُور ، ثُمَّ ضَرَبَ عَلَيْهِ ، وَغَنَّى يَقُولُ :

شَكُونَا إِلَى أَحْبَابِنَا طَوْلَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا : مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا
وَذَاكَ لِأَنَّ النَّوْمَ يَغْشَى عَيْنَهُمْ سَرِيعًا ، وَلَا يَغْشَى لَنَا النَّوْمُ أَعْيُنَا

١ أَقْتَضِيكَ بِهِ : أَطْلَبُهُ مِنْكَ .

إذا ما دنا الليل المضربُ بذِي الهوى جزعنا ، وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقي لكانوا في المضاجعِ مثلنا

فقلت : والله ذهب عني كلُّ ما كان عندي من الفرع وسألته أن
يغني ، فغني يقول :

تُعيرنا أنا قليلٌ عديدُنا فقلت لها : إن الكرام قليلٌ
وما ضررنا أنا قليل وجارُنا عزيزٌ ، وجار الأكرين ذليلٌ
وإنّا لقومٍ لا نرى الموت سبباً إذا ما رآته عامرٌ وسلولٌ
يقرب حبُّ الموتِ آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطولُ

فوالله لقد أجادَ وذهب عني كل ما كان من الفرع والجزع ،
واستأنست به وأخذني من الطرب ما لا مزيد عليه ، وعالجني النوم قبل
أوانه فَنِمْتُ ، ولم أستيقظ إلا بعد المغرب ، وجال فكري في هذا الحجام
وأدبه وظرفه ، وكيف غناؤه وأدبه وإرادته أن يسليني عما أنا فيه إشارة إلى
تخصيصه بالوفاء لضيفه ونصره لجاره ، فقعدت وغسلت وجهي وأيقظته ،
وأخذت خريطةً كانت صحتي فيها دنائيرٌ ومصاغٌ لها قيمة فدفعتها إليه ،
وقلت له : أنت في وداعة الله وحفظه فإني ماضٍ عنك ، وأسألك أن
تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهمّاتك ، ولك عندي ، إذا أمنت ،
المزيد ، فأعادها عليّ مبادراً وقال : يا سيدي ! الصعلوك لا قيمة له عند
أهل الرياسات ، ويظنون فيه الظنون الرديئة ، أفأخذ على ما وهبني الله من
قربك وحلولك في منزلي ثمناً؟ لا والله ، فألححتُ عليه ، فأخذ موسى
بيده وقال : والله إن راجعتني لأنحرن نفسي . فخشيت عليه وأخذت
الخريطة وأثقلني حملها ، فلما انتهيت إلى باب الدار ، قال : يا سيدي إن
هذا الموضع أخفى لك من غيره ، وليس عندي في مؤنتك ثقلة ، فأقيم
عندي إلى أن يفرّج الله عنك . فرجعت وسألته أن يكون منفقاً من تلك

الخريطة فلم يفعل . وكان كل يوم يفعل بي مثل ما فعل في اليوم الأول .
قال : فأقمت أياماً في أطيب عيش وأهناء ، ثم سئمت من الإقامة
عنده وخشيت الثقل عليه . فتركني ومضى يجدد لنا حالنا ، فلبست ثيابي
وتزييت بزّي النساء بالخفّ والنقاب ، وخرجت . فلما صرت في الطريق
داخلي من الخوف والفرع أمر شديد ومشيت لأعبرَ الجسر ، وإذا هو قد
رشّ . ورجل قائم فأبصرني بعض من كان في خدمتي من الجند فتعلّق
بي . وقال : طلبة أمير المؤمنين ، فدفعته في صدره فوق في الزلق وصار
عبرةً وتبادر الناس إليه فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر ، ودخلت
زقاقاً فوجدت باباً وامرأة واقفة فيه . فقلت : يا سيدة النساء ، احقني
دمي فإني رجل خائف .

فقالت : ادخل . فدخلت فأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي وقدمت لي
طعاماً . وقالت : ليهدأ روعك فإنه لا يعلم بك مخلوق ، ولو أقمت سنة ما
عليك بأس . وإذا بالباب يُدقّ ، فخرجت وفتحت الباب ، فإذا هو
صاحبي الذي دفعته على الجسر ، وهو مشدوخ الرأس ودمه يسيل على
ثيابه . فقالت له : ما دهاك ؟

قال : إن حديثي عجيب وأمري غريب ظفرت بالفتى وانفلت من
يدي .

قالت : وكيف ؟

قال : إبراهيم بن المهدي لقيته فتعلّقت به فدفعني فأصابني ما ترين من
حالي ولو حملته إلى أمير المؤمنين لأخذتُ منه مائة ألف درهم .

قال : فأخرجت له حرقاً وذروراً ، وفرشت له بعد كبس جرحه فنامَ
قليلاً وطلعت وقالت لي : أظنك صاحبَ القصة ؟
قلت : نعم .

فقلت لي : إني خائفة عليك ، ثم جدّدت لي الكرامة وأقمت عندها
ثلاثة أيام ، ثم قالت لي : إني خائفة عليك من هذا الرجل لثلا يطلع على
أمرك فينمّ عليك فانج بنفسك .

فسألتها إمهالي إلى الليل . فلما دخل لبست زيّ النساء وخرجت من
عندها وأتيتُ إلى بيت مولاةٍ لنا ، فلما رأيتني بكّيت وتوجّعت وحمدت الله
تعالى على سلامتي وخرجت كأنها تريد كرامتي ، فتوجّهت للسوق مظهرة
الاهتمام للضيافة فظننت خيراً ، فلم أشعر إلا بإبراهيم الموصلي بخيله ورجاله ،
والمولاة معه حتى سلمتني إليه ، فرأيت الموت عياناً ، وحملت مثل ما أنا
إلى أمير المؤمنين ، فجلس مجلساً عاماً ، وأمر بإدخالي عليه ، فلما مثلت بين
يديه سلّمْتُ عليه سلامَ الخلافة ، فقال : لا سلّمك الله ، ولا حفظك ولا
رعاك .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، إن وليّ الثأر محكّم في القصاص ، والعفو
أقرب للتقوى ، ومن تناولته يدُ الأقدار ربما مدّ له من أسباب الرجاء ما
يأمنَ معه عادية الدهر ، وقد جعلك الله فوقَ خلقه ، وأصبح عفوك فوقَ
كل ذي عفو ، فإن تأخذ فبحقّك ، وإن تعف فبفضلك ، وأنشدت
أقول :

ذنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ فَخُذْ بِحَقِّكَ أَوَّلًا
وَاصْفَحْ بِحِلْمِكَ عَنْهُ إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي مِنْ الْكِرَامِ ، فَكُنْهُ

قال : فرفع رأسه إليّ ، فقلت مبتدراً :

أَتَيْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا وَأَنْتَ لِلْعَفْوِ أَهْلٌ
فَإِنْ عَفَوْتَ فَهَنْ وَإِنْ جَزَيْتَ فَعَدْلٌ

قال : فرق المأمون واسترجع فرأيت روائح الرحمة في شمائله ، ثم

أقبل على أخيه أبي إسحاق محمد المعتصم وابنه العباس وجميع من حضر من خاصّته ، وقال : ما ترون في أمره ؟ فأشار الكل بقتلي ، إلا أنهم اختلفوا في القتل ، فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد : ما تقول يا أحمد ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ! إن قتلتته فقد وجدنا مثلك قتلَ مثله ، وإن عفوتَ لم نجد مثلك في العفو .

فنكس المأمون رأسه إلى الأرض وجعل يخطُّ في الأرض بإصبعه ، ثم رفع رأسه وقال :

قومي هموا قتلوا أُمَيْمَ أخي فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سهمي

ثم قال المأمون : لا بأس عليك يا عمّ .

فقلت : ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أفوه معه بعذر ، وعفوك أعظم من أن أنطقَ معه بشكر ، ولكن أقول :

إن الذي خلقَ المكارمَ حازها	في صُلبِ آدمَ للإمامِ السابعِ
مِلَّتْ قلوبُ الناسِ منك مَهَابَةٌ	ونظَلَّ تَكَلُّوهم بقلبٍ خاشعِ
ما إن عصيتُك والعُوةَ تَمُدُّني	أسبابُها إلا بنيةَ طائعِ
وعفوتَ عمَّن لم يكن عن مثله	عفوٌ ، ولم يشفع إليك بشافعِ
ورحمتَ أشباحاً كأفراخ القطا	وحنينَ والدَةٍ بقلبٍ جازعِ

فقال المأمون : لا تتربّ اليوم عليك ، قد عفوت عنك ، ورددت عليك مالك وضياعك ، فأنشدتُ أقول :

رددتَ مالي ، ولم تبخل عليّ به	وقبل ردِّك مالي قد حققت دمي
أمنتُ منك وقد خَوَّلْتَنِي نِعْماً	نعم الحياتان من موتٍ ومن عدمِ
فلو بذلتُ دمي أبغي رضاك به	والمالَ حتى أَسْلَّ النعلَ من قدمي

وإن جحدتك ما وُلِّيتَ من نِعَمٍ إني إلى اللّومِ أولى منك بالكرم

فقال المأمون : إن من الكلام كلاماً كالدرّ ، وهذا منه ، وأمر لي بمالي وخلع عليّ ، وقال : يا عمّ إن أبا إسحاق والعباس أشارا بقتلك . فقلت : إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ، ولكن فعلتَ ما أنت أهله ، ودفعتَ ما خفتُ أنا بما رجوتُ .

فقال المأمون : لقد مات حقدي بحياة عذرك ، وقد عفوت عنك . ثم سجد المأمون طويلاً ، ثم رفع رأسه ، ثم قال : يا عمّ أتدري لِمَ سجدت ؟

قلت له : شكراً لله تعالى على ما أوقعك عليّ وملّكك إياي في يدك تفعل بي ما تشاء .

فقال : أخطأت ! ولكن أشكر الله تعالى على ما ألهمني من العفو عنك من قبل نفسي ، ثم قال : وأعظم من عفوي عنك أنني لم أجرك مرارة امتنان الشافعين ، فحدّثني بما كان من أمرك .

فشرحتُ له ما جرى لي مع الحجاج والجندي وزوجته والمولاة التي أسلمتني ، فأمر المأمون بإحضارها ، وهي في دارها تنتظر الجائزة . فلما حضّرت قال لها المأمون : ما حملك على ما فعلت من تسليمك إبراهيم مع إنعامه عليك ؟

قالت : رغبة في المال .

قال : هل لك من ولد أو زوج ؟

قالت : لا . فأمر بضرها مائة سوّط وأمر بتخليدها في السجن ، ثم أحضر الجندي وامراته والحجاج ، فسأل الجندي عن السبب الذي حمّله على ما فعل ؟

قال : رغبة في المال .

فقال : إنك أولى في أن تكون حجاجاً من أن تكون خداماً ، ووكل من يلزمه الجلوس في مكان الحجّام . ليتعلّم الحجامة ، وأحسن إلى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال : هذه امرأة أدبية تصلح للمهمات ، وسلم للحجّام دار الجندي وما فيها ، وخلع عليه وأثبتّه برزقه في الديوان ، وزيادة ألف دينار في كل سنة ، ولم يزل كذلك إلى أن مات ، والله أعلم .

صيد الجوّاري

وعن محمد بن عبد الله التميمي ، قال : حدثنا أحمد بن محمد الحريري قال : كان لحمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي من الأموال ما لا يسعه الديوان ، ولا تأكله النيران لكثرت ، وكانت آدب نساء بني هاشم وأفصحهنّ لساناً وأقوهنّ شعراً ، فدخلت على المأمون يوماً ، وكانت تحبّه غاية الحب سرّاً ، وكان المأمون جالساً في إيوان قد ابتدعه لنفسه لم يبتدعه أحد من الخلفاء قبله ، وكان قد تأنّق في بنائه ، وكان فيه من كل صورة في البرّ والبحر ممثلة من الذهب والفضّة ، وقد فرش به بساط من الديباج الأصفر ، وأسبل عليه ستوراً من الحرير الصيني ، وقد أقام فيه أربعمائة وصيفة بقراطق الحرير ، وقد لبس الوشي بطرّ وشعور وأصداغٍ ، وهنّ بقدر واحد ، لا تزيد الواحدة منهن على الأخرى ، أقام مائتين عن يمينه ومائتين عن يساره ، فقال : يا حمنة ! هل كان لأبيك أو لبعيلك أو لأحد من الخلفاء مثل هذا الإيوان مع فرشه ، ومثل هؤلاء الجوّاري مع زينتهنّ ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين ! متعلك الله به وعمره بك ، فلقد أُوتيت

١ القراطق ، الواحد قُرْطَق : القَباء ، وهو ثوب كالذي نسمّيه الغنّاز .

ملكاً عظيماً تستأهله لترفعك وشرفك ، فإن أجبتَ خادمتك حمئةً
أجلستك في مجلس لم تجلس في مثله قطّ وأصادتك صيداً لم تصد مثله
قط ، وأسقتك شراباً لم تشرب مثله قط .

وكان عنده يحيى بن أكرم ، فقال لها : يا حمئة . قد أجبتك إلى ما
سألتني ، ولكن لا ينفعني ولا يهناك ذلك إلا بمشهد من يحيى بن أكرم .
فإنه لا يطيب لي مجلس إلا به .

فقالت : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم ضربت يدها في جيبها ، فأخرجت
منه مخزنةً من ذهب أحمر محشوة مسكاً أذفر ، فدفعها إلى يحيى ،
وقالت : يا يحيى ، إن الأجير لا يعملُ حتى يستوفي أجرته ، وهذه
أجرتك مّي فكن مستحسناً لي أمير المؤمنين غداً عند الزوال ، في المسير إلى
منزل خادمتي ؟

فقال : حباً وكرامةً .

ثم خرجت من عنده فهيأت ما تحتاجُ إليه للمأمون وغيره ، فلما كان
من الغد جلس المأمون في مجلس السلام ، فلما زالت الشمس وصارت في
كبد السماء قال يحيى : يا أمير المؤمنين ، الحاجة التي عُرِضت عليك
بالأمس . ففطن المأمون لذلك ، وقام من مجلسه ولبس ثيابَ التجار ،
ولبس يحيى مثل ذلك ، ودعا بحمارين مصريين بغاشيتين ، وركباهما حتى
أتيا دارَ حمئة ، فدقا الباب دقاً خفيفاً ، فسمعتة فأقبلت بنفسها ، حتى
فتحت الباب وأقبلا يمشيان جميعاً حتى اتبها إلى بيت في بستان قد حُمِل
على أربعة أعمدة من الرخام الأحمر المنقوش ، وإذا في صدر البيت أربعة
أسطر منقوشة بالدُرِّ وصنوفِ الجواهرِ وهي :

ما سرّني أن قوادي ، ولا أن لساني بالمُدَامِ حَلَا
وأن لي ملك بني هاشمٍ يُجِبِي إِلَيَّ أولاً أولاً

إن لم أشاهدك أيا مالكي تأتي إلى بيتي كذا مُقبلاً
يا سائلي روعي بلا علة أنت المُعافي ، وأنا المُبتلى

فقال المأمون : يا يحيى ، ما ملك أحد من الخلفاء مثلَ هذا البيت .
وإذا فرشه أرمني محفور منقوش باللآلي وإذا فوق الأرمني مطارح من
الديباج الأخضر حشوها حواصلُ الریش ، وفي البيت المسكُ والعنبرُ
والكافورُ والصندلُ والزعفرانُ والتَّدُّ والعُودُ مصفوفٌ في أواني الذهب
والفضَّة ، وهي تفوح منه روائح لا يُدرى ما هي من طيبها ، ثم أخرجتهما
إلى أربعة ميادينَ فيها أنواعُ الرياحين حولَ البيت ، فقالا : إن هذا إلّا
سحرٌ يُؤثر .

ثم دعت لهما بمائدة من الجَزَع اليماني قوائمها منها قطعةٌ واحدةٌ ،
فوضعت وقُدِّمت عليها الألوان الغريبة ، فقال المأمون : ما طَعِمْتُ مثلَ هذا
الطعام قط .

ثم دعت بالطَّشت والابريق فغسلا أيديهما ، ثم أمرت بشَرابٍ فقُدِّمت
إليهما قناني الزجاج الشامية المرتفعة الصافية ، والبلور ، فيها شراب قد أتت
عليه الأيام والأعوام ، فهي تحكي الهواء لرقَّتْها والياقوتَ لحمرتها والزنجبيلَ
لحَدَّتْها ، ووُضعت بين أيديهما مع أقداح وأنطال^١ تشاكل ذلك ، فقال
المأمون : والله ! ما رأيتُ مثلَ هذا قط .

ثم أخرجت جارتين عليهما جبابُ الوشي الكوفي المنسوج بالذهب ،
وعلى رأسيهما مقانِعُ رشيدية^٢ وتيجان من الذهب مكلَّلة بالجواهر ، فجلستا

١ الأنطال : كيزان تُكال بها الحمر .

٢ المقانع ، الواحدة مقنعة : ما تغطي المرأة بها رأسها . الرشيدية : المنسوبة إلى بلاد
الرشيد في مصر .

وفي حجرهما العيدانُ المبسوطة الموزونة . فحركتا الأوتار وغطتا بصوت شجي ملبح . من أنواع الأغاني وغرائب الأصوات . فقال المأمون : هذه الجنة مما نرى فيها من غرائب الطيب والجوهر .

فقال يحيى : وقد بقي لنا يا أمير المؤمنين ، شرط آخر .

فقال : وما هو يا يحيى ؟

قال : الصيدُ ، يا أمير المؤمنين .

قال : صدقتَ يا يحيى ، ثم قال : يا حمئة ، ما فعل الصيدُ ؟

فقلت : قوما إليه .

فقام المأمون ويحيى حتى دخلا بستاناً لم يُر مثله ، وقد كانت زينت البستان بأحسن ما تقدر عليه ، واتخذت فيه ألوان الطيور من الفاختِ والقُمريِّ والهزار والطواويس ، فكانت الأطيَّار تغني من رؤوس الأشجار ، وتغرّد بالسَّريِّ والإجهار ، وقد كانت زينت مائة جارية نواهد أبكارٍ بطُورٍ وشعورٍ وخدودٍ ومباسمٍ ساطعات الأنوار ، تُرى كل واحدةٍ منهنَّ أبهى من صاحبها وأحسن ، وعليهن من ألوان الثياب ما يعجز عنه الوصف ، وفي وسطهن مناطق الذهب الأحمر ، وتقدَّمت إليهنَّ وقالت لهنَّ : إذا رأيتنَّ المأمونَ ويحيى ، تعادين ما بين الأشجار . فلما دخلَ المأمونُ ويحيى البستان ، فعلنَّ ما كانت أمرتهنَّ ، فتضاعف السرورُ على المأمون ، وأعجب بذلك عجباً شديداً ، ثم قال ليحيى : هذا الصيد .

فقال : يا أمير المؤمنين ! رأيك ؟

فقال المأمون : لو كان لنا كلب لاصطدنا هؤلاء .

١ الفاخت : نوع من الحمام البري . القمري : نوع من الحمام حسن الصوت .
الهزار : طائر حسن التغريد .

فقال يحيى : أنا كلبك ، يا أمير المؤمنين .

فعدا المأمون ويحيى فاصطادا منهنّ صبيّةً ، فقالت حمنة : سألتك بحقّ أجدادك إلا ما خلّيت عن الجوّاري لا لبخلٍ أبخلُ بهنّ عليك ، وقد فهمتَ المعنى فيه .

وقد كانت حمنة تغارُ على المأمون فخلّى عن الجوّاري ، وقال ليحيى : دونك والصيّد إذن أنت مُحلّ .

فقال يحيى : لو كان لي كلب لاصطدت من هؤلاء .

فقال المأمون : أنا كلبك .

فضحك يحيى وضرب بقلنسوته الأرض ، وعدا خلفهنّ ، فأخذ منهنّ خمسةً فقالت حمنة : يا يحيى لك الخمسةُ ولا غيرةَ لي عليك ، وإنما أغارُ على المأمون لحاجتي إليه .

فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين ، لقد رأيتُ الهوى الغالب في حاليق عينيها ، ولا تتمُّ لنا النعمة إلا بتزويجك إياها إن رأيتَ ذلك .

فقال المأمون : أنا بريء من رسول الله ﷺ ومُنتَفٍ من جدّي العباس إن ذهب من البستان ولم أتزوجها . ثم قال : يا يحيى اخطبْ خُطبةَ النِّكاح .

فخطب يحيى وأمهرها المأمونُ ألفَ ألفِ دينار ، وأقطعها مائة من مُتَّخِبات الضياع ، فحمّدت حمنة الله سروراً بما ظفرت من تزويج المأمون إياها ، وأمرت ليحيى بعشرةِ آلاف دينار ، ورجع المأمون إلى منزله ، وزُفّت إليه في تلك الليلة ، فواقعها فحملت بالعباس ابنه ، انتهى .

حِيل الجوّاري

حكى أن المأمون كان مشغولاً بحبّ جارية يقال لها نسيم ، وكانت ذات عقل وأدب وفضل وكمال ، وكان لا يفارقها في الحضر ولا في السفر ، ثم بعد ذلك مال إلى جارية أخرى أحسن منها ، وأعرض عنها ، فاغتمت ولم تجد حيلة في استعطافه ، وكانت لها جارية رومية أحسن منها في العقل والأدب ، وكتمت أمرها عن المأمون ، فاتفق أن المأمون حصل له بعض ضعف ، ففُصِد ، فحصل له الشفاء ، فجعل الناس يدخلون إليه بأصناف التحف والهدايا ، فأهدت إليه نسيمُ الجارية المذكورة ، ومعها جامٌ بلّور ، وغطته بمنديل ديبقي مكتوب عليه بالذهب هذه الأبيات :

فصدتَ عِرْقاً تبتغي صحّةً ألبسك الله به العافيه
فاشربْ بهذا الجام يا سيدي مستمتعاً بهذه الجارِيه
واجعل لمن أهداكها زورةً تحظى بها في الليلة الثانيه

فأعجب المأمون ما رأى من الجام والجارية ، ثم بعث لها يقول :
نعم ، وفي هذه الليلة . ثم رضي على نسيم وواصلها بعد ذلك .

المأمون وزبيدة أم الأمين

حكى أن المأمون مرّ يوماً على زبيدة أم الأمين ، فراها تحرّك شفيتها بشيء لا يفهمه ، فقال لها : يا أماه ، أتدعين عليّ لكوني قتلتُ ابنتك وسلبتُ مملكته ؟

قالت : لا والله يا أمير المؤمنين .

قال : فما الذي قلته ؟

قالت : يعفني أمير المؤمنين .

فألحَّ عليها وقال : لا بدَّ أن تقوليه ؟

قالت له : قلت ، قَبَّحَ الله اللجاجة .

قال : وكيف ذلك ؟

قالت : لأنني لعبت يوماً مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا ، فغلبنني ، فأمرني أن أتجرّد من أثوابي وأطوفَ القصرَ عريانةً ، فاستعفيته ، وبذلتُ له أموالاً لا تُحصى ، فلم يَعْفُ عَنِّي . فتجرّدت من أثوابي وطففت القصرَ عريانةً ، وأنا حاقدة عليه ، ثم عاودنا اللعبَ فغلبنه فأمرته أن يذهبَ إلى المطبخ ، فيطأَ أقبحَ جارية وأشوهها خَلقة فاستعفاني عن ذلك فلم أعفه ، فنزل لي عن خراج مصر والعراق ، فأبيت وقلت : والله لتطأَنّها ، فألححت عليه وأخذتُ بيده وجئتُ به إلى المطبخ ، فلم أرَ جاريةً أقبحَ ولا أقدرَ ولا أشوهَ خَلقةً من أمكٍ مراجل ، فأمرته أن يطأها فوطئها فعلمت منه بك ، فكنت سبباً لقتل ولدي وسلبه ملكه .

فولّى المأمون وهو يقول : قاتل الله اللجاجة ، أي التي لجَّ بها عليها حتى أخبرته بهذا الخبر ، انتهى .

المأمون والشاعر

وأتى شاعر المأمون فقال : لقد قلت فيك شعراً .

فقال : أنشدنيه . فقال :

حيّاك ربُّ الناس حيّاكا إذ بجبال الوجه رقّاكا
بغدادُ من نورك قد أشرقت وأورق العود بجَدواكا

قال : فأطرق المأمون ساعة ، وقال : يا أعرابي ، وأنا قد قلت فيك شعراً ، وأنشد يقول :

حيّاك ربُّ الناس حيّاكا إن الذي أمّلت أخطاكا
أتيتَ شخصاً قد خلا كيّسه ولو حوى شيئاً لأعطاكا

فقال : يا أمير المؤمنين ، الشعر بالشعر حرام ، فاجعل بينهما شيئاً يُستطاب .

فضحك المأمون وأمر له بمال ، انتهى .

إبراهيم بن المهدي وصاحبة المعصم

وروى ابن عامر الفهري عن أشيّخه قال : أمر المأمون أن يُحمل إليه من أهل البصرة عشرة رجالٍ كانوا قد رُموا عنده بالزندقة . فحُمِلوا إليه ، فَرَّ بهم طُفيلي ، فرآهم مجتمعين ، فظنَّ خيراً ومضى معهم إلى الساحل وقال : ما اجتمع هؤلاء إلّا لوليمةٍ ، فانسَلَّ ودخل الزورق وقال : لا شك إنها نزهة ، فلم يكن إلّا يسيرٌ ، وقد قيّد القوم ، وقيّد معهم . فعلم أنّه وقع فيما لا طاقة له به ، ورام الخلاص ، فلم يقدر ، وساروا إلى أن وصلوا بغداد وأدخلوا على المأمون ، فاستدعى بهم بأسمائهم واحداً بعد واحدٍ . وجعل يُذكره بفعله وبقوله ويضرب عنقه ، حتى لم يبقَ إلّا الطفيلي . وفرغت العشرة . فقال المأمون للموكل : من هذا ؟

فقال : لا أعلم يا أمير المؤمنين ، غير أننا رأيناه معهم ، فجنّنا به .

فقال : يا أمير المؤمنين . امرأته طالقةٌ إن كان يعرفَ من أحوالهم شيئاً ، ولا يعرف غير لا إلهَ إلاَّ الله ومحمد رسول الله ، وإنما رأيتهم مجتمعين . فظننت أنها وليمةٌ يُدْعَوْنَ إليها ، فلحقتُ بهم .
فضحك المأمون وقال : أوقد بلغ من شؤم التطفل أن يُحِلَّ بصاحبه هذا المحل ؟ لقد سلم هذا الجاهل من القتل ، ولكن يُؤدَّب ، حتى لا يعود إلى مثلها .

وكان إبراهيم بن المهدي حاضراً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هَبْ لي ، وأنا أحدثُك عن نفسي ، فيما وقع لي في التطفل من العجب .
فقال : وهبته لك . هاتِ حديثك .

فقال : يا أمير المؤمنين خرجتُ متنكبّاً يوماً أنظر إلى سكك بغداد ، فاستهوى بي الطربُ والتفرُّج فانتَهى بي المسيرُ إلى موضع شملتُ فيه رائحةَ طعام وأبازيرَ قد فاحت ، وهفت نفسي إليها ووقفت ، يا أمير المؤمنين ، لا أقدر على المثني ، فرفعت بصري ، وإذا بشباك خلفه كفٌّ بمِعَصَمٍ ما رأيتُ أحسنَ منه ، فبقيتُ حائراً ، ونسيتُ رائحةَ الطعام ، بذاك الكفِّ ، فأخذت في عمل الحيلة إلى الوصول إليها ، فإذا بجانب المكان خياطٌ ، فسلمت عليه فردَّ عليَّ السلام . فقلت : يا سيدي ! لمن هذه الدار ؟

فقال : لرجل من البرّازين .

فقلت : ما اسمه ؟

فقال : فلان .

قلت : هو ممن يشرب الخمر ؟

قال : نعم ، وأظن أن عنده اليوم أصحابه ، تجارٌ مثله .

فبينما نحن في الكلام إذ أقبل رجلان فقال لي : هذان نـاـمـاؤه .

فقلت له : ما اسمُها وما كُنيتها ؟

فقال لي : فلان الفلاني وفلان الفلاني .

فحرّكت وراءهما رجلي ، فلحقتهما فقلت : جُعِلت فداءكما ، استبطأكما
فلان أعزّه الله ، ولم أزل معها ، حتى أتيت البيت ، فدخلت ودخلا ،
فلما رأي صاحب البيت بينهما لم يشكّ في أنّي معها فرحّب بي وأجلسني في
أفضل الأماكن ثمّ جيء بالمائدة ونُقِلت إليها الألوان ، فقلت في نفسي :
هذه ألوان قد مَنَّ الله عليّ ببلوغ الغرض منها ، بني الكفّ والمعصم ، ثمّ
جيء بالماء فغسلنا أيدينا ثمّ نُقِلنا إلى مجلس المنادمة ، فإذا شكل مليح ما
رأيت أحسن منه ولا أطرف ، ورأيت صاحب المكان يتلطف بي ويُقبل
عليّ لظنّه أنّي ضيف لأضيافه ، وهم على الحالة هذه إلى أن شربنا فخرجت
علينا جارية كأنها غصن بانٍ في غاية الظرف وحسن الهيئة ، فسَلّمت من
غير خجل ولا احتشام ، وجلست وأُتي بعود فجسّته أحسن جسّ ، وإذا
هي حاذقة في الصناعة وغنّت تقول :

توهّمها فكري ، فأصبحَ خدّها وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها كفيّ ، فألم كفّها فن ضمّ كني في أناملها عُقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلبالي ، فطربت لحُسن شعرها وحذقها ثمّ
غنّت تقول :

أشرتُ إليها : هل عرفتِ مودّتي فردّت بطرف العين أنّي على العهدِ
فجادت عن الإظهار عمداً بسرّها وحادت عن الإظهار أيضاً على عمدِ

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر ،
فضحكت لما أصابني من الطرب الذي لم أملك نفسي معه ثمّ غنّت تقول :
أليس عجباً أنّ بيتاً يضمّنا وإياك لا نلهو ولا نتكلّمُ

سوى أعينٍ تُبدي سرائر أنفسٍ وتقطع أنفاس على النار تُضرمُ
إشارة أفواهٍ وغمز حواجبٍ وتكسر أجفانٍ وكفّ تُسلمُ

فزاد حسدي لها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر لأنها
لم تخرج عن المعنى ، وقلت : بقي عليك با جارية شيء ، فرمت العودَ من
يدها ، وقالت : متى كُنتم تُحضرون الغناء مثل هذا ؟ فندمت على ما كان
منّي ورأيت القوم كأنهم قد أنكروا عليّ ، فقلت في نفسي : فاتي جميع
ما أملت ، وأحببت أن أتلافى قضيتي فقلت : أثمّ عودٌ غير هذا ؟
قالوا : نعم . فأحضروا عوداً ، فأصلحت ما أردتُ إصلاحه ثم
قلت :

ما للمنازل لا تُجيب حزناً أصمّمتُ أم قد بالبلاء يُليّننا

فما أتممتُ شعري حتى وثبت الجارية إليّ ، وانكبت على يدي تقبلها
وتقول : المعذرة إليك يا سيدي ، والله ما علمت مكانك ، ولا سمعت
بهذه الصناعة من أحد ، ثم زادوا إكرامي وطربوا غاية الطرب ، فشربت
عدة أقداح ، ثم غنيتهم أبياتاً فرأيت من طربهم شيئاً عظيماً حتى قلت إن
أرواحهم ، فارقت أبدانهم فسكت عنهم ساعة ، حتى تراجعوا إلى عقولهم
فغنيتهم وقلت :

هذا محبّك مطوياً على كميده وجداً ، وأدمعه تجري على جسده
له يدٌ تسألُ الرحمنَ راحته ممّا به واليدُ الأخرى على كبده
يا من رأى كلفاً في حبه دنفاً كانت منيته في عينه ويده

قال : فجعلت الجارية تصيح وتقول : هذا والله الغناء والذي كنت فيه
ليس بشيء ، وشرب القوم ، فلما جاءهم البسط ، وأخذ المجلس منتهاه أمر

صاحب البيت عبيدٍ له أن يحفظا النديمين إلى منزلها ، وخلوت معه .
فقال : والله يا سيدي ذهب ما مضى من عمري باطلاً حيث لم أعرفك
قبلَ يومي هذا فبالله يا مولاي من أنت ؟

فجعلت أردد عليه ، وهو يقول ويُقسم عليّ حتى أعلمته من أنا على
الحقيقة ، فلما سمع ذلك قام على قدميه وقال : ما عجبت أن تكونَ هذه
المكارم إلّا لمثلك ، وقد أصابني من الدهر نِعَمٌ لا أقوم بشكرها ، ثم
قال : أترى هذا يقظةٌ أم مناماً ، أقسمتُ أني لا أزال هذه الليلة قائماً إلى
أن تأذن لي ، فإني أحقرُ من أن أجالس الملوك .

فأقسمت عليه بأن يجلس ثم أخذ في الكلام وجعل يعرض عليّ
السببَ الذي أوجب حضوره عنده بالطف تعريضٍ فأخبرتهُ بأمره على
الحقيقة ولم أخف شيئاً ، ثم قلت له : الطعام قد نلت منه بغيتي ، وبقي
الأمر الآخر ، فوثب إلى باب القاعة ، وقال : كلُّ منكن تليس أفرّ ثيابها
وتخرج علينا من المُخدع ، ثم استدعي بهنّ وجعل يقول : يا فلانة ، وهنّ
يخرجن واحدة بعد واحدة ، وأنا لا أرى صاحبة الكفّ والمعصم إلى أن
أنت أربعون امرأة .

فقال : والله ما بقي إلّا أختي ، وها أنا مخرجُها إليك .
فقلت : افعل .

فقال : حبّاً وكرامة . ثم استدعاها فنزلت فرأيتُ يدها ومعصمها ،
فإذا هي التي رأيتهَا ، قلت : هذه الحاجةُ ، فأمر غلمانَه لوقته أن يأتوا
بعشرة شهودٍ ، ثم قام وأخرج عشرين ألف درهم وألفاً أخرى ، فلما
حضرُوا قال لهم : هذا سيدي إبراهيم بن المهدي يخطبُ أختي فلانة ،
وأشهدكم أني قد زوّجتها له وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم .

فقلت : قبلتُ الزواج .

ثم دفع الألف التي كان أخرجها لهم . فشكروا له ودعوا وانصرفوا .
 ثم قال : يا سيدي أمهّد لك بعض البيوت ، تنام مع أهليك .
 فأعجبني ما كان من كرمه واستحييت أن أدخل بها في داره . فقلت
 له : بل اجعلها في عمّاريّة واحملها إلى منزلي ، فوحقّك يا أمير المؤمنين لقد
 حمل معها من الفرش والأثاث ما ضاقت به بيوتنا ، فأولدتها هذا الغلام
 القائم بين يديك ، يا أمير المؤمنين .

فتعجّب المأمون من كرم الرجل وقال : لله درّه ما أكرمه ، والله ما
 سمعتُ بمثله قطّ ، ثم أطلق الطفيليّ وأمر بإحضار الرجل واستنطقه ،
 فأعجبه حسن منطقته وعقله وأدبه فصيّره من جملة خواصّه ومنادميه ، والله
 أعلم .

١ العمّاريّة : هودج تُحمل فيه النساء .

ذكر خِلافة إبراهيم المعتصم بن هارون الرشيد

هو ثامن خلفاء بني العباس ، وكان شديد القوة ، ما كان في بني العباس مثله في القوة والشجاعة والاقدام . قيل : إنه أصبح ذات يوم ، وكان برده شديداً وثلجُه عتيداً ، فلم يقدر أحد على إخراج يده ، ولا إمساك قوسه ، فأوتر المعتصم في ذلك اليوم أربعة آلاف قوس ، وكان يدعى المئتمن ، وأنشد أبو تمام حبيب بن أوس الطائي يمتدح المعتصم بن هارون الرشيد يقول :

إن جسّ عوداً رأيت الخيل راقصةً كأنها من سماعٍ هزّها نَعْمُ
أو حركت يده اليمنى له وترّاً على أعاديه غنىّ البومُ والرنخمُ

كان يقول بخلق القرآن . وضرب على ذلك أحمد بن حنبل على أن يقول ذلك فلم يقل رضي الله عنه ، وله معه كلام طويل ، فانظره في حياة الحيوان .

المعتصم وتميم بن جميل

من لطائف الحكايات

ما روي عن أحمد بن أبي دؤاد القاضي إنه قال : جيء بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيراً ، وكان قد خرج عليه فما رأيت رجلاً عُرض عليه الموت فلم يكثر به سواه ، ثم دعا بالسيف والنطع ، فلما مثل بين يديه نظر

إليه . فأعجبه حسنه وقده ومشيه إلى الموت غير مكترت . فأطال الفكر فيه ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله . فقال : يا تميم ! إن كان لك عذر فأت به .

فقال : أما إذ اذن أمير المؤمنين في الكلام فإني أقول :

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه . وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . يا أمير المؤمنين ! جبر الله بك صدع الدين ولم بك شعث المسلمين . وأحمد بك نار الباطل وأنا بك سبل الحق ، إن الذنوب تُخرس الألسنة وتصدع القلوب ، وآيم الله لقد عظمت الجريمة ، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك ، وهو أشبه بك وأليق ثم أنشد يقول :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً	يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي	وأني امرئ مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة	وسيف المنايا بين عينيه مُصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف	يسل عليه السيف فيه ويسكت
وما جزعي من أن أموت وإنني	لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلني صبية قد تركتهم	وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأنني أراهم حين أنعى إليهم	وقد لطموا حمر الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا في سرور ونعمة	أذود الردى عنهم ، وإن مت مؤتوا
فكم قاتلي : لا أبعد الله داره	وآخر جدلان يسر ويشمت

قال : فبكى المعتمصم ثم قال : إن من البيان لسحراً . كما قال النبي ﷺ : يا تميم ، كاد والله أن يسبق السيف العدل . قد غفرت لك الهفوة ووهبتك للصبية .

ثم عقد له ولاية على عمله ، وأعطاه خمسين ألف دينار ، انتهى .
من زهر الكيام في قصة يوسف عليه السلام .

مخارق المغني والحارية الحسنة

وذكر صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغني قال : تطفلت تطفيلةً
قامت على أمير المؤمنين المعتصم بتسعين ألف درهم .
قيل له : كيف ذلك ؟

قال : شربت معه ليلةً إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا أمير
المؤمنين ، إن رأيت أن أخرج إلى الرصافة ، فأتنسّم إلى وقت انتباه أمير
المؤمنين .

قال : نعم ، فأمر البوّاب أن يتركوني ، فخرجت أتمشّي في
الرصافة ، وإذا بحارية كأنّ الشمس تُشرق من جبينها ، فتبعتها ورأيت معها
زنبيلاً فوقفت على فاكهاني ، واشترت سفرجلة بدرهم ، وانصرفت
فتبعتها ، فالتفتت فرأيتي فقالت : يا ابن الفاعلة إلى أين ؟
قلت : خلفك يا سيّدي ؟

فقالت : ارجع يا ابن الزانية لثلاث يراك أحد فيقتلك ؟

فتأخرت ومشيت ولمشّت أمامي ثم التفتت فرأيتي ، فشتمتني شتمًا
قيحاً ثم جاءت إلى دار كبيرة ، فدخلت فيها ، وجلست أنا عند الباب ،
وقد ذهب عقلي ونزلت عليّ الشمس ، وكان يوماً حاراً ، فلم ألبث أن
جاء فتیان كأنهما بدران على حمارين ، فلما وصلا إلى الباب أذن لهما ، فدخلتا
ودخلتُ معها ، فظننا أنّ صاحب المنزل قد دعاني ، وجيء بالطعام ،
فأكلنا وغسلنا أيدينا ، فقال لنا صاحب المنزل : هل لكم في فلانة ؟

فقالوا : إن تفصّلت .

قال : فاستدعى بتلك الجارية ، فخرجت فإذا هي صاحبتى ووراءها وصيفةٌ تحمل عودها . فوضعت في حجرها فغنت وشرّبو وطربوا ، وهي تلحظني وتشك فيّ . فقالوا : لمن هذا الصوت ؟

فقلت : لسيدي مخارق .

فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدي يدك . فشددت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه . قال : فاستدعيت بمدوّرة وقضيب وغنّيت الصوت الذي قالته الجارية ، فقاموا إليّ وقبلوا رأسي .

قال : وكان مخارق من أحسن الناس صوتاً وكان يوقّع بالقضيب توقيعاً عجيباً .

قال : ثم غنّيت الصوت الثاني والثالث ، فكادت عقولهم تطير فقالوا : بالله من أنت يا سيدي ؟

فقلت : مخارق .

فقالوا : وما سبب مجيئك ؟

قلت : طفيلي أصلح الله شأنكم . وأخبرتكم بخبري .

فقال صاحب البيت لصديقه : أما تعلمان أني أعطيت في هذه الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها ؟

قالا : نعم .

قال : هي له .

فقال صديقه : علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف درهم .

قال مخارق : فلّكوني الجارية . وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت

بها وكلم مررت بالمواضع التي شتمتني فيها أقول : يا مولاتي ، أعيدي كلامك فتستحي مني ، فأحلف عليها لتُعِيدَنَّهُ ، فتعيده حتى وصلتُ إلى أمير المؤمنين فقيل لي أنه انتبه فطلبك في منازل أبناء القواد فلم يجدك ، وتغيظ غيظاً شديداً ، فدخلت عليه ويدي في يدها ، فلما رأي سبتي وشتمني ، فقلت : يا أمير المؤمنين لا تعجل ! وحدته الحديث فضحك ، وقال : ها نحن نكافئهم عنك ، فأحضرهم وأمر لكل واحدٍ منهم بثلاثين ألف درهم ، والله أعلم ، انتهى .

حكاية غريبة

قال الأصمعي : دعاني بعض العرب الكرام إلى قرى الطعام ، فخرجت معه إلى البرية ، فاتوا بباطية بأذنين وعليها السمن غارق ، فجلسنا للأكل ، وإذا بأعرابي ينسف الأرض نسفاً حتى جلس من غير نداء ، فجعل يأكل والسمن يسيل على كراعه فقلت : لأضحكن الحاضرين عليه فقلت :

كأنك أكلة في أرض هش أتاها وابل من بعد رش^١

فالتفت إليّ بعين مبهلقة وقال لي : الكلام أنثى والجواب ذكر وأنت :

كأنك بعة في إستم كبش مدلاة ، وذاك الكبش يمشي

فقلت له : هل تعرف شيئاً من الشعر أو ترويه ؟

فقال : كيف لا أقول الشعر ، وأنا أمه وأبوه ؟

فقلت له : إن عندي قافية تحتاج إلى غطاء ؟

فقال : هات ما عندك .

١ الأكلة : ضرب من الشجر عظيم . صلب الخشب تُصنع منه القصاع والجفان . الهشي : الرخو اللين . الوابل : المطر الغزير .

فقطست في بحور الأشعار ، فما وجدت قافية أصعب من الواو
المجزومة فقلت :

قومٌ بنجدٍ قد عهدناهم سقاهاهم الله من التَّو

قلت : أتدري النو ماذا ؟ فقال :

نوٌ تلالا في دُجى ليلةٍ حالكةٍ مظلمةٍ لو

فقلت له : لو ماذا ؟ فقال :

لو سار فيها فارس لانشئ على بساط الأرض منطو

فقلت له : منطوٌ ماذا ؟ فقال :

منطوي الكشح هضيم الحشا كالبار ينقضُّ من الجو

فقلت له : الجوٌ ماذا ؟ فقال :

جوٌ السما والريحُ تعلو به أشتُم ريحَ الأرضِ فاعلو

فقلت : فاعلو ماذا ؟ فقال :

فاعلو لما قد عيل من صبره فصار نجوى القوم ينعو

فقلت : ينعو ماذا ؟ فقال :

ينعو رجالاً للقنا شرَّعت كُفيتُ ما لاقوا وما يلقوا

قال : فعلمت أنه لا شيء بعد الفناء ، ولكن أردت أن أثقل عليه

فقلت له : ويلقوا ماذا ؟

فقال :

إن كنت ما تفهم ما قلته فأنت عندي رجل بُؤ

فقلت له : البو ماذا ؟ فقال :

البؤ سلخُ قد حشي جلده يا ألفَ قرانٍ ، تقومُ أو

فقلت له : أو ماذا ؟ فقال :

أو أضرب الرأس بصوَّانةٍ تقول في ضربتها قو

فخفت أن أقول له : قو ماذا ؟ فيضربني ويكمل البيت . فقلت له :
أنت ضيفي الليلة .

فقال : لا يأبى الكرامةَ إلَّا لئيمٌ .

فقلت لزوجتي : اصنعي لنا دجاجة ، ففعلت فأتيته بها وجثته أنا
وزوجتي وابنائي وابنتاي وقلت له : قرق يا بدوي .

فقال : الرأس للرأس ، وأعطاني الرأس ، وقال : الولدان
جناحان ، لها الجناحان ، والبنتان لها الرجلان ، والمرأة لها العَجْزُ ، وأنا
زائر لي الزور ، وأكل الدجاجة ونحن ننظر إليه وبتنا نتحدَّث .

فلما أصبحنا قلت لزوجتي : اصنعي لنا خمس دجاجات ففعلت وأتيته
بالدجاج وقلت له : أقسم يا بدوي .

فقال : تريد شفْعاً أو وترأ .

فقلت : إن الله وترٌ يحبُّ الوترَ .

فقال : كأنك تريد بالفرد .

فقلت : نعم .

فقال : أنت وزوجتك ودجاجةٌ ، وابناك ودجاجةٌ ، وابنتك

ودجاجة، وأنا ودجاجة .

فقلت : لا أرضى بهذه القسمة .

فقال : كأنك تريد شفعا .

فقلت : نعم .

فقال : أنت وولداك ودجاجة ، وزوجتك وبتها ودجاجة ، وأنا
وثلاث دجاجات ، والله لا أحول عن هذه القسمة .

قال الأصمعي : فغلبي مرتين مرة في الشعر ومرة في الدجاج ثم
انصرف ، انتهى .

خلافة أمير المؤمنين الواثق بالله تعالى

قال ابنه محمد الذي يقال له المهتدي بالله ، كان أبي الواثق بالله إذا أراد أن يقتل رجلاً أحضرنا في ذلك المجلس ، فبينما نحن عنده ذات يوم إذ أتني بشيخ مقيد فقال : ائذنوا لأبي عبد الله ، يعني ابن أبي دؤاد وأصحابه ، وأدخل الشيخ مقيداً فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين .

فقال : لا سلم الله عليك .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين بسمًا أدبك المؤدّب ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ﴾ . وأنت والله ما حييتني بها ولا بأحسن منها .

فقال ابن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين . الرجل متكلم .

فقال الواثق : كلمه .

فقال للشيخ : ما تقول في القرآن ؟

فقال الشيخ : لم تسألني ولي السؤال أسأله ؟

فقال الأمير : سلّه .

فقال الشيخ لابن أبي دؤاد : ما تقول في القرآن ؟

فقال ابن أبي دؤاد : مخلوق . فقال الشيخ : هذا شيء علمه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين والخلفاء الراشدون أم شيء ؟ لا يعلمونه ؟
فقال : شيء لا يعلمونه .

فقال : سبحان الله ! شيء لا يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الصحابة ولا الخلفاء الراشدون وعلمته أنت .
قال : فخجل ، وقال : أقلني .
فقال : قد فعلت ، والمسألة بحالها .

قال : نعم .

قال : ما تقول في القرآن ؟

فقال : مخلوق .

قال : هذا شيء علمه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم والخلفاء الراشدون أم لم يعلموه .
قال : علموه ولم يدعوا الناس إليه .
قال : أفلا وسعك ما وسعهم ؟

قال : ثم قام أبي فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجله على الأخرى وهو يقول : هذا شيء لم يعلمه النبي ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا الخلفاء الراشدون وعلمته أنت .
سبحان الله ، انتهى .

* * *

وذكر الحافظ أبو نعيم في حليته . قال الحافظ أبو بكر الآجري . بلغني عن المهدي رحمه الله . أنه قال : ما قطع أبي . يعني الوائق . إلا شيخ

جاء به من المصيبة ، فمكث في السجن مدة ثم إن أبي ذكره يوماً فقال : عليّ بالشيخ ، فأُتي به مقيداً ، فلما وقف بين يديه سلم عليه ، فلم يردّ عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما سلكت بي أدب الله ولا أدب رسول الله ﷺ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ﴾^١ ، وأمر النبي ﷺ بردّ السلام .

قال أبي ، وعليك السلام ، ثم قال لابن أبي دؤاد : سلّه ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا محبوس مقيد أصلي في الحبس بتيمة مُنعت الماء ، فمرّ بقيودي تُحلّ ، ومرّ بماء أتوضأ وأصلي ، ثم سلني . فأمر به فحلّت قيوده وأمر له بماء فتوضأ وصلى . ثم قال لابن أبي دؤاد : سلّه .

فقال الشيخ : المسألة لي ، ففرّه أن يُجيبني .

فقال : سلّ . فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد فقال له : أخبرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه أشيء دعا إليه النبي ﷺ ؟ قال : لا . قال : أفشيء دعا إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده ؟

قال : لا . قال : أفشيء دعا إليه عمر بن الخطاب بعدهما ؟

قال : لا . قال : أفشيء دعا إليه عثمان بن عفان بعدهم ؟

قال : لا . قال : أفشيء دعا إليه علي بن أبي طالب بعدهم ؟

قال : لا . قال الشيخ : أفشيء لم يدعُ إليه الرسول ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا عليّ تدعو أنت الناس إليه ليس يخلو أن تقول علموه أو جهلوه ، فإن قلت علموه وسكتوا عنه توسعاً ، وسعنا وإياك من

١ سورة النساء ٨٦ .

السكوت ، ما وسع القوم ، وإن قلت جهلوه وعلمته أنت ، فيا لكعُ ابنَ
لكعُ ، شيءٌ يجهله النبي ﷺ والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم ، وتعلمه
أنت وأصحابك .

قال المهتدي : فرأيت أبي وثب قائماً ودخل الحجرة ، فجعل ثوبه
في فيه وجعل يضحك ثم جعل يقول : صدق الشيخ ، إلى آخر ما تقدم .
وقال المهتدي : ما زلت أقول القرآن مخلوقٌ صدرأ من خلافة الوائق حتى
أقدم علينا أحمدُ بن دؤاد شيخاً من أهل الشام ، فأدخل الشيخ على الوائق
مقيداً وهو جميل الوجه تامم القامة ، حسن الشيبة ، فرأيت الوائق قد
استحيا منه ورق له فما زال يدنيه ويقربه حتى قرب منه ، فسلم عليه
الشيخ فأحسن السلام ودعا فأبلغ وأوجز فقال له الوائق : اجلس ، ثم
قال : يا شيخ ناظر ابن أبي دؤاد على ما يناظره .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ابن أبي دؤاد يقل ويصغر ، ويضعف
عن المناظرة .

فغضب الوائق وأعاد مكان الرقة له غضباً ، وقال : أبو عبد الله بن
أبي دؤاد يقل ويصغر ويضعف عن مناظرتك أنت .

قال الشيخ : هوّن عليك يا أمير المؤمنين ، ما بك ، واثذن لي في
مناظرته .

فقال الوائق : ما دعوتك إلا للمناظرة .

فقال الشيخ : يا أحمد يا ابن أبي دؤاد إلام دعوت الناس ودعوتي
إليه ؟

فقال : أن تقول : القرآن مخلوقٌ لأن كل شيء دون الله مخلوقٌ .

١ الكع : اللثيم .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تحفظ عليّ وعليه ما نقول .

فقال : أفعُلُ . فقال الشيخ : يا أحمدُ ، أخبرني عن مقاتلك هذه أواجبةٌ داخلةٌ في عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه ما قلت ؟

قال : نعم . فقال الشيخ : أخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله عزّ وجلّ إلى عباده ، هل سترَ شيئاً ممّا أمره الله به في دينه ؟
فقال : لا . قال الشيخ : أفدعا رسول الله ﷺ إلى مقاتلك هذه ؟
فسكت ابن أبي دؤاد فقال الشيخ : تكلم ، فسكت ، فالتفت الشيخ إلى الواصل فقال : يا أمير المؤمنين قل : واحدة .
فقال الواصل : واحدة .

فقال الشيخ : يا أحمد أخبرني عن الله عزّ وجلّ حين أنزل آخر القرآن على رسول الله ﷺ فقال - اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً - أكان الله صادقاً في إكماله أم أنت الصادق في نقصانه ، فلا يكون كاملاً حتى يقال فيه بمقاتلك هذه ، فيكون كاملاً .

فسكت ابن أبي دؤاد فقال الشيخ : أجب يا أحمد ، فلم يجبه ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، قل : اثنتان .
فقال : اثنتان . فقال الشيخ : يا أحمد أخبرني عن مقاتلك هذه أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها ؟

فقال ابن أبي دؤاد : علمها . فقال : أفدعا الناس إليها ؟
فسكت ابن أبي دؤاد . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين قل : ثلاثة .

فقال الوثائق : ثلاثة . فقال الشيخ : يا أحمد ، أفأتسّع لرسول الله ﷺ كما زعمت ، ولم يطالب أمته بها ؟

قال : نعم . فقال الشيخ : وأتسّع لأبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم ؟

فقال ابن أبي دؤاد : نعم . فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الوثائق . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد قدّمتُ أن أحمد يقلّ ويصغر ويضعف عن المناظرة ، يا أمير المؤمنين ، ألم يتسّع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسّع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، فلا وسّع الله على من لم يتسّع له مثلاً ما اتسّع لهم من ذلك .

فقال الوثائق : نعم إن لم يتسّع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسّع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، فلا وسّع الله علينا ، ثم قال : اقطعوا قيدَ الشيخ . فلما قُطع ضربَ الشيخ بيده فأخذ القيد فوضعه في كُمّه ، فقال الوثائق : لِمَ فعلتَ هذا ؟

فقال الشيخ : لأني نويت أن أقدمَ إلى من أوصي إليه إذا مُتُّ ، أن يجعله بيني وبين كفني ، حتى أخاصمَ به هذا الظالمُ عند الله عزّ وجلّ يوم القيامة ، وأقول : يا رب سلّ عبدك هذا لِمَ قَيَدني . وروّع أهلي وولدي وإخواني بلا حقٍّ أوجب ذلك عليّ .

وبكى الشيخ وبكى الوثائق وبكىنا ، ثم سأله الوثائق أن يجعله في حلّ وسعة مما ناله منه ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين لقد جعلتُك في حلّ وسعة من أوّل يوم أكراماً لرسول الله ﷺ ، إذ أنت رجلٌ من أهله .

فقال الوثائق : لي إليك حاجة .

فقال الشيخ : إن كانت ممكنةً فعلت .

١ أقدم : آمر .

فقال الواصل : تُقيم عندنا يتتفع بك فتياننا ؟

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، إن ردَّك إياي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم أنفعُ لك من مقامي عندك ، فقال : ولمَ ذلك ؟ فقال : لأسيرَ إلى أهلي وولدي فأكفَّ دُعاءهم عنك ، فقد خلَّفْتهم على ذلك .

فقال الواصل : أفتقبلَ مِنّا صلَّةً تستعين بها على دهرِكَ ؟

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، أنا غني وذو ثروة .

قال : أفتسألنا حاجةً .

قال : أوتقضيها ؟

قال : نعم .

قال : تخلي سبيلي إلى السفر الساعة وتأذن لي .

قال : أذنتُ لك

فسلَّم عليه الشيخ وخرج .

قال : صالح : فقال المهتدي بالله ، فرجعت عن هذه المقالة من ذلك اليوم ، والله أعلم .

الضَبُّ الناطق فائدة

روى الدارقطني وشيخُه والحاكم وابن عدي عن عمر : « أن النبي ﷺ كان في محفل من أصحابه ، إذ جاء أعرابي من بني سليم قد اصطاد ضبًّا وجعله في كُمِّه ليذهب به إلى رحله ، فرأى جماعةً محتفلين بالنبي

ﷺ . فقال : على مَنْ مِنْ هؤلاء ؟

قالوا : على هذا الذي يزعم أنه نبي .

فأتاه فقال : يا أحمدُ ، ما اشتملت الناس على ذي لهجة أكذب منك . ولولا أن تسميني العربُ عجولاً لقتلتك ، فسررت لقتلك الناسَ أجمعين .

فقال عمر : يا رسول الله دعني أقتله ؟

فقال رسول الله ﷺ : أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً .

ثم أقبل الأعرابي على رسول الله ﷺ ، فقال : واللّاتِ والعزى لا آمنْتُ بك حتى يؤمن بك هذا الضُّبُّ ؟ وأخرج الضُّبُّ من كِمْه وطرحه بين يدي رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : يا ضُبُّ ، فتكلّم الضُّبُّ بلسان فصيح عربي صريح يفهمه القوم جميعاً فقال : لبيك وسعديك يا رسول ربّ العالمين .

فقال رسول الله ﷺ : من تعبد ؟

قال : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رحمته ، وفي النار عذابه .

قال : فمن أنا يا ضُبُّ ؟

قال : أنت رسول ربّ العالمين وخاتم النبيين ، قد أفلح من صدّقك وخاب من كذّبك .

فقال الأعرابي : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله حقاً ، والله لقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أبغض إليّ منك ، والله لأنت الساعة

١ اللّات والعزى : من آلهة الجاهليين الكاذبة .

أحبّ إليّ من نفسي ومن ولدي . فقد آمن بك شعري وبشري وداخلي
وخارجي وسرّي وعلايتي .

فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي
يعلو ولا يُعلَى عليه . ولا يقبله الله تعالى إلّا بصلاة ولا يقبل الصلاة إلّا
بقراءة .

قال : فعلمني . فعلمه النبي ﷺ : الحمد لله ، وقل هو الله أحد ،
فقال : يا رسول الله ما سمعت في البسيط ولا في الرجز أحسنَ من هذا .
فقال رسول الله ﷺ : إن هذا كلام ربّ العالمين ، وليس بشعر .
إذا قرأت قل : هو الله أحدٌ ثلاثاً ، أو قال : ثلاث مرّات ، فكأنما قرأت
القرآن كلّهُ .

فقال الأعرابي : إن إلهنا يقبل اليسير ويُعطي الكثير . انتهى باختصار
من حياة الحيوان الكبرى .

ابن آدم

ووقف رجل على الواثق فقال : يا أمير المؤمنين . صل رَحِمَكَ وارحم
أقاربك وارحم رجلاً من أهلِكَ .

فقال الواثق : من أنت . فأني لا أعرفك قبل اليوم ؟

قال : ابنُ جدِّكَ آدم .

فقال : يا غلام ، أعطه درهماً ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، وما أصنع بالدرهم ؟

قال : أرأيتَ لو قسمتَ المالَ بينَ إخوتك أولادِ جدِّي أكانَ ينوبك
منه حبة .

فقال : لله درك ما أذكى فهمك .
فأمر له بعتاء وانصرف مكرماً .

خلافة المتوكل على الله تعالى

حكى عنه أنه قال ذات يوم لأبي العيناء : ما أشد ما مرّ عليك في
ذهاب عينيك ؟

فقال : فقد رؤيتك يا أمير المؤمنين .

فاستحسن منه هذا الجواب وأمر له بجائزة نفيسة .

ومما حكاه أبو القاسم علي بن محمد الذهبي عن أبي عبد الله
النحوي ، قال : لما حجّ محمد بن عبد الله بن طاهر رأى في الطواف جاريةً
في نهاية الحسن فسأل عنها ، فقيل : إنها لرجل من الأدباء قد رَوّاهَا
الأشعار والأخبار والنحو والعروض ، وقد أحسّت ضربَ العود وطريقَ
الغناء ، فاشتراها بمائة ألف درهم ، فلما قدم بها مدينة دار السلام شَغِفَ
بها شغفًا شديدًا وأخفى أمرها ، وما يجده منها تحوُّفًا من أمير المؤمنين
المتوكل . وكان من شدّة وجده بها يحتبسُ عندها أياماً لا يظهر للناس ،
فيظنون أنه زَمِنُ وأمره معها مستور ، فقطن به سويد بن أبي العالية
صاحبُ البريد ، وكان بينه وبين محمد منافرةً ، فلم يجد ما يكيد به إلا أن
كتب إلى المتوكل وهو نازل على أربعة فراسخ من بغداد ، كتاباً نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإن محمد بن
عبد الله اشترى جاريةً بمائة ألف درهم ، فهو يصطبج معها ويغتنق زمانه
كلّه معها ، وقد اشتغل بها عن النظر في أمور المسلمين وعن التوقيع في
قصاص المظلومين ، ولا يأمن أمير المؤمنين أن تخرب عليه بغداد مع كثرة ما

فيها من العَوَاء فيتعَب أمير المؤمنين في إصلاحها ، وقد أنهى ذلك المملوك إلى أمير المؤمنين ، أيده الله ، وهو أعلى رأياً والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

قال : فلما قرأ المتوكل الكتاب رفع رأسه إلى نرجس الخادم وقال له : امض الساعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وادخل عليه داره بغتة من غير إذن وانظر إلى ما يصنع ؟ ثم خذ منه جاريته فلانة واث بها من غير تأخير . فضى نرجس من ساعته ، وكان محمد قد اصطبج معها في ذلك اليوم ، فدخل عليهما نرجس من غير استئذان ، فلم يشعر محمد إلا وهو واقف عليه ، فتغير وجهه وانتقع لونه ، وفاضت عيناه وارتعدت فرائضه لعلمه أن نرجساً ما دخل عليه من غير إذن إلا وقد أضمر له سوء ، فقال له : يا نرجس ما الذي أقدمك !

قال : أمير المؤمنين أمرني أن آخذ جاريته هذه .

قال : يا نرجس هذا يومٌ قد حضر شره وغاب خيرُه ، وقد ترى ما نحن فيه ، وأنا لا أخالف ما أمر به أمير المؤمنين .

ثم أمر للخادم بكرسي فجلس عليه بعد أن امتنع ساعة وقال : إن مثلي لا يجلس مع مثلك ، ثم إن محمداً نظر إلى الجارية وبكى بكاءً شديداً ، وقال لها : غثي لأترؤد منك .

فأخذت العودَ وغتت بصوت حزين تقول :

لله مَنْ لِمُعَدَّيْنِ رماهما	بشَمَاتة العَدَالِ والحَسَادِ
أما الرَحِيلُ فحين جدَّ تحمَّلت	مهجُ النفوس به من الأجسادِ
من لم يبت والبينُ يصدع شمله	لم يدر كيف تفتت الأكبادِ

ثم إنها أعلنت بالبكاء والنحيب والشهيق ، فرحمها الخادم ورقاً لها

حينَ عاينَ ما حلَّ بهما . فقال : أيها الأمير ، إن رأيتَ أن أمضيَ وأدعكما على ما أنتما عليه وأتعلَّلَ عنكما لأمرِ المؤمنين فعلت .

فقال : يا نرجس ، من خلفه مثل أبي سويد كيف يُمكنه التعلَّل . ولكن ارفق بنا .

فقالَت الجارية : والله يا سيدي لا مَلَكِي غيرُكَ أبداً . ولئن دفعتني إليه لأقتلنَّ نفسي .

فقال لها محمد : لو كان غيرُ أمير المؤمنين لكان في ذلك أوسعُ حيلة ، ولقد وددتُ أن يأخذ مني أميرُ المؤمنين جميعَ ما أملك ويعزلني عن عملي ويُبقِيك عليّ ، ولكن هذا قضاء الله وقدره . ثم التفت إلى نرجس وقال : لقد شاهدت مِنِّي ومن هذه الجارية ما شهد قلبُك علينا بالحبَّة والمودَّة والألفة ، وليس يُخفى عن علمِكَ أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء . ومثلك من يصنع المعروف مع مثلي فخذها وامضِ بها إلى أمير المؤمنين ، وقل ما شئتَ مما يَلِيقُ بمُروءتك . ثم التفت إليها وقبَّلها وبكى وبكت وبكى نرجس . ثم أخذها وخرج وهي تبكي وتحمش خدَّها ووجهها . قالت : ثم حملني نرجس على بغلة أمير المؤمنين وسار حتى دخل على المتوكِّل . فلما رآه قال : ما وراءك يا نرجس ؟

قال : ورأيي يا أمير المؤمنين كل بليَّة . ثم إنه جلس بين يديه وقصَّ عليه حالها ولم يُخفِ شيئاً .

فقال المتوكِّل : وكل هذا الوجد يجده محمد من هذه الجارية ؟

فقال : يا أمير المؤمنين والذي خفي أكثر مما ظهر وما أظنَّه يعيش بعدها . فرقَّ عليه قلبُ المتوكِّل وقال : يا نرجس ارجع بها إليه الساعة من وقتِكَ ، هذا وأدرجُه قبل أن ترهقَ روحُه ، وقد أمرت له بمائة ألف

درهم ، ولها مع ذلك مثله . وجعلتُ أمر أبي سويد إليه يصنع به ما يشاء .

ثم كتب له توقيعاً بذلك ودفعه إلى نرجس ، فرجع الخادم بالجارية والتوقيع ولم يتمهل حتى دخل عليه فوجده عرباناً يتقلب على حُصر سامان من شدة الكُرب والوجد . وقد أهدت به الجواري يروحته بالمراوح . فقال : أبشر يا محمد ، إن أمير المؤمنين قد ردّ جاريته عليك من غير أن يُوقعَ نظره عليها . وقد حكمت في أبي سويد .

ثم ناوله التوقيع بذلك ، ودخلت الجارية عليه ، فوثب إليها وعانقها وقبلها ساعة . ثم خرج فجلس على باب داره وبعث إلى أبي سويد ، فلما حضر دفع إليه التوقيع ، فلما قرأه قال : أعوذ برضاك من سُخطك وبعفوك من عقوبتك ، وأن تهدم مني ركناً أنت شيدته ، وأن تُصيغَ صنعةً اصطنعتها . إلى مثلي ، فثلي من هفا ومثلك من عفا .

ثم قام وقبل البساط فقال له محمد : لا أبدلُ نعمة الله كفوفاً ثم أمر له بخمسين ألف درهم فقالت الجارية : وأنا أيضاً أهبُ له خمسين ألف درهم مما وهبه لي أمير المؤمنين ، شكراً لله تعالى على ذلك .

ثم أقره على ما كان عليه ، وأمر أن يُحمل المالُ بين يديه إلى منزله ، ورجع محمد والجارية إلى ما كانا عليه في أطيب عيش وأحسن حالٍ متظاهراً . بذلك غير مستترٍ ولا خائف ، انتهى .

يعفو عن الرأس والذنب

وَأَتَى الْمُتَوَكِّلَ بِمُحَمَّدِ بْنِ النُّصَيْبِ وَوَزِيرِهِ ابْنَ الدِّيرَوَانِي وَكَانَ مُحَمَّدٌ هَذَا قَدْ خَرَجَ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ وَاسْتَوَزَرَ ابْنَ الدِّيرَوَانِي ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُتَوَكِّلِ

قال له : ما حملك على ما فعلت يا محمد؟

قال : الشقوة وحسن الظن بعفوك يا أمير المؤمنين ، وأنشد يقول :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى ، والعفو بالحر أجمل
تضائل ذنبي عند عفوك قلة فجذلي بعفومك ، فالعفو أفضل

فقال الملك : خلوا سبيله . ثم قدّم ابن الديرواني فقال : اضربوا عنقه ، فقال : سبحان الله ، يا أمير المؤمنين ، تعفو عن الرأس وتقطع الذنب ؟ فضحك المتوكل وعفا عنه ، انتهى .

صوت من السجن

كتب محمد بن عبد الملك الزيات وهو في السجن ، وقد اشتدّ به الحال ، رقعة إلى المتوكل يستعطفه على نفسه من شدّة ما قاسى من الأهوال والعذاب في السجن يقول فيها هذين البيتين :

هي السبيل ، فمن يوم إلى يوم كفرحة النائم الفرحان بالنوم
لا تعجلن ، رويداً ، إنها دولٌ دنيا تنقل من قوم إلى قوم

قال : فلما قرأها المتوكل ، رقّ له وبكى وأمر بإطلاقه ، فذهبوا إلى السجن فوجدوه ميتاً ، رحمة الله عليه .

خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله أحمد

كان يسمّى السّفاح الثاني لأنه جدد ملك بني العباس بعد أن أخلقته
الأتراك وأذلّته ، وفي ذلك يقول علي بن العباس الرومي :
كما بأبي العباس أنشيء ملككم كذا بأبي العباس أيضاً يُجدّد

ولقد اتفق في أيامه ، على ما حُكي ، أمرٌ فظيع كشفه الله له بهيبته في
نفوس الناس ، فإنه كان لا يتجرأ أحد منهم أن يكتّم ما في نفسه مخافةً صولته
لأنه كان ، لشدة جذقه ، يتخيّل لهم أنه يعلم ما في نفس الإنسان من
الضمير . فاتفق أن أحد وزرائه وأكبر قوّاده بنى بناءً عاليًا مشرفًا على منازل
جيرانه ، فلم يعارضه أحد فيه من جيرانه لمكانته من سلطانه وعزّه ، وكان
يجلس كثيرًا في ذلك البناء ، فرأى يوماً من الأيام في دار من دور جيرانه
جاريةً بارعةً الجمال ، فولع بها ، فسأل عنها ، فأخبر أنها بنت أحد
التجّار ، فأرسل إلى والدها خاطبًا ، فقال له أبوها ، وكان من أهل
اليسار : لست أزوّجها إلّا من تاجر مثلي ، فإنه إن تزوّجها من هو مثلي لم
يظلمها ، وإن ظلمها قدرتُ على النصفة منه ، وأنتَ إن ظلمتها لم أقدر لها
على النصفة منك ، ولا على الحيلة لنصرتها .

فلم يزل يرومه في ذلك بكل أمر وتوسط إليه بالأكابر والأمثال من
الناس ، وهو مع ذلك يمتنع ، فلما يثس منه أن يجيبه ، شكّا إلى أحد
خواصّه فقال له : ألف مثقال يقوم لك هذا .

فقال : كيف ذلك ؟ والله لو علمت أني أنفق عليها مائتي ألف مثقال أو أكثر وتأتيني بها لفعلت .

قال له : عليك أن تحضر لي ألف دينار .

فأمر بإحضارها فحشى بها ذلك الرجل إلى عشرة رجال كانوا عُدولاً عند القاضي في شهادتهم ، وذكر لهم الأمر ، وقال : هذا أمر ليس عليكم من الله فيه تبعه ، فإنه يُصدقها كذا وكذا ألفاً ، وأغلى لهم المهر ، وإنكم تُحيون نفساً أشرفت على الهلاك ، ويكون لكم عنده مع هذا من الجاه ما ترغبون ، وأبوها إنما هو عاضلٌ لها عن الزواج ، وإلا فما يمنعه من ذلك ، وقد خطبها مثلُ فلان في جلالة قدره ومكانة أمره ، وقد أعطاه صداقاً لا يعطى إلا لبنت ملك ثم هو مع هذا يأبى ، هل هذا إلا عَضْلٌ يَبِينُ؟ ولكن لكم ألف مثقال لكل واحد منكم مائة وتشهدون أنه قد زوّجها به فإنه إذا علم أبوها بأنكم قد شهدتم عليه رجع إلى هذا إذ ليس فيه إلا الخير والخيرة .

فأخذ الشهود كل واحد منهم مائة وشهدوا أن أباه زوّجها على صداق مبلغه كذا ، ورفعوا في الصداق إلى غاية ما تُرفع إليه صداقات الملوك ، فلما علم أبوها بذلك زاد نِفاراً وإباء ، فحشى الوزيرُ وذلك القائد إلى القاضي وقال : إني تزوّجت فلانة بنت فلان على هذا الصداق ، وهؤلاء شهدوا عليه ، ثم قد ناكرتني وأنكر الشهود ، وقد أردت أن أدفع له حقَّ ابنته وآخذها .

فأمر القاضي بإحضار الشهود فشهدوا عنده وأحضر مال النقد بين يدي القاضي ، والرجلُ على إنكاره متبادٍ ، فأمر القاضي بإمضاء الحكم

١ عضل المرأة عن الزواج : منعها وحبسها عنه .

عليه ، وأن تؤخذ ابنته منه أحبَّ أو كره ، وأمر بحمل المال إليه ، فلما وصلت الجارية عند الوزير ، لم يزل أبوها يروم الوصول إلى المعتصم . وكان المعتصم غليظَ الحجاب لا يصل إليه أحد من غير الخاصّة . فقبل للرجل أنه يحضر كلَّ يومٍ ساعةً من النهار على بُنيانٍ له بقصره ، فإن استطعت أن تكون مع جملة رجال الخدمة تصل إليه وتكلّمه بما أردت . ففعل الرجل ذلك وغير شكله ، ودخل في جملة رجال الخدمة للبناء ، فلما كان ذلك الوقت الذي كانت عادة أمير المؤمنين المعتصم يقف فيه على ذلك البناء خرج ذلك الرجل فترامى إلى الأرض وجعل يحشو التراب على رأسه ويستغيث ، فسأله عن شأنه فقصَّ عليه القصة ، فأرسل المعتصم في ذلك المقام ، خلف ذلك القائد وأغلظ عليه في القول ، فحملته هيئته له ، وقلة إقدامه على الكذب عليه ، أن وصف له الصورة على ما كانت عليه ، وهو يطمع أن يعذره في ذلك ، إذ قد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها ، وأمر بإحضار الشهود فصنعوا مثل صنيع صاحبهم وذلك كلّ رهبة له وإجلالاً أن يخاطبوه بكذبٍ مع تحيلهم أنه يصفح لهم عن هذه الزلة إذ قد أرادوا إحياء نفس ذلك الوزير ، وأيضاً قد دفع له بين يدي القاضي نقداً لا يكون إلّا في صدقات الملوك ، وقد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها ، فكأنه قد أخذها بحقّها أو بأكثر من حقّها .

فلما تحققت عنده جلية الخبر أمر أن يصلب كل شاهد منهم على باب داره ، وأن يوضع ذلك الوزير في جلد ثور طريّ السليخ ، ويضرب بالمرازب^١ حتى يختلط عظمه ولحمه ودمه ، ثم أمر به ، لمّا صنع به ذلك ، أن يفرغ بين يدي ثُمور كانت عنده ، فلما لعقت تلك الثُمور ذلك الدم أمر

١ المرازب ، الواحد مرزبة : عصا صغيرة من حديد .

الرجلَ أبا البنت أن يأخذَ ابنته ويأخذَ كلَّ ما ذكروا لها على ذلك الوزير في صداقها من عقار ودُور ومال .

ثم مات المعتصم وولي ابنه المقتدر وكان صبياً صغير السن ، فعادت الأتراك إلى ما كانت عليه من ذلك ، والله تعالى أعلم .

صاحب المغرب وصاحب طليطلة

ويقربُ من شهامة هذا الملك ما ذكره في حياة الحيوان في ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب بلاد المغرب . من أنه وقع بينه وبين الأذفونش ، نصرانيّ طليطلة ، مكاتباتٌ قال : بعث الأذفونش إلى الأمير يعقوب يتوعّده وتهدّده ، ويطلب منه بعضَ حصون ، وكتب له رسالة من إنشاء وزيره ابن النجار وهي :

باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيّد المسيح روح الله وكلمته الفصيح ، أما بعد فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب ولا ذي عقل لازب^١ أنك أميرُ الملة الحنيفة ، كما أني أميرُ الملة النصرانية ، وقد علمتُ ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والنكول^٢ والتكاسل ، وإهمالهم أمرَ الرعية وإخلادهم إلى الراحة والأمنيّة ، وأنا أسوسُهم بحكم القهر وإخلاء الديار وسبي الذراري ، وأمثل بالرجال وأذيقهم عذاب الهوان ، وشديدَ الثكال ، ولا عذرَ لك في التخلف عن نُصرتهم ، إذا مكّنتك القدرة وساعدك من عساكرك وجنودك كل ذي رأي وخبرة ،

١ اللازب : الثابت .

٢ التخاذل : ترك القوم نصره بعضهم بعضاً . النكول : الجبن . النكال : هو أن تصنع بشخص صنيعاً يحذّر غيره إذا رآه .

وأنتم تزعمون أن الله تعالى قد فرض عليكم قتالَ عشرةٍ مِنّا بواحدٍ منكم ،
والآن خَفَّفَ الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً ، رحمةً منه ، ونحن الآن
نقاتل عشرةً منكم بواحد مِنّا لا نستطيعون دفاعاً ، ولا تملكون امتناعاً ،
ولقد حُكِيَ عنك أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال ،
وتُهاطل نفسك سنةً بعد أخرى تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى ، فلا ندري أكان
لِجُبْنٍ إبطاؤُك أم لتكذيبٍ بما وعد ربّك ، ثم قيل لي أنك لا تجد إلى
الجواز سبيلاً ، ولعله لا يسوغ لك التقحّم فيه ميلاً ، وها أنا أقول لك ما
فيه الراحة وأعتذر عنك ، ولك علي أن تني بالعهود والمواثيق والاستكثار
من البرهان ، وإلا جئتُ بحملي إليك وأقاتلُك في أعزّ الأماكن عليك ،
فإن كانت الثُصرة لك كانت غنيمةً كبيرةً جاءت إليك ، وإن كانت لي
كانت يدي العليا عليك ، والله الموفق لا ربَّ غيره ، ولا خيرَ إلا خيره .
قال : فزَقَّ يعقوب الكتاب ، وكتب على قطعة منه : « ارجع إليهم
فلنأتينهم بجنود لا قبلَ لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون » .
الجواب ما ترى لا ما تقرأ واستشهد بيت المتنبي .

ولا كُتِبَ إلا المشرفةُ عنده ولا رسله إلا الخميسُ العرممُ

ثم أمر بكتائب الاستنفار واستدعاء الجيوش من الأمصار ، وضرب
السُرّادقاتِ من يومه بظاهر البلد ، وصار إلى البحر المعروف بِرُقّاق سبّيةً ،
فعبّر فيه إلى الأندلس ، ودخل إلى بلاد الإفرنج ، فكسرهم كسرةً
شنيعةً ، وعاد بغنائمهم والله أعلم .

الصعيدى والفرنجية

ومن غرائب المنقول وعجائبه عن الأمير بدر الدين أبي المحاسن ،
يوسف المهندار ، المعروف بمهندار العرب أنه قال : حَكَى لي الأميرُ
محمدٌ ، شجاع الدين الشيرازي ، متولي القاهرة في أيام الكامل سنة ثلاثين
وستمئة قال : بتنا عند رجل بالصعيد ، فأكرمنا ، وكان الرجل شديدَ
السُّمرة ، وهو شيخ كبير ، فحضر له أولاد بيضُ الوجوه ، حِسَانُ
الأشكال ، فقلنا له : هؤلاء أولادُك؟ قال : نعم ، ثم قال : كأنكم
أنكرتم عليّ بياضهم وسوادي؟

قلنا : نعم . فقال : هؤلاء كانت أمُّهم إفرنجية أخذتها أيام الملك
الناصر صلاح الدين ، وأنا شابٌ .

فقلنا : وكيف أخذتها؟ قال : حديثي فيها عجيب وأمرى غريب .
فقلنا : آخفنا به .

فقال : زرعْتُ كَثَاناً في هذه البلدة وقلعته ونفضته ، فصرفت عليه
خمسمائة دينار ، ثم لم يبلغ الثمن أكثرَ من ذلك فحملته للقاهرة فلم يصل
أكثرَ من ذلك ، فأشير عليّ بحمله إلى الشام ، فحملته فلم يزد على تلك
القيمة شيئاً ، فوصلت به إلى عكا فبعْتُ بعضه لأجلِ والبعضَ تركته ،
واكترتُ حانوتاً لأبيعَ على مهلٍ إلى أن تنقضي المدة . فبينما أنا أبيعُ إذ

١ الكامل : هو الملك الكامل أحد الملوك الأيوبيين .

مرّت بي امرأة إفرنجية ، ونساء الإفرنج يمشين في الأسواق بلا نقاب فأنت تشتري مني كتاناً ، فأريت من جالها ما بهرنى فبعْتُها وساحتُها ثم انصرفت وأتت إليّ بعد أيام فبعْتُها وساحتُها أكثر من المرّة الأولى ، فتكرّرت لي وعلمتُ أنّي أحبّها فقلت للعجوز التي كانت معها : إنني قد تلفتُ بحبّها ، وأريد منك الحيلة .

فقلت لها العجوز ذلك ، فقالت : تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت وهو ، فأعادت عليّ الجواب فقلت لها : أما أنا فقد سمحت بروحي في حبّها ، واثّقت الحال على أن أدفع لها خمسين ديناراً ، فوزنتها وسلمتها للعجوز فقالت : نحن الليلة عندك .

قال : فضيت وجهّرت ما قدرتُ عليه من مأكول ومشروب وشمع وحلوى فجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا وجنّ الليل ولم يبقَ غيرُ النوم ، فقلت في نفسي : أما تستحي من الله وأنت غريبٌ تعصى الله مع نصرانيّة . اللهمّ إني أشهدك أنّي قد عففتُ عنها في هذه الليلة حياةً منك وخوفاً من عقابك .

ثم نمتُ إلى الصبح ، فقامت من السحر وهي غضبانة ، ومضت ومضيت إلى حانوتي . فجلستُ فيه ، فإذا هي قد عبرتُ عليّ والعجوزُ وهي مغضبة ، وكأنها القمر ، فهلكتُ وقلت في نفسي : ومن هو أنتَ حتى تترك هذه البارة في حسنّها ؟ ثم لحقت العجوز ، وقلت لها : ارجعي ؟ فقالت : وحقّ المسيح ما أرجعُ لك إلّا بمائة دينار .

فقلت : نعم ! بسم الله ، فضيتُ ووزنت مائة دينار ، فلما حضرت الجارية عندي لحقتني الفكرة الأولى ، وعففت عنها وتركْتُها حياةً من الله تعالى ، ثم مضت ومضيت إلى موضعي ، ثم عبرتُ عليّ بعد ذلك

وقالت : وحقَّ المسيح ما عدتَ تفرحُ بي عندك إلا بخمسمائة دينار ، أو تموت كمدًا .

فارتعتُ لذلك وعزمتُ على أن أصرف ثمن الكتَّان جميعه ، فبينما أنا كذلك والمنادي ينادي ، معاشرَ المسلمين ! إن الهدنة التي كانت بيننا وبينكم قد انقضت ، وقد أمهلنا مَن هُنا من المسلمين إلى جمعه ، فانقطعت عني ، وأخذتُ في تحصيل ثمن الكتَّان الذي لي ، والمصالحة على ما بقي منه ، وأخذتُ معي بضاعة حسنة ، وخرجت من عكا وفي قلبي من الإفرنجية ما فيه ، فوصلت إلى دمشق وبعثتُ البضاعة بأوفى ثمن بسبب فراغ الهدنة ، ومنَّ الله عليَّ بكسب وافر ، وأخذتُ أتجرُّ في الجواري لعلَّ يذهبُ ما بقلبي من الإفرنجية ، فحضت ثلاثُ سنين ، وجرى للملك الناصر ما جرى من وقعة حطين ، وأخذ جميعَ الملوك ، وفتح بلادَ الساحل ، بإذن الله تعالى ، فطلبَ منِّي جاريةً للملكِ الناصر ، فأحضرتُ له جاريةً حسنة ، فاشتراها بمائة دينار ، فأوصلوا إليَّ تسعين ديناراً ، وبقيت العشرة دنائير عنده ، فلم يجدوها في خزانة الملك في ذلك اليوم ، لأنه أنفق جميعَ الأموال ، فلما حضرت الغنيمَةُ جاءوا للملك فشاوروه على ذلك ، فقال : امضوا به إلى الخيمة التي فيها السيُّ من نساء الإفرنج ، فخيروه في واحدةٍ منهنَّ ، يأخذها بالعشرة دنائير التي بقيت له .

فأتيت الخيمةَ فعرفتُ غريمي ، فقلت : أعطوني هذه الجارية ، فأخذتها ومضيت إلى خيمتي ، وخلوت بها ، وقلت لها : أتعرفيني ؟ قالت : لا . فقلت لها : أنا صاحبك التاجرُ الذي جرى لي معك ما جرى وأخذت مني الذهب ، وقلت : ما عدتَ تراني عندك إلا بخمسمائة دينار وقد أخذتُك مُلكاً بعشرة دنائير .

فقلت : مدَّ يديك أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فأسلمت وحسن إسلامها ، فقلت : والله لا وصلت إليها إلا بأمر

القاضي ، فتوجّهت إلى ابن شدّاد وحكيت له ما جرى ، فتعجّب وعقد لي عليها ، وباتت تلك الليلة عندي ، فحملت منّي ثم رحل العسكر ، وأتينا دمشق ، فبعد مدّة يسيرة أرسل الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك ، فردّوا من كان أسيراً من الرجال والنساء ، ولم يبقَ إلّا التي عندي ، فطلّبت منّي ، فحضرتُ وقد تغيّر لوني فأحضرتها بين يدي الملك الناصر ، والرسول فقلت : هذه أسلمت وصارت امرأتي .

فقال الملك الناصر بحضرة الرسول : أترجعين إلى بلادك أو إلى زوجك ، فقد فككنا أسرك وأسرك غيرك .

فقلت : يا مولانا السلطان ! أنا قد أسلمتُ وحملتُ وها بطني كما ترونه ، وليس لي رغبة في الرجوع إلى بلادي وما رغبتي إلّا في الإسلام وزوجي .

فقال لها الرسول : أيّما أحبّ إليك ؛ هذا المسلم أو زوجك الإفرنجي ؟

فأعادت عبارتها الأولى ، فقال الرسول لمن معه من الإفرنج : اسمعوا كلامها . ثم قال لي الرسول : خذ زوجتك وتوجّه . فولّيتُ بها فطلّبتني ثانياً وقال : إن أمّها أرسلت معي كُسوة وقالت : إن ابنتي أسيرة وأشتهي أن تُوصِلَ لها هذه الكسوة .

فتسلّمتُ الكسوة ومضيتُ إلى الدار ففتحت القماش ، فإذا هو قماشها بعينه قد صيرته لها أمها ، ووجدت من داخله الصرّتين ، الذهب الخمسين ديناراً والمائة ديناراً ، كما هي بربطتي لم يتغيّروا ، وهؤلاء الأولاد منها ، وهي التي صنعت لكم هذا الطعام والله أعلم .

إن من البيان لسحراً

يحكى أن بعض الملوك أرسل رجلاً من بطانته إلى بعض الجهات ليعرف خبر عاملها ، ويطالعه بأخبار الرعيّة . فلما وصل الرجل فطن له العامل ، فأرسل إليه بمال وثحف ثم قال : عرفت ما جئت له ، وأنا أرغب إليك في كتاب تكتبه إلى الملك تذكر فيه أني حسن السيرة ، وسالك طريق العدل ، فإن أنت فعلت ذلك ، فلك مني ما تشتهي رغبتك إليه من الخير والعطاء ، وإن أبيت ذلك أمرت الشرطيّين أن يَنهوا إليّ من أمرك في الملال ما يوجب قتلك إمّا حدّاً وإما سياسة ، فأقتلك بمحض من قاضي البلد ووجوه الناس ، فتذهب كأمس الماضي .

فلما لم يجد الرجل بداً من موافقته ولم يكن ليخون مرسله كتب بحضرته كتاباً إلى الملك .

أما بعد ، أعزّ الله الملك وأكرمه ، فإني قدمت إلى مدينة كذا وكذا فوجدت العامل فلاناً آخذاً بالحزم عاملاً بالعزم ، قد ساوى بين رعيته ، وعدل بينهم في أقضيته ، وأرضى بعضهم بعضاً ، وجعل طاعته عليهم فرضاً وأنزلهم منزلة الأولاد ، وأذهب ما بينهم من الأحقاد ، وأراحهم من السعي في الدنيا وقرّغهم للعمل في الأخرى ، أغنى القاصد وأرضى الوارد ، فجميع أهل عمله داعون للملك يودّون النظر إلى وجهه الكريم والسلام .

فلما وصل الكتاب منه إلى الملك فكّر فيه وقال لوزيره : إن فلاناً لم يكن عندي بمثّهم ، فإن كتابه هذا يدلّ على ظلم العامل ، فالتمس لي

رجلاً يصلح لعمله ، فإني قد عزلته .

فقال الوزير : أصلح الله الملك ، وكيف ذلك ؟

قال : لأن قوله آخذاً بالحزم عاملاً بالعزم أي أنه خائف مني لما اعتمده في الولاية ، وأما قوله ساوى بين رعيته وعدل بينهم في أقضيته ، فعناه أنه لم يخصّ أحداً بظلمه بل الجميع سواء . وقوله : وأرضى بعضهم بعضاً : أي ذهبت أحقادهم لأن الشدائد تُذهب الأحقاد . وقوله : أنزلهم منزلة الأولاد ، معناه أخذ أموالهم ورأى أنها له أخذاً من قوله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » . وقوله : وأراحهم من السعي في الدنيا ، معناه أنه أخذ أموالهم ولم يترك لهم ما يسعون به ولا ما به يتجرون . وقوله : فرغهم للعمل في الأخرى ، معناه أنهم لزموا المساجد والعبادة لفقرهم . وقوله : أغنى القاصد وأرضى الوارد فإنه يعني نفسه ، أي أنه أعطاه مالاً ليكتب إليّ بذلك . وأما قوله : فجميع أهل عمله دأعون لنا ، معناه أن يبصرنا الله بأمرهم ، ونطلع على ما هم فيه . وقوله : يودّون النظر لوجهنا أي يشكون إلينا ما لقوه منه ويستغيثون بنا .

ثم إن الملك طلب العامل وأحضره إلى بابه وأنصف الناس منه وردّ عليهم ما كان العامل ظلمهم فيه واقتصص منه فيما عليه فيه القصاص ، وقابله على فعله والله أعلم .

هذه القصيدة الزينية^١

صرمت جبالك بعد وصلك زينبُ والدهرُ فيه تصرُّمٌ وتقلُّبُ
نشرت ذوائبها التي تزهو بها سوداً ورأسك كالثغامة^٢ أشيبُ
واستنفرت لما رأتك وطالما كانت تحنُّ إلى لقاءك وترغبُ
وكذاك وصل الغانيات ، فإنه آلُ ببلقعة وبرقُ خلَّبُ^٣
فدع الصبا ، فلقد عداك زمانه وازهد فعمرك مرٌّ منه الأطيبُ
ذهب الشبابُ ، فما له من عودةٍ وأتى المشيبُ ، فأين منه المهربُ
دع عنك ما قد كان في زمن الصبا واذكر ذنوبك ، وابكها يا مذنَّبُ
واذكر مناقشة الحساب ، فإنه لا بُدَّ يُحصى ما جنيت ويكتبُ
لم ينسه الملكان حين نسيته بل أثبتاه ، وأنت لاهٍ تلعبُ
والروحُ فيك وديعةٌ أودعتها ستردُّها بالرغم منك وتُسَلِّبُ
وغرورُ دنياك التي تسعى لها دارٌ حقيقتُها متاعٌ يذهبُ
والليلُ ، فاعلم ، والنهارُ كلاهما أنفاسنا فيها تُعدُّ وتُحسبُ

١ هذه القصيدة لصالح بن عبد القدوس ، وهو من حكماء الشعراء كان متهماً بالزندقة ، قتله المهدي من أجل ذلك وصلب على جسر بغداد سنة ٧٨٣ م ، وسُميت القصيدة بالزينية نسبة إلى لفظة زينب الواردة في أول بيت منها ، وهي لقب الدنيا .

٢ الثغامة : شجرة بيضاء .

٣ الآل : السراب . البلقعة : القفر . البرق الخلب : غير المطر .

٤ الملكان : منكر ونكير فتانا القبور .

وجميعُ ما خَلَفْتَهُ وجمَعْتَهُ
 تَبًّا لِدَارٍ لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا
 فَاسْمَعْ . هُدَيْتَ ، نَصِيحَةً أَوْ لَا كَهَا
 صَحِبَ الزَّمَانَ وَأَهْلَهُ مُسْتَبْصِرًا
 لَا تَأْمِنِ الدَّهْرَ الْخَثُونَ ، فَإِنَّهُ
 وَعَوَاقِبُ الْأَيَّامِ فِي لَذَاتِهَا
 فَعَلَيْكَ تَقْوَى اللَّهِ ، فَالْزِمِهَا تَفَرُّ
 وَاعْمَلْ بِطَاعَتِهِ تَتَلَّ مِنْهُ الرِّضَا
 وَاقْنَعْ ، فِي بَعْضِ الْقَنَاعَةِ رَاحَةً
 فَإِذَا طَمَعْتَ كُسِبَتْ ثُوبٌ مَذَلَّةٌ
 وَتَوَقَّ مِنْ غَدْرِ النِّسَاءِ خِيَانَةً
 لَا تَأْمِنِ الْأُنْثَى حَيَاتِكَ إِنَّهَا
 لَا تَأْمِنِ الْأُنْثَى زَمَانَكَ كُلَّهُ
 تُغْرِى بَلِيْنَ حَدِيثِهَا وَكَلَامِهَا
 وَابْدَأْ عَدُوَّكَ بِالتَّحِيَّةِ ، وَلْتَكُنْ
 وَاحْذَرِهِ ، إِنْ لَاقَيْتَهُ مُتَبَسِّمًا
 إِنْ الْعَدُوَّ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
 وَإِذَا الصَّدِيقُ رَأَيْتَهُ مُتَمَلِّقًا
 لَا خَيْرَ فِي وَدِّ امْرِئٍ مُتَمَلِّقٍ
 يَلْقَاكَ يَحْلِفُ أَنَّهُ بِكَ وَاثِقٌ
 يُعْطِيكَ مِنْ طَرَفِ اللِّسَانِ حِلَاوَةً
 وَصِلِ الْكِرَامَ وَإِنْ جَفَوْكَ بِهَفْوَةٍ
 وَاخْتَرِ قَرِينَكَ وَاصْطَفِيهِ تَفَاخُرًا
 إِنْ الْغَنِيِّ مِنَ الرِّجَالِ مَكْرَمٌ

حَقًّا يَقِينًا بَعْدَ مَوْتِكَ يُنْهَبُ
 وَمَشِيدُهَا عَمَّا قَلِيلٍ يُخْرَبُ
 بَرٌّ نَصُوحٌ لِلْأَنَامِ مَجْرَّبُ
 وَرَأَى الْأُمُورَ بِمَا تَثُوبُ وَتُعَقِّبُ
 مَا زَالَ قَدَمًا لِلرِّجَالِ يُؤَدِّبُ
 عُصَصُ يَذْكُ لَهَا الْأَعْزُ الْأَنْجَبُ
 إِنَّ التَّقِيَّ هُوَ الْبَهِيُّ الْأَهْيَبُ
 إِنْ الْمُطْمَئِنِّ لَهُ لَدَيْهِ مَقَرُّ
 وَالْبَاسُ عَمَّا فَاتَ ، فَهُوَ الْمَطْلُبُ
 فَلَقَدْ كُسِبِيَ ثُوبَ الْمَذَلَّةِ أَشْعَبُ
 فَجَمِيعُهُنَّ مَكَايِدُ لَكَ تَنْصُبُ
 كَالْأَفْعَوَانِ يُرَاعِ مِنْهُ الْأَنْبِيُّ
 يَوْمًا ، وَلَوْ حَلَفْتَ يَمِينًا تَكْذِيبُ
 وَإِذَا سَطَتْ فِيهِ الصَّقِيلُ الْأَشْطَبُ
 مِنْهُ ، زَمَانُكَ ، خَائِفًا تَرَقُّبُ
 فَالْبَيْتُ يَبْدُو نَابَهُ إِذَا يَغْضَبُ
 فَالْحَقْدُ بَاقٍ فِي الصَّدُورِ مُغَيَّبُ
 فَهُوَ الْعَدُوُّ ، وَحَقُّهُ يُتَجَنَّبُ
 حَلَوُ اللِّسَانِ ، وَقَلْبُهُ يَتَلَهَّبُ
 وَإِذَا تَوَارَى عَنْكَ فَهُوَ الْعَقْرَبُ
 وَيُرَوِّغُ مِنْكَ كَمَا يُرَوِّغُ الثَّلَبُ
 فَالْصَّفْحُ عَنْهُمْ وَالتَّجَاوُزُ أَصُوبُ
 إِنْ الْقَرِينَ إِلَى الْمُقَارِنِ يُنْسَبُ
 وَتَرَاهُ يُرْجَى مَا لَدَيْهِ وَيُرْهَبُ

وَيَتَشُّ بِالترحيب عند قدومه
والفقْر شَيْنٌ للرجال ، فإنه
واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلأقارب كُلِّهِمْ
وَذَرِ الكَذُوبَ فَلَا يَكُنْ لَكَ صَاحِباً
وَزِنِ الكلامَ إِذَا نَطَقْتَ وَلَا تَكُنْ
واحْفَظْ لِسَانَكَ واحْتَرِزْ مِنْ لَفْظِهِ
والسِّرِّ فَاسْكُتْهُ وَلَا تَنْطِقْ بِهِ
وكذلك سِرُّ المرءِ إِنْ لَمْ يَطْوِهِ
لَا تَحْرِصَنَّ ، فَالْحِرْصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ
ويَظَلْ مَلْهُوفاً يَروُمُ تَحِيلاً
كَمْ عَاجِزٍ فِي النَّاسِ يَأْتِي رِزْقُهُ
وَارِعَ الأَمَانَةَ ، وَالْحَيَانَةَ ، فَاجْتَنِبْ
وَإِذَا أَصَابَكَ نَكْبَةٌ فَاصْبِرْ لَهَا
وَإِذَا رُمِيتَ مِنَ الزَّمَانِ بِرَبِيَّةٍ
فَاضْرَعْ لِرَبِّكَ ، إِنَّهُ أَذْنَى لِمَنْ
كُنْ مَا اسْتَطَعْتَ مِنَ الأَنَامِ بِمَعَزَلٍ
وَاحْذَرْ مَصَاحِبَةَ اللَّيْمِ ، فَإِنَّهُ
وَاحِدٌ مِنَ المَظْلُومِ سَهْماً صَائِباً
وَإِذَا رَأَيْتَ الرِّزْقَ عَزَّ بِلَدَةٍ
فَارْحَلْ فَارْضُ اللَّهَ وَاسْعُهُ الفُضَا
وَلَقَدْ نَصَحْتُكَ إِنْ قَبِلْتَ نَصِيحَتِي

وَيُقَامُ عِنْدَ سَلامِهِ وَيُقَرَّبُ
حَقّاً يَهْوَنُ بِهِ الشَّرِيفُ الأَنْسَبُ
بِتَذَلُّلٍ ، وَاسْمَحْ لَهُمْ إِنْ أَذْنَبُوا
إِنَّ الكَذُوبَ يَشِينُ حَرّاً يَصْحَبُ
ثَرَاةً فِي كُلِّ نَادٍ تَخْطُبُ
فَالمرءُ يَسْلِمُ بِاللِّسَانِ وَيَعْطِبُ
إِنْ الرُّجَاةُ كَسَرُهَا لَا يُشْعَبُ
نَشَرَتِ أَلْسِنَةُ تَزِيدُ وَتَكْذِبُ
فِي الرِّزْقِ لَيْسَ يُشْقِي الحَرِيصَ وَيَتَعَبُ
وَالرِّزْقُ لَيْسَ بِحِيلَةٍ يُسْتَجْلَبُ
رَعْدًا ، وَيُحَرِّمُ كَيْسٌ ، وَيُحَيِّبُ
وَاعْدِلْ وَلَا تَظْلِمَ يَطِبُّ لَكَ مَكْسَبُ
مَنْ ذَا رَأَيْتَ مُسْلِمًا لَا يُنْكَبُ
أَوْ نَالَكَ الأَمْرُ الأَشَقُّ الأَصْعَبُ
يَدْعُوهُ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ وَأَقْرَبُ
إِنْ الكَثِيرُ مِنَ الْوَرَى لَا يُصْحَبُ
يُعْدِي كَمَا يُعْدِي السَّليْمُ الأَجْرُ
وَاعْلَمْ بِأَنْ دَعَاءَهُ لَا يُحْجَبُ
وَخَشِيتَ فِيهَا أَنْ يَضِيقَ المَذْهَبُ
طَوْلًا وَعَرْضًا ، شَرْقُهَا وَالْمَغْرِبُ
فَالنَّصِيحُ أَغْلَى مَا يُبَاعُ وَيُوَهَّبُ

وما أحسن قول صالح بن عبد القدوس :

المرءُ يَجْمَعُ ، وَالزَّمَانُ يُفَرِّقُ وَيَظَلُّ يَرْقَعُ وَالْخَطُوبُ تُمَزِّقُ

ولأن يُعادي عاقلاً خيراً له
 فارباً بنفسك أن تصادق أحماً ؛
 وزن الكلام ، إذا نطقت ، فإنما
 ومن الرجال إذا استوت أحلامهم
 حتى يحلّ بكلّ وادٍ قلبه
 لا ألفيتك ثاوباً في غربة
 ما الناس إلا عاملين : فعامل
 والناس في طلب المعاش ، وإنما
 لو يُرزقون الناس حسب عقولهم
 لكنته فضلُ الملك عليهم
 وإذا الجنّاة والعروس تلاقيا
 سكت الذي تبع العروس مبهتاً
 وإذا امرؤ لسعته أفعى مرة
 بني الدين ، إذا يقولوا يكذبوا ،
 من أن يكون له صديق أحق
 إن الصديق على الصديق مصدق
 يُبدي عقول ذوي العقول المنطق
 من يُستشار ، إذا استشير ، فيطرق
 فيرى ويعرف ما يقول وينطق
 إن الغريب بكلّ سهم يُرشق
 قد مات من عطش ، وآخر يُعرق
 بالجد يُرزق منهم من يُرزق
 ألفيت أكثر من ترى يتصدق
 هذا عليه مُوسّع ومُصنّع
 ورأيت دمع نوائح يترقق
 ورأيت من تبع الجنّاة ينطق
 تركته حين يجرّ حبلاً يفرق
 ومضى الدين إذا يقولوا يصدّقوا

الخوارج كلاب النار

وذكر ابن الجوزي في الأذكياء وغيره : أن عمران بن حطان ، كان
 أحد الخوارج ، وهو القائل يمدح عبد الرحمن بن ملجم المُرادى لعنه
 الله تعالى ، على قتل الإمام علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه وكرّم الله
 وجهه :

١ قوله : لو يرزقون الناس : جعل الناس بدلاً من الواو نائب فاعل يرزقون ، وهي
 لغة ضعيفة يُقال لها : لغة أكلوني البراغيث .

يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها إلا ليلُغَ من ذي العرشِ رضوانا
إني لأذكره يوماً فأحسبه أو في البريةِ عندَ الله ميزانا
أكرمِ بقومِ بطونِ الأرضِ أقبرهم لم يُخلطوا دينهم بغياً وعدوانا

فبلغت القاضي أبا الطيّب الطبري ، رحمه الله تعالى ، هذه الأبيات
فقال مجيئاً له :

إني لأبرأ مما أنت قائله عن ابنِ مُلجمِ الملعونِ بُهتاننا
إني لأذكره يوماً فألعنه ديناً ، وألعنِ عمرانَ بنَ حِطّاننا
عليك ثم عليه الدهرُ متّصلاً لعائنُ الله إسراراً وإعلانا
فأنثموا من كلابِ النارِ جاء لنا نصُّ الشريعةِ بُرهاناً وتبياناً

أشار أبو الطيّب رحمه الله تعالى إلى قوله عليه السلام : « الخوارج كلاب
النار » ، انتهى من حياة الحيوان .

سارق الحمل

ومنه ما روي عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه قال : « جاءوا
برجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فشهدوا عليه أنه سرق جملأ لهم ، فأمر به النبي
صلى الله عليه وسلم أن يُقطع ، فولّى الرجلُ ، وهو يقول : اللهم صلّ على محمدٍ حتى
لا يبقى من صلاتك شيء ، وبارك على محمدٍ حتى لا يبقى من بركاتك
شيء ، وسلم على محمد حتى لا يبقى من سلامك شيء .

فتكلّم الجملُ وقال : يا محمد ، إنّه بريء من سرقي .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : من يأتيني بالرجل ؟ فابتدره سبعون من أهل
بئر ، فجاءوا به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا هذا ، ما قلت آنفاً ؟

فأخبره بما قال ، فقال النبي ﷺ : لذلك نظرت الملائكة يَخْتَرِقُونَ
سُكَّكَ الْمَدِينَةِ ، حَتَّى كَادُوا يَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ .
ثم قال النبي ﷺ : « لَتَرِدَنَّ عَلَى الصِّرَاطِ وَوَجْهُكَ أَضْوَأُ مِنَ الْقَمَرِ
لَيْلَةَ الْبُرْ » .

هذه القصيدة يقال إنها لأمير المؤمنين الراضي بالله

زيادة المرء في دنياه تُقصانُ
 وكلُّ وجدانٍ حظٌّ لا ثباتَ له
 يا عامراً لخراب الدهر مُجتهداً
 ويا حريصاً على الأموال يجمعها
 دعِ الفؤادَ من الدنيا وزُخرفها
 وأوعِ سمعك أمثالاً أفصلها
 أحسين إلى الناس تستعبد قلوبهم
 وكن على الدهر معواناً لذي أملٍ
 من جادٍ بالمال ماله الناس قاطبةً
 من كان للخير متاعاً فليس له
 لا تخدِشَنَّ بمطل وجه عارفةٍ
 يا خادماً الجسمِ كم تسعى لخدمته
 أقبل على النفس واستكمل فضائلها
 من يتقي الله يُحمدُ في عواقبه
 حسبُ الفتى عقله خلاً يعاشره
 لا تستشر غيرَ شخصٍ حازمٍ فطينٍ
 فللتدابيرِ فرسانٌ إذا ركضوا
 وللأمورِ مواقفٌ مُقدَّرةٌ
 من رافق الرفق في كلِّ الحوادث لم

وربُّه غيرَ محضِ الخيرِ خسرانُ
 فإن معناه في التحقيقِ فقدانُ
 بالله ! هل لخراب الدهر عُمرانُ
 أنسيت أن سرورَ المال أحزانُ
 فصفوها كدراً والوصلُ هجرانُ
 كما يُفصلُ ياقوتٌ ومرجانُ
 فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ
 يرجو ندالك ، فإن الحرَّ معوانُ
 إليه ، والمالُ للإنسانِ فتانُ
 عندَ الخليفةِ أحيانُ وإخوانُ
 فالبرُّ يَخْدِشُهُ مَطلٌ وليانُ
 أتطلبُ الريحَ مما فيه خسرانُ
 فأنتَ بالنفسِ لا بالجسمِ إنسانُ
 ويكفيه شرٌّ من عزُّوا ومن هانوا
 إذا تحاماه إخوانُ وخُلانُ
 قد استوت منه أسرارُ وإعلانُ
 فيها أبرُّوا كما للحربِ فرسانُ
 وكلُّ أمرٍ له حدٌّ وميزانُ
 يندم عليه ولم يندمهُ إنسانُ

ولا تكن عَجَلًا في الأمرِ تَطْلُبُهُ
وذو القناعة راضٍ في معيشتِهِ
كفى من العيش ما قد سدَّ من رَمَقِ
هما رضيعا لبانٍ حكمةً وثَقَى
من مدَّ طرفاً بفراط الجهلِ نحو هوى
من استشار صرُوفَ الدهرِ قام له
من عاشر الناس لاقى منهم نصباً
ومن يفتش عن الإخوانِ مجتهداً
من يزرع الشرَّ يحصدُ في عواقِبِهِ
من استنامَ إلى الأشرارِ نامَ وفي
من سالمَ الناسَ يسلمُ من غوائلِهِمْ
من كان للعقل سلطانٌ عليه غدا
وإن أساءَ مَسِيءٌ فليكن لك في
إذا نبا بكريمٍ موطنٌ ، فله
لا تحسبنَّ سروراً دائماً أبداً
يا ظالماً فَرِحاً بالعزِّ ساعدهُ
يا أيها العالمُ المُرَضِي سِرُّهُ
ويا أنا الجهلِ لو أصبحت في لُجَجِ
دع التكاثرَ في الخيراتِ تطلُبُها
صُنْ حرَّ وجهك لا تهتكُ غلالتهُ

فليس يُحمَدُ قبلَ النَّضجِ بحرانُ^١
وصاحبُ الحرصِ إن أثرى فغضبانُ
ففيه للحرِّ إن حَقَّقَتْ عُنيانُ
وساكننا وطنٍ مالٌ وطُغيانُ
أغضى عن الحقِّ يوماً وهو خزيانُ
على حقيقة طبع الدهرِ بُرهانُ
لأن طبعَهُمُو بغيٌ وعُدوانُ
فجُلُّ إخوانِ هذا الدهرِ خَوَّانُ
ندامةً ، ولحصيدِ الزرعِ إِبَّانُ
قيصمه منهمو صِلٌ وتُعبانُ
وعاش وهو قريرُ العينِ جَدَّانُ
وما على نفسه للحرصِ سلطانُ
عروضِ زلَّته صَفْحٌ وعُقرانُ
وراءه في بسِيطِ الأرضِ أوطانُ
من سرَّه زمنٌ ساءتَه أزمانُ
إن كنت في سنَةٍ فالدهرُ يَقْظانُ^٢
أبشر ، فأنت بغيرِ الماءِ رَيَّانُ
فأنت ما بينها لا شكَّ ظَمَّانُ
فليس يَسْعَدُ بالخيراتِ كسلانُ
فكلُّ حرٍّ لحرِّ الوجهِ صَوَّانُ^٣

١ قوله : قبل النضج بحران : البحرين : التغير الذي يحدث دفعة في الأمراض

الحادة ، وهذه اللفظة لا تؤدي هنا معنى مفيداً ولعلها محرفة .

٢ السنة : فتور النوم .

٣ حرَّ الوجه : ما بدا من الوجنة .

لا تحسب الناس طبعاً واحداً فلهم
ما كلُّ ماءٍ كصداءٍ لوأرده
من استعان بغير الله في طلب
واشدُّ يدك بجبلِ الله مُعْتَصِماً
لا ظلٌّ للمرءِ يُغني عن ثَقْيٍ ورضا
سُحبانٍ من غيرِ مالٍ باقلٌ حَصْرُ
والناسُ إخوان من وآلته دولته
يارافلاً في الشبابِ الرحبِ مُتَشَيِّاً
لا تغترَّ بشبابٍ ناعمٍ خَضِلِ
وياخا الشيبِ لو ناصحتَ نفسَكَ لم
هبِ الشبيبةُ بُدي عُذْرَ صاحبِها
كلُّ الذنوبِ فإنَّ اللهَ يَغْفِرُها
وكلُّ كَسِرٍ فإنَّ اللهَ يُجْبِرُه
أَحْسِنِ إذا كانَ إِمكانٌ ومقدرةُ
فالروضُ يزدانُ بالأَنوارِ فاغمةُ
خُذها سِرائِرُ أُمثالٍ مَهْدَبَةٍ
ما ضَرَّ حُسَّانها والطبعُ صائِغها

غرائرُ لستَ تُحْصِيها وألوانُ
نعم ولا كلُّ نبتٍ فهو سَعْدانُ^١
فإن ناصره عَجَزٌ وخِذلانُ
فإنه الركنُ إن خانتكَ أركانُ
وإن أظْلته أوراقُ وأفنانُ
وباقلُ في ثراءِ المالِ سُحبانُ^٢
وهم عليه إذ عادته أعوانُ
من كاسيه هل أصاب الرُّشدَ نَشوانُ
فكم تقدّم قبلَ الشيبِ شَبانُ
يكن لمثلِكَ في الإسرافِ إِمعانُ
ما بالُ شيبِكَ يستهويه شَيْطانُ
إن شَيَّعَ المرءُ إِيحلاصُ وإيمانُ
وما لكسِرٍ قنّاةُ الدينِ جبرانُ
فلا يدومُ على الإنسانِ إِمكانُ
والحرُّ بالعدلِ والإِحسانِ يزدانُ^٣
فيها لمن يبتغي التَّيَّبانَ تَبَّانُ
إن لم يَصْغِها قريعُ الشَّعرِ حَسَّانُ^٤

-
- ١ صداء : عين عذبة الماء في بلاد العرب ، وفي المثل : ماء ولا كصداء .
السعدان : نبت من أطيب مراعي الإبل ، وفي المثل : مرعى ولا كالسعدان .
٢ سحبان بن وائل : أحد خطباء العرب المشهورين . باقل : رجل اشتهر بغية .
٣ الأنوار ، الواحد نور : الزهر الأبيض . الفاغمة : من فغم الطيب فلاناً : ملأ خياشيمه .
٤ حسان : هو حسان بن ثابت الأنصاري المعروف بشاعر النبي .

وذيل عليها بعضهم فقال :

وكن لسنّة خير الخلق متّبعا	فإنها لنجاة العبد عنوان
فهو الذي شملت للخلق أنعمه	وعمّهم منه في الدارين إحسان
جبيته قرّ قد زانه خفّر	وثغره دُرّ غرّ ومرجان
والبدر ينجّل من أنوار طلعه	والشمس من حُسْنِه الوضاح تزدان
ومدأتى أبصرت عمي القلوب به	سُبل الهدى ووَعَت للحقّ آذان
به توسّلنا في محو زلّتنا	لربّنا ، إنه ذو الجودِ مَنان
ياربّ صلّ عليه ما همى مطر	فأينعت منه أوراق وأغصان
وابعث إليه سلاماً زاكياً عطراً	والآل والصحب لا تَفنيه أزمان

جاريّتان برواية شعر

وعن حمّاد الراوية قال : كنت محبّاً للوليد بن عبد الملك ، فلما ولي أخوه يزيد الخِلافة هربتُ إلى الكوفة ، فبينما أنا في المسجد الأعظم ، إذ أتاني رسولُ محمد بن يوسف الثَّقفي ، وقال : أجب الأمير ، فدخلت عليه ، فقال : ورد كتابُ أمير المؤمنين عليّ بِحَمْلِكَ إليه ، وبالباب نجيبان ، فاركب أحدهما ، ودفع إليّ كيساً فيه ألف دينار ، وقال : هذه نفقةُ لمنزلك ، فدخلتُ دمشق في اليوم الثامن واستأذن لي الرسولُ فدخلت عليه ، فإذا هو جالسٌ في دارٍ مبَلّطةٍ بالرخامِ الأحمر ، وفيها سُرّادقُ خَزْ أحمرٍ في وسطِ قبةٍ حمراء من خَزْ ، وفرشها وكلُّ ما فيها أحمرٌ ، وعلى رأسه جاريّتان عليها ثيابُ حمرٍ بيّدةٍ واحدةٍ منها إبريقٌ ، وفي إحدى يدي الأخرى نبيذٌ أحمرٌ ، وفي اليد الأخرى نبيذٌ أبيضٌ ، فلما واجهته سلّمتُ عليه بالخِلافة فردّ عليّ السلام ، وقال : ادنُ يا حمّاد : أتدري فيمَ بعثت إليك ؟

قلت : لا يا أمير المؤمنين .

قال : في بيت شعرٍ ذهب عني أوله .

قلت : من أيّ عروضٍ أو قافية ؟

قال : لا أدري إلا أنه بيتٌ فيه إبريق .

فقلت في نفسي : إن لم تغنّ الرواية يوماً ، فالآن . ففكرتُ في نفسي ساعة ، ثم قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، لعله قولُ التبعِ اليماني ، أو عديّ بن زيدٍ العبّادي :

بكر العاذلون في وضح الصُّب	ح يقولون لي : أما تَسْتَفِيقُ
ويلومون فيك يا ابنة عبدِ الله	والقَلْبُ عندكم موثوق
لست أدري إذ العِذْلَ فيها	أعدُّو يلومني أم صديقُ
ودعوا بالصُّبوح يوماً فجاءت	قَيْنَةُ في يَمِينِها إبريقُ

فصاح يزيد وقال : هو والله الشعرُ بعينه وشرب وقال : يا جارية اسقيه ، فسقتني كأساً أذهبت ثلث عقلي ، ثم استعاد الشعرَ وشرب وقال : اسقيه ، فسقتني ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ذهب ثلثا عقلي . فقال : سل حاجتك قبل أن يذهب الثلث الآخر .

فقلت : إحدى هاتين الجاريتين .

فقال : هما لك بماهما وما عليهما ، ومائة ألف تُحسِن بها سيرك ، ثم ناولتني الجارية كأساً فشربتها وانصرفت ونهضت ، وقد ذهب عقلي ، فعُدِلَ بي إلى دار الضيافة فانتبهت آخر الليل ، وإذا بشمع يوقد والجاريتان يرصّان الأمتعة ، والبغال تحملُ ما لهما من أثاثٍ وغيره ، وأصبحت قبضتُ المال وانصرفت ، وأما أيسرُ أهل الكوفة ، انتهى .

* * *

ولما وقف الشيخ تقي الدين بن حجة رحمه الله ، على هذه الحكاية ، قال : انظر أيها المتأدبُ إلى نفاقِ سوقِ الأدبِ في ذلك الأرب ، وبشهادة الله أن البيت الذي طُلب حمّاد الراوية بسببه من العراق إلى دمشق ، وأُجيز عليه بالجاريتين والمائة ألف تأنف نفسي أني أنظّمه في سلك قصيدة من قصائدي ، وهو هذا البيت :

ودعوا بالصُّبُوح يوماً فجاءت قينةٌ في يمينها إبريقُ

وكنت أريد أن أكونَ في ذلك العصر ويسمّعُ يزيد بن عبد الملك من نظمي في هذا الباب قولي :

طاراً له بعضا الجوزاء نقرات ^١	في ليلةٍ رقمَ البدرُ المنيرُ لها
فوق اللثا واللّمي درٌّ وعُقبات ^٢	وبان لي من لهاها حينَ تبسمُ لي
لكن لها ضاع في الكاسات نَفحاتُ	والراحُ دبَّت على فهمي فصورها
هي المنازلُ لي فيها علاماتُ	كانت علاماتُ تحقيقي ، فقال في :
مغردين ، وللإنشاء سَجعاتُ	مذ أنشأتنا سجعنا في محاسنها
لما حَبَّتها ثغورٌ لؤلؤياتُ	هذا وأفواه كاساتي قد ابتسمت
فللحجابِ على التسكينِ جزمات ^٣	ومن يقلُ حركاتُ الزهر ما سكّنت

١ الطار : آلة من آلات الطرب تنقر كاللؤلؤ .

٢ اللثا : الواحد لثة : ما حول الاسنان من اللحم . اللمي : سمرة أو سواد في باطن الشفة يستحسن . العقبات : أثر الجمل وهيئته ، الواحدة عُقبة .

٣ الحجاب : الفقايع التي تعلق وجه الماء والخمر ، جعلها كأنها علامات جزم على الأزهار ، سكّنتها .

جارية ثمن إعراب بيت

والطف من ذلك ما حكاه محمد بن يزيد المبرد . قال : كان أبو عثمان المازني جاء إليه يهودي وسأله أن يُقرئه كتابَ سيبويه ، وبذل له مائة دينار . فامتنع أبو عثمان من ذلك ، فقلت له سُبْحَانَ اللَّهِ : تردّ مائة دينار مع فاقتك وحاجتك إلى درهم واحد ؟

فقال : نعم يا أبا العباس : اعلم أن كتابَ سيبويه يشتمل على ثلاثمائة آية من كتاب الله ، ولا أرى أن أمكّن منها كافراً .

فسكتُ ، ولم يتكلّم . قال المبرد : فما مضت إلّا أيام حتى جلس الواصل يوماً للشرب وحضر ندماءؤه فغنت جارية في المجلس هذا الشعر :

أظلوهم إن مُصابكم رجلاً أهدى السلام تحيةً ظلّم

فنصبت رجلاً ، فلحنّها بعضُ الحاضرين من الندماء ، وقال : الصوابُ الرفعُ لأنه خبرٌ إنّ . فقالت الجارية : ما حفظته من معلّمي إلّا هكذا .

ثم وقع النزاع بين الجماعة ، فمن قائل الصوابُ معه ، ومن قائل الصوابُ معها ، فقال الواصل : من بالعراق من أهل العربية ممن يُرجع إليه ؟

فقالوا : بالبصرة أبو عثمان المازني ، وهو اليوم واحد عصره في هذا العلم .

فقال الواصل : اكتبوا إلى والينا بالبصرة يسّره إلينا معظماً مُبجلاً .

فما كان إلّا أيام حتى وصل الكتابُ إلى البصرة ، فأمر الوالي أبا عثمان بالتوجّه وسيرّه على بغال البريد ، فلما وصل دخلَ على الواقف ، فرفع مجلسه وزاد في إكرامه وعَرَّض عليه البيت ، فقال : الصواب مع الجارية ، ولا يجوز في رجل غير النصب لأن مصابَّ مصدر بمعنى الإصابة ورجلاً منصوب به ، والمعنى أن إصابتكم رجلاً أهدى السلام تحيةً ظلمٌ ، فظلمُ خبر إن ؛ وما يتم الكلام إلّا به .

ففهم الواقفُ كلامَ أبي عثمان ، وعلم أن الحقَّ ما قالته وأعجب به ، وانقطع الرجل الذي أنكر على الجارية ، ثم أمر الواقف لأبي عثمان المازني بألف دينار ، وأتخفه بتحف وهدايا كثيرةٍ لأهله ، ووهِبَتْ له الجاريةُ جملةً أخرى ، ثم سيره إلى بلده مكّرمًا ، فلما وصل جاء المبرّد فقال له أبو عثمان : كيف رأيت يا أبا العباس ، تركت لله مائةً فبعوضني ألفاً . فقال المبرّد : من ترك شيئاً لله عوّضه خيراً منه ، انتهى .

الاسم الأعظم

عن أنسٍ رضيَ الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « سألت الله الاسمَ الأعظمَ فجاءني جبريلُ به مختوماً ، وهو اللهمّ إني أسألك بالاسم المخزون الطهر الطاهر المطهر المقدّس المبارك الحي القيوم . قالت عائشة : بأبي وأمي علمنيه .

فقال : يا عائشة نُهينَا عن تعليمه النساء والصبيان والسفهاء ، انتهى .

فائدة

كان أبو محمد عبد الله بن يحيى الضبعي من أصحاب الشافعي وكان إماماً صالحاً عالماً من أهل اليمن من أقران صاحب البيان من تصنيفه : [احترازا للمهذب والتعريف في الفقه] . روى أن ناساً ضربوه بالسيوف فلم تقطع سيوفهم فيه فسئل عن ذلك ، فقال : كنت أقرأ : ﴿ وَلَا يُؤْدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾^١ ، فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين - له معقبات من بين يديه ومن خلقه يحفظونه من أمر الله - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - وحفظناها من كل شيطان رجيم - وحفظاً من كل شيطان مارد - وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم - إن كل نفس لما عليها حافظ - إن بطش ربك لشديد - إلى آخر السورة ، وينبغي أن يزداد فيها - إن ربّي على كل شيء حفيظ - . ثم قال : كنت خرجت يوماً مع جماعة فرأيت ذئباً يلعب شاةً عجفاء ، ولا يضربها بشيء ، فلما دنونا منه نفر منها الذئب ، فوجدنا في عنق الشاة كتاباً مربوطاً فيه هذه الآيات المتقدمة ، انتهى .

فائدة

قال معاذ بن جبل : احتبس عتّا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح ، حتى كدنا تراهي عين الشمس ، فخرج سريعاً فثوب .

١ سورة البقرة ٢٥٥ .

بالصلاة فصلّى وتجوّز في صلاته ، فلما سلّم دعا بصوته ، فقال لنا : على مصافّكم كما أنتم ، ثم انفتل إلينا ، فقال : أما إني سأحدّثكم ما حبسني عنكم الغداة ! إني قتّ من الليل فتوصّأتُ وصلّيتُ ما قدّر لي ، فنعستُ في صلاتي حتى استثقلتُ ، فإذا أنا بربي تعالى في أحسن صورة ، فقال : يا محمدُ ، فقلت : لبيك يا ربّ . قال : فيمَ يختصم المלא الأعلى ؟ قلت : ربّي لا أدري . قال تعالى : « في الكفّارات والدرجات » . وفي رواية : « قلت : في الكفّارات والدرجات » . قال : فما هنّ ؟ قلت : مشي الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء على المكرهات . قال : ثم فيمَ ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . قال : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبّ المساكين . وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون . أسألك حبّك وحبّ من يُحبّك وحبّ كل عمل يقربني إلى حبّك .

فقال رسول الله ﷺ : « إنها حقّ فادرسوها ثم تعلّموها » .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . انتهى من حياة الحيوان في حرف النون .

وقال : « ذكر لرسول الله ﷺ ، الشريك ، فقال : هو أخفى فيكم من ديبب الثمل ، وسأدلك على شيء إذا فعلته ، أذهب الله عنك صغار الشرك وكباره . تقول : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً ، وأنا أعلم وأستغفر لك ما لا أعلم إنك أنت علام الغيوب ، تقولها ثلاث مرّات » ، انتهى .

فائدة

إذا عُلِّقَت عَيْنُ الْهُدُودِ عَلَى صَاحِبِ النِّسْيَانِ ذَكَرَ مَا نَسِيَ ، وَدُمُهُ إِذَا قَطِرَ فِي الْبَيَاضِ الْعَارِضِ فِي الْعَيْنِ أَذْهَبَهُ .

وروى أحمد والبرّار ، ورجال أحمد ثقات ، من حديث أبي هريرة : « أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يشرب قائماً ، فقال له : أيسرك أن يشرب معك الهرّ؟ قال : لا . قال : فقد شرب معك الشيطان » .

وفي تاريخ ابن النجار في ترجمة محمد بن عمر الحنبلي عن أنس بن مالك قال : كنت جالساً عند عائشة رضي الله عنها ، أبشّرها بالبراءة ، فقالت : والله لقد هجرني القريبُ والبعيد حتى هجرتني المرأة ، وما عُرض عليّ طعام ولا شراب ، فكنت أرقد وأنا جائعة ، فرأيت في منامي فتى ، فقال : ما لك حزينة؟

فقلت : بما ذكر الناس .

فقال : ادعي بهذه يفرّج الله عنك .

فقلت : وما هي؟

قال : قولي دعاء الفرج : يا سابعَ النعم ، ويا دافعَ البقَم ، ويا فارّجَ الغَمَم ، ويا كاشفَ الظُّلم . ويا أعدلَ من حَكَم ، ويا حسيبَ من ظَلَم ، ويا وليّ من ظُلِم ، ويا أوّلَ بلا بداية ، ويا آخرَ بلا نهاية ، ويا من له اسم بلا كنية ، اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً .

قالت : فانتبهت وأنا ربانة شعبانة ، وقد أنزل الله براءتي وجاءني
الفرج . انتهى من حياة الحيوان .

وهذا الدعاء روى الطبراني بإسناد صحيح قطعة منه عن أنس : أن
النبي ﷺ مرّ بأعرابي ، وهو يدعو في صلاته يقول : يا من لا تراه
العيون ، ولا تخالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولا تغيّره
الحوادث ، ولا يخشى الدوائر ، يعلم مثاقيل الجبال ، ومكايل البحار ،
وعدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل
وأشرق عليه النهار ، ولا توارى منه سماءٌ سماءٌ ولا أرضٌ أرضاً ولا بحرٌ إلا
ويعلم ما في قعره ولا جبل إلا يعلم ما في وعره ، اجعل اللهم خيرَ عمري
آخره ، وخيرَ عملي خواتيمه وخيرَ أيامي يومَ لقائك .

فوكّل النبي ﷺ بالأعرابي رجلاً فقال : إذا صلّى فائتني به ، فلما
صلّى أتاه به وقد كان أهدي للنبي ﷺ ، ذهب من بعض المعادن ، فلما
أتى الأعرابي وهب له الذهب ، وقال : ممن أنت أيها الأعرابي ؟
قال : من بني عامر بن صعصعة .

فقال ﷺ : هل تدري لِمَ وهبتُ لك هذا الذهب ؟
قال : للرحم التي بيننا وبينك يا رسول الله .
قال ﷺ : إن للرحم حقاً ، ولكن وهبت لك الذهب لحسن .
ثنائك على الله عزّ وجلّ . انتهى من حرف الطاء .

بهرام جور والرماية

وفي كتاب ثمار القلوب للثعالبي في الباب الثالث عشر منه ، أن الملك
بهرام جور لم يكن في العجم أرمى منه . ومن غريب ما اتفق له أنّه خرج

يوماً يتصيد على جمل ، وقد أردفَ جارية يعشقها فعرضت له ظباء ، فقال للجارية : في أي موضع تريد أن أضع هذا السهم من هذه الظباء ؟ قالت : أريد أن تشبه ذكرانها بلاناثها ، وإناثها بذكرانها . فرمى ظيباً ذكراً بنشابة ذات شعبتين فاقتلعَ قرنيه ، ورمى ظيبةً بنشابتين ، أثبتهما في موضع القرنين .

ثم سأله أن يجمع ظلف الطي وأذنه بنشابة واحدة . فرمى أذنَ الطي ببندقة ، فلما أهوى بيده إلى أذنه ليحك رماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه ، ثم أهوى إلى الجازية مع هواه بها فرمى بها إلى الأرض وأوطأها الجمل بسبب ما اشترطت عليه وقال : ما أردت إلا إظهار عجزى ، فلم تلبث إلا يسيراً وماتت ، انتهى .

حكاية في القطا

يقال نزل عمرو بن أمارة على قوم من مُراد ، فطرقوهم ليلاً فأثاروا القطا من أماكنها ، فرأتها امرأة يقال لها حَدام ، فلما رأت القطا طارَ ليلاً نُبّهت زوجها مع رجالٍ من قومها فقالت لهم : « ولو تُركَ القطا ليلاً لَنَما » . فلم يلتفتوا إلى قولها وأخلدوا إلى مضاجعهم فقام رجل منهم وقال :

إذا قالت حَدامُ فصَدُّقُوها فإن القول ما قالت حَدامُ

فنفروا القوم والتجئوا إلى وادٍ قريبٍ منهم ، واعتصموا به حتى أصبحوا وامتنعوا من عدوهم ، ففُضِرَ به المثل . انتهى بتقديم وتأخير .

يا جامع الناس

وعن أبي جعفر الخالدي قال : ودعت أبا الحسن الصغير المدني فقلت له : زوّدي شيئاً ؟

فقال : إذا ضاع منك شيء وأردت أن يجمعَ الله بينك وبين ذلك الشيء أو ذلك الإنسان ، فقل : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يُخلفُ الميعادَ اجمعُ بيني وبين كذا وكذا ، فإن الله يجمعُ بينك وبين ذلك الشيء أو ذلك الإنسان . انتهى من حرف الألف .

الملك والمرأة العفيفة

وهذه أبيات :

لصَيْدِ اللَّحْمِ فِي الْبَحْرِ وَصَيْدِ الْأَسَدِ فِي الْبَرِّ وَقَضْمُ الثَّلْجِ فِي الْقُرِّ
وَنَقْلُ الصَّخْرِ فِي الْحَرِّ وَإِقْدَامٌ عَلَى مَوْتٍ وَتَحْوِيلٌ إِلَى الْقَبْرِ
لَأَشْهَى مِنْ طِلَابِ الْعُرِّ فِ مَنْ عَاشَ فِي الْفَقْرِ

قوله : اللَّحْمُ ، بضم اللام وإسكان الحاء المعجمة ، ضرب من السمك ضخّم يقال له : الكوسج وهو القرش . انتهى من حياة الحيوان في حرف اللام .

الملك والمرأة العفيفة

وذكر بعض أهل التواريخ أن ملكاً من الملوك خرج يدور في ملكه ، فوصل إلى قرية عظيمة ، فدخلها منفرداً ، فأخذه العطش ، فوقف بباب دار من دور القرية وطلب ماء ، فخرجت إليه امرأة جميلة بكوز ماء وناولته إياه ، فلما نظر لها افتتن بها ، فراودها عن نفسها ، وكانت المرأة عارفةً به ، فعلمت أنها لا تقدر على الامتناع منه ، فدخلت وأخرجت له كتاباً ، وقالت له : انظر في هذا الكتاب حتى أصلح من أمري ما تُحب وأعود . فأخذ الملك الكتاب ونظر فيه ، وإذا فيه الزجر عن الزنا وما أعد الله تعالى لفاعله من العذاب الأليم ، فاقشعرَّ جلده ونوى التوبة ، وصاح بالمرأة ، وأعطاه الكتاب ومَرَّ ذاهباً .

وكان زوج المرأة غائباً . فلما حضر أخبرته الخبر ، فتحيّر في نفسه وخاف أن يكون قد وقع غرضُ الملك فيها ، فلم يتجاسر على وطئها بعد ذلك ، ومكث على ذلك مدّة ، فأعلمت المرأة أقاربها بحالها مع زوجها ، فرفعوه إلى الملك ، فلما مثل بين يدي الملك قال أقارب المرأة : أعزّ الله مولانا الملك ، إن هذا الرجل قد استأجر مئتا أرضاً للزراعة ، وفرعها مدّة ، ثم عطّلها فلا هو يزرعها ، ولا هو يتركها لتؤجّرهما لمن هو يزرعها ، وقد حصل الضرر للأرض ، ونحاف فسادها بسبب التعطيل لأن الأرض إذا لم تُزرع ، فسدت .

فقال الملك لزوج المرأة : ما يَمْنَعُكَ من زرع أرضك ؟
فقال : أعزّ الله مولانا الملك ، إنه قد بلغني أن الأسد قد دخل

أرضي ، وقد رهبته ولم أقدر على الدنومنه لعلمي أنه لا طاقة لي بالأسد .
ففهم الملك القصة فقال : يا هذا إن أرضك طيبة صالحة للزراعة ،
فازرعها بارك الله لك فيها ، فإن الأسد لن يعودَ إليها ، ثم أمر له ولزوجته
بصلة حسنة وصرفهما . انتهى من حرف الألف .

فائدة

الفرزدقُ اسمه همّام بن غالب ، والفرزدق لقب غلب عليه ،
والفرزدق قطع العجين الواحدة فرزدقة ، ولقّب به لغلظه وقصره ، انتهى .

فائدة عظيمة

قال الأطباء : إذا أردت أن تعرف أن المرأة عقيم أو لا ، فرها أن
تتحمل بشومة في قطنة ، وتمكث سبع ساعات ، فإن فاح من فيها رائحة
الثوم ، فعالجها بالأدوية ، فإنها تحمل بإذن الله تعالى وإلا فلا ، وهي
بجربة ، والله أعلم .

فائدة

قال شيخ الإسلام محيي الدين النووي في أذكاره في باب أذكار المسافر
عند إرادته الخروج من بيته : يُستحبّ له عند إرادة الخروج أن يصلي
ركعتين لحديث المُطعم بن المقداد الصحابي رضي الله عنه ؛ أن رسول الله
ﷺ قال : ما خلّف أحد عند أهله أفضلَ من ركعتين يركعهما عندهم حين
يريد السفر . رواه الطبراني وقال : في تَمّة أخرى . قال الشيخ قطب
الدين القسطلاني : مما حفظت من والدتي أم محمد آمنة ، وكانت وفاتها في

صفر سنة ست وخمسين وستمائة : اللهم بتألؤ نور بهاء حجُب عرشك ، من أعدائي احتجبتُ ، وبسطوة الجبروت ممن يكيدني استترت ، وبطول حول حجُب عرشك من أعدائي احتميت ، وبشديد قوتك من كل سلطان تحصّنت وبديموم قيوم دوام أبديتك من كل شيطان استعذت وبمكنون السرّ من سرسرك من كل همّ وغمّ تخلّصت ، يا حامل العرش عن حملة العرش ، يا شديد البطش ، يا حابس الطير والوحش احبس عتي من ظلمي واغلب من غلبي . كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ، انتهى .

فائدة

إذا عُسر على المرأة ولادتها فليكتب لها : بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله ربّ العرش العظيم الحمد لله رب العالمين . كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ . فهل يهلك إلا القومُ الفاسقون .

فائدة

تكتب هؤلاء الكلمات وتجعل في أنبوبة وتدفن في الزرع والكرم فانه لا يؤذيه الجراد بإذن الله تعالى وهي : بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اللهم أهلك صغارهم واقتل كبارهم وأفسد بيضهم ونخذ بأفواههم عن معاشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على

صراط مستقيم اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه واستجب منا يا
أرحم الراحمين .

دعاء

وقال الشيخ قطب الدين ، ومما حفظته من دعاء والذي من الأدعية
التي تنفع في الحجب عن الأعداء : اللهم بسر الذات وبذات السرّ وهوانت
أنت ، هو لا إله إلا أنت ، احتجبتُ بنور الله وبنور عرش الله وبكل اسم
الله من عدوي وعدوّ الله بألف ألف لا حول ولا قوّة إلا بالله ، ختمت على
نفسي وديني وأهلي ومالي وولدي وجميع ما أعطاني ربّي بخاتم الله القدّوس
المنيع الذي ختم به أقطار السموات والأرض ، حسبنا الله ونعم الوكيل ،
حسبنا الله ونعم الوكيل ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

سك النقود في الإسلام

وقال الكسائي : دخلت على الوليد ذات يوم وهو في إيوانه وبين يديه
مال كثير قد أمر بتفرقة على خدمه الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو
يتأمله وكان كثيراً ما يحدثني فقال : هل علمت أوّل من سنّ هذه الكتابة في
الذهب والفضة ؟

قلت : هو يا سيدي عبد الملك بن مروان .

قال : فما كان السبب في ذلك ؟

قلت : لا أعلم غير أنه أوّل من أحدث هذه الكتابة .

قال : سأخبرك . كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر نصراً

على دين ملك الروم ، وكانت تُطرز بالرومية وكان طرازها أباً وابناً وزوجة وبتاً ، فلم يزل كذلك صدر الإسلام كله يمضي على ما كان عليه إلى أن ملك عبد الملك ، فتنبه وكان فطناً . فبينما هو ذات يوم جالس إذ مرّ به قرطاس فنظر إلى طرازه فأمر أن يترجم بالعربية ففعل ذلك فأنكره . وقال : ما أغلظ هذا في دين الإسلام أن يكون طراز القراطيس هكذا وهي تعمل في الأواني والثياب ، وهما يُعملان بمصر وغير ذلك ممّا يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد . فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان . وكان عامله بمصر ، بإبطال ذلك الطراز الذي يعمل على الثياب والقراطيس والستور وغير ذلك ، وأن تعمل صناع القراطيس سورة التوحيد . وشهد أن لا إله إلا هو ، وهذا طراز القراطيس خاصة إلى هذا الوقت . ولم ينقص ولم يزد ولم يتغير ، وكتب إلى عمال الآفاق جميعاً بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ، ومعاينة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منه بالضرب الوجيع والحبس الطويل بعدما أثبت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد ، وحمل إلى بلاد الروم منها وانتشر خبرها ووصل إلى ملكهم فترجم له ذلك الطراز ، فأنكره وعظم عليه . واستشاط غيظاً فكتب إلى عبد الملك : إني أعمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ، ولم تزل تطرز بطراز الروم إلى أن أبطلته . فإن كان من تقدّمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت ، وإن كنت قد أصبت فقد أخطأوا ، فاختر من هاتين الخليّتين أيهما شئت وأحببت ، وقد بعثت إليك بهدية تليق بمحلّك ، وأحببت أن تردّ طراز تلك القراطيس إلى ما كان عليه . وجميع ما كان يطرز أولاً لأشكرك عليه وتأمر بقبض الهدية . وكانت عظمة القدر .

فلما قرأ عبد الملك كتابه ، ردّ الرسول وأعلمه أنه لا جواب له وردّ الهدية ، فانصرف بها إلى صاحبه .

فلما وافاه أضعف الهدية ، ورد الرسول إلى عبد الملك وقال : إني ظننت أنك استقلت الهدية ، فلم تقبلها ولم تجني إلى كتابي فأضعفت الهدية ، وأنا أرغب إليك مثل ما رغبت فيه أولاً من ردّ الطراز إلى ما كان عليه .

فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه وردّ الهدية . فكتب إليه ملك الروم كتاباً يقتضي أجوبة كتبه ويقول : إنك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهّمت أنك استقلت الهدية فأضعفتها ، فجريت على سبيلك الأول ، وقد أضعفتها لك ثالثاً ، وأنا أحلف بالمسيح لتأمرن بردّ الطراز إلى ما كان عليه أو لتأمرن بنقش الدراهم والدنانير ، فإنك تعلم أنه لا ينقش شيء منها إلّا ما ينقش في بلادي . ولم أر الدراهم والدنانير نقشت في بلاد الإسلام فننقش عليها شتم نبيك ، فإذا قرأته ارفض جبينك عرقاً ، فأحب أن تقبل هديتي . وترد الطراز إلى ما كان عليه أول الأمر . وكانت هدية بررتني بها ويبقى الأمر بيني وبينك .

فلما قرأ عبد الملك الكتاب صعب عليه ، وعظم . وضاق به الأرض وقال : أحسبني أشأم مولود ولد في الإسلام لأنني جنيت على رسول الله ﷺ من شتم هذا الكافر ما يبقى إلى أبد الدهور . ولا يُمكن محوه من جميع مملكة العرب ، إذ كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم ، فجمع أهل الإسلام واستشارهم ، فلم يجد عندهم رأياً يعمل به ، فقال له روح بن زنباع : إنك لتعلم المحرج من هذا الأمر ولكنك تتعمد تركه .

فقال : ويحك بم؟ قال : عليك بالباقر من آل بيت النبي ﷺ .

قال : صدقت ، ويُمكنه يا روح الرأي فيه . قال : نعم .

فكتب إلى عامله بالمدينة أن أرسل محمد بن علي بن الحسين مكرماً

ومثّعه بمائة ألف درهم لجهازه وثلاثمائة درهم لنفقته ، وأرح عليه في جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه . وحبس الرسول قبله إلى موافاة محمد بن عليّ . فلما وافاه أخبره الخبر فقال له محمد رضي الله عنه : لا يعظم هذا عليك ، فإنه ليس بشيء من جهتين : إحداهما أن الله عزّ وجلّ لم يكن ليطلق ما تهدّد به صاحب الروم في رسول الله ﷺ ، والثانية تدعو في هذا الوقت بضّاع يضربون سككاً للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد ، وذكر رسول الله ﷺ إحداهما في وجه الدرهم والدينار والأخرى في الوجه الثاني وتجعل في مدار الدرهم أو الدينار ، ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير ، وتعمّد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الثلاثة أصناف التي ، العشرة منها وزن عشرة مثاقيل ، وعشرة منها وزن ستة مثاقيل ، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل ، فتكون أوزانها جميعاً أحداً وعشرين مثقالاً فيجزّئها من الثلاثين ، فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصبّ صنجةً من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان ، فتضرب الدراهم على وزن عشرة والدنانير على وزن سبعة مثاقيل .

وكانت الدراهم في ذلك الوقت إنّما هي الكسروية التي يقال لها اليوم البغليّة لأن رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بسكّة كسروية في الإسلام ، مكتوب عليها صورة الملك ، وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية «نوش خور» ، أي كل هنيئاً ، وكان وزن الدرهم منها قبل الإسلام مثقالاً والدراهم التي كان وزن العشرة منها وزن ستة مثاقيل

١ صنجة : لم نجد هذه اللفظة في المعاجم ، ولعلّها مأخوذة من لفظة صنج . وهو صفيحة مدوّرة من النحاس . القوارير : آنية يُجعل فيها الشراب .

والعشرة وزن خمسة مثاقيل هي السامريّة الخفاف ، والثقال ونقشها نقش فارس ، ففعل ذلك عبد الملك وأمره محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه أن يكتب السكة في جميع بلدان الإسلام وأن يتقدّم إلى الناس في التعامل بها وأن يتهدّد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرهما ، وأن تبطل وتردّ إلى مواضع العمل حتى تعاد إلى السكة الإسلامية .

ففعل عبد الملك ذلك وردّ رسول ملك الروم إليه بذلك ويقول : إن الله عزّ وجلّ مانعك ممّا قد أردت أن تفعله ، وقد تقدّمت إلى عمّالي في أقطار البلاد بكذا وكذا وبإبطال السكك والطراز الرومية .

فقيل لملك الروم : افعل ما كنت تهدّدت به ملك العرب ؟ فقال : إنّما أردتُ أن أغيظه بما كتبت إليه لأنني كنت قادراً عليه بالمال وغيره برسوم الرسوم ، فأما الآن فلا أفعل لأن ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام وامتنع من الذي قال وثبت ما أشار به محمد بن عليّ بن الحسين رضي الله عنهم إلى اليوم .
ثم رمى يعني الوليد بالدرهم إلى بعض الخدم .

منام صادق

وقال نصر الله بن مجليّ ، وكان من الثقات وأهل السنة : رأيت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في المنام ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! تفتحون مكة ، وتقولون : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ثم يتمّ على ولدك الحسين ما تمّ .

فقال : أما سمعتَ أبيات ابن الصيني في هذا ؟ قلت : لا .

قال : اسمعها منه . ثم انتبهت فبادرت إلى دار حيص بيص فذكرت
له الرؤيا فشهو وبكى وحلف بالله أنها لم تخرج من فيه أو خطه لأحد وما
نظمها إلّا في ليلته ، ثم أنشدني :

مَلِكُنَا فَكَانَ الْعَفْوُ مَتَا سَجِيَّةً فَلَمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بِالْدمِ أَبْطَحُ
وَحَلَلْتُمُو قَتْلَ الْأَسَارَى وَطَالَمَا غَدَوْنَا عَنِ الْأَسْرَى نَفْلُكُ وَنَصْفَحُ

واسم حيص بيص سعيد بن محمد أبو الفوارس التميمي الشاعر
المعروف ، ويعرف بابن الصيني ، ولقب بحيص بيص لأنه رأى الناس
يوماً في حركة مُزعجة وأمر شديد فقال : ما للناس في حيص بيص فبقي
هذا اللقب عليه ؛ ومن محاسن شعره :

يَا طَالِبَ الرِّزْقِ فِي الْآفَاقِ مَجْتَهِدًا أَقْصِرْ عَنَّاكَ ، فَإِنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومُ
الرِّزْقُ يَأْتِي إِلَى مَنْ لَيْسَ يَطْلُبُهُ وَطَالِبُ الرِّزْقِ يَسْعَى وَهُوَ مَحْرُومُ
وله أيضاً :

يَا طَالِبَ الطِّبِّ مَنْ دَاءٌ أُصِيبَ بِهِ إِنَّ الطِّيبَ الَّذِي أَبْلَاكَ بِالدَّاءِ
هُوَ الطِّيبُ الَّذِي يُرْجَى لِعَافِيَةٍ لَا مِنْ يُذِيبُ لَكَ التَّرْيَاقَ فِي الْمَاءِ
وله أيضاً :

إِلَهَ عَمَّا اسْتَأَثَرَ اللَّهُ بِهِ أَيُّهَا الْقَلْبُ ودِعْ عَنْكَ الْحُرْقُ
فَقَضَاءُ اللَّهِ لَا يَدْفَعُهُ حَوْلُ مُحْتَالٍ ، إِذَا الْأَمْرُ سَبَقُ
وله أيضاً :

أَنْفِقْ وَلَا تَخْشَ إِقْلَالًا ، فَقَدْ قُسِمَتْ عَلَى الْعِبَادِ مِنَ الرَّحْمَنِ أَرْزَاقُ
لَا يَنْفَعُ الْبَخْلُ مِنْ دُنْيَا مَوْلِيَةٍ وَلَا يَضُرُّ مَعَ الْإِقْبَالِ إِنْفَاقُ

الذكاء والفهم

ومما جاء في الذكاء والفهم ما حُكي عن المأمون أنه غضب على عبدالله بن طاهر ، وشاور أصحابه في الإيقاع به ، وكان قد حضر في ذلك المجلس صديق له فكتب إليه كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، يا موسى . فلما فضّه ووجد ذلك تعجّب وجعل يُطيل النظر إليه ولا يفهم معناه ، وكانت له جارية واقفةً على رأسه فقالت له : يا سيدي ، إني أفهم معنى هذا . فقال : وما هو ؟ قالت : إنه أراد قوله تعالى : يا موسى إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك .

وكان قد عزم على الحضور إلى المأمون ، فثنى العزم عن ذلك واعتذر للمأمون في عدم الحضور فكان سبب سلامته .

* * *

وأحسن من ذلك ما ذكره ابن خلكان قال : إن بعض الملوك غضب على بعض عماله فأمر وزيره أن يكتب له كتاباً يُشخصه به ، وكان للوزير بالعامل عنايةً ، فكتب إليه كتاباً وكتب في آخره ، إن شاء الله تعالى . وجعل في صدر النون شدة . فعجب العامل كيف وقعت هذه الحركة من الوزير إذ من عادة الكتاب أن لا يُشكّلوا كتبهم ، ففكر في ذلك فظهر له أنه أراد : إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك . فكشط الشدة وجعل مكانها ألفاً وختم الكتاب وأعادها . فلما وقف عليه الوزير سرّ بذلك وفهم أنه أراد : إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها .

أبو حنيفة وجاره الإسكافي

وفي تاريخ بغداد ووفيات الأعيان : أن أبا حنيفة رضي الله عنه ، كان له جار إسكافي يعمل نهاره ، فإذا رجع إلى منزله ليلاً تعشى ثم شرب ، فإذا دبّ الشراب فيه غثى وقال :

أضاعوني ، وأي فتى أضاعوا ليوم كرهته وسداد ثغري

ولا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وأبو حنيفة يسمع صوته كل ليلة .

وكان أبو حنيفة يصلي الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته فسأله عنه فقليل : أخذه العسس منذ ليل ، فصلّى أبو حنيفة الفجر من غده ، ثم ركب بغلته وأتى إلى دار الأمير ، فاستأذن عليه ، فقال : ائذنوا له ، وأقبلوا به راكباً ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط . ففعل به ذلك ، فوسع له الأمير من مجلسه وقال له : ما حاجتك ؟

قال : أشفع في جاري .

فقال الأمير : أطلقوه وكلّ من أخذ في تلك الليلة .

فخلوهم أيضاً وذهبوا وركب أبو حنيفة بغلته وخرج والإسكافي يمشي وراءه فقال له أبو حنيفة : يا فتى ! هل أضعناك ؟ فقال : بل حفظت ورعيت فجزاك الله خيراً عن حرمة الجوار . ثم تاب الرجل ولم يعد إلى ما كان يفعل .

وقال الشافعي : قلت لمالك ، هل رأيت أبا حنيفة ؟

قال : نعم ، رأيت رجلاً لو كَلَمْتُكَ في هذه السارية أن يجعلها ذهباً
لقام بحجّته .

دواء للصداع

قال الحافظ ابن عساكر ، أيضاً : ويُكتب للصداع .
بسم الله الرحمن الرحيم كهيص ذكرُ رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى
ربه نداءً خفياً ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ ولو شاء لجعله ساكناً كهيص
حمسق كم لله من نعمة على عبد شاكر وغير شاكر ، وكم لله من نعمة في
قلب خاشع وغير خاشع ، وكم لله من نعمة في كل عرق ساكن وغير
ساكن ، اذهب أيها الصداع بعزّ عزّ الله بنور وجهه الله ، وله ما سكن في
الليل والنهار وهو السميع العليم ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ،
وصلّى الله على سيّدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين ، فإنه
نافع .

وعن أبي الدرداء قال : صلّى بنا رسول الله ﷺ فمرّ بنا كلب فما
بلغت رجله يده حتى مات ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : من الداعي
على هذا الكلب ؟ فقال رجل من القوم : أنا يا رسول الله قال : فما
قلت ؟ قال :

قلت : اللهم ، إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان
المُتّان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام اكفنا هذا الكلب بما
شئت .

فقال ﷺ : لقد دعا الله بالاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب
وإذا سُئل به أعطى .

وهذا الحديث في السنن الأربعة ومُسند أحمد وكتاني الحاكم وابن حبان .

قيل : وكانت صلاة العصر يوم الجمعة وأن الرجل الداعي سعد بن أبي وقاص ، انتهى .

فائدة

قال القرافي : اتفق الناس على تكفير إبليس بقضيته مع آدم عليه الصلاة والسلام ، وليس الكفر فيها لامتناعه من السجود ، وإلا لكان كل من أُمِر بالسجود وامتنع منه كافراً ، وليس كفره بكونه حسداً آدم عليه الصلاة والسلام على منزلته من الله تعالى ، وإلا لكان كل حاسد كافراً ، وليس كفره بعصيانته وفسوقه ، وإلا لكان كل عاص وفاسق كافراً ، وقد أُشْكِل ذلك على جماعة من الفقهاء وينبغي أنه إنما كفر بنسبة الحق جلّ جلاله إلى الجور والتصرف الذي ليس بمُرضيٍّ ، ويظهر ذلك من فحوى قوله : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . ومراده أن الزام العظيم الجليل بالسجود للحقير من الجور والظلم ، وهذا وجه كفره لعنه الله تعالى . وقد أجمع المسلمون على أن من نسب الله تعالى لذلك فهو كافر ، انتهى . ومنه أيضاً قول الشاعر :

خليليّ إن قالت بثينةُ : ما لَهُ أنا بلا وعدٍ ، فقولا لها : لَهَا^١
أتى وهو مشغول بعُظم الذي به ومن بات طول الليل يرعى السُّهاسها^٢

١ لَهَا ، من اللهو : اللعب .

٢ السُّهّا : كوكب خفيّ من بنات نعلش الصغرى . سهّا : غفل .

بشينة تُرري بالغزالة في الضحى إذا برزت لم يبق يوماً بها بها^١
 لها مقلةٌ كحلا وخدٌ مُورِدٌ كأنَّ أباهَا الطَّيِّبِ أو أمَّهَا مَهَا^٢
 دهنتي بودٌ قاتل ، وهو مُتَلَنِي وكم قتلت بالمزج من ودَّها دُها

هي من مزج النعف بنون وغين معجمتين مفتوحتين ثم فاء ، دود
 يكون في أنف الإبل والغنم الواحدة نغفة ، انتهى عن الأصمعي .
 وقال أبو عبيدة : هو الدود الأبيض يكون في النوى ، وما سوى
 ذلك الدود ليس بنغف .

وروى مسلم عن التَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ فِي حَدِيثِهِ الَّذِي رَوَاهُ فِي الدِّجَالِ :
 « وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ فَيُرْسِلُ عَلَيْهِمُ النِّعْفَ فِي رِقَابِهِمْ فَيَصْبَحُونَ
 فَرَسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » . ومعنى قوله : فَرَسَى ، قَتْلَى . وقيل
 للواحدة : فريس من فرس الذئب الشاة وافترسها .

* * *

١ البهاء : الحسن .

٢ المهمل ، الواحدة مهاة : البقرة الوحشية .

حكاية الهامة

روى أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود قال : كنت عند كعب الأحبار ، وهو عند عمر بن الخطاب ، فقال كعب الأحبار : يا أمير المؤمنين ، ألا أخبرك بأغرب شيء رأيته في كتب الأنبياء ؟ إن هامة جاءت إلى سليمان بن داود عليها السلام فقالت : السلام عليك يا نبي الله . فقال : وعليك السلام يا هامة ، أخبريني كيف لا تأكلين من الزرع ؟ قالت : يا نبي الله ، إن آدم أُخرج من الجنة بسببه .

قال : فكيف لا تشربين الماء ؟

قالت : لأنه غرق فيه قوم نوح ، فمن أجل ذلك لا أشربه .

فقال لها : كيف تركت العُمران وسكنت الخراب ؟

قالت : لأن الخراب ميراثُ الله تعالى ، فأنا أسكن ميراثَ الله تعالى . قال الله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فَمِنْهَا مَسَاكِينُهُمْ لَمْ يُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾ ، فالدنيا ميراثُ الله كلها .

قال سليمان : فما تقولين إذا جلست فوق خربة ؟

قالت : أقول أين الذين كانوا يتنعمون فيها .

قال سليمان : فما ضياعك في الدور إذا مررت عليها ؟

سورة القصص ٥٨ .

قالت : أقول ويلٌ لبني آدم كيف ينامون وأمامهم الشدائد ؟
 قال سليمان عليه السلام : فما لك لا تخرجين بالنهار ؟
 قالت : من ظلم بني آدم لأنفسهم .
 قال : فأخبريني ما تقولين في صياحك ؟
 قالت : أقول تزودوا يا غافلون وتهيئوا لسفركم ، سبحان خالقِ
 النور .

فقال سليمان : ليس في الطيور طيرٌ أنصحُ لابن آدم ولا أشفقُ عليه
 من الهامة ، وما في قلوب الجاهل أبغضُ منها ، والهامة بتخفيف الميم ، على
 المشهور طير الماء ، انتهى .

فائدة

اليحمور : حمار الوحش . وفي كتاب العرائس لأبي الفرج الجوزي :
 أن بعض طلبة العلم خرج من بلاده فرافقه شخص في الطريق ، فلما كان
 قريباً من المدينة التي قصدتها قال له ذلك الشخص : قد صار لي عليك
 حقٌّ وذمةٌ ، وأنا رجلٌ من الجان ولي إليك حاجة .

قال : وما هي ؟ قال : إذا أتيت مكان كذا وكذا فإنك تجد فيه
 دجاجاتٍ بينهنّ ديكٌ أبيض فاسأل عن صاحبه واشتره منه ، واذبحه ،
 فهذه حاجتي إليك .

قال ، فقلت له : يا أخي وأنا أيضاً أسألك حاجة ؟ قال : وما هي ؟
 قلت : فإذا كان للإنسان ماردٌ لا تعمل فيه العزائم وألحّ بالآدمي متناً
 ما دواؤه .

قال : يؤخذ له وتر قدر شبر من جلد اليمور ويشد به إبهام المصّاب من يده شداً وثيقاً ، ثم يؤخذ له من دهن السذاب البري ويُقطر في أنفه الأيمن أربعاً وفي الأيسر ثلاثاً فإن الماسك به يموت ولا يعود إلى أحد بعده .

قال : فلما دخلت المدينة أتيت إلى ذلك المكان فوجدت الديك لعجوز ، فسألته ببيعته ، فأبت ، فاشتريته منها بأضعاف ثمنه ، فلما اشتريته وملكته تمثّل لي من بعيدٍ وقال بالإشارة : اذبحه ، فذبحته فخرج عليّ عند ذلك رجالٌ ونساء ، فجعلوا يضربونني ويقولون : يا ساحر . فقلت : لستُ بساحر . فقالوا : إنك منذ ذبحت الديك أُصيبت شابةً عندنا بجحّي ، وإنه منذ مسكها لم يفارقها .

فطلبت منهم وتراً قدر شبرٍ من جلد يمحور وشيئاً من دهن السذاب البري ، فاتوا بهما فشددت إبهامي يدي الشابة شداً وثيقاً ، فلما فعلتُ بها ذلك صاح قائلاً : وأنا علّمتك على نفسي ، ثم قطرت من الدهن في أنفها الأيمن أربعاً وفي الأيسر ثلاثاً فخرّ من وقته ميتاً ، وشفى الله تلك الشابة ولم يعاودها بعدها شيطان .

الحاكم بأمر الله وصاحب البستان

وحكى القاضي شهاب الدين فضل الله في كتابه [مسالك الأنصار في ممالك الأمصار] ، في ترجمة الحاكم بأمر الله أبي علي منصور ، قال : بينما هو في موكبه قبليّ بركة الحبش ، إذ مرّ برجل على بستان له وحوله عبيده ، فاستسقاء ماء فسقاه . ثم قال : يا أمير المؤمنين ، قد أطمعتني في

١ السذاب : نبات ورقة كالصعتر ورائحته كريهة .

السؤال ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكرمني بنزوله لأحظى بتمام السعد؟
فأجابه لذلك ونزل بجيشه ، فأخرج الرجل مائة بساط ومائة نطع
ومائة وسادة ومائة طبق فأكهة ومائة جام حلوى ومائة زبدية سكرية ،
فبُهِتَ الحاكمُ وقال : أيها الرجل ، خبرك عجيب ، هل علمت بنا
فأعددت هذا ؟

قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، وإنما أنا تاجرٌ من رعيّتك لي مائة
محظية ، فلما أكرمتني بالنزول عندي أخذت من كل واحدة شيئاً من فرشها
وزائد أكلها وشربها ، فإن لكل واحدة في كل يوم طبق طعام وطبق فاكهة
وجام حلوى وزبدية شراب .

فسجد أمير المؤمنين شكراً لله تعالى وقال : الحمد لله الذي جعل في
رعايانا من يسعُ حاله هذا ، ثم أمر له بما في بيت المال من الدراهم
المضروبة في تلك السنة ، فكانت ثلاثة آلاف ألف وسبعمائة ألف ، ولم
يركب حتى أحضرها وأعطاها للرجل وقال له : استعن بهذا على حالك
ومروءتك ، ثم ركب وانصرف .

سخاء البرامكة

حكى أبو إسحاق إبراهيم الموصلي قال : دعاني يحيى ابن خالد ،
فدخلت عليه ، فوجدت الفضل وجعفرًا ولديه جالسين بين يديه فقال لي :
يا أبا إسحاق أصبحت اليوم مهموماً فأردت الصُّبُوحَ لأتسلى فغنّ لي صوتاً
لعلّي أرتاحُ له فغنيته :

إذا نزلوا بطحاء مكةَ أشرقت يحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلّا لجودِ أكفهم وما خلّقوا إلّا لأعوادٍ منبر

فسرّ وارتاح وأمر لي بمائة ألف ، وأمر لي كل واحد من ولديه بمائة ألف فحُمِلَ المالُ جميعه بين يديّ فأخذته وانصرفت .

وحكي عن مخارق قال : أصبحت السماء مَغِيمة وأصبح الرشيدُ مع حريمه وأمرنا بالانصراف ، وأذن لنا أن نقيمَ في منازلنا ثلاثة أيام ، فضى الجُلساءُ أجمعون إلى منازلهم فقلت : والله لأذهبنَّ إلى أستاذي إبراهيمَ الموصلي ، فأعرفَ خبره ، ثم أعودَ وأمرت من عندي أن يبيتوا لي مجلساً إلى وقت رجوعي ، فجئت إلى دار إبراهيم ، وقلت للبواب : أخبر أستاذك فأخبره ، فقال : ادخل ، فدخلت ، فإذا هو جالس في رواق وبين يديه قِدْرٌ تُغْرِغُ وأباريقٌ تَزْهُرُ وستارة منصوبةٌ والجواري خلفها ، فقلت : ما بال الستارة لا أسمع من ورائها صوتاً ؟

فقال : اقعد ويحك أصبحت على ما ترى ، فأتاني خبرٌ ضيعه بيعت بجواري ، وقد كنت طلبتها زماناً ، وتَمَيَّيْتُهَا فلم أملكها ، وقد أُعْطِيَ فيها الآن مائة ألف .

فقلت : وما يمنعك منها ، وقد أعطاك الله أضعافَ هذا المال ؟

قال : صدقت ، ولكن نفسي غير طيبة بإخراج هذا المال . وقال : خذ هذا القضيبي ، ونَفَرَ بقضيبي في يده على المدوّرة وألقى عليّ :

نَامَ الْخَلِيُونَ مِنْ وَهْمٍ وَمِنْ سَقَمٍ وَبَتْ مِنْ كَثْرَةِ الْأَحْزَانِ لَمْ أَنْمِ
يَا طَالِبَ الْجُودِ وَالْمَعْرُوفِ مَجْتَهِداً أَعْمِدْ لِيحْيَى حَلِيفَ الْجُودِ وَالْكَرَمِ

قال : فأخذته وأحكمتُه ثم قال : امضِ الساعةَ إلى باب الوزير يحيى بن خالد ، وادخل عليه وحدّثه بما رأيت ، واذكر الضيعةَ وعرفه أنّي صنعتُ له هذا الصوت ، فأعجبني ، ولم أجد من يستحقّه إلّا جاريته دنانير ، وإنني ألقىته عليك لتلقّيه عليها ، واثني بما يكون من الخبر .

قال : فجئت إلى الباب واستأذنتُ وأعلمته ، فأمر بنصبِ الستارة ، وألقيتُ الصوت على الجارية مراراً حتى أحكمته ، فقال لي : تقيم عندنا أو تنصرف ؟

قلت : أنصرف أ طال الله بقاء مولانا الوزير .

فقال : يا غلام ، احمل معه عشرة آلاف ، واحمل إلى إبراهيم مائة ألف .

فحملت مالي وأتيت إلى منزلي فنثرت على من عندي من الجواري دراهم من تلك البدر ، وأكلت وشربت بقية يومي ، فلما أصبحت قلت : والله لأذهبن إلى أستاذي وأعرفن خبره ، فأتيت ودخلت فوجدته على مثل ما كان عليه بالأمس . فقلت له : ما الخبر ، ألم يأتك المال ؟

قال : نعم ، غير أنه لما دخل منزلي بخلت نفسي بإخراجه ، وألقى عليه صوتاً آخر أتيت به الفضل بن يحيى وحدثته بما كان من أبيه بالأمس ، فأمر أن يحمل معي عشرون ألفاً ، ولإبراهيم مائتا ألف ، وفعلت مثل ما فعلت بالأمس ، وغدوت إليه لما أصبحت ، فوجدته على مثل حاله بمثل عذره ، وألقى عليّ صوتاً غيره ، وأتيت به جعفر بن يحيى ، وأخبرته بما كان من أبيه وأخيه ، فأمر أن يحمل معي ثلاثون ألفاً وإلى إبراهيم ثلاثمائة ألف . فحملته معي إليه ، فبكى إبراهيم وقال : وصلت إليّ ستائة ألف وأنا جالس في مجلسي لم أبرح منه ، فعلى مثل هؤلاء يبكي ، فرحم الله أرواحهم أجمعين .

إسحاق الموصلي يتطقل

قال إسحاق : غدوتُ يوماً وأنا منحصر من ملازمة أمير المؤمنين ،
 فعرضت نفسي على أن أطوفَ في الصحراء وأنفّرج ، وقلت لغلمائي : إذا
 جاء رسول الخليفة أو غيره فلا تعرفوه مكاني ، فطفتُ وعدتُ وقد حمى
 النهار ، فوقفت في فضاء أستريح ، فلم ألبث أن جاء خادماً يقود حملاً
 فارهاً ، وعليه جارية راكبة عليها فاخر الثياب ، ورأيت لها قواماً حسناً
 وظرفاً فائقاً ، فحدثت نفسي أنها مغتية ، ثم أدخلت الدار التي أنا واقف
 عليها ثم لم ألبث أن جاء شابان جميلان واستأذنا فأذنَ لهما فدخلا ، ودخلت
 معها فظننا أن صاحب الدار دعاني ، وظنَّ صاحب البيت أنني معها .

وجلسنا ، فأتي بالطعام ، فأكلنا وبالشراب فوضِع ، ودخلت الجارية
 في يدها عودٌ فغنت وشربنا ، فسألها صاحبُ المنزل عني فأخبراه أنها لا
 يعرفاني فقالوا : هذا طفيليّ لكنه ظريف ، فأجملوا عشرتي فشربنا ودارَ
 الكأس ، فغنت الجارية تقول :

ذكرْتُكِ إذ مرّت بنا أمُّ شادن أمام المطايا تشربُ وتسحُ
 من المولفاتِ الرملِ أدماً حرّةً شعاع الضحى من وجهها يتوضّحُ

فأدّته أداءً حسناً . ثم غنّت صوتاً من القديم والحديث تقول :

قل لمن صدّ عاتباً ونأى عني جانباً
 قد بلغت الذي أردت ، وإن كنت لاعباً

فاستعدّته منها لأصحّحه عليها فأقبل عليّ أحد الرجلين يعنّفني ويقول :

ما رأينا طفلياً أصفقَ وجهاً منك لم ترض بالتطفل حتى اقترحت ، وهذا غاية المثل : طفيليّ ويقترح .

فأطرقت وجعل صاحبه يكفّه وهو لا يلتفت ، ثم قاموا إلى الصلاة وتأخّرت بعدهم قليلاً ، وأخذت عودَ الجارية وشدّدت طبقتَه وأصلحته إصلاحاً محكماً ، وعدت إلى موضعي وعادوا ، وأخذ ذلك الرجل في عرْبده عليّ وأنا صامت ، وأخذت الجارية العود وجسّته ، فأنكرت حاله ، وقالت : من جسّ عودي ؟

قالوا : ما جسّه أحد .

قالت : بلى والله لقد جسّه حاذق متقدّم وشدّ طبقتَه ، وأصلحه إصلاحاً متمكّن من الصناعة .

قلت لها : أنا .

فقالت : بالله خذ واضرب .

فأخذته وضربت ضرباً عجيباً فيه نقرات محرّكة ، فما بقي منهم أحد إلّا وثب وجلس بين يديّ ، وقال صاحب المجلس : أقسم بالله أن لك في هذه الصناعة أصواتاً غريبة ، فبالله عليك إلّا عرّفت بنفسك ؟

فقلت : أنا إسحاق الموصلي ، ووالله إني لأتبه على الخليفة إذا طُلبتُ وأتم ترون صاحبكم هذا يسمعي ما أكرهه لكوني تأدّبتُ معكم ، ودخلت عندكم ، والله لا نطقتُ بحرف ، ولا جلستُ حتى تخرجوا هذا الممقوت .

فقال له صاحبه : من مثل هذا خفتُ عليك .

وأخذوا بيده وسحبوه وأخرجوه وعادوا فبادرت وغيّتُ الأصوات التي غتّتها الجارية من صنعتي ، فقال لي الرجل : هل لك في خصلة ؟

قلت : ما هي ؟

قال : تقيم عندنا أسبوعاً والمكافأة الجارية والجهاز لك . قلت : نعم أفعل .

وأقمت عنده أسبوعاً لا يعرف أحد أين أنا ، والمأمون يطلبني في كل حين وكل موضع ، ولم يقع أحد على خبري ، فلما انقضت الأيام تسلمت الجارية والجهاز والخادم ، وجئت بذلك إلى منزلي ، وركبت من وقيي إلى المأمون فلما رأيي قال : يا أبا إسحاق ويحك ، أين كنت ؟

فأخبرته الخبر فقال : عليّ بالرجل الساعة . فدللتهم على موضعه ، فأحضره وسأله المأمون فأخبره بالقصة ، فقال : أنت ذو مروءة ، وسبيلك أن تُعان عليها وأمر له بمائة ألف ، وقال له : لا تعاشر ذلك النذل المعربد .

يزيد والأحوص بن جعفر

ومن كلام الأحوص في حضرة يزيد ، غثته جارية بين يديه :

إذا رمتُ عنها سلوةً قالَ شافعٌ من الحب ميعادُ السلوةِ المقابرُ
ستبقى لها في مضمرة القلب والحشا سريرةٌ ودُّ ، يوم تبلى السرائرُ

فطرب يزيد وقال : لمن الشعر ؟

قالت : لا أدري .

قال : ابعثوا إلى الزهري . وكان قد ذهب من الليل شطره فأُتي به فلما صعد إليه قال : لا بأس عليك . لن ندعوك إلا لخير . فجلس وسأله عن قاتل هذا الشعر ؟ فقال الأحوص .

قال : ما فُعلَ به ؟ قال : قد طال حبسه . فأمر بتحلية سبيله . وأن يدفع له أربعمئة دينار ، ثم قدم عليه بعد ذلك فأجازه وأحسن إليه إحساناً جزيلاً ، وكانت المغنية جارية يزيد بن عبد الملك .

الرشيد في منزل إبراهيم الموصلي

وحكى مسرور الخادم أن الرشيد قصد الركوب في غير عادته ، فقلت له : أين تريد يا أمير المؤمنين في هذا الوقت ؟ قال : إلى منزل إبراهيم الموصلي .

قال : ففضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم الموصلي ، فخرج وتلقاه وقبل حافر حماره ، وقال : يا أمير المؤمنين في مثل هذه الساعة تظهر ؟ قال : نعم ، شوق طرق بي إليك . ثم نزل وجلس في طرف الايوان وأجلس إبراهيم ، فقال له إبراهيم : يا سيدي استنبطنا شيئاً نأكله قبل الشراب .

قال : نعم . فجاء بمطعوم كأنما كان معداً له ، فأصاب منه يسيراً ، ثم دعا بشراب حُمل معه ، فقال له الموصلي : يا سيدي أغثيك أم تغنيك إماؤك ؟

قال : بل الجواري .

فخرجت جواري إبراهيم فأخذن صدر الايوان وجانيبه ، فقال إبراهيم : أضرين كلهن أم واحدة واحدة ؟ فقال : بل يضرين اثنتان اثنتان ، وواحدة واحدة تغني .

قال : فضرين اثنتان وغت واحدة منهن ، فقالت :

إذا دعا باسمها داعٍ يحدثني
لو أن لي صبرها أو عندها جزعي
لا أحملُ اللومَ فيها ، والغرامَ بها
ثم غتت أخرى ، فقالت :

طرقتك زائرةٌ فحِيَّ خيالها
هل يطمسون من السماء نجومها
شهدت من الأنفال آخرَ آيةٍ
بيضاءَ تخلطُ بالجلال دلالها
بأكفهم أو يطمسون هلالها
فأردتموا بمحالككم إبطالها

ثم غتت أخرى ، فقالت :

شطت سعاداً وأضحى البين قد أبدا
فما احتيالُك في جدِّ الرحيل بهم
لا أستطيع لهم صبراً ولا جلدأ
وأورثتك سقاماً يصدعُ الكيدا
وخلفوك غداةَ الين ، مُنفردا
ولا تزال أحاديثي بهم جُددًا

قال : فقام حتى وصل إلى صدر الإيوان ، وأخذ بجانبه والرشيد يسمع
ولا ينصت لشيء من غنائهم ، إلى أن غتته صبيّةٌ من صدر الإيوان من
حاشية الصّفّة هذين البيتين لأبي نواس :

يا موري الزند قد أعبت قوادحه
ما أقبحَ الناسَ في عيني وأسمجهم
أقبس بما شئت من قلبي بمقباس
إذا نظرتُ فلم أنظرُك في الناس

فطرب الرشيد لغنائها واستعاد الصوت مراراً وشرب أرطالا ، وسأل
الجارية عن صانعه ، فأمسكت فاستدناها ، فتقاعست ، فأمر بها ، فأقبلت
بين يديه ، فأخبرته بشيء أسرته إليه ، فدعا بجواره فركبه ، ثم التفت إلى
إبراهيم الموصلي ، فقال له : ما ضرُّك أن تكون خليفةً .

فكادت روحه تخرج حتى دعاه بعد ذلك وأدناه . قال : وكان الذي

أخبرته به سرّاً أن الصَّنعة في الصوت لأخته عُليّة بنت المهدي ، وكانت الجارية لها ، فوجهتها إلى إبراهيم الموصلي يطارحها . ومن قول أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللومَ إغراء	وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزلُ الأحزانُ ساحتها	لو مسّها حجر مسّته سراء
من كف ذات حري في زي ذي ذكر	لها محبان لواطٌ وزناء
قامت بإيريقها ، والليل معتكّر	فلاح من وجهها في البيت للألاء
فأرسلت من فم الإبريق صافية	كأنما أخذها بالعين إغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها	لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها	حتى تولد أنوارٌ وأضواء
دارت على فتية دان الزمان لهم	فما يُصيّهمو إلا بما شاؤوا
فقل لمن يدعي في العلم فلسفة	حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وقال الشاعر :

كعصفورة في كفّ طفلٍ يهيئها	تذوق مُرّ الموتِ ، والطفل يلعبُ
فلا الطفل ذو عقل يرقّ لحالها	ولا الطيرُ مطلق الجناحين يهربُ

الفخ والعصفور

وروى البيهقي في الشعب عن مالك بن دينار . قال : « مثل قرّاء هذا الزمان مثل رجلٍ نصبَ فخاً ، فجاء عصفورٌ ، فدنا إلى الفخ وقال : ما لك متغيّباً في التراب ؟

فقال : للتواضع ، فقال : فمّ الخنيت ؟

قال : من طول العبادة .

قال : فما هذه الحبة التي في فيك ؟

قال : أعددتها للصائمين .

فلما تناول الحبة أمسك الفخ عنقه ، فقال العصفور : إن كان العبادُ
يخفون خنقك فلا خير في هذه العبادة اليوم » ، انتهى .

إحدى النصائح

قال الشافعي رضي الله عنه : أربعة أشياء تزيد في الجوع : أكل
العصافير ، وأكل الإطريفل ، وأكل الفستق ، وأكل الجرجير . وأربعة
أشياء تزيد في العقل : ترك الفضول من الكلام ، والسواك ، ومجالسة
الصالحين ، والعمل بالعلم . وأربعة تقوي البدن : أكل اللحم ، وشمّ
الطيب ، وكثرة الغسل من غير جماع ، ولبس الكتان . وأربعة توهن
البدن : كثرة الجماع ، وكثرة الهمّ ، وكثرة شرب الماء على الريق ، وكثرة
أكل الحموضة ، انتهى من حرف العين .

ابن الخياط والمهدي

ودخل ابن الخياط المكي على المهدي ومدحه فأمر له بخمسين ألف
درهم ، فسأله أن يأذن له في تقييل يده ، فأذن له فقبّلها وخرج ، فما
انتهى إلى الباب حتى قرّرها جميعاً فعوتب في ذلك ، فأنشد يقول :

لمستُ بكفي كفّه أبغني الغنى ولم أدر أن الجودَ من كفّه يُعدي
فلا أنا منه ما أفاد ذوي الغنى أفدتُ وأعداني فأتلفتُ ما عندي^١

١ هذان البيتان لبشار بن برد قالهما في خالد البرمكي ، لا لابن الخياط ولعلّ هذا تمثل
بهما .

فُعُني بهما المهدي . فأمر له بخمسين ألف دينار . انتهى .
ولبعضهم تغزلاً في مליح :

أقولُ لمقلتيه حينَ نأما وسحرُ النومِ في الأجفانِ سارِ
تبارك من توفَّاكم بلبيلٍ ويعلم ما جرحتمُ بالنهار

الإمام أحمد بن حنبل ومناقبه رضي الله تعالى عنه

مات سنة مائتين وإحدى وأربعين ، وحرر من حضر في جنازته : فكانوا ثمانمائة ألف ، ومن النساء ستين ألفاً ، وأسلم يوم موته رضي الله عنه : عشرون ألفاً من اليهود والنصارى والمجوس ، انتهى .

وقال الإمام النووي في تهذيب الأسماء واللغات : إن المتوكل أمر أن يقاس الموضع الذي وقف الناس فيه للصلاة على الإمام أحمد . فبلغ مقام ألفي ألف وخمسمائة ، وقد حزن عليه رضي الله تعالى عنه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس ، وقال محمد بن خزيمة : لما بلغني موت الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، اغتممت غمّاً شديداً ، فرأيتني في المنام وهو يتبختر في مشيته ، فقلت : يا أبا عبد الله ما هذه المشية ؟

فقال : مشية الخدام في دار السلام .

فقلت : ما فعل الله بك ؟

قال : غفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب .

وقال : يا أحمد هذا بقولك : القرآن كلامي غير مخلوق . ثم قال الله تعالى : يا أحمد ادعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفیان التي كنت تدعو بهن في دار الدنيا .

فقلت : يا رب أسألك بقدرتك على كل شيء أن لا تسألني عن شيء واغفر لي كل شيء .

فقال جلّ وعلا : يا أحمد هذه الجنة . فادخل فيها . وأنشد بعضهم
في تاريخ موت الأئمة الأربعة ومولدهم : الإمام أبي حنيفة والإمام
مالك . والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين :

تاريخ نعمان يكن سيف سطا ومالك في قطع جوف ضبطا
والشافعي صين بيرند وأحمد يسبق أمر جعد
فخذ على ترتيب نظم الشعر ميلادهم فوتهم فالعمر

وكذا في تاريخ الأئمة الخمسة المحدثين ، الإمام الترمذي وأبو داود
والإمام مسلم والنسائي والإمام البخاري ، وقد جمع ذلك بعضهم في بيتٍ
واحد فقال :

إذا رمت الحديث فلذ بخمس تكن مثل المُشافِ في الحياة
تعطر درعهُ ما رصّ نسجٌ بنور للمحدث للوفا

بيان ذلك ، التاء إشارة للترمذي ، والذال إشارة لأبي داود ، والميم
إشارة للإمام مسلم ، والنون للنسائي ، والباء للبخاري والله أعلم .

السكران والجلّاد

ويحكى أنه أتى برجل مدني سكران إلى بعض الولاة فأمر بإقامة الحدّ
عليه ، وكان الرجل طويلاً والجلّاد قصيراً ، فلم يتمكّن من ضربه . فقال
الجلّاد للمدني : تقاصر لينالك الضرب .

١ هذان البيتان ، والأبيات الثلاثة التي قبلها هي من نوع الألفاظ ، دع ما فيها من
سخافة النظم .

فقال : ويلك إلى أكل الفالودج تدعوني ، والله لوددتُ أن أكون
أطولَ من عُوج بن عُتق ، وأنت أقصرَ من يأجوج ومأجوج ، فاستظرفه
الأميرُ وخلقى سبيله ، انتهى من حلبة الكيت .
ومن قول ابن المعتز :

وجاءني في قيص الليل مستتراً	يستعجلُ الخطو من خوفٍ ومن حذرٍ
ولاحَ ضوءُ صباحٍ كاد يفضحنا	مثلُ القلامَةِ قد قُدَّتْ من الظُّفْرِ
وكان ما كان ممّا لستُ أذكرُهُ	فظنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبرِ

ولبعضهم عفا الله عنه :

جری دمعي من الحال الذي بي	كجري الماء في أولِ أيبٍ
ومع هذا فلم أقطع رجائي	لأن الله ألطف من أبي بي

١ الأول : الرجوع . والأيب : التهيؤ ، والمعنى غامض إلا إذا كان ثمة لها معنى لا
يوجد في المعاجم التي بين أيدينا .

من كلام الشافعي رضي الله عنه

لم يدِرِ طعم الفقر من هو في غنى ومصححُ الأعضاء ليس كمبتلي
كم فاقيةٌ مستورةٌ بمروءةٍ وضرورةٍ قد عُطيت بتجملٍ
وتبسّمٍ من تحته قلبٌ شجٍ قد صادفته غمةٌ لا تنجلي
والناس جمعاً عند كل كفؤه والهمّ مفترق وما أحدٌ خلي
لو سَوِدَ الهمُّ الملابسَ لم تجد بيضَ الثياب على أمرىء في محفلٍ
وإذا أراد المرءُ يجلو همّه عن نفسه من نفسه لا ينجلي

رياض نجد

من كلام العارف بالله تعالى الشيخ عبد الرحيم البرعي رحمه الله تعالى
في أرض اليمن :

رياضُ نجدٍ بكم جنانُ فضيةٌ نورها حسانُ
وتربُ واديكُم بنجدٍ مسكٌ ، وحصباؤها جُنانُ
والروضُ من شعبكم عيبرُ والزهر وردٌ وزعفرانُ
والجارُ في ربعمكم عزيزُ والحرُّ في أرضيكم يُصانُ
فكم سفكتُم دمي ودمعي أما على القاتلِ الضمانُ
ورمتُ أخني الهوى ودمعي من شدةِ الوجد ترجانُ

يا لايؤمنون اقصروا ملامي
لا تذكروا الظاعنين عندي
قالوا : هواهم عليك حتم
قالوا : فكم تكتم التصابي
قالوا : فقد فارقوك ربعا
قالوا : فدعهم فقلت : كلا
ليت الصبا الحاجري يني
هل عهدهم عهدهم بنجد
يا محسنا بالزمان ظنا
لا تتبع النفس في هواها
واخجلتي من عتاب ربي
إلى متى أنت في الملامي
لو خوفتك الجحيم بطشي
عندي لك الصفح وهو بري
ما تستحي كاتباً كريماً
وتستحي شبيبة تراها
أنت شجاع على المعاصي
لم ينهك الشيب عن حدودي
ترضى بأن تنقضي الليالي
أي أوان تتوب فيه
آثرت غيري علي لكن
يا سيدي : هذه عيوي
يا من له في العصاة شأن
يا من ملا برّه النواحي

رفقا بمن قلبه ملان
فلي وللظاعنين شأن
فقلت : عهدي الهوى يُصان
قلت : المعنى بهم مُعان
قلت : هم الناس حيث كانوا
لعلّ دهرًا قسا يُلان
عن جيرة البان يوم بانوا
باق أم استؤمنوا فخانوا
هل تدري ما يفعل الزمان
إن اتّباع الهوى هوان
إن قيل أسرفت يا فلان
تصير مُرخى لك العنان
وشوقت قلبك الجنان
وعندك السيف والسنان
يُحصى به الفعل واللسان
في النار مسحوبة تُهان
وأنت عن طاعتي جبان
ولا رسولي ولا القرآن
وما انقضى حربك العوان
هل بعد قطع الرجا أوان
كما يدين الفتى يدان
وأنت في الخطب مستعان
البر والعطف والحنان
لم يخل من برّه مكان

عفواً فلاني رهينُ ذنبٍ حاشاك أن يغلقَ الرِهَانُ
فاغفر لعبدِ الرحيمِ والطف بخائفٍ ما له أمانُ
وسامحِ الكلَّ من ذنوبٍ غداً بها يشهد البَنانُ
وصلِّ يا ذا العلا وسلِّم على مَنْ أخلاقه حِسانُ

دار الحبيب

هذه قصيدة الإمام الولي العارف بالله تعالى أبي محمد بن أبي عمران
اليشكري نفعنا الله به .

قال العلامة بدر الدين بن فرحون أحد أصحاب ناظمها أن بعض
الصالحين رأى النبي ﷺ في المنام . قال البدر : وأشك هل كان هو الشيخ
أو غيره . وأنشد هذه القصيدة فلما بلغ آخرها قال النبي ﷺ : رضيناها
رضيناها وهي هذه :

دارُ الحبيبِ أحقُّ أن تهواها وتجنُّ من طربٍ إلى ذكرها
وعلى الجفونِ إذا هممت بزورةٍ يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
فلأنتَ أنتَ إذا حللتَ بطيئةٍ وظللتَ ترتع في ظلال رُباها^٢
مغنى الجمالِ من الخواطرِ والتي سلبت قلوبَ العاشقين حِلاها
لا تحسب المسك الذكيَّ كثربها هيات أين المسك من رِيّاها
طابت فإن تبغي لطيبٍ يا فتى فأدِم على الساعات لثَمَّ ثراها

١ يقال : هلق الرهن في يد المرتن : حال ملكه إذا عجز الراهن عن اقتضائه في
الوقت المشروط .

٢ طيبة : من اسم المدينة .

وابشر في الخبر الصحيح تقرراً
 واختصّها بالطيّين لطيبها
 لا كالمدينة منزلٌ وكفى بها
 خُصّت بهجرة خير من وطئ الثرى
 كلُّ البلاد إذا ذكّرَن كأحرفٍ
 حاشا مسمّى القدس فهي قريةٌ
 لا فرقَ إلّا أنْ ثمَّ لطيفةٌ
 جزم الجميعُ بأن خيرَ الأرضِ ما
 ونعم لقد صدقوا بساكنها علت
 وبهذه ظهرت مزية طيبة
 حتى لقد خُصّت بهجرة حبّه
 ما بين قبر للنبيٍّ ومِنبرٍ
 هذي محاسنها فهل من عاشقٍ
 إني لأرهب من توقّع بينها
 ولقلماً أبصرتُ حال مُودّعٍ
 فلكم أراكم قافلين جماعةً
 قسماً لقد أكسى قوادي بينكم
 إن كان يزعمكم طلابُ فضيلةٍ
 أو خفتمو ضراً بها فتأملوا
 أفٌ لَمَن يبغي الكثيرَ لشهوةٍ
 فالعيشُ ما يكفي وليس هو الذي
 يا ربُّ أسألُ منك فضلَ قناعةٍ
 ورضاكَ عني دائماً ولزومها
 فأنا الذي أعطيتُ نفسي سؤلها

إن الإله بطيبةٍ سمّاها
 واختارها ودعا إلى سُكناها
 شرفاً حلول محمد بفناها
 وأجلّهم قدراً وأعظم جاها
 في اسم المدينة لا خلا معناها
 منها ومكّة إنّها إياها
 مهما بدت يجلو الظلام سناها
 قد حاز ذات المصطفى وخواها
 كالنفس حين زكّت زكا مأواها
 فغدت وكلُّ الفضل في معناها
 الله شرفها به وحباها
 حيا الإلهُ رسوله وسقاها
 كلف شجيّ ناحل بنواها
 فيظلّ قلبي مُوجعاً أوّاه
 إلّا رثت نفسي له وشجاها
 في إثر أخرى طالين سواها
 جزعاً وفجرٍ مُقلتي مياها
 فالخير أجمعه لدى مثواها
 بركاتٍ بَقعتها فما أزكاها
 ورفاهة لم يُلر ما عَقباها
 يطغي النفوسَ إلى خسيس مُناها
 بيسيرها وتحصناً بحماها
 حتى توافي مهجتي أخراها
 فقبلت دعواها فيا بُشراها

وأعز من بالقرب منه يباهي
داوى القلوب من العمى فشفاهي
تدعى الوسيلة خير من يعطاها
يس وأكسير المحامد طاهي
لو أن لي عدد الورى أفواها
فغدّت وما تُلني لها أشباهي
فعلمت أن علاه ليس يُصاهي
وفضائل المختار لا تناهي
قال الإله له وحسبك جاها
هم من يقالُ يبايعون الله
واها لنشأتها الكريمة واها
تهدى النفوس لرُشدها وغناها
وعليه من بركاته أنماها
أكرم بعثرته ومن والاهي
وعلى صحابته التي زكاها
فئة التقى ومن اهتدى بهُداها
نجزت وظني أنه يرضاها

بحوار أو في العالمين بذمة
من جاء بالآيات والنور الذي
أولى الأنام بخطة الشرف التي
إنسان عين الكون شرف جوده
حسبي فلست أفي ببعض صفاته
كثرت محاسنه فأعجز حصرها
إني اهتديت من الكتاب بآية
ورأيت فضل العالمين محمداً
كيف السبيل إلى تقضي مدح من
إن الذين يبايعونك إنما
هذا الفخار فهل سمعت بمثله
صلوا عليه وسلموا فبذلکم
صلّى عليه الله غير مقيد
وعلى الأكابر آله سرج الهدى
وكذا السلام عليه ثم عليهم
أعني الكرام أولي النهى أصحابه
والحمد لله الكريم وهذه

وهذا آخرها والحمد لله وحده .

ولبعضهم :

تجري المقادير على نقشه
واحذر على نفسك من نبشه
تُزلُّ السلطان عن عرشه
أدرج رأس الكبش في كرشه
لا بد أن يُنكب في فرشه

لله في ملكه خاتم
لا تنبش الشر تبلى به
مصارع الدهر لها سظوة
إذا طغى الكبش بلحم الكلا
إذا بغى المرء على جنسه

أنت ومالك لأبيك

قوله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » . ذكر العلامة الشمس العلقي في حاشيته على الجامع الصغير عن جابر قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إن أبي أخذ مالي ؟

فقال النبي ﷺ للرجل : اذهب فأنني بأبيك . فترج جبريل على النبي ﷺ فقال : إن الله عز وجل يقرئك السلام ، ويقول لك : إذا جاء الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه . فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ : ما بال ابنك يشكوك ، أتريد أن تأخذ ماله ؟

فقال : يا رسول الله هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : أيها الشيخ دعنا من هذا . أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك .

فقال الشيخ : والله يا رسول الله ما يزال الله عز وجل يزيدنا بك يقيناً ، لقد قلت في نفسي شيئاً ما سمعته أذناي فقال له : قل فأنا أسمع . فقال :

غذيتك مولوداً وعُلتك يافعاً	تُعَلُّ بما أُسدي إليك وتُنهلُ
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت	لسُقمك إلا ساهراً أنمَلُ
كأني أنا المطروقُ دونك بالذي	طُرقتَ به دوني وعيناي تهملُ
تخافُ الردى نفسي عليك وإنها	لتعلمُ أن الموت نهي مسجلُ

فلما بلغت السنَّ والغايةَ التي لها مدةٌ قد كنتُ فيك أوْملُ
جعلتُ جزائي غلظةً وفظاظَةً كأنك أنتَ المنعمُ المتفضلُ
فليتَّك إذ لم ترَّع حقَّ أبوتي فعلتَ كما الجارُ المجاورُ يفعلُ

قال : فحينئذ أخذ رسول الله ﷺ بجلباب ابنه وقال له : « أنت ومالك لأبيك » ، انتهى .

الأصمعي في بلدة خراب

حكى الأصمعي قال : خرجت في طلب الأعاجيب من الأحاديث ، فلاحت لي بلدة بيضاء كأنها الغمامة ، فدخلتها فإذا هي خراب وليس فيها ديارٌ ولا أنيس ، فبينما أنا أدور في نواحيها إذ سمعت كلاماً فطار قلبي ، فأنصتُ ، فإذا به كلامٌ موحشٌ ، فسالت سيني ودخلت ذلك المكان ، فإذا أنا برجل جالس ، وبين يديه صنم وفي يده قضيب ، وهو يبكي وينكت به الأرض ويقول :

أما ومسيح الله لو كنتُ عاشقاً لمْتُكما ماتت ، وقد ضمّني لحدي
وكم أتسلى بالحديث وبالمنى وبالعبّرات السائلات على خدي
وإني وإن لم يأتني الموتُ سرعةً لأُمسي على جُهدٍ وأُضحى على جُهدٍ

قال : فلما سمعت ذلك منه هجمت عليه ، فلم يشعر بي إلا أن قلت له : السلام عليك ، فرفع رأسه وقال : وعليك السلام ، من أين أنت ومن جاء بك إلى هذا المكان ؟
فقلت : الله جاء بي .

قال : صدقت وهو الذي أفردني في هذا المكان .

فقلت له : ما بالك تشير إلى هذا الصنم الذي بين يديك .

فقال لي : إن حديثي عجيب وأمرني غريب .

فقلت له : حدثني به ولا تُخف منه شيئاً .

فقال لي : اعلم أننا كنا قوماً من بني تميم وكنا على دين المسيح وكان دعاؤنا مستجاباً ، وكانت هذه الصنمة ابنة عمي وكنت أنا وإياها . فلما كبرت حجبتها عمي عني ، فكنت أحبها سراً . فبينما أنا ذات ليلة وأنا عندها إذ سمعتُ عمي يمدق الباب ، فأدخلتني سرداباً وقامت هي ففتحت الباب ودخل عمي فقال لها : أين عبد المسيح ؟

فقلت : إني لم أره .

فقال لها : إني سمعت كلامه عندك .

فقلت : لم تسمع شيئاً وإنما خُيِّل لك .

فقال لها : والله إن لم تصدقيني ، وإلا دعوت عليك إن كنت كاذبة فيمسحُك الله حجراً .

فقلت له : إذا كنت كاذبةً .

فرفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم يا ربّ الأوّلين والآخرين إن كنت تعلم أن ابنتي هذه كاذبةٌ في قولها فامسحها حجراً ، فمسحها الله حجراً ، ولي أربعون سنة في هذا المكان ، وأنا أتقوّتُ من نبات الأرض وأشرب من هذه الأنهار وأتسلّى بالنظر إلى هذه الصنمة إلى أن يحكم الله بالموت ثم بكى وأنشد يقول :

وحقّ الذي أبكى وأضحك والذي	أ مات وأحيا والذي خلّق الخلقا
لئن قلتُ إن الحبّ قد يقتل الفتى	وإن الفتى بعد التفرّق لا يبقى
لقد قلتُ حقاً واسأل العبرة التي	تسيلُ وسيلُ الدمع مني لا يرقا

قال الأصمعي : ثم قام ذلك الشاب وتوارى عني بجدار من تلك الجدر ، ونزع المسوح التي كانت عليه ولم يبقَ عليه إلا ما يوارى سوائه فتأملته ، فإذا عيناه تلور في أم رأسه فقلت في نفسي : هذا أراد أن يطلعي على نحول جسده ثم أقبل عليّ ، وهو عريان وقال لي : يا فتى إنني قائل ثلاث أبيات ، وكان مني ما كان ، فإذا أنا مت فكفني أنا وإياها في هذه الجبة وادفنا في هذا الجون وضمنا بالتراب واكتب على قبرنا هذه الأبيات :

من لم يكن يحسب أن الهوى يقتل ، فلينظر إلى مضجعي
لم يبقَ لي حول ولا قوة إلا خيال الشمس في موضعي
أشكو إلى الرحمن جهدَ البلا إشارة بالطرف والإصبع

قال الأصمعي : هذا وأنا أنظر إليه وأسمع شعره وأتعجب منه ومن أمر الصنمة . وإذا به وقع على الأرض مستلقياً على قفاه وشهق شهقةً فارقت روحه جسده .

قال الأصمعي : فكفنتها ودفنتها في ذلك الجون ، وكتبت على قبرها تلك الأبيات وتركتهما وانصرفت وأنا متعجب غاية العجب ، انتهى .

عدل ابن طولون

لما عزم أحمد بن طولون على بناء الجامع المعروف به في مصر القاهرة أنفق عليه مائة ألف دينار ، ورُتب فيه للعلماء والقراء وأرباب الشعائر والبيوت في كل شهر عشرة آلاف دينار ، وللصدقة في كل يوم مائة دينار ، وكان مشتتلاً على خصال حميدة منها : أن فقيراً كان بجواره وله امرأة وبنت ، وكانا يغزلان الصوف لتجهيز البنت ، وإن البنت لم تفارق البيت

وما نظرت إلى السوق قط ولا خرجت ، فسألت أمها وأباها أن تخرج معها إلى السوق ، فواعداها بذلك : فلما قصدا بيع الغزل خرجت معها إلى السوق فمروا بباب الأمير المسمى بالفيل ، وتمادى الأب والأم ، وتركاهما ولم يشعرا بوقوفها فبقيت البنت حائرة لا تدري أين تذهب ، وكانت ذات جمال عظيم ، فخرج الأمير المسمى بالفيل ، فلما رآها افتتن بها ، فأمسكها ودخل بها ثم أمر الجواري أن يغسلنها ، وينظفنها ويلبسنها أحسن الملابس ، ويطيبنها بأنواع الطيب ، ويحلبنها له . ففعل ذلك فدخل عليها وأزال بكارتها . هذا وأبواها قد حزنا عليها ولم يزالا يطوفان عليها جميع الأماكن ، فلم يقعا لها على خبر ، فلم يزالا يبكيان . فلما جن الليل ، وإذا بشخص يطرق الباب ، فخرج أبوها وفتح الباب فقال الرجل لأبيها أن الأمير المسمى بالفيل أخذ ابنتك وأزال بكارتها ، فلما سمع ذلك كاد يُجنّ .

وكان لأحمد بن طولون مؤذن وكان قد عاهده على أنه إذا حدثت فاحشة من الفواحش يؤذن في غير الوقت ليحضره ويستفهم منه الواقعة ، وكان المؤذن بينه وبين أبي البنت صداقة . فجاء إليه وأخبره بخبره ، فصعد وأذن فسمعه أحمد بن طولون ، فأرسل خلفه ، فأخبره بالقضية فاستدعى بأبوي البنت وخباهما في خزانة وكان وقت مجيء الفيل للخدمة ، فلما دخل على عادته ، قال له : نُهَيْتُكَ بالعروس الجديدة .

فقال : ومن أين لي عروس جديدة ؟

قال : أتذكر وهذا أبو الجارية وأمها ؟

فلما رآهما نكس رأسه خجلاً من الأمراء الحاضرين ، فقال له أحمد ابن طولون : ارفع رأسك ثم قال لأبيها : تزوّج ابنتك مملوكي هذا على صداق قدره ألف دينار مقدّمة وخمسمائة دينار مؤجلة .

فقال : نعم . فأمر بإحضار الشهود وعقد العقد بينهما ووضعوا

خطوطهم ثم بعد انصراف الشهود أمر السيّاف بضرب عتق الفيل ، فرماه بين يديه ، وقطع رأسه . وقال أحمد بن طولون لأبي الجارية : ابتك ورثت زوجها وقد مكّتها مما بقي من تركته ، فامضوا مع السلامة .
فانصرفوا شاكرين لإنعامه داعين له على أفعاله . فانظر إلى هذا العدل العظيم ، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم .

ومما نقل عن بعضهم :

توقّ رعاكَ اللهُ تسعاً من البشر	فصحبتهُم تُفضي إلى البؤسِ والضررِ
وهم أحولُ مع أعرجٍ ثم أحذبٍ	كذا كوسج يتلو نشاطاً مع الكدرِ
وإياك والأنف الطويلَ وأصفرأ	فإنهما بيتُ الخيانة والحَطرِ
كذا غائرُ الصدغين خارجَ جبهة	كذا أزرقُ العينين فالحدّر الحدّر
توقاهمو تحيا سليماً من الرّدى	وباعدهمو ، يا ذا الفراسة والنظرِ

تمّ الكتاب .

فهرس الأعلام

أ

- الأخنف بن قيس ٤١ .
 - ٣٢٨ - ٣٢٥ - ٣٢٤ - ٢٣٨
 الأخوص بن جعفر ٩٥ - ٤٢٢ .
 - ٣٣١ - ٣٣٩ - ٣٤٠ - ٣٤٣ .
 الأخطل ٩٥ .
 إبراهيم بن ميمون ٢٩٤ .
 الإسحاق ١٤١ .
 ابن أبي ليلى = قاضي ١٢٣ .
 الأصمعي ٥ - ٤٧ - ٥١ - ١١٨ - ١١٩ - ابن بليان ١٢٠ .
 - ١٢٠ - ١٥٢ - ١٥٤ - ١٥٥ - ابن الجوزي ١٠٨ - ٣٨٣ .
 - ١٦٧ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٣٥٠ - ابن حبان ٤١٢ .
 - ٣٥٣ - ٤١٣ - ٤٣٧ - ٤٣٩ .
 ابن خلدون ٦ .
 الأمويين ٥ .
 إبراهيم بن إسحاق الموصلي ١٤٤ - ٢١٤ - ابن الحياط المكي ٤٢٦ .
 - ٢٣٩ - ٢٤١ - ٢٤٤ - ٣٢٩ - ٤١٧ - ابن الديرواني ٣٦٧ - ٣٦٨ .
 - ٤١٨ - ٤١٩ - ٤٢٣ - ٤٢٤ - ٤٢٥ .
 ابن أرمطة ٤٢ .
 إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك ١١٢ - ابن الزبير ٧٢ .
 ابن شداد ٣٧٧ .
 ١١٣ .
 إبراهيم بن عبد الملك ٢٣٨ - ٢٣٩ .
 ابن عامر الفهري ٣٣٩ .
 إبراهيم بن علي ٨١ .
 ابن عدي ٣٦٠ .
 إبراهيم بن محمد بن طلحة ٦٣ - ٦٤ .
 ابن المعتز ٤٣٠ .
 إبراهيم بن مخزوم الكندي ١١٤ - ١١٥ .
 ابن عمر ٣٨٤ .
 إبراهيم المعتصم بن هارون الرشيد ٣٤٥ .
 ابن فاطمة ١٠٣ .
 إبراهيم بن المهدي = ابن شكلة ٢٣٧ - ابن مارية ٢٠ .

- ابن مسعود ٤١٤ . أبو عامر أحمد بن مروان ٢٤٢ - ٢٤٣ .
 ابن النجار ٣٧٢ - ٣٩٦ . أبو العباس السفاح ١٠٨ - ١٠٩ - ١١٠ -
 ابن هرة ١٣٠ . ١١١ - ١١٢ - ١١٣ - ١١٤ .
 أبو إسحاق إبراهيم الموصلي ٤١٧ - ٤٢٢ . ١١٥ .
 أبو بكر الصديق ١١٥ - ٣٥٥ - ٣٥٦ . أبو العباس المبرد ١٣٨ - ١٣٩ - ١٤٠ .
 ٣٥٩ . أبو عبد الله السفاح ١٠٨ .
 أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ٣٤٥ . أبو عبد الله النحوي ٣٦٤ .
 أبو ثور زاهر بن صقلاب ٢٤٤ . أبو عبيدة ٤١٣ .
 أبو جعفر الخالدي ٣٩٩ . أبو عثمان المازني ٣٩٢ - ٣٩٣ .
 أبو جعفر المنصور ١١٨ - ١٢٠ - ١٢١ - أبو علي منصور ٤١٦ .
 ١٢٢ - ١٢٣ - ١٢٧ - ١٢٩ . أبو عيسى ٣٩٥ .
 ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٢ - ٢٥٠ . أبو العيلاء ٣٦٤ .
 أبو الحسن التتويحي ١٨٦ . أبو الفرج الجوزي ٤١٥ .
 أبو الحسن الخليلي الدمشقي ٢١٨ - ٢١٩ - أبو الفرج الأصبهاني ٥ - ٩٨ .
 ٢٢٣ - ٢٢٤ - ٢٢٧ - ٢٢٨ . أبو القاسم عبد الملك بن بدرون ٢٣٧ .
 ٢٢٩ - ٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٣٢ . أبو القاسم علي بن محمد الذهبي ٣٦٤ .
 ٢٣٣ - ٢٣٥ - ٢٣٦ . أبو محمد بن أبي عمران اليشكري ٤٣٣ .
 أبو الحسن الصغير المدني ٣٩٩ . أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ٦٣ -
 أبو حنيفة ٢١٤ - ٤١٠ - ٤٢٩ . ٦٤ - ٦٦ - ٦٧ - ٦٩ - ٧٠ - ٧١ -
 أبو داود ٤٢٩ . ٧٢ - ٧٣ - ٧٤ - ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ -
 أبو الدرداء ٤١١ . ٧٩ - ٨٠ - ٨٢ - ٢٩٧ .
 أبو دلامة ١١١ . أبو محمد عبد الله بن يحيى الضبيعي ٣٩٤ .
 أبو ذر القفاري ١٢ - ١٣ - ١٤١ . أبو مصعب ١٤٩ .
 أبو زيد الأسدي ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ . أبو نعيم ٤١٤ .
 أبو سلمة الخلال ٢٣٧ . أبو نواس ٦ - ١٣٧ - ١٤٨ - ١٤٩ .
 أبو سويد ٨٣ . ١٥٠ - ١٥١ - ١٨٣ - ١٨٤ .
 أبو طوق ١٨٥ - ١٨٦ . ١٨٥ - ١٨٦ - ٢٧١ - ٢٧٣ .
 أبو الطيب الطبري ٣٨٤ - ٣٩٧ - ٤٠١ . ٢٧٤ - ٢٧٥ - ٣٢٢ - ٤٢٤ .

- ٤٢٥ . أسماء بنت المهدي ١٣٧ .
 أبو هريرة ٣٩٦ .
 أبو يوسف القاضي ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٣ - ٢٤٧ - ٢٤٨ .
 ٢١٤ - ٢٣٨ .
 إبليس = أبو مرة ٦ - ١٥٧ - ١٦٠ - أم جعفر ٢٤٨ .
 ١٧٩ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٥ - أم سلمة ١٠٩ - ١١١ .
 ٤١٢ . أم عبد الله ٩٧ .
 أحمد ٢٩٣ . أم الفضل ٢٦٩ .
 أحمد = الراوية ٣٩٦ .
 أحمد بن أبي خالد ٣٣٠ .
 أحمد بن أبي دؤاد ٣٤٥ - ٣٥٤ - ٣٥٥ - أنس بن مالك ٣٩٣ - ٣٩٧ - ٤١٠ - ٤٢٩ .
 أحمد بن حنبل ٩٣ - ٣٤٥ - ٤٢٨ - أوس بن تغلب ٣٤٦ .
 ٤٢٩ .
 أحمد بن طولون ٤٣٩ - ٤٤٠ - ٤٤١ .
 أحمد بن محمد الحريري ٣٣٢ .
 أحمد بن موسى ١٣٠ .
 آدم ١٨٣ - ١٨٤ - ٢٦٦ - ٢٦٧ - ٣٦٢ - بادية بن سعيد ٤٧ .
 ٤١٢ - ٤١٤ - ٤١٥ .
 الأذفونش ٣٧٢ .
 أرجوان ٢٤٩ - ٢٥١ .
 إسحاق بن إبراهيم الموصلي ٦ - ١٥٧ - البخاري ٤٢٩ .
 ١٥٨ - ١٥٩ - ١٦٠ - ١٧٩ - البدر ٢٣٨ .
 ١٨١ - ٢٦١ - ٣٠٢ - ٢٩٥ - بدر الدين أبي المحاسن يوسف المهندار ٣٧٤ .
 ٣٠٢ - ٣٠٤ - ٣٠٥ - ٣٠٦ - بدر الدين بن فرحون ٤٣٣ .
 ٣٠٧ - ٤٢٠ - ٤٢١ - ٤٢٢ . البرامكة ٥ - ٢٣٧ - ٢٣٩ - ٢٤٤ .
 ٢٤٥ - ٢٤٦ - ٢٤٨ - ٢٤٩ .
 ٢٥٥ - ٢٥٦ - ٢٥٧ - ٢٥٨ . إسماعيل بن صالح ١٦٠ - ١٦١ .
 إسماعيل بن علي الهاشمي ١٢٧ - ١٢٩ .

٢٦١ - ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٦٤ - بوران زنبيل ٦ - ٣٠٧ - ٣٠٨ .

٢٦٥ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٣ - اليهقي ٤٢٥ .

٢٩٤ .

ت

البزار = الراوية ٣٩٦ .

بشار ١٥٠ .

التبع اليمني ٣٩٠ .

بكر ٢٧ .

الترمذي ٤٢٩ .

بلقيس ٤٠ - ٢٢٧ .

تقي الدين بن حجة ٣٩١ .

بني تميم ٣١ - ٤٣٨ .

تميم بن جميل ٣٤٥ - ٣٤٦ .

بني الحارث بن كعب ١١٤ .

التواس بن سمان ٤١٣ .

بني همدان ٨٧ .

ث

بني إسرائيل ١١١ .

بني أمية ٣٠ - ١٢١ - ١٢٧ - ١٣٠ .

الثعالبي ٣٩٧ .

١٣١ - ١٨٦ .

بني سعد ١١٢ .

ج

بني سليم ٥٩ - ٦٠ - ٣٦٠ .

بني سلول ٣٢٧ .

جابر ٤٣٦ .

بني شيبان ٢٤ - ٢٦ .

جبريل = ملاك ٣٢٢ - ٣٩٣ - ٤٣٦ .

بني عامر ٣٢٧ - ٣٩٧ .

بني العباس ١١٢ - ١٤٤ - ١٤٥ - ٢٤٦ - جبلة بن الأيهم ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ .

٣٢٣ - ٣٤٥ - ٣٦٩ .

٢١ .

جرير ٩٣ - ٩٦ - ٩٧ .

بني عذرة ١٧٦ .

جعفر بن سليمان ٥١ .

بني كلاب ٣٠٩ .

جعفر ذو الجناحين = سيد الشهداء ١١٥ .

بني مخزوم ٧١ .

جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ٦ -

بني مروان ١٠٨ .

بني هاشم ٣٥ - ٣٦ - ٧١ - ٢٣٨ - ١٤٤ - ١٤٥ - ١٤٧ - ١٩٢ -

٢٤٦ - ٢٤٨ - ٣١٠ - ٣٣٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٧ -

٢٠٠ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٤ - ٣٣٣ .

برام جور ٤٤ - ٤٥ - ٣٩٧ .

٢٠٩ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٥ -

- ٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٨ - ٢٣٦ - الحسين ٤١ - ٢٥٦ - ٤٠٧ .
 ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤١ - ٢٤٤ - حسين الخليل ١٦٧ .
 ٢٤٦ - ٢٤٧ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - حمّاد = الراوية ٥١ - ٣٨٩ - ٣٩١ .
 ٢٥٠ - ٢٥١ - ٢٥٢ - ٢٥٣ - حمّنة ٣٣٢ - ٣٣٣ - ٣٣٥ - ٣٣٦ .
 ٢٥٤ - ٢٥٥ - ٢٥٧ - ٢٥٩ - حنظلة بن أبي عامر الأنصاري = غسيل
 ٢٦٢ - ٢٦٣ - ٢٧٦ - ٢٩٠ - الملائكة ١١٤ .
 ٤١٧ - ٤١٩ .
 الحوراء ١٦٩ .
 جعفر بن يحيى الهاشمي ٢٤٥ .
 جفنة ٢٠ .
 جميل بن معمر ٩٦ .

خ

- جميل بن معمر ١٧٢ - ١٧٥ - ١٧٦ -
 ١٧٧ .
 خالد البرمكي ٢٣٧ - ٢٦٨ .
 خالد بن صفوان بن إبراهيم التيمي ١٠٨ -
 ١٠٩ - ١١٠ - ١١١ - ١١٤ -
 ١١٥ - ١١٧ .

ح

- الحافظ ١١٢ .
 الحافظ أبو بكر الآجري ٣٥٥ .
 الحافظ ابن عساكر ٨١ - ٤١١ .
 الحافظ أبو نعيم ٣٥٥ .
 الحافظ السيوطي ٢٦٢ .
 الحجاج بن يوسف ٥٣ .
 حزام ٣٩٨ .
 الحرث بن سعد ٢٣ - ٢٦ - ٢٧ .
 الحرث بن كلدة ٦٥ .
 حمزة بن عبد المطلب = أسد الله
 ١١٥ .
 حسّان بن ثابت ٢٠ - ٢١ .
 الحسن بن الحصين ١١٢ .
 الحسن بن علي ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ .
 داود بن رشيد ١٣٣ .
 خالدة بن عبد الله القسري ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ -
 ٥٠ .
 خالد بن عرفطة ٦٦ - ٦٧ - ٦٩ - ٧٠ .
 خالد بن الوليد = سيف الله ١١٥ .
 خزعة بن بشر ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ -
 ٩١ - ٩٢ .
 الخطيب ١٥٠ .
 الخنساء ٤٢ .
 الخيزران ١٥٠ .

د

- الدارقطني ٣٦٠ .
 داود بن رشيد ١٣٣ .

- دنيا - (الست) ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٧ - ٢١٠ - ٢١١ .
- س
- السجستاني ١٦٧ .
- دينار ٢٩٠ .
- سعد بن أبي وقاص ٢١ - ٤١٢ .
- سعد بن عبد الملك ٨٤ .
- سعيد بن جبير = شقي بن كسير ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ - ٨٠ .
- سعيد بن عبد الرحمن ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ .
- سعيد بن محمد أبو الفوارس الغنيمي = ابن الصفي ٤٠٧ - ٤٠٨ .
- سليمان بن داود ٤٠ - ٢٨٠ - ٤١٤ - ٤١٥ .
- سليمان بن عبد الملك بن مروان ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ - ٨٧ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ .
- سليمان الوراق ٣١١ .
- سنان ٨٥ - ٨٦ .
- سويد بن أبي العالية ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٦٧ .
- سودة بنت عمار بن الأسد ٤١ .
- سيويه ٣٩٢ .
- ش
- الشافعي ٣٩٤ - ٤١٠ - ٤٢٦ - ٤٢٩ - ٤٣١ .
- شداد بن عاد ٢٨٠ .
- شرف الدين حسين بن ريان ١١ .
- ذ
- ذلفاء ٨٤ - ٨٥ - ٨٦ .
- الذميري ٥ .
- ر
- الراضي بالله ٣٨٦ .
- الربداء ١٧١ .
- رجاء بن حيوة ٩٣ .
- الرقاشي ١٤٩ .
- روح بن زنباع ٤٠٥ .
- رياء بنت الغطريف السلمي ٥٨ - ٥٩ .
- ربيع ١٣٠ - ١٣١ - ١٣٣ - ١٣٤ .
- ز
- زبيدة (الست) ٢٠٧ - ٢٠٨ - ٢١١ - ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٠ - ٢٥٦ - ٣٣٧ .
- زكريا ٤١١٠ .
- الزهري ٤٢٢ .
- زينب ٣٨٠ .
- زين الدين عمر بن الوردى ١٨٥ .

- الشعبي ٤١ .
شمس الدين التّوّاجي ٥ .
الشمس العلقي ٤٣٦ .
شهاب الدين فضل الله ٤١٦ .
شيراز ١٦٩ .
- ص
- صالح بن عبد القدّوس ٣٨٢ .
صخر ٤٢ .
صلاح الدين = الملك الناصر ٢٤٢ - ٢٤٣ -
٣٧٤ - ٣٧٦ - ٣٧٧ .
- ض
- ضمرة بن المغيرة = أبي السخاء ١٧٠ -
١٧١ - ١٧٢ .
- ط
- الطرمّاح بن الحكم ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ .
- ع
- عاصم بن عمر بن الخطّاب ٩٣ .
عائشة ٢٣٨ - ٢٩٢ - ٣٩٣ - ٣٩٦ .
العبّاس ٢٠١ - ٢٩٣ - ٢٩٦ - ٢٩٩ -
٣٠٠ - ٣٠١ - ٣١٠ - ٣٣٠ -
٣٣٦ - ٣٣١ .
العبّاسيّة ٦ - ١٠٨ .
- العبّاس بن مرداس السّلمي ٩٤ .
عبد الله ٩٦ .
عبد الله البلتاجي ١٢٣ .
عبد الله بن رواحة ٢٩ .
عبد الله المارستاني ٢٤٤ .
عبد الله بن طاهر ٧٤ - ٤٠٩ .
عبد الله بن مروان بن محمد ١٢٧ .
عبد الله بن مسعود ١٠ .
عبد الله بن معمر القيسي ٥٦ - ٥٧ - ٦٠ .
عبد الله الثّيري ٣٠٩ .
عبد الحقّ ١٤٢ .
عبد الرحمن بن مسلم = أبو مسلم الخراساني
١٠٨ .
عبد الرحمن بن ملجم المرادي ٣٨٣ -
٣٨٤ .
عبد الرحمن الهاشمي ٣٣٢ .
عبد الرحيم البرعي ٤٣١ .
عبد العزيز بن مروان ٤٠٤ .
عبد المجيد بن عبدون ٢٣٧ .
عبد المسيح ٤٣٨ .
عبد الملك بن بدرون ١٧ .
عبد الملك بن صالح الهاشمي ١٦٠ - ١٦١ -
٢٣٨ - ٢٣٩ .
عبد الملك القهرماني ٢٣٧ .
عبد الملك بن مروان ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ -
٥٦ - ٦٣ - ٦٤ - ٦٦ - ٧٤ - ٧٥ -
٤٠٣ - ٤٠٤ - ٤٠٥ - ٤٠٧ .
عتّابة ٢٦٣ .

- عتبه بن ابي سميان ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ .
عتبة بن الخطاب بن المنذر بن الجموح
الأنصاري ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ - ٦١ .
عثمان بن عفان ٢١ - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ - ٣٥٥ - ٣٥٦ .
عدي بن أرطاة ٩٣ - ٩٤ - ٩٥ .
عدي بن زين العبادي ٣٩٠ .
عروة بن أذينة ١٠٧ .
عكرمة الفياض الربيعي ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ .
علي بن أبي طالب ١٠ - ٣٦ - ٣٧ - ٤٠ - ٤١ .
علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (زين العابدين) ١٠٢ - ١٠٤ .
علي بن العباس الرومي ٣٦٩ .
علي العجمي ٢٧٦ - ٢٧٨ - ٢٧٩ - ٢٨٠ .
علي بن محمد ٢٩٠ .
علي بن محمد الجوهري = نور الدين ٢٠٢ - ٢٠٣ .
غادر ١٤٢ .
غالية ١٦١ .
الغزالي ١٢٠ .
الغساسنة ٢٠ .
الخطاب ٩٤ .
الخطاب ٧ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ .
الخطاب ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ .
الخطاب ١٩ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٥ - ٢٧ .
عمر بن عبد العزيز ٨١ - ٨٢ - ٨٣ - ٩٣ .
عمرو بن أمامة ٣٩٨ .
عمرو بن جبير الشيباني ٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٤ .
عمرو بن العاص ٣٥ - ٣٦ .
عمرو بن معديكرب الزبيدي ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ .
عمرو بن مسعدة ٢٩٣ .
عنتر ٢٢٢ .
عوج بن عنق ٤٣٠ .
عون بن أبي شداد العبدي ٧٥ .
غ
غادر ١٤٢ .
غالية ١٦١ .
الغزالي ١٢٠ .
الغساسنة ٢٠ .
الخطاب ٩٤ .
الخطاب ٧ - ٩ - ١٠ - ١١ - ١٢ .
الخطاب ١٣ - ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ - ١٨ .
الخطاب ١٩ - ٢١ - ٢٢ - ٢٣ - ٢٥ - ٢٧ .
ف
فارسية ٢٥٩ .
فاطمة الزهراء ٣٨ - ٢٥٨ .

- ٣٠٧ - ٣٠٦ - ٣٠٥ - ٣٠٤ - ٣٠٢
 - ٣١٤ - ٣١١ - ٣١٠ - ٣٠٩ - ٣٠٨
 - ٣١٩ - ٣١٨ - ٣١٧ - ٣١٦ - ٣١٥
 - ٣٢٤ - ٣٢٣ - ٣٢٢ - ٣٢١ - ٣٢٠
 - ٣٣٢ - ٣٣١ - ٣٣٠ - ٣٢٩ - ٣٢٥
 - ٣٣٧ - ٣٣٦ - ٣٣٥ - ٣٣٤ - ٣٣٣
 - ٣٤٤ - ٣٤٠ - ٣٣٩ - ٣٣٨
 . ٤٢٢ - ٤٠٩
- الفارعة بنت همام ٦٥ .
 فرعون ٧٣ .
 الفزاري ١٧ .
 الفضل بن مروان ٢٩٤ - ٢٩٥ .
 الفضل بن يحيى ١٦٠ - ١٦١ - ٢٥٥ - ٢٥٦ -
 - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٤ - ٢٦٥ - ٢٦٦ .
 - ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩ - ٤١٧ - ٤١٩ .

ق

- . ٢٤٤ المبرد
 . ٧٧ - ٧٥ التلمس بن الأحوص
 - ٣٦٨ - ٣٦٧ - ٣٦٦ - ٣٦٥ - ٣٦٤ المتوكل
 . ٤٢٨
 . ٤١٨ - ٣٤٨ - ٣٤٧ غارق المني
 . ٣٣٨ مراجل
 . ٣٩٨ مراد
 . ٣٤ - ٣٣ - ٣٢ - ٣١ مروان بن الحكم
 - ١٩٥ - ١٩٤ - ١٩٣ - ١٩٢ - ١٧٢ مسرور
 - ٢٥١ - ٢٥٠ - ٢٠٩ - ٢٠٢ - ١٩٦
 - ٢٥٦ - ٢٥٥ - ٢٥٤ - ٢٥٣ - ٢٥٢
 . ٤٢٣
 . ٦٥ المسعودي
 . ٤٢٩ - ٤١٣ مسلم
 . ٤٣٨ - ٤٣٧ - ٤٠٥ - ٣٧٦ - ٣٧٥ المسيح
 . ٤٠١ المطعم بن المقداد
 . ٣٩٤ معاذ بن جبل
 - ٣٢ - ٣١ - ٣٠ - ٢١ معاوية بن أبي سفيان
 - ٣٨ - ٣٧ - ٣٦ - ٣٥ - ٣٤ - ٣٣
 - ٤٤ - ٤٣ - ٤٢ - ٤١ - ٤٠ - ٣٩
- . ٤١٢ القرابي
 . ٤٠٣ - ٤٠١ قطب الدين القسطلاني
 . ٢٢٢ - ١٩٧ - ١٧ قيسر

ك

- . ١٣٧ كاعب
 . ٣٧٤ الكامل
 . ٤٠٣ الكسالي
 . ٢٨٠ - ٢٢٢ - ١٩٧ كسرى
 . ٤١٤ كعب الأحبار
 . ٣٣ الكعب
 . ٢٧٨ كنعان بن شداد
 . ٤٢٥ مالك بن دينار
 . ٤٣٠ مأجوج
 - ٢٩٣ - ٢٩٠ - ١٩٣ - ١٨٦ - ١٤٥ المأمون
 - ٣٠١ - ٣٠٠ - ٢٩٦ - ٢٩٥ - ٢٩٤

م

- . ٣٩٤ معاذ بن جبل
 - ٣٢ - ٣١ - ٣٠ - ٢١ معاوية بن أبي سفيان
 - ٣٨ - ٣٧ - ٣٦ - ٣٥ - ٣٤ - ٣٣
 - ٤٤ - ٤٣ - ٤٢ - ٤١ - ٤٠ - ٣٩

- ٤٠٧ - ٤٢٨ .
 المعتصم ١٨٦ - ٣١٤ - ٣١٥ - ٣١٦ - ٣١٨ - محمد بن سيرين ٨٣ .
 ٣٣٠ - ٣٣١ - ٣٤٥ - ٣٤٦ - ٣٤٧ . محمد بن عبد الله بن طاهر ٣٦٤ - ٣٦٥ - ٣٦٦ -
 المعتصم بالله أحمد = السفاح الثاني ٣٦٩ - ٣٧١ - ٣٦٧ .
 ٣٧٢ . محمد بن عبد الله التميمي ٣٣٢ .
 معن بن زائدة الشيباني ٢٨١ - ٢٨٢ - ٢٨٣ - محمد بن عبد الملك الزيات ٣٦٨ .
 ٢٨٤ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٢٨٧ - ٢٨٩ . محمد بن علي بن الحسين = الباقر ٤٠٥ - ٤٠٦ -
 المغيرة بن شعبة = أكورثقيف ٢١ - ٣٥ - ٣٦ - ٤٠٧ .
 ٣٧ . محمد بن عمر الحنبلي ٣٩٦ .
 ٣٧٢ . محمد بن غسان ٢٦٢ .
 مكتوم ٥٥ . محمد بن المنصور ١٣٣ .
 ١٨٦ - ١٨٧ - ١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠ - منارة ٢٧٥ - ٣٨٤ .
 ١٩٢ . محمد بن النصيب ٣٦٧ - ٣٦٨ .
 المنذر بن المغيرة ٢٩١ . محمد بن واسع ٢٣٨ .
 المهدي ١٣٣ - ١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧ - محمد بن يحيى البرمكي ٢٦١ - ٢٦٢ .
 ١٧٩ - ٢٨٥ - ٢٨٦ - ٤٢٦ - ٤٢٧ . محمد بن يزيد المبرّد ٣٩٢ - ٣٩٣ .
 موسى ٧٣ - ٩٦ - ٢٣٤ . محمد بن يوسف الثقفي ٣٨٩ .
 موسى بن يحيى ٢٩٢ . محمد دياب الأتليدي ٥ - ٧ .
 موسى الرضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن محمد المهدي بالله ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٧ - ٣٦٠ .
 الحسين بن علي بن أبي طالب ١٦٦ . محمد النبي ٧ - ١٥ - ١٩ - ٢٠ - ٢٩ - ٣٦ -
 ١٤٤ . موسى الهادي بن محمد ١٤١ - ١٤٢ - ١٤٣ - ٣٧ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ - ٤٨ - ٥٦ -
 الموكل ٣٣٩ . ٥٩ - ٦٣ - ٦٤ - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ -
 ميسون بنت بحدل ٤٤ . ٨٠ - ٩٤ - ١٠٦ - ١١٠ - ١١٥ -
 ميمونة ٦ - ٢٤٤ - ٢٥٠ - ٢٥٥ . ١٢٢ - ٢١٧ - ٢٢٤ - ٢٥٠ - ٢٥٥ -
 محمد الأمين ١٨٦ - ١٩٣ . ٣٣٦ - ٣٤٠ - ٣٤٦ - ٣٥٥ - ٣٥٦ -
 محمد بن خزيمة ٤٢٨ . ٣٥٧ - ٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦١ -
 محمد بن سليمان الزينبي ١٦٧ - ١٧١ - ٢١٩ - ٣٦٢ - ٣٨٤ - ٣٨٥ - ٣٩٣ - ٣٩٤ -

٢٥٤ - ٢٥٢ - ٢٥٠ - ٢٤٩ - ٢٤٨
٢٦٣ - ٢٦٢ - ٢٦٠ - ٢٥٧ - ٢٥٦
٢٧٤ - ٢٧٣ - ٢٧٢ - ٢٧١ - ٢٦٤
٣١٣ - ٣١٢ - ٣٠٨ - ٢٩٣ - ٢٧٦
٤٢٤ - ٤٢٣ - ٤١٨ - ٣٤٥ - ٣٣٨

هرقل ١٧ - ١٨ - ٢١ .

الهرمزان ١٥ .

هشام بن عبد الملك بن مروان ٩٨ - ١٠٢ -
١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ .
هشام بن غالب = الفرزدق ٩٥ - ١٠٢ - ١٠٤ -
٤٠١ .

هند ٣٨ - ٤١ .

هند بنت النعمان ٧٣ - ٧٤ .

هيثم بن عدي ١١٤ .

هيثم بن علي ١٣٣ .

٣٩٥ - ٣٩٦ - ٣٩٧ - ٤٠١ - ٤٠٢ -

٤٠٣ - ٤٠٥ - ٤٠٦ - ٤١١ - ٤٣٣ -

٤٣٤ - ٤٣٦ - ٤٣٧ .

محيي الدين النووي ٤٠١ - ٤٢٨ .

ن

النجاشي ٣٦ .

نرجس ٣٦٥ - ٣٦٦ - ٣٦٧ .

النسائي ٤٢٩ .

نسيم ٣٣٧ .

نصر الله بن مجلي ٤٠٧ .

نصر بن ذبيان ٣٣ .

نصر بن مقبل ٢٧٢ .

نوح ٤١٤ .

٥

و

الهاشمية ٣٥ .

هارون الرشيد ٦ - ١٤٢ - ١٤٣ - ١٤٤ -

١٤٥ - ١٤٨ - ١٤٩ - ١٥٠ - ١٥١ -

١٥٢ - ١٥٥ - ١٥٦ - ١٥٧ - ١٦٠ -

١٦١ - ١٦٢ - ١٦٣ - ١٦٤ - ١٦٦ -

١٦٧ - ١٧٢ - ١٧٣ - ١٧٩ - ١٨٣ -

١٨٥ - ١٨٦ - ١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ -

١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٧ - ٢٠٠ -

٢٠٩ - ٢١٠ - ٢١١ - ٢١٢ - ٢١٥ -

٢١٦ - ٢١٧ - ٢١٩ - ٢٣٧ - ٢٣٨ -

٢٣٩ - ٢٤١ - ٢٤٤ - ٢٤٥ - ٢٤٧ -

الواثق بالله ٣٥٤ - ٣٥٥ - ٣٥٧ - ٣٥٨ -

٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦٢ - ٣٩٢ - ٣٩٣ .

الواقدي ٣٢٤ .

الوليد بن عبد الملك بن مروان ٨١ - ٣٨٩ -

٤٠٣ - ٤٠٧ .

الوليد بن عقبة ابن أبي معيط ٣٥ - ٣٧ .

الوليد بن هشام ٩٨ - ١٠٠ .

الوليد بن يزيد ١٦١ .

ي

٤١٧ - ٤١٨ .

يحيى بن سلام الأبرش ٢٦٣ .

يزيد بن عبد الملك ٣٨٩ - ٣٩١ - ٤٢٢ -

٤٢٣ .

يعرب بن قحطان ٣٩ .

يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ٣٧٢ - ٣٧٣ .

يوسف الثقفي ٦٥ - ٢٣٤ - ٣٢٥ - ٣٢٦ -

٣٤٧ .

يونس الكاتب ٩٨ - ١٠٠ - ١٠١ .

ياجوج ٤٣٠ .

يحيى بن أكرم ٢٤٤ - ٣١٠ - ٣١١ - ٣١١ -

٣١٢ - ٣٢١ - ٣٢٢ - ٣٢٣ - ٣٣٣ -

٣٣٤ - ٣٣٥ - ٣٣٦ .

يحيى بن خالد البرمكي ٢٠٤ - ٢١٠ - ٢٥٥ -

٢٥٦ - ٢٥٩ - ٢٦٠ - ٢٦١ - ٢٦٢ -

٢٦٣ - ٢٦٨ - ٢٩٠ - ٢٩١ - ٢٩٢ -

فهرس الأماكن

أ

٣٤٠ - ٣٣٩ - ٣١٩ - ٣١٧

٤١٠ - ٣٦٤ - ٣٤٧

بلغ ٢٨٠ - ٢٣٧

الأندلس ٣٧٣

أذربيجان ٩٢

أرمينية ٩٢

أسوان ٢٨٠

أصبهان ٢٨٠

ج

جلق ٢٠

الجمان ٢٠

ب

ح

بلر ٣٦

بركة الحبش ٤١٦

البصرة ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥١ - ١٣٨ - الحجاز ٦١ - ٦٣ - ٦٤ - ١٠٧ - ٢٤١

الحرمين الشريفين ٦٣ - ٦٤ - ١٧٠ - ١٦٩ - ١٦٧ - ١٥٢

حطّين ٣٧٦ - ٢٧٨ - ٢٣٠ - ٢٢٧ - ٢١٩

الخيرة ١١٢ - ٢٨١ - ٣٣٩ - ٣٩٢ - ٣٩٣

بغداد ١٣٨ - ١٤٩ - ١٩٢ - ١٩٦

١٩٧ - ٢١٧ - ٢١٩ - ٢٢١

٢٢٧ - ٢٢٧ - ٢٥٥ - ١٣٦

٢٧٨ - ٢٨٥ - ٢٩١ - ٢٩٦ - خراسان ٢٤٨ - ٢٤٩ - ٢٥٢ - ٢٥٣

٢٩٨ - ٣٠٠ - ٣٠٢ - ٣١٤ - ٢٥٥ - ٢٨٠

خ

ش

د

الدجلة ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - الشام ٩ - ١٧ - ٤٤ - ٦٣ - ٧٥ - ٨١ -
 - ٢٠٨ - ٢١٦ - ٢١٩ - ٢٤٦ - ٩٨ - ١٠٢ - ١٠٧ - ١٢٩ - ٢٨٧ -
 . ٢٨٠ - ٢٥١ . ٣٧٤ - ٣٥٧

ص

دمشق ٢٠ - ٣٠ - ٨١ - ٩٩ - ١٨٦ -
 - ١٨٧ - ١٨٩ - ٢٩١ - ٢٩٦ -
 - ٢٩٧ - ٢٩٩ - ٣٠٠ - ٣٠١ -
 - ٣٠٢ - ٣٧٦ - ٣٧٧ - ٣٨٩ - الصين ١٢١ .
 . ٣٩١

ط

دمياط ٢٨٠ .
 دير العاقول ١٣٨ .
 الطائف ١٠٨ .
 طليطلة ٣٧٢ .

ر

ع

الرقّة ١٥٥ - ١٦٠ - ٢٧٢ .
 الرملة ٩١ .
 الريّ ٣٢٤ .
 العراق ٦٤ - ٦٥ - ٧٢ - ٧٣ - ٢٦٥ -
 . ٣٩٢ - ٣٩١ - ٣٣٨ .
 عسقلان ٢٨٠ .
 عكا ٣٧٤ - ٣٧٦ .
 عمان ١٦٩ .
 زمزم ١١٥ .

ز

غ

س

السماءة ٥٨ - ٥٩ .
 السودان ٢٥٤ - ٢٨٠ .
 غزّة ٢٨٠ .
 الغوطة ٨٥ - ١٨٩ .

مصر ٥ - ١٦١ - ٢٣٩ - ٣٣٨ - ٤٠٣ -

. ٤٣٩ - ٤٠٤

. المصيصة ٣٥٦٠

مضر ٤٠ - ١١٤ - ٣٠٩ - ٣١٠ .

. معان ٢٠

. المعرة ٧٣ - ٧٤

. المغرب ٣٧٢

. مكة ١٦٢ - ٤٠٧ - ٤١٧ - ٤٣٤ .

. المنية ٥ - ٦

ف

. فارس ٦ - ١٦

. الفرات ٢٨٠

. فزارة ١٩

. فلسطين ٨٩

ق

. القاهرة ٥ - ٣٧٤ - ٤٣٩

. القدس ٤٣٤

. قريش ٣٦ - ٣٨ - ١٠٢ - ١٠٧ - ١١٠ - نهر بردى ٢٠

. ١٤٤ . النهوان ٢٤٨ - ٢٥٢

. القسطنطينية ١٧ - ٢١ . نهر البريص ٢٠

. قضاة ٢٦٤ - ٢٦٩ - ٢٧٠ - ٢٨٢

هـ

لـ

. الهند ٦ - ٢٨٠

. كنانة ٣١٠

. الكوفة ٢١ - ١١٢ - ١٢٤ - ١٨٦ - ١٩٠ - ي

. ٢٦٢ - ٢٨٠ - ٢٨٥ - ٣٠٩

. اليرموك ٢٠

. ٣١٣ - ٣١٧ - ٣٨٩ - ٣٩٠

. الجامة ٢٣ - ١٠٩

. اليمن ٣٨ - ٤٠ - ١١٤ - ٢٨٦ - ٣٩٤

. ٤٣١

م

. المدينة ٩ - ١٠٨

. المربد ١٦٧ - ١٧٠ - ١٧١

فهرس الموضوعات

الصفحة	
٥	المقدمة
٧	مقدمة المؤلف
٩	عمر والعجوز المدينية
١١	عمر والشباب القاتل وأبو ذر
١٥	عمر والهرمزان
١٧	خبر جبلة بن الأيهم لما هرب من عمر إلى هرقل وتنصر
١٧	جبلة بن الأيهم وتنصره
٢١	القوي الفاجر
٢٢	أجبن وأحيل وأشجع من لي
٢٨	يقتلع ذنب البعير
٢٩	عبد الله بن رواحة وجاريته
٣٠	أول دولة بني أمية
٣٠	معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه
٣٥	الأجوبة الهاشمية
٣٧	معاوية والحسن
٣٨	معاوية والطرماح بن الحكم
٤١	معاوية والأحنف بن قيس
٤١	معاوية وسودة الأسدية
٤٤	معاوية وميسون الكلبيّة
٤٤	ملك فارس واليوم الواعظ له
٤٧	العاشق ذو المروءة
٥١	جعفر بن سليمان والعاشقان
٥٣	في أيام دولة عبد الملك بن مروان

الصفحة	
٥٦	شجرة العروسين
٦١	العاشق الكجوم
٦٣	تولية الحجاج للعراق
٦٥	كيف ولد الحجاج
٦٦	الحجاج والأعرابي
٦٦	الحجاج والفتى المحدث
٧٠	الأعرابي وحلوى الحجاج
٧١	علّموا أولادكم الأدب
٧٢	الحجاج والأسرى
٧٢	الحجاج والمرأة الحرورية
٧٣	الحجاج وهند بنت النعمان
٧٥	الحجاج وقتله لسعيد بن جبير
٨١	خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان
٨٢	خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان
٨٢	صفات سليمان بن عبد الملك
٨٣	سليمان والدّلفاء
٨٧	جابر عثرات الكرام
٩٣	خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
٩٣	عمر والشعراء
٩٨	خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان
٩٨	الوليد بن هشام ويونس الكاتب والجارية
١٠٢	هشام وزين العابدين والفرزدق
١٠٤	هشام والغلام الفصيح
١٠٧	عروة بن أذينة وهشام بن عبد الملك
١٠٨	ابتداء الدولة العباسية
١١١	أبو دلامة والسفّاح
١١٢	راعي الدّم

الصفحة	
١١٤	مفاخرة اليمَن ومُضر
١١٨	خلافة أبي جعفر المنصور
١٢٠	حاج يعظ المنصور
١٢٣	القاضي ابن أبي ليلى والمنصور
١٢٧	الأمير الأموي وملك الثوبة
١٢٩	بليتان ، المنصور والطاعون
١٣٠	ابن هرمة والخمر
١٣٠	الرجل الثبت الجنان
١٣٣	خلافة المهدي
١٣٣	الرؤيا الصالحة
١٣٦	المهدي والأعرابي
١٣٧	أبو نواس وجارية بنت المهدي
١٣٨	الشاعر المجنون
١٤١	خلافة موسى الهادي بن محمد
١٤١	الهادي والخارجي
١٤٢	الهادي وحبّه لغادرة
١٤٤	خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدي
١٤٤	هارون والأعرابي
١٤٥	ليلة عظيمة
١٤٥	الرشيد والمستقيمة
١٤٨	الضيف الطارق
١٤٩	هارون والجارية السكرى
١٥٠	الرشيد وجارية الخيزران
١٥٢	أجود أخبار النساء
١٥٥	الأصمعي والجارية
١٥٧	إبراهيم الموصلي وإبليس
١٦٠	الرشيد وإسماعيل بن صالح

الصفحة

١٦٢	أعرابي يزاحم الرشيد
١٦٧	الحسين الخليل والجارية العاشقة
١٧٢	جميل والفتى العنري وحبيته
١٧٩	إسحاق الموصلبي وإبليس
١٨٣	إبليس يزور أبا نواس
١٨٤	إبليس والشعراء
١٨٥	الرشيد وأبو نواس وأبو طوق
١٨٦	الرشيد والرجل الأموي
١٩٢	الرشيد والخليفة الثاني الكاذب
٢١١	الرشيد وجارية جعفر
٢١٤	هجرتك وزررتك
٢١٤	المجنون العاقل
٢١٥	الست بدور والأمير عمرو
٢٣٧	من هم البرامكة ؟
٢٣٧	منزلة جعفر عند الرشيد
٢٣٩	الفتى العاشق وجعفر
٢٤٢	الوزير أبو عامر والملك الناصر والغلام
٢٤٤	سبب قتل البرامكة وما وقع لهم مع الرشيد
٢٥٩	أحسن ما رأى جعفر
٢٥٩	أعظم ما مرَّ به
٢٦٠	موت يحيى البرمكي
٢٦١	مدح البرامكة
٢٦١	رأي الموصلبي بالبرامكة
٢٦٢	منتهى الكرم للبرامكة
٢٦٢	فقر البرامكة وذللهم
٢٦٣	من أقوال البرامكة
٢٦٣	الرشيد يبكي على البرامكة

الصفحة	
٢٧١	الرشيد وذقن أبي نواس
٢٧٢	يضرب الشاة الحدّ
٢٧٣	الرشيد يأمر بقتل أبي نواس
٢٧٥	تغفر ذنوبه بأبيات
٢٧٦	حكاية العجمي والكردى وما جرى بينهما على يد القاضي بسبب الجواب
٢٨١	معن بن زائدة الشيباني
٢٩٠	خلافة المأمون بن هارون الرشيد واسمه عبد الله
٢٩٤	المأمون والورد
٢٩٦	من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
٣٠٢	المأمون وزنبيل بوران
٣٠٨	المأمون وجارية أبيه
٣٠٩	المأمون والفتاة العربية
٣١٠	أخلاق المأمون
٣١١	حلم المأمون
٣١٣	الطفيلي الأديب والمأمون
٣١٩	رقعة قلب المأمون
٣٢٠	المأمون ونذير الشؤم
٣٢١	المأمون ومدّعي النبوة
٣٢٢	أبو نواس والغلام الجميل والقاضي
٣٢٣	المأمون ومحمى بن أكرم
٣٢٣	سليب العقل لا الدين
٣٢٤	إبراهيم بن المهدي والمأمون
٣٣٢	صيد الجوّاري
٣٣٧	حيل الجوّاري
٣٣٧	المأمون وزبيدة أم الأمين
٣٣٨	المأمون والشاعر
٣٣٩	إبراهيم بن المهدي وصاحبة المعصم

الصفحة	
٣٤٥	ذكر خلافة إبراهيم المعتصم بن هارون الرشيد
٣٤٥	المعتصم بن جميل ، من لطائف الحكايات
٣٤٧	مخارق المغني والجارية الحسناء
٣٥٠	حكاية غريبة
٣٥٤	خلافة أمير المؤمنين الواثق بالله تعالى
٣٦٠	الضب الناطق
٣٦٢	ابن آدم
٣٦٤	خلافة المتوكل على الله تعالى
٣٦٧	يعفو عن الرأس والذنب
٣٦٨	صوت من السجن
٣٦٩	خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله أحمد
٣٧٢	صاحب المغرب وصاحب طليطلة
٣٧٤	الصعيدى والفرنجية
٣٧٨	إن من البيان لسحراً
٣٨٠	هذه القصيدة الزينية
٣٨٣	الخوارج كلاب النار
٣٨٤	سارق الحمل
٣٨٦	قصيدة لأمير المؤمنين الراضي بالله
٣٨٩	جاريتان برواية شعر
٣٩٢	جارية ثمن إعراب بيت
٣٩٣	الاسم الأعظم
٣٩٤	فائدة
٣٩٦	فائدة
٣٩٧	بهرام جور والرمابة
٣٩٨	حكاية في القطا
٣٩٩	يا جامع الناس
٤٠٠	الملك والمرأة العفيفة

الصفحة	
٤٠١	فائدة
٤٠٢	فائدة
٤٠٣	دعاء
٤٠٣	سك النقود في الإسلام
٤٠٧	منام صادق
٤٠٩	الذكاء والفهم
٤١٠	أبو حنيفة وجاره الإسكافي
٤١١	ذواء للصداع
٤١٢	فائدة
٤١٤	حكاية الهامة
٤١٥	فائدة
٤١٦	الحاكم بأمر الله وصاحب البستان
٤١٧	سقاء البرامكة
٤٢٠	إسحاق الموصلي يتطفل
٤٢٢	يزيد والأحرص بن جعفر
٤٢٣	الرشيد في منزل إبراهيم الموصلي
٤٢٥	الفخ والعصفور
٤٢٦	إحدى النصائح
٤٢٦	ابن الحياط والمهدي
٤٢٨	الإمام أحمد بن حنبل ومناقبه رضي الله تعالى عنه
٤٢٩	السكران والجلاد
٤٣١	من كلام الشافعي رضي الله عنه
٤٣١	رياض نجد
٤٣٣	دار الحبيب
٤٣٦	أنت ومالك لأبيك
٤٣٧	الأصمعي في بلدة خراب
٤٣٩	عدل ابن طولون

